أحمد أوميت

AHMET ÜMIT

باب الأسرار

Bab-ı Esrar

رواية

THAQAFA ثقافة
للنشر والتوزيع ذ.م.م
Publishing & Distribution L.L.C.

باب الأسرار

Bab-ı Esrar

رواية

أحمد أوميت

AHMET ÜMIT

ترجمة

أفنان سعد الدين

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة

THAQAFA ثقافة
للنشر والتوزيع ذ.م.م.
Publishing & Distribution L.L.C.
الإمارات U.A.E.

بسم الله الرحمن الرحيم

4-0698-02-614-978 ISBN

يتض من هذا الكتاب ترجمة النسخة التركية

Esrar Bab-ı

نشر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة والسياحة في الجمهورية التركية ضمن مشروع

TEDA by sponsered is Translation

Bakanligi Turizm ve Kultur . C . T

Mudurlugu Genel Yayimlar ve Kutuphaneler

ıŞ Say Eski) 4 : No ı Bulvar Cumhuriyet Mahallesi a Ş Pa Fevzi

(ı Binas tay

TURKEY / ANKARA / Ulus 06030

tedaproject . www : Web - tr . gov . kulturturizm @ teda : mail - e

com .

حقوق الترجمة العربية مرخ ّص بها قانوني ًا

بمقتضى الاتفاق الخطي الموق ّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون ، ش . م . ل .

و Kalem Agency, Ensiz Sokak No. 2-3 Beyoglu Tunel I stanbul, Turkey

KALEM / T I M Ü AHMET © Copyright

. S . Inc , Publishers Scientific Arab by 2013 © Copyright Arabic

L . A

الطبعة الأولى

1434 هـ ـ 2013 م

جميع الحقوق محفوظة للناشر

THAQAFA ثقافة
للنشر والتوزيع ذ.م.م.
Publishing & Distribution L.L.C.
الإمارات
U.A.E.
أبوظبي هاتف: (+971-2) 04 63454 فاكس: (+971-2) 6345407
دبي هاتف: (+971-4) 2651623 فاكس: (+971-4) 2653661
بيروت هاتف: (+961-1) 786233 فاكس: (+961 -1) 786230
يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية
أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة
أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

.

ليس عالمنا هذا إلاّ حلماً داخل حلم.

مثل هندي

هناك دماء على الحجر، وبدر يشع نوره في كبد السماء، ورائحة تراب عابقة في الحديقة. من بعيد، تَلوح أشكال الأشجار وهي تتماوج في تلك البرودة المقلقة. إنه أوان تبرعم ورود الشتاء، كما أن زهور النرجس تبلغ أوج تفتحها أيضاً. يظهر سبعة رجال يحثون الخطى في الحديقة؛ لهم قلوب أعماها الغضب، وعقول هيمنت عليها الكراهية، وبأيديهم سبع سكاكين مشحوذة تلمع أنصالها الحادة في ضوء القمر. يطأ أولئك الرجال تلك الفسحة بخطى جريئة غير هيابة، ويقطعون الحديقة الساكنة؛ متجهين نحو الباب الخشبي الذي نبشت إزاءه جثة الضحية.

هناك دماء على الحجر، وبرودة غريبة تسري في جو الحديقة. يطل البدر من علياء السماء شاهداً على هذه الجريمة من دون ارتباك أو وجل أو فزع، ويختلس النظر من بين الأوراق الميتة لأشجار السرو الباسقة، فيرى أصغر الرجال السبعة سناً وهو ينقر على الباب، ويسمع أكبرهم وهو ينادي بأعلى صوته مطالباً الشخص المختبئ بالداخل بالخروج. وحين يستجيب ذلك الشخص للنداء ويخرج من غرفته، يُقحم الرجال السبعة من دون سابق إنذار وبضربة رجل واحد سكاكينهم الحاقدة في صدره.

هناك دماء على الحجر، وكراهية تضمرها قلوب الرجال، وسكينة عميقة تكتنف القمر. يصيح طفل رضيع في مكان ما من بعيد، ويتلوى طفل آخر في أحد البيوت الأخرى، بينما تغفو صبية ناعمة في نوم عميق، وجسدها الغض يتعفن ببطء تحت التراب. وفي اللحظة التي يقحم فيها أصغر الرجال سنًّا نصل سكينه في صدر الرجل، تتلوى الفتاة في لحدها، وتنفرج شفتاها عن ابتسامة لا يقوى الموت على سلبها قوتها، وينطلق من أعماقها نفس عميق ظل حتى هذه اللحظة محبوساً في حنجرتها الصغيرة، وكأنه نسيم هواء عليل أو تنهيدة راحة.

هناك دماء على الحجر، وسبع سكاكين خلفت كل واحدة منها جرحاً عميقاً نازفاً انهمر منه سيل من الدماء. تسري سبع رعشات في جسد الرجل المغدور، وسبع رعشات أخرى في جسد كل واحد من الرجال السبعة وهو يقحم سكينه في جسد ضحيته، ولكن جسد الصبية تحت التراب لم يعد يرتعش بعد الآن. فبعد أن سكن جسدها الغض الصغير في لحده، ساد المكان فوقها سكون مطبق، وكأن تلك آخر لحظة في هذا العالم، وكأن كل المخلوقات الحية والميتة قد التزمت الصمت إلى الأبد. فسكنت تلك الدماء التي تخضب الحجر، وسكن القمر الذي يلقي عليه بنوره الخافت، وبقيت أشجار السرو الشاهقة وبراعم الشتاء وزهور النرجس التي وصلت إلى أوج

تفتحها والحديقة الفواحة برائحة التراب والأحياء والموتى كلّها صامتة كصمت القبور، وأسيرة لتلك الدماء التي تخضب ذلك الحجر...

1

"... من البادية الممتدة أمامي
لاحت مدينة في الأفق"

لم يبقَ على موعد هبوط الطائرة سوى نصف ساعة، ولكنني لم أشعر أن ذلك كافٍ للتخفيف من حدة قلقي. وأدركت كل الإدراك أيضاً أن هذا التشاؤم لن يرخي قبضته عني فجأة عندما تهبط الطائرة. لم أحضر إلى هنا بمحض إرادتي، بل بناء على طلب من مديري سايمون الذي يظن نفسه أبرع مدير شركة في العالم، وحجته أنني أجيد التحدث باللغة التركية، وعلى دراية جيدة بطباع الأتراك وإلى ما هنالك، وأن القضية على قدر كبير من الأهمية لدرجة أنه لا يمكن تكليف أي شخص كان بتوليها. إنني أتحدث هنا عن بوليصة تأمين تناهز قيمتها ثلاثة ملايين جنيه استرليني لا أقل. ومع ذلك، فأنا الآن ألعن معرفتي بالأتراك، وأشعر بالندم لأنني زرت تركيا في الماضي. بدأت أتنهد بغضب، بالرغم من إدراكي التام أن التنهّد لن يصل بي إلى أي نتيجة. حاولت أن أقنع نفسي بأنني على الأقل لست غريبة في هذه البلاد. فأنا لم أكن أعرف شيئاً عن البرازيل عندما ذهبت إلى هناك قبل ستة أشهر، ومع ذلك تدبرت أمري. توجب عليّ أن أتوقف عن الإكثار من التفكير، وأن أنهمك بأداء عملي. نظرت إلى الأرقام الظاهرة على شاشة الكمبيوتر المحمول الذي أضعه على ركبتي، فشعرت بها تنظر إليّ بدورها وتحثني على البدء بالعمل. رحت أتأمل الأرقام في بوليصة التأمين، وأحاول أن أكتشف المبلغ الذي يمكن لشركتي أن تسدده تعويضاً عن العطل والضرر الناجمين عن الحريق الذي اندلع في فندق ياقوت. ومع ذلك، لم تمض ثانية واحدة على بدء حساباتي حتى راح ذهني يتساءل من جديد. لم يعد ثمة طائل من كل ما أفعله. فقد أحسست بأفكاري مشتتة في أنحاء المكان، وعجزت عن مواصلة العمل، لذا أغلقت الكمبيوتر المحمول، وأعدته إلى حقيبته. وبينما كنت أنحني لأضعه في مكانه تحت المقعد، خطرت ببالي فكرة مفاجئة. ألا يمكن لوضعيتي هذه أن تؤذي الجنين؟ ولكن، يا لها من فكرة سخيفة بالفعل! إذ لم يبلغ جنيني من العمر شهرين بعد. وعلى أي حال، لقد عقدت العزم على بذل أقصى عناية ممكنة بطفلي حالما أعود إلى لندن، لذا اعتدلت في جلستي سريعاً خوفاً من تعريض طفلي للأذى. فالتقت عيناي عيني المرأة الجالسة بجانبي. بدت هذه المرأة متلهفة

لتجاذب أطراف الحديث معي منذ اللحظة التي صعدنا فيها إلى الطائرة. فراحت تطرح عليّ أسئلة مثل: من أين أتيت؟ إلى أين أنت متجهة؟ ما اسمك؟ ولكنني لم أجد نفسي في مزاج يسمح لي بالثرثرة معها أو حتى بمجرد الابتسام في وجهها. فقمت بمجرد الإشاحة بوجهي والنظر من النافذة. رأيت السماء صافية، والشمس الحمراء تميل نحو الغروب في الأفق البعيد. ولاحظت تجمعات من الغيوم الرقيقة تحت الطائرة بآلاف الأمتار؛ تمتد فوق رقعة شاسعة من الأرض البنية الداكنة. شكّلت تلك الرقعة امتداداً هائلاً ومسطحاً وخالياً تماماً من الأشجار والأنهار. في زيارتي الأولى التي أتيت بها إلى هنا، قدمت على متن الحافلة برفقة والدي. ترى، هل مضت خمس وعشرون سنة على ذلك أم أكثر؟ في ذلك الوقت من الماضي، لم تكن هناك رحلات جوية إلى مدينة قونية، لذا هبطنا في العاصمة أنقرة. وبعد ذلك، اضطررنا لركوب الحافلة لمدة أربع ساعات عبر هذه البيداء القاحلة مترامية الأطراف التي لا يبدو أن لها نهاية. وفي وسط السهل البني الممتد، ومن دون أي مظهر يدل على وجود قمة جبل أو واد، ظهرت لنا معجزة من المجهول: إنها بحيرة بيضاء ناصعة كبياض الثلج.

سألت والدي: "هل تعيش أي أسماك في تلك البحيرة يا أبي؟".

فنظر بعينيه السوداوين الفاحمتين إلى البحيرة البيضاء النقية ورد على سؤالي قائلاً: "كلا، لا أعتقد ذلك يا ابنتي. لا توجد فيها حياة من أي نوع. ومع ذلك، فهي تحوي شيئاً ضرورياً جداً للحياة: إنه الملح".

ترى، هل كنت في التاسعة من عمري آنذاك؟ أم أصغر من ذلك؟ لم تكن أمي معنا، بل كنت أنا وأبي وحدنا. كاد الضجر يقتلني بعد أن أمضينا عدة ساعات مسافرين على طول ذلك السهل المنبسط.

فقلت: "متى سنصل إلى هناك يا أبي؟".

ابتسم والدي وغطى عيني بيده، ثم قال: "عدي إلى الرقم 12 بصمت". فعلت ما طلبه مني. وعندما رفع يده عن عيني، وجدت نفسي قد وصلت إلى نهاية الطريق، وظهرت أمامي مدينة ترتفع أبنيتها من وسط السهل.

انتابتني دهشة عارمة، فقلت لأبي وأنا أحدق إليه برهبة: "هل أنت لاعب خفة يا أبي؟".

طبع والدي قبلة على جبيني وقال: "كلا، بل مجرد رجل ينتمي لهذه البلاد يا ابنتي".

بعد أن هجرَنا والدي، لم تعد أي فكرة تخطر ببالي عنه تفعل شيئاً باستثناء إضافتها المزيد من القلق إلى حياتي. ومع ذلك، فقد ظل يحظى في

تلك الآونة بنفوذ غريب عليّ. أتذكره الآن رجلاً نحيلاً ومتوسط الطول، له عينان واسعتان كحبتي عنب أسود كبيرتين، وشعر بني قصير فاتح، وجبين ضيق، وحاجبان رفيعان، وأنف مقوس رفيع، ولحية بلون النحاس المشوب ببعض الفضة. لطالما لاحت في وجهه الطويل والنحيل تلك السوداوية المزمنة التي لم تفارقه طوال حياته. ورغم أن السوداوية ليست صفة تناسب معظم الناس إلا أنها أضافت نوعاً ما المزيد من الجاذبية إلى والدي وجعلت والدتي متيمة به. فكانت تحتضنه بكل حب وتقول إنها لم تقابل رجلاً آخر في العالم تلائمه صفة السوداوية والكآبة كما تلائمان أبي. لا بد أن كلامها أحرجه؛ بالرغم من أنني لم أستطع أن أتذكر حدوث هذا بالتحديد. ومع ذلك، لم أقوَ قط على نسيان وجهه النحيف الشاحب والسوداوية التي تفيض من عينيه الداكنتين. سئم والدي منا، وخرج من حياتنا متخلياً عنا؛ رحل هكذا بكل بساطة من دون أن يقدم أي مبرر. وهكذا، لم أعد أريد أن أتذكره بعد الآن. أبعدت نظري عن النافذة لأطرد ذكراه عني ونظرت إلى الداخل، فوجدت عيني تلك المرأة الفضولية لا تزالان تحدقان إليّ. شعرت أنني لا أزال محرجة في هذا الوقت. لذا، بدلاً من أن أشيح بنظري هذه المرة إلى النافذة، أغمضت عيني ببساطة وركّزت على صوت محركات الطائرة. ليتني قادرة فقط على أن أتحرر من ذلك القلق. حاولت أن أصفي ذهني من كل تلك الأفكار، ومن التفكير في الجنين الذي ينمو في أحشائي مع كل ثانية تمر، ووالدي ومدينته هذه التي أتيت إليها رغماً عن إرادتي. أردت أن أنأى بنفسي عن الماضي وعن هذا اليوم وعن المستقبل، وأن أتوه بسلام لبعض الوقت في ذلك الظلام الدامس؛ في أعماق النوم، وأطلق جسدي وعقلي وقلبي في ذلك الفضاء الرحب.

"اسمها كارين وليس كيميا"
حدث في تلك اللحظة أن سمعت شخصاً يناديني بصوت دافئ وناعم وحنون. في البداية، لم أستطع أن أفهم ما قاله، لذا حاولت أن أحجب كل الأصوات الأخرى من حولي لأتبينه بوضوح. بدا أشبه بدمدمة خافتة أو توبيخ ودود مشوب بالعاطفة، ولكنني سمعته بوضوح كاف لا يدع أي مجال للشك.
"كيميا... كيميا...".
أجفلت من الصوت، ففتحت عيني وألقيت نظرة خاطفة على المرأة الجالسة بجانبي، ولكنها لم تعد تعيرني أي اهتمام بعد الآن، بل راحت تنظر إلى الشاشة فوقنا محاولة أن تعرف موعد الهبوط. التفت حولي بارتباك، ووجدت المقاعد خلفي شاغرة. فنظرت إلى الأمام مجدداً، ورأيت شابة جالسة بجوار صديقها. لم يكن هناك أحد حولي ليناديني باسمي. لا بد أن حلماً ما راودني. ولكن، متى استغرقت بالنوم؟ لا بد أن النوم غلبني للحظات عندما أغمضت عيني.
ناداني الصوت مجدداً: "كيميا". ولكن الصوت أتى هذه المرة من أعماق ذكرياتي. لم يناديني أحد بهذا الاسم منذ أمد بعيد، وبالتحديد منذ أن هجرنا والدي. كان الشخصان الوحيدان اللذان اعتادا مناداتي بذلك الاسم هما والدي وشاه نسيم؛ صديق والدي وتوأم روحه والرجل الذي انتزعه من بيننا في نهاية المطاف. تذكرت جسده مفتول العضلات، وأصابعه القوية، ووجهه الطويل، وعينيه الذهبيتين اللتين ترنوان إلى المرء بعاطفة لا حدّ لها؛ هذا هو على الأقل كل ما تذكرته عن ذلك الرجل. فإن كانت هناك أي ذكريات سلبية متعلقة به، فمن المؤكد أنها غابت عن ذاكرتي، هذا ما لم أذكر بالطبع انتزاعه أبي من بيننا.
من ناحية أخرى، اعتادت أمي أن تطلق عليه اسم "الشيطان ذي العينين الذهبيتين" إن ثار غضبها منه. ومع ذلك، بعد أن مضى بعض الوقت وتضاءلت حدة الألم في قلبها، باتت تتحدث عنه بلهجة أكثر لطفاً. فقد قالت ذات يوم: "ربما كان طالعهما أسعد من طالعنا نحن. نعم، إنهما أنانيان، ولكنهما أوفر حظاً منا أيضاً؛ ربما لأن لديهما أهدافاً لا يمانعان حتى بالتخلي عن أحبائهما في سبيل الوصول إليها". وبالرغم من أنني لم أعِ في تلك الآونة ما قصدته أمي بتلك الأهداف، إلا أنني أدركت أنها أهداف تتعلق بالدين وبنوع من الراحة الروحية. فممّا سمعته من والدي، ومما

قرأته من الكتب الصوفية التي أعطاني إياها، ومن القصص التي تبدو كل واحدة منها أكثر حيوية من الأخرى، ومن الأمثلة والصلوات التي محا الزمن معظمها من ذاكرتي... نعم، لا بد أن كل ذلك يتعلق بعقيدته الدينية.
خلال سنوات مراهقتي، حاولت أن أفهم والدي الذي لم تغب صورة وجهه من ذاكرتي، وأن أفهم صديقه شاه نسيم ذا العينين الذهبيتين. أردت التوصل إلى سبب ومبرر يدفعان أباً يعشق ابنته بجنون لأن يشد رحاله ويغادر بلا رجعة، ولكنني لم أعثر على أي سبب واضح يدفعه لذلك.
وبالرغم من أن أمي ربما سامحته، إلاّ أنني لم أجد سبباً وجيهاً لمسامحته من وجهة نظري أنا. ولهذا، لم أعد أستخدم اسم كيميا الذي أطلقه عليّ.
وبالرغم من أنه مكتوب في شهادة ميلادي، فقد حاولت أن أنسى ذلك الاسم كما حاولت أن أنساه هو. منذ البداية، لم تعتد أمي قط على اسم كيميا. وحتى في تلك الأيام السعيدة التي عاشتها مع والدي وهي لا تزال مسحورة بالثقافة الشرقية، فهي لم تدعني باسم كيميا ولو لمرة واحدة؛ لأنها لطالما اعتبرت أن اسمي هو كارين. ومع ذلك، لم تبد أي ممانعة عندما كان والدي يناديني بذلك الاسم، كما أنها عاتبت شاه نسيم على فعله ذلك مرة واحدة لا غير.
حدث ذلك قبل عامين من هجر والدي لنا؛ عندما اعتكف برفقة شاه نسيم كعادتهما في إحدى الغرف لساعات. وفجأة، خرج شاه نسيم ووقف عند الباب وراح يناديني قائلاً: "كيميا... هلا تحضرين لي كوباً من الماء باركك الله".
لم تنزعج أمي من طلبه الماء، وإنما من الساعات الطويلة التي قضاها معتكفاً مع زوجها في غرفة واحدة، فانفجرت في وجهه وصاحت به قائلة: "إن اسمها كارين وليس كيميا!".
ونهضت بنفسها، وأحضرت إبريقاً ممتلئاً حتى حافته بالماء وأخذته إلى باب غرفتهما، ولكن شاه نسيم أخذ الإبريق من يدها من دون أن يبدو عليه أقل مظهر من مظاهر الانزعاج، ثم قال لها بفتور: "ليباركك الله!".
تملكت والدتي نوبة من الاهتياج بسبب ذلك الرجل الذي لا يسمح لها بدخول غرفة زوجها؛ في بيتها وتحت سقفها، ولكنها كظمت غيظها؛ على الأقل إلى أن توجهت في طريقي إلى المدرسة. وبعد هذه الحادثة، واصلت المشاكل تفاقمها؛ إلى أن بات شاه نسيم غير مرحب به في بيتنا، لهذا السبب ربما هجر والدي البيت. لم أناقش السبب مع أمي قط، لأنه ليس على قدر من الأهمية. ومع ذلك، فالواقع يقول إن والدي هجرنا - أياً

يكن السبب - ليرحل مع ذلك الرجل. منذ ذلك الوقت فصاعداً، لم يعد أحد يدعوني باسم كيميا ولا حتى في أحلامي. والآن، عندما أغمضت عيني للحظة واحدة... أمن المعقول أن يكون هذا حلماً؟ أيمكن أن يكون والدي وشاه نسيم موجودين هنا على متن هذه الطائرة؟ ومع أنني أدركت تمام الإدراك مدى سخافة هذه الفكرة، إلا أنني عجزت عن مقاومة الرغبة بالنهوض عن الكرسي والنظر حولي في الأنحاء. بدأت المرأة الجالسة بجانبي تتأمل بريبة المقاعد المحيطة بنا؛ غير قادرة على فهم تصرفي الغريب. ولكن، لم يكن من الممكن بالطبع العثور على أي منهما هنا.

لم تعد المرأة تقوى على إخفاء فضولها بعد الآن، فسألتني قائلة: "هل كل شيء على ما يرام؟ آمل ألاّ يكون هناك أي خطب".

فأجبرت نفسي على الابتسام، وقلت: "إنني بخير، ولكنني أبحث عن المضيفة ليس إلا".

فكرت وأنا أعتدل في جلستي أنه يجب عليّ أن أتحلى بالهدوء. فلا بد أن حلماً راودني. فالمسافة الطويلة من لندن إلى إسطنبول، ومنها إلى قونية مباشرة من دون استراحة كفيلة بأن ترهق أياً كان. ومما زاد في إرهاقي أنني بت ليلة ملؤها الأرق والانفعال على الرغم من وجود صديقي نايغل إلى جانبي. ومع ذلك، رحت أُعزّي نفسي بأن رحلتي إلى قونية مجرد رحلة قصيرة لا تتجاوز بضعة أيام على الأكثر، وأنني سأعود إلى لندن بحلول عطلة نهاية الأسبوع. انصرفت أفكاري إلى أمي وإلى نايغل، وجعلني التفكير بلندن أبتسم، وصرف عني استيائي وحزني. حاولت أن أحظى بغفوة لفترة قصيرة قبل أن تهبط الطائرة، ولكنني حالما أغمضت عيني، أجفلت من صوت يرن في أذني، ولكنه لم يكن هذه المرة الصوت نفسه الذي ناداني باسمي، بل صوت المضيفة التي تعلن للجميع:

مسافرينا الأعزاء، نحن نقترب من وجهتنا. نرجو منكم العودة إلى مقاعدكم، وتثبيت أحزمة الأمان، وإعادة المقاعد والصواني إلى وضعيتها المستوية، وتوضيب الأمتعة المحمولة باليد كافة بشكل آمن تحت المقاعد أمامكم استعداداً للهبوط.

"شواهد قبور معممة..."
أخذت أتأمل الناس الذين ينتظرون المسافرين في قاعة الوصول محاولة العثور على عينين تبحثان عني، وعن وجه باسم يحمل صاحبه بطاقة كُتب عليها اسمي، ولكنني بدأت أخشى أن أحداً لم يأتِ لاستقبالي. رأيت المرأة التي كانت جالسة بجانبي في الطائرة تعانق بحنان فتاتين حضرتا لاستقبالها. وحتى إنّ الشاب والفتاة اللذين كانا جالسين أمامي استقبلهما رجل كبير في السن. وفي تلك الأثناء، وقفت وسط المطار بغباء وبحوزتي حقيبتي. والآن، ما الذي يفترض بي أن أفعله؟ لم يكن النظر إلى الأمام والوراء سيفيدني بأي حال من الأحوال، لذا توجهت إلى المخرج وأنا أجر حقيبتي خلفي. وبينما كنت أشق طريقي عبر حشود الناس الذين يجتمع شملهم السعيد مع أحبائهم، سمعت صوتاً خافتاً يناديني بقوله: "سيدة غرينوود... سيدة غرينوود؟".
التفت إلى الوراء، فرأيت رجلاً بديناً يرتدي بذلة رمادية يتقدم نحوي. بدا مقطوع الأنفاس، وقطرات العرق تلمع على جبهته. لا بد أنه قطع الطريق جرياً ليصل إلى المطار في الوقت المحدد. قال لي بلغة إنكليزية ركيكة: "أرجو المعذرة، هل أنت السيدة غرينوود؟".
أزعجني شعور الرجل بالإحراج وأسلوبه المتوتر ولهجته الركيكة، فقلت: "نعم، أنا كارين غرينوود".
وبدلاً من أن يتنفس الصعداء لسماعه اسمي، استحال وجهه أحمر قانياً بلون الدم من فرط الإحراج.
حاول أن يشرح لي بلغته الركيكة: "أعتذر منك لأنني تأخرت. في الواقع، كان أحد الأصدقاء ممن يجيدون اللغة الإنكليزية سيحضر بدلاً مني، ولكن...".
لم أرغب حقاً بالإصغاء إلى هذا الكلام أو النظر إلى هذا الرجل وهو يعصر يديه أمامي بارتباك. فكل ما أردته هو أن أتوجه فوراً إلى فندقي، وآخذ حماماً دافئاً، وآوي إلى فراشي لأستريح من عناء السفر.
قاطعته وأنا أتنهد بانزعاج قائلة: "من فضلك يا سيدي، لا يتوجب عليك أن تجهد نفسك بالتحدث باللغة الإنكليزية من أجلي. فأنا أجيد اللغة التركية".
لمعت عينا الرجل من فرط السعادة، وانفرجت شفتاه الرقيقتان عن ابتسامة عريضة وكأنه صادف أحد أقاربه المقربين.

وتمتم قائلاً: "أحقاً ما تقولينه؟!". واكتسبت ملامح وجهه تعبيراً موحياً بالامتنان، ثم قال: "عظيم. اسمي مينان فيدان؛ مالك وكالة قونية".

عندما شعر بعدم اكتراثي، ظن أنني غاضبة منه وحاول أن يشرح لي مجدداً، فقال: "أعتذر مرة أخرى عن تأخري".

فقاطعته قائلة: "لا بأس بذلك، يا سيد فيدان. كيف يمكننا الخروج من هنا؟".

نظر حوله بانفعال، ثم أشار بيده إلى الباب الموجود في الناحية اليسرى، وقال: "من هنا".

توجهت إلى حيث أشار مينان، وأنا أجر حقيبتي ذات العجلات، فلحق بي على الفور وأمسك بها.

وقال: "من فضلك، دعيني أجرها". رأيت على وجهه تعبير توسل مثيراً للشفقة، فتخليت عن الحقيبة. أضاف وهو يشير إلى الكمبيوتر المحمول: "دعيني أحمل هذا أيضاً".

فأجبته قائلة: "شكراً لك، ولكنني سأحمله بنفسي".

غادرنا المطار، فوجدت أن الشمس التي رافقت الطائرة طوال الرحلة قد اختفت فجأة، وكأنها أنهت مهمتها؛ رغم أن الظلام لم يخيم كلياً بعد. ورأيت ضوءاً فضياً غريباً يخيم على المكان ويحجب البادية بأكملها بيأس ناعم.

عندما زرت هذه المدينة مع والدي قبل سنوات، وجدتها في ذلك اليوم مغمورة بضوء جميل وعذب. دخلنا المدينة ربما في وقت ما بعد الغداء، أو في فترة العصر المتأخر؛ أي قبل مغيب الشمس، فبدت الشوارع وجدران البيوت وزجاج النوافذ وأوراق الشجر ووجوه الناس كلها مغمورة بضوء عسلي وذهبي يشوبه لون كالصدأ. نثر ذلك الضوء الجميل غباره الساطع على كل شيء وقع عليه في أرجاء المكان وأضفى عليه لونه المميز. بالنسبة إلى فتاة أجنبية مثلي نشأت منذ اللحظة التي بدأت فيها تنطق كلماتها الأولى على قصص هذه المدينة التاريخية وأساطيرها وقصصها الخرافية، وجدت تلك اللحظة لا تنسى، وكأنني أشهد معجزة تتحقق أمام عيني. في ذلك اليوم، ذهبنا إلى منزل ضخم مبني من حجارة الآجر لا يبدو شبيهاً بأي من بيوت لندن أو البيوت المكونة من طابقين في أحياء العمال. فقد كان يحوي غرفاً كثيرة ذات أبواب خشبية مزدوجة مزدانة بنقوش معقدة، ونوافذ لها قضبان معدنية ملتوية، وحديقة واسعة مغطاة بالأشجار وبتلك الأضرحة العثمانية التقليدية ذات الشواهد الحجرية المنقوشة والكتابات

العربية النافرة. في البداية، ظننت الشواهد تماثيل، فشرح لي والدي حقيقتها. وبالرغم من أنني حاولت ألاّ أظهر حقيقة رد فعلي، إلا أنني أجفلت من شدة الدهشة. فقد اعتبرت وجود المقبرة في الحديقة أمراً في غاية الغرابة. فتساءلت بصوت مرتفع قائلة: "هل هذه كنيسة من نوع ما؟".

فأجاب والدي بمرح قائلاً: "يمكنك قول هذا، فهي أشبه بدير".

لم أر راهبات في المكان بل رجالاً فقط؛ مما أثار استغرابي. وأخيراً، ظهرت امرأة واحدة، وهي امرأة ضخمة البنية ذات ابتسامة ثابتة لا تبارح وجهها. عرفتني على اسمها فنسيته على الفور، ثم احتضنتني وقبلتني على وجنتي. شممت رائحة أشبه بالفانيليا تفوح منها، ووجدتها رائحة شهية جداً. لا بد أنني كنت جائعة في ذلك الوقت. ومع ذلك، استغربت معانقتها لي من دون أي تحفظ؛ إذ إنها لم تكن من أقاربنا أو أصدقائنا المقربين. ولكن، عندما لاحظت التعبير الهادئ على وجه والدي والفرح في عينيه، التزمت الصمت. فلا بد أن هذا يعني أنه اعتبر تصرف تلك المرأة تصرفاً طبيعياً.

قال مينان: "ها هي سيارتنا!".

أشار الرجل بيده إلى سيارة سوداء من طراز مرسيدس. أم إنني نظرت في الاتجاه الخطأ؟ ولكن كلا، فقد أخذ يحث الخطى متجهاً نحوها مباشرة. بدت لي سيارة من طراز حديث وفخم، فلم أستطع أن أمنع نفسي من التساؤل عن كيفية تمكن رجل مثله من أن يتحمل نفقة سيارة باهظة من هذا النوع. فعلى حدّ علمي، لم تكن لدينا قاعدة زبائن واسعة في قونية. فقد كان أهم زبون لنا هو شركة إيكونيون للسياحة والسفر؛ الشركة التي تملك الفندق الذي تعرض للحريق مؤخراً. صحيحٌ أن قيمة بوليصة التأمين كانت مرتفعة إلى حدٍّ ما، وأنهم لم يتوانوا عن سداد ما عليهم من مستحقات مالية، ولكن لا يزال يبدو من غير الممكن أن يستطيع وكيل تأمين صغير مثل مينان جني ما يكفي من المال لشراء سيارة من هذا النوع، وإلا فعلى أي أساس بنى مديرنا الطموح سايمون شكوكه؟ ترى، هل كانت شركة إيكونيون للسياحة والسفر تحاول أن تسلبنا ثلاثة ملايين جنيه بعد أن اشترت ذمة عميلنا السيد فيدان؟ توقف مينان بانتظاري أمام السيارة من دون أن يدري شيئاً عما يدور بذهني من أفكار، وبحوزته حقيبة أمتعتي. وعندما اقتربت منه، وضع الحقيبة في صندوق السيارة، وفتح لي الباب الخلفي بأدب.

"تفضلي يا سيدة غرينوود".

فقلت: "شكراً لك". جلست على المقعد الخلفي. لم تكن شهامته الزائدة

لتخدعني بأي حال من الأحوال. فقد نلت حصتي العادلة من الكياسة المصطنعة من قبل. إذ يمكن للمرء تمييزها بشكل خاص في الاهتمام المبالغ به، وفي إظهار الاحترام الزائد لخبير التأمين؛ في محاولة لتمرير خدعة ما ومحاولة تشتيت انتباهه لكي يغفل عن أحد التفاصيل المهمة. ولكن، لا يمكن لهذه التصرفات أن تفاجئني الآن.

قبل أن يركب مينان في السيارة، أخذ هاتفه الجوال وراح يتحدث إلى شخص ما وهو يلقي عليّ نظرات خاطفة بين الحين والآخر في أثناء حديثه. تساءلت إن كان يتحدث عني، ولكنني فكرت في أنه من غير المنطقي أن أتصرف بريبة زائدة. إذ ربما يكون الرجل المسكين يجري حديثاً عادياً مع زوجته، لذا تعين عليّ الالتفات لأموري الخاصة وعدم التدخل بشؤون الآخرين.

أعدت تشغيل هاتفي الخليوي أيضاً متسائلة إن كانت أمي قد حاولت أن تتصل بي أم لم تفعل ذلك بعد. فبالرغم من حبها لأهل هذه البلاد، إلا أنها عارضت قدومي إلى هنا. عاودت النظر إلى الهاتف، ووجدت صندوق الرسائل الواردة فارغاً. لم يحاول أحد أن يرسل لي رسالة وأنا في طريقي إلى هنا، لذا لا بد أنني أخطأت في ظني أن الوساوس والهواجس ستتملك أمي خوفاً على سلامتي، ولا بد أنها اطمأنت لقدرتي على تدبر أموري بمفردي. ولكن، ماذا عن نايغل؛ حب حياتي وصديقي منذ ثلاث سنوات ووالد الطفل الذي أحمله في أحشائي؟ لم يرسل لي هو أيضاً أية رسالة نصية. كنت مغرمة بنايغل كما كان هو مغرماً بي. ومع ذلك، لطالما جن جنوني بسبب عدم اكتراثه لأي شيء. ليته لم يكن جذاباً إلى هذا الحد. وماذا عن تينك العينين السوداوين البراقتين وصفي أسنانه البيضاء الناصعة التي تلمع كاللآلئ عندما تنفرج عنها شفتاه الممتلئتان حين يبتسم؟ وماذا عن بشرته السمراء الجذابة؟ بدا مجرد التفكير بنايغل كافياً لتحريك مشاعري من الداخل. وبالرغم من ذلك، من الواضح أنه لم يفكر بي بالطريقة نفسها. إذ لم يبد عليه أنه يكترث أقل اكتراث لسفري إلى هنا. لا بد أنه أدرك أنني بغاية التوتر، فقد قلت له إنني لا أريد القدوم إلى قونية؛ ولا سيما بعد أن اكتشفت أنني حامل. نظرت إلى ساعتي ووجدتها تشير إلى السادسة، فتذكرت أنني قد أعدت ضبطها، وأن الوقت لا يزال مبكراً في لندن، أي إنها لا تتجاوز الرابعة، لذا لا بد أن نايغل يجري عملية في غرفة العمليات في هذه اللحظة، فاسترخيت وهدأت من قلقي. وتذكرت أن لدى أمي ما يشغلها أيضاً؛ إذ اعتادت حضور اجتماع في

مؤسسة دعم مرضى الإيدز كل يوم اثنين في مثل هذا الوقت.
انفتح باب السيارة مقاطعاً أفكاري، وقال مينان بارتباك: "المعذرة لأنني جعلتك تنتظرين. فقد اتصلوا بي من المكتب لأمر هام".
فقلت محاولة ألاّ أبدو مهتمة: "لا مشكلة".
أنّ مينان وهو يحاول أن يقحم جسده البدين بين المقعد والمقود وأغلق الباب، ثم أخذ منديلاً ورقياً من العلبة بجانب علبة ناقل الحركة ومسح العرق على جبينه، وقال: "حسناً، سننطلق الآن!". وعندما أوشك أن يدير مفتاح الإقلاع، توقف ونظر إليّ بارتباك عبر المرآة الخلفية وكأنه يغض النظر عن شيء ما، ثم قال: "إنك مرتاحة هناك، أليس كذلك؟".
"نعم، شكراً لك. يمكننا أن ننطلق".
أخذ مينان نفساً عميقاً، وبعد أن تمتم قائلاً: "بسم الله". شغل محرك السيارة.

"لقد سلمتك الأشياء التي تعود إليك"
شققنا طريقنا عبر المدينة المنبسطة أمامنا، وعلى طول الجادات العريضة التي تحفها الأشجار على كلا الجانبين، ومروراً بأبنية منخفضة ذات حدائق ومساحات مكشوفة تضفي على الإنسان شعوراً بالراحة والسكينة. ليست هذه قونية التي عرفتها في الماضي، فمدينة قونية التي احتفظت بذكريات عنها اتسمت بالبيوت الأثرية الغامضة، والمساجد القديمة، وبضوء الشمس الذي يرشح عبر الأزقة الضيقة التي تؤدي إلى أعماق مجهولة، وبشواهد القبور المعممة التي يراها المرء في كل مكان فتملأه رعباً ورهبة. ترى، أين يقع ذلك البيت وتلك الحديقة اللذان قصدتهما برفقة والدي؟ أمعنت النظر من نافذة السيارة على أمل أن أجدهما، فمرت بجانبي حافلة كهربائية وحجبت عني الرؤية بعرباتها الملونة، واقتربت من سيارتنا كثيراً لدرجة أنني استطعت أن أرى التلاميذ داخلها بزيهم المدرسي الأزرق، وهم يلعبون مع بعضهم بمرح. مرت الحافلة قربي، فظهرت على الرصيف شابة جالسة على أحد المقاعد؛ مرتدية ملابس باهتة ومهترئة. رأيتها تحمل شيئاً على حضنها تغطيه بملاءة. ألقيت عليها نظرة فاحصة أكثر، وأدركت أنها تحمل طفلاً وترضعه، وأنها غطت وجه الطفل بطرف الملاءة كي لا يظهر صدرها. شعرت فجأة بعيني تمتلئان بالدموع وبغصة في حلقي. وانزلقت يداي بشكل لا شعوري نحو بطني، وعيناي تنظران إلى الشابة التي ترضع طفلها. رفعت رأسها قليلاً، ونظرت إلى عيني وابتسمت لي، ولكنني لم أرد لها الابتسامة بمثلها؛ ليس لأنني لم أشأ أن أبتسم لها، بل لأنني لم أستطع ذلك. لذا، أشحت بوجهي بسرعة وأنا مرتبكة. لم أشأ معاملتها بفوقية، ولكنني ربما شعرت بالخوف وحسب؛ ليس من هذه الأم الشابة، بل من نفسي ومن الطفل الذي ينمو في داخلي ومن ترددي وحيرتي في ما أنوي أن أفعله به. لم أستطع أن أسامح نفسي لأنني أشحت بوجهي عن الأم الشابة بهذه الفظاظة، ولهذا التفت إليها مجدداً؛ لأبتسم لها أو أومئ برأسي تحية، ولكنها على ما يبدو نسيت أمري منذ وقت طويل، وحولت انتباهها إلى طفلها الرضيع. اختار هاتفي تلك اللحظة بالذات ليرن، فأخرجته من حقيبتي بلهفة على أمل أن يكون نايغل هو المتصل، ولكن اتضح أنه مديري سايمون. أجبت على الهاتف محاولة ألاّ يبدو صوتي موحياً بخيبة الأمل.
"مرحباً".
سأل سايمون بصوت حاد كصوت امرأة: "مرحباً يا كارين. كيف مضت

رحلتك؟".
"على ما يرام. هبطنا للتو، فقابلني السيد فيدان في المطار، ونحن في طريقنا إلى الفندق الآن".
"إذاً، لقد استقبلك مينان. هذا حسن! ولكن، أصغي إليّ جيداً. لا بد لي أن أحذرك من وضع ثقتك المطلقة بذلك الرجل". وراح يتحدث هامساً وكأنه يخشى أن يسمعه أحد، فقال: "لم نعمل معه لوقت طويل، لذا أنا لا أعرفه معرفة وثيقة. ولكنني لا أتصل بك لهذا السبب، فأمامي هنا عقد تكميلي يؤكد على استحقاق المزيد من الفوائد الكبيرة نوعاً ما للزبون. هناك خمس من المواد السبع في العقد تتحدث عن الحريق. إن هذا الموضوع يصيبني بالقرحة. أريدك أن تدققي كثيراً في هذا العمل يا كارين، وحاولي ألاّ تتغاضي عن أي تفصيل. إن مدير شركة إيكونيون للسياحة رجل داهية ومثقف، فهو على دراية كبيرة بعملنا. ولا بد أنه مستعد لفعل أي شيء ليعمي عينيك عن الحقيقة. ولا أستبعد أنه دفع رشوة لمينان".
ألقيت نظرة في المرآة على الرجل الذي يقود السيارة وتعبير وجهه يدل على الوقار. بدا مظهره موحياً بالبراءة، ولكن من يدري؟ فربما يجيد الإنكليزية أكثر مما يريد لي أن أعرف. فقد صادفت في هذه المهنة خدعاً لا يمكن للشيطان نفسه أن يأتي بها. ولن يفاجئني إن اكتشفت أن شخصاً - لطالما ظننت أنه قمة البراءة - من أكبر المخادعين في العالم. حاولت أن أتحدث مع سايمون بالألغاز لكي لا يفهم مينان ما أتحدث عنه.
"لا تقلق. إنني على دراية بهذا، وسأتولى الموضوع".
"حسناً. لقد أرسلت لك العقد الإضافي بالبريد الإلكتروني. قد تودين أن تقرئيه قبل أن تذهبي إلى الاجتماع المزمع عقده غداً. وبالنسبة إلى العاملين اللذين لقيا حتفهما في الحريق، فهناك أخبار في الصحف التركية عنهما. إذ تدعي الصحف أن موتهما لم يقع نتيجة حادث عرضي بقدر ما يريدون للناس أن يظنوا. لا تخلو مقالات الصحفيين من المبالغة بالطبع، ومع ذلك لا ضير في أن تقرئيها".
"نعم، سأفعل هذا بكل تأكيد".
"حسن، سنتحدث لاحقاً إذاً. اتصلي بي على الفور إن طرأت أي تطورات. سأبقي هاتفي مفتوحاً على مدار الساعة كل الأيام".
"حسناً، سأتصل بك".
بينما كنت أنهي المكالمة وأضع الهاتف في حقيبتي، شعرت بعينين تتأملانني عن كثب. فرفعت نظري، ورأيت عيني مينان الخضراوين ترنوان إليّ في

المرآة. فرددت عليه بشبه ابتسامة سطحية، ولكن وكيلنا لم يترك الأمر عند هذا الحدّ.

سألني باهتمام قائلاً: "أهذه مكالمة من لندن؟".

كنت أعرف عادة الأتراك في التعامل الفوري بودية زائدة مع الأجانب. ولولا تحذير سايمون لي، لربما عزوت سؤال مينان لتلك العادة السائدة، ولكنني تذكرت عندئذ الملايين الثلاثة.

فأجبته باختصار بغية إغلاق الموضوع: "نعم، إنه مجرد صديق". ولكن مينان لم يفقد الأمل.

قال محاولاً أن يبقي الحوار مفتوحاً: "لقد سافرت إلى لندن العام الماضي في رحلة مع مجموعة كبيرة من الأصدقاء من قونية. فزرنا نهر التايمز، وساعة بيغبن، ومتنزه هايد بارك، وذلك المتحف الذي يحوي تماثيل من الشمع للمشاهير...".

فلقنته اسم المتحف قائلة: "تقصد متحف مدام توسودز".

"نعم، هذا هو. ومع ذلك، فالشيء الوحيد الذي لم نتمكن قط من الاعتياد عليه هو قيادة السيارة على الجانب الأيسر من الطريق. لقد أحببنا لندن كثيراً، فهي مدينة مليئة بالخضرة والجمال وليست كالمكان هنا. وبالرغم من ذلك، فشمسها ليست ساطعة كشمسنا هنا، ولكن...".

سئمت من ثرثرة الرجل التافهة، فنظرت من النافذة مرة أخرى، وحاولت أن أبحث عن البيت ذي الشواهد المعممة في حديقته. لا بد من وجوده في مكان ما هنا في مركز المدينة. فبعد أن خرجت برفقة والدي من المطار، ركبنا في إحدى سيارات الأجرة التي راحت تشق الزحام في تلك الشوارع الضيقة. تذكرت مسجداً حجرياً له مئذنة قصيرة وثخينة، وساحة عامة عريضة أقيمت فيها سوق مفتوحة صغيرة تحتوي على عدة أكشاك تعرض أصنافاً مختلفة من الفاكهة. كان المنزل موجوداً قرب تلك الساحة. دخلنا الحديقة عبر باب كبير فخم، واستقبلَنا هناك رجل مسن. تقدم أبي منه وقبل يده، فظننته أحد أقاربنا الكبار، أي عم والدي مثلاً، ولكن والدي لم يذكر لي وجود أي أقارب لنا هنا. ومما أثار استغرابي أن ذلك الرجل انحنى أيضاً وقبل يد والدي. كنت أعرف أن من عادة الأتراك أن يقبلوا أيادي كبار السن، ولكنني لم أسمع قط عن رجل كبير في السن يقبل يد رجل أصغر منه سناً.

"هل تبحثين عن شيء ما يا سيدة غرينوود؟". أجفلت، ورأيت عيني مينان الخضراوين تنظران إليّ مجدداً.

ترددت لوهلة، ثم قلت: "نعم، إنني أبحث عن أحد المنازل". ظننت أنها فكرة سيئة أن أبوح بأمور خاصة بي، ولكنني اعتبرت أن هذا القدر من المعلومات لا يعد من الحياة الشخصية، فتابعت قائلة: "إنه منزل قديم له حديقة كبيرة فيها شواهد قبور معممة".

"هل شاهدت صورته في إحدى المجلات؟ أقصد هل شاهدت صورة ذلك المنزل في مجلة عن السفر أو ما شابه؟".

لم يسعني أن أكذب عليه فقلت: "كلا، فقد سبق لي أن زرت قونية من قبل".

أضاءت عينا مينان من الفضول مرة أخرى، وسألني: "حقاً! متى حدث ذلك؟".

"قبل وقت طويل، حين كنت طفلة. أخذونا إلى منزل قديم. حسناً، ليس منزلاً بالفعل بل أشبه بمبنى ديني".

"أهو مسجد؟".

"كلا، ليس مسجداً. فقد كان هناك سكان يعيشون فيه".

فقال متأملاً: "ربما يكون مأوى للدراويش. من اصطحبك إلى هناك؟".

أوشكت أن أقول له إن والدي هو من فعل ذلك، ولكنني غيرت رأيي. فقلت: "امرأة أعرفها... جارة من لندن".

شاهدت جبين مينان يتجعد في المرآة وكأنه صادف لتوه مشكلة ما.

"لأتوخى الصراحة معك يا سيدة غرينوود، توجد أماكن كثيرة هنا تشبه المنزل الذي تتحدثين عنه. أتساءل أي واحد منها هو". ثم أضاءت عيناه وكأنه صادف حلاً مفاجئاً، فقال: "دعينا نتجول في بعض الشوارع العريضة، فقونية ليست مدينة كبيرة. وعندئذ قد تتمكنين من التعرف عليه".

وقبل أن تتاح لي الفرصة للاعتراض، أدار مينان عجلة القيادة، وانطلق في أول شارع جانبي إلى اليسار. وحالما تخطينا أبنية الشقق البشعة في أول الشارع الذي يتسع لمرور سيارة واحدة فقط، تغير شكل المباني. فرأينا صفاً من المباني الطينية الرائعة المكونة من طابقين. شعرت أن تغيير تصميم البيوت قد غير الزمن نفسه، وعاد بنا بضع مئات من السنين إلى الوراء. أيمكن أن يكون هذا هو الزقاق الضيق نفسه الذي أتيت إليه مع والدي؟ تذكرت الأبواب الخشبية المنقوشة والنوافذ ذات الأقفاص الحديدية. ولكن، عندما نظرت إلى هذا الشارع الذي بدا أنه لم يمس منذ قرون طويلة، بدأ إيماني بذاكرتي يضعف، ولم أعد واثقة مما رأيته - أو ربما لم أره - ولكن هذا لم يدم وقتاً طويلاً. إذ بعد بضع مئات من الأمتار، انتهى صف

البيوت الجميلة، ووصلت سيارتنا إلى جادة صغيرة توجد فيها أبنية أحدث من التي سبقتها.
سأل مينان وهو يخرج من الشارع قائلاً: "إذاً، ماذا تظنين؟ هل يبدو أنه المكان نفسه؟".
قلت له وأنا أبعد الشعر عن عيني: "لست واثقة تماماً. فقد كنت طفلة آنذاك. ولا بد أن تغييراً كبيراً قد طرأ على المكان".
مررنا أمام متنزه له مسجد صغير. وبالرغم من أنه لم يبدُ لي مألوفاً، إلاّ أنني لم أستطع أن أمنع نفسي من التحديق إليه برهبة. فقد بدا أثرياً جداً. وبينما كنت أحاول أن أقرأ الكتابة المنقوشة على الباب، داس مينان على المكابح فجأة".
قال مينان: "تباً!". واهتزت السيارة ثم توقفت فجأة. فالتفت مينان إليّ وعلى وجهه نظرة ضيق، ثم قال: "إنني آسف جداً. أظن أن إحدى عجلاتنا مثقوبة". وأشار نحو الجانب الأمامي الأيمن من السيارة، فرحت أحدث نفسي بأنّ هذا ما كان ينقصني الآن، بينما واصل مينان الكلام من دون أن يفسح لي مجالاً لقول كلمة واحدة، فقال: "لا تقلقي. سأطلب سيارة أجرة لتقلك إلى الفندق". شعرت أنني غير راغبة بالفعل بإزعاج نفسي بإخراج حقيبتي من صندوق السيارة وجرها إلى سيارة أخرى. أضاف مينان وهو يلاحظ ترددي قائلاً: "سأستغرق وقتاً لأغير العجلة".
فقلت له بإصرار: "لا بأس. سأنتظرك هنا. هيا، قم بتغييرها. سنصل إلى الفندق في نهاية المطاف. لا يشكل موعد الوصول أي أهمية".
قال مينان وهو يخلع سترته: "حسناً إذاً، سأحاول أن أسرع".
ترجل من السيارة، وتوجه إلى الصندوق. وبينما هو يفتحه، راقبت الناس المتواجدين في المتنزه، والغسق يكتنف المكان حولهم مع اقتراب حلول المساء. رأيت شرطيين بزيهما الرسمي يتوضآن ويغسلان أقدامهما تحت الماء المتدفق من النافورة بجانب المسجد. وبالرغم من أنني لم أستطع أن أميز وجهيهما بوضوح، فقد بدت البندقيتان المعلقتان على ظهريهما واضحتين وضوح الشمس. أدركت أنهما سرعان ما سيبتهلان إلى الله لكي يغفر لهما ذنوبهما، وسيدهشان من نفاقهما لقولهما هذا ولدخولهما دار العبادة وهما يحملان البندقيتين.
ذكرتني هذه الحادثة بمناقشة سمعت والدي وشاه نسيم يخوضانها في أحد تلك الأيام النادرة التي لم يعتكفا فيها في غرفتهما. فقد جلسا ذات يوم في غرفة الجلوس ليشربا الشاي، بينما شغلت نفسي برسم لوحة وأنا أصغي

بعناية إلى كلماتهما التي استطعت بالكاد أن أستوعب معانيها.
أسقط مينان العجلة الإضافية التي أخرجها من الصندوق، فقاطع صوت ضوضائها أفكاري. أبصرته وهو يلتقطها ويدحرجها نحو مقدمة السيارة. بدا لي أن معنوياته قد ارتفعت من جديد؛ حتى إنه تعمد أن يبتسم لي وهو يمر بجانبي. تركها هناك وعاد ليخرج الرافعة من الصندوق، ثم بدأ العمل. رأيت الرافعة وهي تبدأ برفع السيارة. وفي اللحظة نفسها، سمعت صوتاً لم أسمعه منذ وقت طويل يتردد صداه في أرجاء المكان، بينما راح الظلام يخيم ببطء. فقد بدأ الأذان يصدح من مآذن المساجد. اعتاد والدي أيضاً أن يردد كلمات الأذان مع المؤذن بشكل جميل. فكانت الكلمات مرتلة، وليست مجرد دعوة إلى الصلاة.
بالنسبة إلى شاه نسيم، لم يكن بالفعل يصلي خمس مرات في اليوم وحسب كما يفعل معظم المسلمين الباكستانيين، بل اعتاد أن يعتكف بين الحين والآخر في غرفته في وضعية السجود لفترة من الوقت. ولم تكن عبادة والدي مقتصرة على الصلوات الخمس فقط. فقد اعتاد في بعض الأحيان أن يجلس بلا حراك لليلة كاملة، وفي أحيان أخرى كان يتمتم ببعض الأذكار والأدعية بصوت خافت أو يعزف على الناي. وإن خرج من الغرفة التي يعتكف فيها، رأينا عينيه الواسعتين السوداوين ممتلئتين بالدموع، وهناك تعبير غريب وهادئ مرتسم على ملامح وجهه.
ذات مرة، سمعت شاه نسيم يقول لوالدي: "يجب على المرء أن يعيش تجربة الموت قبل موته". أدخلت تلك الكلمات الرعب إلى نفسي، فجريت إلى غرفتي باكية لأنني ظننت أن والدي سيموت، فسمعني أبي ولحق بي.
أخذت أنتحب وأنا ألقي بذراعي حوله قائلة: "هل ستموت يا أبي؟".
دهش والدي من سؤالي وقال لي: "من أين أتتك هذه الفكرة؟".
عندما كررت له الكلام الذي سمعته من شاه نسيم، انفجر ضاحكاً، وقال: "لن أموت يا صغيرتي. على أية حال، إنّ العم نسيم لا يقول لي إنني سأموت. إن تلك الكلمات لها معان خفية. عندما تكبرين، ستفهمين المعنى. ولكن، دعيني أخبرك قدراً صغيراً من الحقيقة فقط، وهو أنه لا علاقة لهذا الكلام بالموت".
غمرتني حينها بهجة عارمة لأن والدي لن يموت، ولكنني اكتشفت معنى الكلمات قبل أن أكبر، فقد توضح لي معناها في السكينة التي ارتسمت في عينيه. وبالرغم من أن الكلمات قد يكون لها معنى مختلف بالنسبة لأشخاص مختلفين، إلا أنها شرحت لي - على الرغم من مأساويتها المزمنة -

الهدوء العميق الذي لم يفارق وجهه على الإطلاق. وكلما تذكرتها شعرت أن محيطاً ساكناً وهادئاً ممتداً نحو اللانهاية تجسد أمام عيني. كان محيطاً شاسعاً وقوياً وهادئاً وودوداً على حدٍّ سواء. رأيت ذات مرة تلك النظرة نفسها على وجه إحدى زميلاتي بالمدرسة بعد أن تعرضت لنوبة عصبية. فقد كانت زميلتي - واسمها جانيت - مصابة بمرض الصرع، وهذا ما جعلها أتعس فتاة في صفي. فبين الحين والآخر، كانت تنتابها نوبات شديدة أثناء الحصة تجعل الفتاة المسكينة تهتز كورقة شجر في مهب عاصفة هوجاء. فإن انقضت النوبة، اكتسبت عيناها الرماديتان نظرة الهدوء العميق نفسها التي يتمتع بها والدي. ذلك هو الهدوء الذي يأتي بعد توتر هائل وتنعكس وداعته في وجه الإنسان، والسلام الذي يسود في أعقاب تلك العاصفة الرهيبة التي تعصف بروحه. فكرت في سري: ترى، ما الذي لن أمنحه لأصل إلى تلك الحالة الذهنية الآن؟ لسوء الحظ، شعرت أن حالتي أبعد ما تكون عن تلك الحالة، وبدلاً منها تملكني التشاؤم وراح يثقل صدري من جديد. وشعرت للحظة أنني عاجزة عن التنفس، ففتحت الباب وخرجت من السيارة متخبطة.

لاحظ مينان أنني ترجلت من السيارة، فرمقني بنظرة قلق.

قلت لئلا أفسح له مجالاً لطرح أية أسئلة: "إنني بخير. يمكنك أن تواصل العمل".

وبينما هو يعود ليستأنف عمله، مشيت إلى الجانب الآخر من السيارة، ونظرت إلى الحديقة على أمل أن يمنحني منظرها بعض السكينة. لم تعد المئذنة مرئية الآن؛ فقد حولها هبوط الظلام إلى مجرد صورة ظليلة لشيء مبهم طويل ونحيل. لم يعد يُسمع أي صوت في الساحة سوى صوت الإمام وهو يؤذّن داعياً إلى الصلاة. واكتنف الصمت كل شيء؛ الناس الذين يمرون في الشارع، والطيور المحلقة في السماء كنقاط سوداء، والرياح التي تعبث بأغصان الأشجار، والمدينة المفعمة بالحركة ككل يوم. لم أعد واثقة في ما إذا كان صوت الإمام الذي سمعته في منتصف الحديقة، أو الطيور التي تحوم في دوائر لا تنتهي فوق رأسي، أو هبوط الليل البطيء الثقيل ما استوقفني في هذا المكان. ولكنني شعرت فجأة بأنني وحيدة، وكأن كل من أحبهم قد اختفوا وخلفوني وحدي في هذه المدينة الغريبة التي لا تألفها عيناي. تملكني ذلك الشعور الخانق مجدداً، وبدأت أفكر في أنه توجب عليّ أن أبقى في السيارة عندما سمعت صوت مينان.

فقد قال لي: "هل تودين أن تدخني سيجارة؟ ثمة علبة سجائر في صندوق

القفازات".
لم أكن أدخن أو أطيق طعم التبغ على الإطلاق. ومع ذلك، سرني عرضه سروراً جماً، فقد أخرجني من الدوامة المظلمة التي كدت أن أغرق فيها.
قلت: "كلا، شكراً لك. فأنا لا أدخن".
مد رأسه من خلف السيارة حيث جلس راكعاً على ركبتيه، وقال: "لقد أقلعت أنا أيضاً عن التدخين، ولكن العلبة باقية من الأيام التي كنت لا أزال أدخن فيها".
وبعد ذلك، حنى رأسه وواصل معاناته مع الإطار.
توجب عليّ أن أستعيد هدوئي؛ فلم يحدث لي مكروه أو ما شابه. ولا بد أنني شعرت بالوحشة لوجودي في بلد غريب في أثناء حلول الليل، وهذا كل شيء، أي مجرد شعور بالكآبة. ومع ذلك، لا بد لهذا الشعور أن ينتهي هنا. يجب عليّ أن أنفض عني هذا التشاؤم الذي ينذر بالنحس، والشعور البشع الذي لم يبارحني منذ استقللت الطائرة في مطار هيثرو بلندن. خطر ببالي أن أذهب وأغسل وجهي ببعض الماء من النافورة بجانب المسجد. التفت بقصد فعل ذلك، وعندها ظهر لي من المجهول رجل طويل ونحيل، شعره متشابك مع لحيته، وجسمه متسربل بالسواد من رأسه حتى أخمص قدميه. وقف أمامي بهدوء شديد. ولو أنه باغتني أكثر من ذلك لكنت قد صرخت ربما، ولكن رد الفعل الوحيد الذي أبديته هو أنني فغرت فمي دهشة.
همس قائلاً: "لا تخافي". وجدت صوته هادئاً كخرير الماء، وناعماً كالحليب، ومطمئناً كنسيم المساء اللطيف الذي بدأ الآن يهب في الأجواء. أضاف قائلاً: "لا أنوي أن ألحق بك أي أذى".
التقت عيناي عينيه، فلم أجد أي مكر أو حقد في تينك العينين الرطبتين السوداوين وفي رموشهما الطويلة، بل شعرت أنهما تستجديان مني المساعدة. وقفت أمامه متسمرة في مكاني وأنا مسحورة بالكامل. لم أره يتخذ خطوة واحدة إلى الأمام، ولكنه أخذ يدنو مني شيئاً فشيئاً وكأنه ينساب على الأرض كنسيم مسائي هادئ. مد يده وأمسك راحة يدي اليمنى ووضعها على راحة يده اليسرى. فوجدت يديه دافئتين. لو كان شخصاً آخر لابتعدت عنه منذ وقت طويل، ولكنني لم أستطع أن أبتعد عنه، بل وقفت أمامه وكأنني منومة مغناطيسياً؛ محدقة إلى تينك العينين المزينتين بكحل طبيعي، بينما شرع الرجل بإبعاد أصابعي عن بعضها بلطف ووضع شيئاً في راحة يدي ثم أعادها إلى ما كانت عليه إصبعاً تلو الأخرى.

"لقد سلمتك ما يعود إليك".
بدا كل ما يجري أشبه بحلم. قلبت الشيء القاسي الذي وضعه داخل راحة يدي، ثم فتحتها ونظرت إليه. لم أستطع تمييزه في الإضاءة الخافتة في تلك الساعة من المساء، لذا رفعته إلى عيني ورأيت أنه خاتم فضي له حجر عقيق بني اللون، فوقعت في حبه على الفور. ولكن، لماذا أعطاني إياه ذلك الرجل؟ هل أراد عرضه للبيع؟ هل ذلك الرجل الغامض الذي ظهر فجأة من المجهول مجرد بائع متجول؟ رفعت نظري إليه لأسأله وأحاول أن أفهم مبتغاه، ولكنني اكتشفت أنه اختفى. أين يمكن لهذا الرجل الذي رأيته واقفاً أمامي قبل ثوان معدودة أن يختفي؟ نظرت حولي، ولكن الرجل الطويل المتسربل بالسواد لم يعد موجوداً بعد الآن. فقد توارى في ظلام الليل بالطريقة نفسها التي ظهر فيها.
همست بصوت خافت: "أين ذهب؟".
فقال مينان وهو يعتدل في وقفته: "إنني هنا. هل قلت شيئاً؟".
أشرت بيدي إلى المساحة الفارغة التي كان الرجل واقفاً فيها لتوه، وقلت: "كان يوجد رجل...".
"أي رجل؟ ماذا فعل؟".
هززت رأسي بعجز وأنا أعرف أنني لن أقوى على الشرح.
"لم يزعجني أو ما شابه، ولكنه فقط... اختفى فجأة".
كرر كلامي وهو ينظر أمامه وخلفه، ولكنه لم يجد أحداً في الأنحاء. فلم يعر الموضوع الكثير من الاهتمام بل قال: "لا بد أنه هرب. أما زالت حقيبتك ومحفظتك في مكانيهما؟".
لم تخطر تلك الفكرة ببالي. نعم، يمكن أن يكون ذلك الرجل نشالاً بكل تأكيد. ومن الممكن أن يكون قد نشل حقيبتي وهو يلهيني بالنظر إلى الخاتم. فتحت باب السيارة، ونظرت إلى الداخل، فوجدت حقيبتي ومحفظتي وكمبيوتري المحمول كلها لا تزال في مكانها على المقعد الخلفي.
تمتمت برضا: "كلا، لم يسرق أي شيء. لا يوحي مظهر الرجل بأنه لص. على العكس من ذلك، فقد منحني شيئاً ما. إنه خاتم".
رفعته لأريه إياه، ولكنه لم يكترث بالنظر إليه بإمعان شديد، فقد أراد أن يغلق الموضوع بعد أن سر لأنني لم أنزعج من الحادثة.
فقال بهدوء: "هدية! إنها جميلة".
لم يفعل شرحه أي شيء ليخفف من حدة ذهولي، فقلت: "نعم، ولكنني لا أعرفه. وليس هناك أي سبب يدعوه ليمنحني خاتماً".

ارتسمت ابتسامة بهجة وسرور على وجهه، وقال: "من الممكن أن يتصرّف الناس هنا ببعض الغرابة. وليس تقديم الهدايا للغرباء من دون أي سبب سلوكاً غير مسبوق في بلادنا. اعتبري ذلك مجرد تصرف مهذب من الرجل".

"ولكن، لماذا انصرف هكذا بسرعة؟".

فأجاب من دون تردد قائلاً: "لا بد أنه شعر بالإحراج. فشعبنا يشعر بالخجل من الأجانب".

لم يقنعني تفسير مينان، فبدأت أنظر حولي مرة أخرى. وتفحصت عيناي الزوايا المعتمة في المتنزه، ومداخل الشارع الذي لم يحتجب بعد كلياً تحت جنح الظلام، ولكنني لم أرَ الرجل الطويل المتسربل بالسواد ذا العينين الجميلتين في أي مكان. إذاً، من هو ذلك الرجل؟ بدت الإجابة متجسدة تحت أضواء المسجد الصغير، وفي شكل النقش على اللافتة النحاسية المعلقة فوق الباب والتي كتب عليها: مسجد شمس التبريزي وضريحه.

"... القدرة على ملامسة قلوب الناس بيدي..."
وجدت الفندق أفضل من توقعاتي. وبالرغم من أنه لم يكن فندقاً سياحياً مجهزاً بوسائل الراحة التي اعتدت عليها كافة، إلا أنني وجدته بسيطاً ونظيفاً وهادئاً؛ بالرغم من وجوده في مركز البلدة، وإضاءة ردهته خافتة ومريحة للعينين. انتزع مينان جواز سفري من يدي وتوجه بمهارة إلى الرجل الواقف عند مكتب الاستقبال. تراجعت إلى الوراء بضع خطوات لألقي نظرة فاحصة على الفندق من الداخل، فلمحت شابين جالسين على كنبتين كبيرتين في إحدى الزوايا. أخذا يتأملانني باهتمام منذ أن دخلنا الفندق. لطالما كرهت تلك النظرة الوقحة والملحة في عيون الرجال سواء أكان ذلك في لندن أو في أي مكان آخر في العالم. التفت لأنظر من النافذة إلى الشارع الذي أصبح الآن متوارياً بأكمله تحت جنح ظلام الليل السديمي، فرأيت مسجداً أثرياً مضاء خلف الرصيف المحاذي للفندق، أمامه بعض تلك النوافير التقليدية المخصصة للوضوء. ترى، هل أتيت إلى هنا من قبل مع والدي ورأيت هذه النوافير الأثرية المغطاة بالخشب والألمنيوم الرقيق والصنابير المتعددة التي تحيط بها؟ إن لم تكن هذه هي النافورة التي سبق لي أن رأيتها بحد ذاتها، فلا بد أنها نافورة شديدة الشبه بها. إذ إننا توقفنا لنشرب الماء منها عصر يوم من الأيام. تذكرت تلك الأكواب المعدنية المعلقة بجانب كل صنبور من الصنابير الذهبية. كانت مجرد فكرة الشرب من كوب استعمله الجميع من قبل كفيلة بأن تصيبني بالغثيان، لذا حاولت أن أشرب بيدي. أما بالنسبة إلى والدي، فقد روى عطشه من الكوب، من دون أن يخطر بباله أن يتأكد إن كان نظيفاً أم لا. وعندما أوشكت أن أسأل مينان عن النافورة، سمعت صوتاً.
"كيميا... كيميا غرينوود...".
كان انتباهي لا يزال مركزاً على النافورة التي يشع عليها ذلك النور الخافت، فانتابني للحظة ذاك الشعور الغريب نفسه الذي تملكني في الطائرة. التفت إلى الاتجاه الذي صدر منه الصوت ورأيت الرجل الواقف عند مكتب الاستقبال ينظر إليّ مبتسماً، ثم قال: "هل لي بدقيقة يا سيدة غرينوود؟".
كيف يمكن لذلك الرجل أن يعرف اسمي الأوسط؟ لاحظ مينان تعبير وجهي المندهش، فهب لمساعدتي وتدخل قائلاً: "يجب عليك أن توقعي استمارة التسجيل، يا سيدة غرينوود".

فهمت أخيراً. لقد قرأ موظف الاستقبال الاسم المكتوب على مقدمة جواز سفري. توجهت نحو المكتب.
"بالطبع. أين يجب أن أوقع؟".
فأعطاني الاستمارة وقال وهو يريني مكان التوقيع: "هنا، من فضلك. إنني آسف، ولكنني أشعر بالفضول فعلاً. هل اسمك كارين كيميا غرينوود؟".
أجبت من دون أن أرفع نظري عن الاستمارة: "نعم".
أظن أن لهجتي أتت قاسية بعض الشيء، إذ شعر موظف الاستقبال بالإحراج، ولكن فضوله لم يتخل عنه لأنه واصل تطفله عليّ.
فقال: "أعني، إن اسمك الأوسط هو كيميا، ولكن الإنكليز لا يستعملون هذا الاسم، لذا... هل لك أصول تركية؟".
عجزت عن سؤاله عما يهمه في ذلك، فأجبته باقتضاب قائلة: "كلا، إنني إنكليزية".
شعر مينان بانزعاجي فحدج الرجل بنظرة غضب. أخذ الرجل استمارة التسجيل الموقعة وهو يبتسم بغباء وكأن شيئاً لم يحدث.
قال مشدداً على اسمي: "شكراً لك يا كارين". وسلمني المفتاح، ثم أرشدني إلى غرفتي قائلاً: "الغرفة رقم 131. إنها مطلة على مسجد السلطان سليم. يمكنك أن تري ضريح رومي من شرفتك أيضاً". ضريح رومي! لقد اصطحبني والدي إلى هناك بالطبع. إنه ذلك المكان ذو القباب الذي يشبه الكنيسة قليلاً، وفي باحته صف تلو الآخر من شواهد القبور الغريبة ذات النقوش العربية. ولو أنني سألت موظف الاستقبال لاستطعت أن أعرف المزيد عنه بالطبع، ولكنني لم أود أن أتصرف بطريقة ودية مع ذلك الشاب المتطفل. بالإضافة إلى ذلك، تلهفت للصعود إلى غرفتي ولأخذ حمام ساخن، ولكن مينان أصر على عدم تركي وشأني.
فقد عرض عليّ قائلاً: "ما الذي ينبغي علينا أن نفعله بشأن العشاء؟ لدينا هنا مطاعم فاخرة جداً تقدم أطباقاً محلية تقليدية".
أراد مينان أن يظهر لي حسن ضيافته. ورغم أنني أدركت أنه من غير المهذب مني أن أرفض دعوته، إلا أنني لم أشعر برغبة فعلية للخروج لتناول العشاء مع رجل بالكاد أعرفه في مدينة لا أعرف عنها سوى النزر اليسير.
قلت بينما أخذ الضوء المسلّط على وجه مينان المستدير يخفت: "في الواقع، إنني أفكر في أن أتناول أي شيء هنا...". ومع ذلك، لم يستسلم.
"هل السبب أنهم لا يقدمون أي مشروبات كحولية؟".

لم أفهم قصده. وحين لاحظ التعبير المرتبك على وجهي قال: "أعني، ربما قيل لك إن المطاعم في قونية لا تقدم الكحول، ولكن هذا لا ينطبق عليها جميعاً. يمكنك أن تشربي ما تشائين بسهولة في المطعم الذي سنذهب إليه، ولن يعتبر هذا تصرفاً غريباً".
فانفجرت ضاحكة رغماً عنّي. وفجأة بدا لي مينان لطيفاً جداً.
"كلا، ليس هذا ما قصدته، ولكنني منهكة جداً ليس إلا، لذا سأتناول الطعام في غرفتي وأنال قسطاً من الراحة. سيكون الغد يوماً طويلاً، وينبغي أن أستجمع قوتي من أجله".
قال: "أتفهم هذا". وأومأ برأسه الكبير ببطء، ثم قال: "يمكنك أن تحلي ضيفة علينا مساء الغد إذاً".
"يبدو هذا جيداً. حسناً إذاً، سأصعد إلى غرفتي. شكراً لك على كل شيء يا سيد فيدان". ومددت يدي لأصافحه.
فصافحني وهو يشيح بوجهه ويحمر خجلاً كفتاة صغيرة، وقال: "لا شكر على واجب يا سيدة غرينوود. هذا واجبي. تصبحين على خير".
"تصبح على خير".
تركت مينان مزروعاً في مكانه بدافع الواجب وتبعت الخادم إلى المصعد. وبينما كنت على وشك الدخول إليه، بدأ هاتفي الجوال يرن. وعندما رأيت على شاشة الهاتف أن المتصل هو نايغل، غمرني الانفعال ونسيت كل شيء آخر؛ الباب المفتوح والمصعد والخادم الذي يقف منتظراً حاملاً حقيبتي ومينان الذي صمم ألاّ يترك الفندق إلى أن أصعد إلى الطابق العلوي. شعرت بمعنوياتي في أوجها وأنا أرد على المكالمة.
"أهلاً حبيبـي نايغل".
بدا صوت نايغل مبتهجاً ومفعماً بالثقة كعادته. قال: "مرحباً، حبيبتي. ما أخبار مغامرتك التركية؟".
أردت أن أسرد على مسمعيه كل الأحداث التي مرت بي، وأن أشرح له ما أفكر فيه وما يخالجني من مشاعر، ولكنني نظرت إلى الخادم الواقف على بعد بضع خطوات مني ثم إلى مينان الذي يراقبني من أمام مكتب الاستقبال، وأوجزت الحديث.
وقلت: "جيدة. إنها تسير على ما يرام. أيمكنك أن تبقى على الخط للحظة؟".
التفت إلى الخادم وقلت له: "يمكنك أن تصعد بحقيبتي، شكراً لك. سأصعد الدرج".

لوحت لمينان، وتوجهت إلى الدرج وأنا أشعر بأنني أصبحت حرة أخيراً لأنني أتحدث مع حبيبي.

"لا يسعني أن أصف لك يا نايغل كم أنا مسرورة لسماع صوتك".

تلاشت النبرة المرحة من صوت نايغل وقال لي: "هل أنت بخير يا كارين؟".

امتلأت عيناي بالدموع، وعانيت وقتاً عصيباً وأنا أمنع نفسي من البكاء، واستولت عليّ حيرة بالغة. أردت أن أسأل نايغل عن سبب عدم منعه إياي من الذهاب في هذه الرحلة بالرغم من أنني أدركت أنها ليست غلطته. لماذا ينبغي عليّ أن ألقي اللوم عليه؟ لم أقع في مشكلة صعبة؛ كأن أعلق في المطار على سبيل المثال، أو أتوه وحدي في المدينة الكبيرة. كلا، لقد اكتشفت أن ذلك القلق كله نابع مني أنا؛ من عقلي المشتت ومن قلبي المثقل بحزن لا أعرف له سبباً. والأكثر من ذلك، أن هذا الشعور بدأ قبل أن آتي إلى هذه المدينة الأناضولية بوقت طويل. فقد أخذ يتحرك في داخلي قبل أن أصعد على متن الطائرة في لندن. وعندما لم يحصل نايغل على جواب شاف مني، كرر سؤاله بتوتر قائلاً: "كارين، ما الذي يجري؟".

أخيراً، تمكنت من القول وأنا أمسح دموعي: "لا شيء. ليس الأمر مهماً. إنني في الفندق الآن، وهو مكان جميل".

لم يقتنع نايغل بكلامي. فقد فضح صوتي المتهدج حقيقة شعوري.

قال نايغل: "يبدو من صوتك أنك مستاءة".

"لست أدري، يا نايغل". وغطيت الهاتف بيدي وأنا أتنشق، ثم قلت: "أظن أنني متوترة بعض الشيء".

"لماذا؟ هل هناك أي مشكلة؟".

"كلا، إن الأمور تسير على ما يرام".

"هل أنهكتك الرحلة؟".

"كلا، بل سارت على أفضل وجه". لم أعد أستطيع أن أخفي شعوري بعد الآن فقلت: "لست أدري، ولكن ينتابني شعور سيئ".

"ما هو ذلك الشعور؟".

أنبني ضميري لأنني أدركت أنني أثير قلقه فقلت: "ليس الأمر مهماً. إنني واثقة بأنني سأتخطاه. أنت محق. لا بد أنني مرهقة من السفر".

"هل تشعرين بأنك مريضة أو ما شابه؟".

فهمت مضمون كلامه. فلا بد أنه ظن أن المشكلة تتعلق بالحمل. إذ إننا ناقشنا الموضوع قبل يومين في نادي الجاز في سوهو وقررنا أنني لن

أحتفظ بالجنين، أو لأتوخى الصراحة، لقد اتخذ نايغل بنفسه هذا القرار. فعلى حد تعبيره، لم يكن يجدر بنا أن نقضي أفضل سنوات عمرنا ونحن نجري خلف الأطفال. فنحن نجني دخلاً محترماً، ونتمتع بصحة جيدة، كما أننا لا نزال شابين ومتيمين ببعضنا، وهناك أماكن كثيرة في العالم نعتزم زيارتها، والطفل لن يفعل شيئاً سوى الوقوف في طريقنا. فكرت في أن نايغل ربما على حق، ولكنني بلغت منتصف العقد الثالث من عمري، وبدأت ساعتي البيولوجية تدق بلا هوادة معلنة اقترابي من سن اليأس. وهكذا، أدركت أن هذه قد تعتبر فرصتي الأخيرة لإنجاب طفل. لاحظ نايغل ترددي حينئذ، ولكنه آثر أن يتجاهله ويتشبث بقراره، فقلت له بانصياع أخيراً: "حسناً إذاً. سأتولى الموضوع".

فقال لي: "سأحجز لك موعداً في المستشفى غداً". وأراد بذلك أن ينهي المسألة على الفور، ولكنني قلت له إن ذلك غير ممكن بسبب سفري المزمع إلى تركيا في اليوم التالي. وبالرغم من أن هذا الكلام أثار قلقه، إلا أنه لم يُبدِ اعتراضاً. وبدلاً من ذلك، ابتسم مظهراً أسنانه البيضاء المثالية التي تتعارض بشكل مدهش مع بشرته الداكنة، وقال: "لا تقلقي. لن يشكل الأمر أي أهمية طالما أنك لن تحتفظي به لأكثر من أسبوع. سنعالج المسألة حالما تعودين من السفر". وبعد ذلك، أعاد ملء كأسينا بالشراب الذي يعشقه، وعرض عليّ نخباً قائلاً: "لنشرب نخب الحياة!"، وهو بهذا ينهي حياة طفله. وبينما كان يرتشف شرابه، تلاشى التوتر من ملامحه، واستعاد استرخاءه وحيويته، ولكن صوته الآن على بعد آلاف الأميال بدا مشبعاً بالقلق.

"إنك لا تخفين شيئاً عني يا كارين، أليس كذلك؟".

لا يسعني إنكار أنني أحببت قلق نايغل عليّ، ولكنني لم أستطع أيضاً أن أتحمل أن أزيد من حدة قلقه.

"كلا. لا مشكلة على الإطلاق. ليس من اللطيف أن أمكث وحدي في بلد أجنبي بالطبع، ولكن هذه طبيعة عملي على كل حال. دعنا نغير الموضوع. إنني بألف خير. كيف تمت عمليتك الجراحية؟ قلت لي إنها صعبة".

لم يتلاش القلق من صوت نايغل على الفور، ولكنني أظن أنه لم يجد أي ضرر من الإجابة عن سؤالي.

"إنها صعبة بالفعل. فقد استغرقت وقتاً أطول من المتوقع. إن المريض في السبعين من عمره. استبدلنا له صماماً في القلب، وهذه مخاطرة كبيرة، ولكن الأمور سارت على ما يرام وأظن أن العملية حققت نجاحاً. بالطبع،

سيمر بعض الوقت قبل أن نكون واثقين من النتيجة تماماً".
أصغيت إليه بإعجاب شديد. فعلى الرغم من كفاءة العمل الذي قام به إلا أنه تمكن من التعبير عنه بعبارات شديدة البساطة وخالية من أي مبالغة.
قلت: "هل تعرف أنني أحسدك في بعض الأحيان؟".
لم يفهم قصدي، فقال: "ماذا؟ ماذا تعنين؟".
"أعني، إنني أحسدك على عملك الرائع. فأنت تنقذ أرواح الناس".
أبهج هذا الكلام نايغل، فقال مضفياً على لهجته شيئاً من التواضع: "إنني أؤدي واجبي وحسب؛ مثلك تماماً".
هززت رأسي، مع أنه لم يكن واقفاً أمامي ليراني، فقلت: "كلا، إنني أعمل مقابل مال الناس، أما أنت فتعمل لتحافظ على أرواحهم".
رنت ضحكة نايغل في الجانب الآخر من الخط وقال: "لا تنخدعي بالمظاهر إلى هذا الحد. فأنا لست صالحاً إلى هذا الحد. وفي نهاية المطاف، أتلقى أتعابي كغيري من الناس". وقال مازحاً: "إن الشيء الوحيد الذي يميزني عن الآخرين هو قدرتي على ملامسة قلوب الناس بيدي، ولكنني أفضل أن ألامس يديك الجميلتين بيدي بدلاً من أن ألامس القلوب الدامية لأناس لا أعرفهم".
شعرت بوجهي يتوهج بحمرة الخجل. لطالما كنت هكذا مع نايغل. أما مع أصدقائي السابقين، فقد لعبت دور الفتاة السيئة في مناسبات عدة. ولكن، عندما تعرفت على هذا الرجل الأسمر الطويل، انقلبت موازين حياتي رأساً على عقب.
تمكنت أخيراً من القول: "إنك تلامس قلبي بكلماتك الجميلة".
ساد الصمت هنيهة؛ لم يقل فيها أي منّا كلمة واحدة. فحدقت إلى ورق الجدران الزهري الفاتح، وإلى أصص زهور التوليب المنظمة على الدرج. وفكرت بشدة توقي للنظر إلى وجه الرجل الذي أحبه والجلوس إلى جانبه والنوم بقربه بسلام وكأنني قطة مدللة.
همس نايغل: "أتمنى لو أنك بجانبي. فقد بدأت أفتقدك منذ الآن".
غصصت بريقي، وخرجت أنة يأس من حنجرتي وأنا أقول: "وأنا أيضاً".
أوشكت أن أذرف الدموع، ولكن نايغل أعاد الجو المرح مجدداً، فقال: "إذاً، هل رأيت أي شيء مثير للاهتمام حتى الآن في تركيا؟ هل صادفت أي شيوخ يريدون ضمك إلى حريمهم؟".
ضحكت رغماً عني، وجاريته في مزاحه قائلة: "يا لك من جاهل! لا يوجد

شيوخ ولا حريم هنا...".
ولكنني في تلك اللحظة رأيت صورة ذلك الرجل تتمثل أمام عيني؛ ذلك الرجل ذي اللحية الطويلة والمتسربل بالسواد من رأسه حتى أخمص قدميه. ومع ذلك، لم أصرف الصورة عن ذهني، بل فعلت ما هو أفضل من ذلك بأن أدخلتها في حوارنا الهزلي.
فقلت: "حسناً، هناك رجل قدم لي خاتماً كهدية...".
"أهي رشوة؟".
"كلا. ليس شخصاً من الوكالة. لا أعرف من هو. إنه لغز...".
"لغز؟! تبدين مسرورة جداً".
بدا صوت نايغل موحياً بالجدية وكأن الغيرة تتملكه، فكدت أن أصدق ذلك، ولكن نايغل بدأ يضحك.
"لن تتركيني من أجل ذلك الرجل الغامض، أليس كذلك؟".
فأجبته بلا شفقة: "لِمَ لا؟ قد يوفر لي حياة مثيرة للاهتمام ومليئة بالغموض والإغراء...".
"إغراء، أليس كذلك؟ انتظري إذاً. سأستقل الرحلة التالية إلى تركيا".
هزمني شعوري بالشوق إليه، فلم أعد أقوى على المضي في المزاح بعد الآن، وقلت له: "أتمنى أن تفعل هذا".
تغيرت نبرة صوته مجدداً وقال: "إنني أود ذلك أيضاً، ولكنني لا أستطيع. فلديّ جراحة أخرى يجب أن أجريها غداً".
اعترضت على كلامه بكآبة قائلة: "أتعني أن عليك أن تلامس قلب شخص آخر؟".
بدت الكآبة في صوت نايغل موازية لكآبتي وهو يقول: "نعم، ولكن قلبي سيظل ملكاً لك أنت".
فهمست له شبه مازحة: "وأنا أيضاً. فأنت تعرف أنه لا ينبض لأحد سواك".

"... الباب الأزرق الذي انفتح في الجدار..."
استلقيت على سريري في غرفة الفندق المعتمة وأنا أحدق إلى الجدار بشرود. لم أشعر برغبة بالتجول في أنحاء غرفتي وتشغيل التلفاز أو الخروج إلى الشرفة للنظر إلى الشارع الذي بات الآن أكثر هدوءاً بشكل ملحوظ. ومع ذلك، حالما دخلت الغرفة، شعرت أنني خلفت همومي وراء ظهري. فقد أبهجني التحدث إلى نايغل. وبعد أن أخذت حماماً، شعرت بشهية لتناول الطعام، فبحثت بلهفة في قائمة خدمة الغرف الموضوعة بجانب السرير، وفوجئت عندما صادفت طبق حساء الباميا، وهو طبق من أطباق قونية المميزة.
ترى، متى كانت آخر مرة تذوقت فيها هذا الحساء؟ هل مضت أكثر من عشرين سنة؟ ليس من الممكن لأحد أن يسمي والدي طباخاً ماهراً، فهو لم يبد أي اهتمام بالأكل والشرب طوال حياته. ومع ذلك، حساء الباميا مسألة مختلفة كلياً. فقرون الباميا الصغيرة المجففة هي الشيء الوحيد الذي اعتاد والدي أن يوصي أبناء بلده بإحضاره له عندما يأتون إلى لندن. وربما أثار ذلك الحساء أعز الذكريات على قلبه عن المدينة التي يحبها. أما أنا، فقد تذكرت مذاقه بشكل مبهم فقط. ومع ذلك، لن أنسى أبداً الطريقة التي كنا نمسك بها الخيط الذي تعلق به قرون الباميا المجففة بأيدينا وندلك القرون بأصابعنا ونلقيها في المنخل. لطالما تلهفت للمساعدة في إعداد طبق الباميا، ولكنني كنت أمسكها بخشونة فأهشمها وأشوه مظهرها، لذا كنت دائماً أعفى من هذه المهمة وأكلف بمهمة غسل الطماطم التي تضاف إلى مكونات الحساء.
ذات يوم، وبينما نحن في مطبخ بيتنا الكبير في لندن حيث لا تزال أمي تعيش حتى الآن، سألت والدي عن المكان الذي تعلّم فيه إعداد ذلك الحساء. فربت على ذقنه وأجاب قائلاً: "في مأوى الدراويش".
"ماذا؟ أتعني أن ذلك ما علموك أن تعده في مأوى الدراويش، أن تعد الحساء؟!".
ضحك وهو يجيب عن سؤالي وقال: "حسناً، ليس إعداد الحساء فقط. فقد تعلمت أيضاً الكثير عن أسرار الحياة".
"كيف يبدو شكل مأوى الدراويش يا أبي؟".
فكر للحظة قبل أن يجيبني، ثم قال: "إنه مكان ينضج فيه الناس ويتفتحون ويُطهّرون من الداخل".

بالرغم من أنني لم أفهم شيئاً مما يعنيه والدي بعبارة "يطهرون من الداخل"، إلاّ أنني فهمت أن لها علاقة بالصوفية، ولكنني لم أعر ذلك أي اهتمام. فأنا لم أعر أي اهتمام بحركة الهيبيين التي انخرطت أمي فيها في أثناء شبابها، ولا الصوفية التي تأثر بها والدي طوال حياته. ولم أعر حتى أي اهتمام للأسئلة التي طرحها نايغل عليّ عن الصوفية بدافع الفضول. فقد تجاهلت الموضوع، وقلت لنايغل إنني لا أريد أن أتحدث عن والدي الذي لم يقابله في حياته على كل حال. ومع ذلك، بينما أنا وحدي في غرفة الفندق هنا في هذه المدينة الأناضولية، تذكرت والدي وطلبت الطعام الذي لطالما أحبه.

في النهاية، لم أستطع أن أحدد ما إذا كان مذاق حساء الباميا شبيهاً بذاك الذي اعتاد والدي أن يعده. ومع ذلك، استمتعت به. وباستثناء وجود الفلفل الأخضر الحار جدًّا، وجدت مذاق السلطة مقبولاً.

بعد أن انتهيت من تناول الطعام، شغلت كمبيوتري على أمل أن أنجز بعض العمل، فوجدت أن إيميل سايمون قد وصل، بالإضافة إلى العقد الإضافي والخبر المنشور في الصحف التركية. في البداية، نظرت إلى قصاصات الصحف بعد أن تملكني الفضول لمعرفة ما قيل فيها. فقرأت المقال الأول الذي نشرته الصحيفة تحت عنوان "في قضية مصرع العاملين، لا حادث". ادعى كاتب المقال وقوع إهمال من جانب إدارة الفندق، وقال إن إخفاقهم في توخي الحيطة والحذر ضد الحرائق يجعلهم مذنبين بالقتل عن طريق الخطأ. وعرضت كل المقالات الأخرى وجهة النظر نفسها، ولكن الصحف لم تقدم أي دليل حقيقي يثبت ادعاءاتها. ولو أن الدليل موجود، لتم نقله في الخبر. وهكذا، بات الأمر منوطاً بي كالمعتاد لكي أجري تحقيقاتي وأكتشف حقيقة ما جرى. ومع ذلك، كل ما تمكنت من فعله في الوقت الحاضر هو استئناف استعدادي لاجتماعي مع إدارة الفندق. قرأت العقد الإضافي، وتأكدت من وجود البند الذي يستلزم سداد مبلغ كبير تعويضاً لشركة إيكونيون للسياحة. في الواقع، بدا كل شيء منظماً بصورة مثالية لا ثغرة فيه لصالح الشركة؛ وكأن إدارتها قد استعدت للحادث مسبقاً. وإن لم نتمكن من إثبات تعمّد إدارة الفندق إشعال الحريق فسيتوجب على شركة التأمين أن تدفع كل فلس من العطل والضرر. لا عجب أن الشكوك قد انتابت سايمون. فمجرد وجود زبائن لا عيب فيهم مثل هؤلاء يجعلهم عرضة للشكوك، ولكن من الممكن أن يكون سايمون مخطئاً في تقديره. فقد ذكر تقرير فرقة الإطفاء أن الحريق وقع نتيجة

لحادث عرضي، وأصدر النائب العام حكمه بعدم ورود أي دليل ملموس.
إن السبب الذي جعل أولئك الرجال بعيدين عن اللوم هو أن كل بند في العقد لصالحهم. كان مديرنا بالتأكيد يأمل أن يتحقق الخيار الأول، أي أن يظهر سبب ما يعفينا من سداد مبلغ العطل والضرر. أما بالنسبة إليّ أنا، فقد اعتزمت أن أؤدي واجبي بأقصى قدراتي، ولكن ليس على حساب الحقيقة. فإن ثبت بالفعل أن الحريق حادث عرضي، أصبح من حق شركة إيكونيون للسياحة أن تتلقى مبلغ ثلاثة ملايين جنيه استرليني عداً ونقداً.
بالرغم من كل هذا، ظل هناك صوت ملح في داخلي يسألني عن سبب حضوري إلى هنا. لم يحدث ذلك بسبب تناقض شخصيتي المعهود، بل لسبب أعمق من ذلك. شعرت برغبة مفاجئة بالتقيؤ، وتساءلت إن كان السبب هو الحمل، فنهضت وأنا أحاول أن أفهم ما يجري لجسمي. لم يكن الغثيان شديداً لدرجة تضطرني لاستخدام الحمام، ولكنني شعرت أنني بحاجة إلى الاستلقاء وأخذ قسط من الراحة. فتركت الكمبيوتر في مكانه وأطفأت الأضواء وصعدت إلى السرير.
لماذا عجزت أن أصرف عنّي هذا الشعور بالخوف؟ ربما أخطأت بالحضور إلى هنا في المقام الأول. كان بوسعي أن أخترع أي عذر وأرفض عرض سايمون. ربما أردت بشكل لا شعوري أن أرى مدينة والدي، وأن أعيش مرة أخرى تلك الأيام التي قضيتها معه هنا. أم إن هناك سبباً مختلفاً؟ هل هناك دافع آخر جذبني إلى هنا؟ نظرت إلى بطني. لم يصبح حملي ظاهراً بعد، ولكن إن سمحت بذلك - أو بالأحرى إن سمحنا - فسرعان ما سيبدأ بطني بالبروز.
أدركت فجأة أن قبولي لهذه المهمة ليست له أية علاقة بوالدي، وأن وجودي في قونية محض صدفة. فقد كان بوسع سايمون أن يرسلني إلى أي مكان آخر، كالقاهرة على سبيل المثال. فلو أرسلني إلى هناك، لكنت متواجدة هناك الآن. لا بد أن السبب الرئيس هو أنني أردت أن أبتعد عن نايغل. هذا هو ما أردته في أعماقي سواء أأدركت ذلك أم لم أدركه. فقد أردت أن أبتعد عن نايغل لأبقى وحدي وأحتفظ بأفكاري الخاصة بعيداً عن تأثيره.
بدأ كل ذلك عندما اكتشفت أمر الطفل. فقد أدركت على الفور أنني أريد الاحتفاظ به، ومن الغريب أنني افترضت أن نايغل يريده أيضاً، ولذلك السبب اتصلت به بسعادة ومن دون تفكير، وزففت إليه الخبر على الهاتف. ولكن نايغل قال لي بصوت بارد كالثلج: "هكذا إذاً! لِمَ لا نلتقي

لاحقاً ونناقش الأمر؟". لذا التقينا وتحدثنا بالأمر، أو تحدث بالأمر وحده، ثم أعلن ببرودة قائلاً: "مستحيل".

لكنني أردت الاحتفاظ به، بينما أخذ لسان حالي يقول: إن هذا الطفل مهم بالنسبة إليّ وإليك أيضاً. فالعلاقة التي تجمع بين رجل وامرأة لا تقتصر على السفر حول العالم أو سماع الموسيقى الجميلة أو تذوق الشراب الفاخر أو تناول شرائح اللحم مع الصلصة الفرنسية الشهية. ليست العلاقة مقتصرة على تبادل الأزهار في المناسبات، والذكريات في المطاعم الفخمة، والمغازلة طوال الوقت... بل إنها رغبة الطرفين بأن يؤسسا بإرادتهما الحرة حياة كاملة معاً. هذه هي العلاقة التي ينبغي أن نحظى بها أنا وأنت. فإما أن أنتقل لأعيش معك أو أن تنتقل لتعيش معي. ينبغي علينا أن نربي هذا الطفل معاً ونكوّن عائلة حقيقية.

هذا هو ما أردت أن أقوله، ولكنني لم أتفوه بحرف واحد منه. وبالرغم من أنني لم أستطع أن أحدد السبب وراء ذلك، إلاّ أنه ليس نابعاً من خوفي من فقدانه؛ لأنني تعلمت من تجاربي المؤلمة السابقة أن أسهل طريقة لخسارة الرجل هي موافقته على كل ما يقوله. فإن حاولت المرأة أن تفكر وتشعر وتتصرف بالضبط كما يفعل الرجل الذي تربطها به علاقة عاطفية، لأصبحت غير مثيرة للاهتمام على الإطلاق من وجهة نظره. إن ذلك لا ينطبق على الرجال وحدهم بل على النساء أيضاً. لماذا قد يحب المرء شخصاً أو يقدره وهو لا يمنحه أي سبب للتفكير أو الاهتمام به أو أي شيء ليحاول تأويله؟ أليس الحب بحدّ ذاته محاولة للعثور على شيء لا يجده المرء في نفسه؟ أي خير يستطيع الإنسان الحصول عليه من خلال شخص لا يختلف عنه قيد أنملة. إذاً، لماذا لم أجابه نايغل وأدافع عن قراري؟ لا بد أن كل ذلك عائد إلى مشاعري المختلطة المتناقضة. فقد شعرت أن هناك دافعاً في داخلي يحثني على الاحتفاظ بالطفل، وآخر يستخف برغبتي بالإنجاب ويعتبرها فكرة غبية. شعرت أنني عاجزة عن تحديد ما أريده. وبالرغم من أنه من الصعب عليّ أن أعترف بذلك لنفسي، إلاّ أنني أدركت أنني خائفة في أعماقي؛ ليس من مجرد فكرة إنجاب الطفل، بل من عدم قدرتي على منحه ما يكفي من الحب، أو من عدم النجاح في مهمتي كأم؛ أي من الفشل. فإن استطاع ضمير والدي أن يطاوعه ليهجرني من دون أي تفسير بالرغم من أنه ادعى حبي بشكل جنوني، فكيف يمكنني أن أثق بنفسي؟ ها قد عدت للتفكير في والدي من جديد!

في ذلك الوقت بالذات، لاحظت وجود الباب سماوي اللون المفتوح في الجدار. فتحت عيني على وسعهما بدهشة ظناً مني أنها مجرد تخيلات، ولكن الباب ظل ملازماً مكانه. فنهضت على قدمي، وأمعنت النظر إليه محاولة السيطرة على انفعالي. وفي تلك اللحظة، أدركت حقيقته، واكتشفت أن ضوء شاشة الكمبيوتر المحمول الذي تركته مفتوحاً على الطاولة منعكس على المرآة ذات الإطار الخشبي المنقوش؛ مما أحدث شكلاً وهمياً يشبه الباب. خذلتني هذه الخدعة البصرية عندما اتضح لي أنها مجرد سراب.

لطالما عشقت وأنا طفلة كتب القصص المصورة التي تتحدث عن الفرسان الذين يحاربون المشعوذين، وكذلك أساطير والدي الشرقية المنوعة والمبهّرة بالمعجزات والأعاجيب كقصة الطيور الشجاعة التي بحثت عن ملكها وعبرت سبعة وديان من الحكمة بحثاً عن جبل قاف الغامض، وقصة الأمير عديم الرأس الذي أنقذ الفلاحين من العمالقة الأشرار ثم استعاد رأسه مجدداً، وقصة الحرب بين شعب أرض الحكمة والمشعوذين في أرض المشعوذين. هؤلاء أبطال خياليون، والأحداث استثنائية لا يصادفها المرء في أرض الواقع، ولكنها تضفي على العالم الذي نعيش فيه جمالاً وإثارة ومغزى. شعرت بالسوداوية تستولي عليّ، وتمنيت لو أن هذا الباب السماوي حقيقي؛ كما يحصل في تلك الأساطير التي تتحدث عن الأبطال الخارقين، ولو أن بوسعي أن ألج عبر هذا الباب وأنتقل إلى عالم أشعر فيه أنني تحررت من كل مشاكلي وأحزاني، ولكن الاعتقاد بهذه الأحداث الخيالية لم يكن سهلاً بالنسبة إليّ قط. إذ لطالما أبديت نزعة للتصرف كأمي حيال هذه الأشياء ولاعتبار الأبطال والطغاة مجرد جزء من حياتنا، والفضيلة والشر مجرد حقيقتين بسيطتين وواضحتين. أما والدي بالمقابل، فقد كان ذا تفكير مختلف كل الاختلاف. فقد تحدث ذات مرة عن درويش اعتاد أن يؤدي صلاة الظهر في كل من قونية وبغداد والكعبة في مكة المكرمة في الوقت نفسه. وعندما اعترضت على كلامه بحجة خلوه من أي منطق، أجاب بكل ثقة قائلاً: "لا يمكن للمرء أن يفسر المعجزات بالمنطق". فلم أجادله أكثر من ذلك، ولكنني أقنعت نفسي بمنطق الأطفال السذج أنّ هذا يعني أنه من الممكن لوالدي أن يعيش في كل من قونية ولندن في الوقت ذاته.

ضحكت ساخرة من الحالة التي بت فيها؛ إذ مهما حاولت جاهدة، ظللت عاجزة عن الكف عن التفكير بوالدي. لا بد أن نايغل أصاب كبد الحقيقة عندما قال لي بعد أن خرجنا من نادي الجاز وذهبنا لنتمشى على طول القناة: "قد تشكل هذه الرحلة فرصة ذهبية بالنسبة إليك لتواجهي والدك

وذكرياتك عنه". توقف عند حافة القناة وظله الطويل يمتد إلى المياه المظلمة، ثم لمعت عيناه الرطبتان وهو ينظر إلى عيني ويردد قائلاً: "قد تشكل هذه الرّحلة فرصة لك لتتقبلي غيابه". لم أستطع أن أمنع نفسي من التساؤل إن كان نايغل هو من ينبغي عليّ أن أتصالح معه؛ قبل والدي.
بدأ انشغالي الشديد بهذه الأفكار يقض مضجعي، فذهبت إلى الكمبيوتر لأطفئه، ووجدته ساخناً من جراء بقائه مفتوحاً لوقت طويل. حدقت في أنحاء الغرفة بشرود لبعض الوقت إلى أن لامس خدي شيء بارد أعادني إلى أرض الواقع. فقد هب نسيم بارد يحمل عطر العشب الجاف ونبات إبرة الراعي من البادية، وتسلل من باب الشرفة المفتوح، ثم اشتد ورفع الستائر الرقيقة قبل أن يحيط بجسمي. أغمضت عيني والتفت نحو مصدر النسيم، واستمتعت بلمسته اللطيفة المحببة. وعندئذ، سمعت تلك الهمسة مجدداً.
"كيميا...".
أجفلت وفتحت عيني على وسعهما دهشة، ورحت أتلفت حولي لأنني ظننت للوهلة الأولى أن الصوت صادر من الداخل. لم يكن هناك أحد في الغرفة، ولكنني سمعت ذلك الصوت بكل وضوح. كانت هذه هي المرة الثالثة التي يناديني فيها شخص ما بهذه الطريقة. أم إن هذا مجرد حلم؟ ولكن، كيف أحلم وأنا واقفة وعيناي مفتوحتان؟ عادت أفكاري إلى زجاجة الشراب التي احتسيتها مع نايغل في الليلة السابقة، وتملكني القلق من أن يكون أحدهم قد دس فيها شيئاً ما، ولكنني وجدت الفكرة سخيفة لأنه لا يمكن للتأثير أن يدوم طوال ذلك الوقت.
تردد صدى الهمسة ذاتها في الغرفة مرة أخرى: "كيميا...".
لم أستطع أن أستوعب معناها. أهي مناشدة أم صرخة استغاثة أم شكوى من شخص يعرفني؟ التفت حولي وتقدمت بعزيمة نحو باب الشرفة المفتوح ورفعت الستائر وخرجت، فوجدت الشرفة الصغيرة فارغة إلا من مقعد خشبي يقبع بصمت في الزاوية. تفحصت الجدار الذي يفصل شرفتي عن الشرفة الأخرى، واستنتجت أنه لا يعقل لذلك الصوت أن يكون قادماً من الغرف المجاورة. ألقيت نظرة خاطفة إلى الباحة الصغيرة المهجورة في الأسفل، ثم إلى الجدران الحجرية لمسجد السلطان سليم، فوجدت المسجد القديم مضاء بضوء أصفر خافت؛ ما أضفى عليه مظهراً متسماً بالكآبة. أما خلف المسجد، فقد أحدث الوهج القادم من ضريح رومي تأثيراً معاكساً تماماً. وبدت العتمة عاجزة كلياً أمام الضوء الأخضر الساطع الصادر من هذا الضريح، والذي أخذ يتوهج كحجارة اليشب النقية.

أخذت الرياح تهب من جديد، وراح شعري يتطاير حول وجهي، فجمعت خصلاته المتطايرة وأمسكتها بيدي وأنا أشاهد الأشجار تتمايل في مهب الرياح أمام المسجد. استطعت أن أسمع صوت الرياح وهي تمرّ بين الأغصان، فمنحني هذا شعوراً بالاسترخاء. لا بد أن ما سمعته مجرد صوت صفير الرياح بين الأشجار، ولكن شيئاً غريباً لفت نظري في تلك اللحظة. فبالرغم من المسافة البعيدة بيننا وقلة الضوء، استطعت أن أميز العينين الكحيلتين والشفتين الحمراوين المحددتين والمنفرجتين. ها هو الرجل نفسه يستدعيني من أمام النافورة وهو لا يزال متسربلاً بالسواد؛ الرجل نفسه الذي أعطاني الخاتم.

شعرت بالدم يتجمد في عروقي، وبدأ رأسي يدور، وكدت أقع لولا أنني تشبّثت بالسياج. أعدت استجماع حواسي بصعوبة، واعتدلت في وقفتي، ونظرت إلى الأسفل. تفحصت المنطقة حول المسجد ونافورته، ولكنني لم أر ما يدل على وجود أي كائن حي في تلك الساحة الصغيرة. فقد تلاشى الرجل الغامض؛ بالضبط كما فعل في المرة الأولى التي صادفته فيها. تمتمت لنفسي بتوتر شديد: "ما هذا؟ من هذا الرجل؟ ولماذا يستمر بتعقبي؟". استقرت عيناي الباحثتان مرة أخرى على الضريح، وتساءلت فجأة إن كان الخاتم قد اختفى بدوره. ربما لم يعطني أحد أي خاتم على الإطلاق. أيعقل أن أكون قد اختلقت القصة برمتها؟ اندفعت إلى الداخل بفزع، وأنرت الأضواء، وبدأت أبحث في حقيبتي باهتياج، ولكنني وجدت الخاتم في مكانه تحت جواز سفري. الآن تأكدت أنني لا أهذي، وأنني لم أفقد صوابي. رفعت الخاتم وأنا أتنفس الصعداء، وتفحصته عن كثب. كان خاتماً فضياً رائعاً نُقشت عليه بمهارة زهرة زنبق ووردة وزهرة نرجس. لمست الحجر البني الداكن فوجدته دافئاً كالدماء، وسطحه مكسو بغشاوة. لمعته بقميصي فتلاشت الغشاوة عنه. تمتمت لنفسي قائلة: "ترى، أي طاقة تسكن هذا الخاتم؟". لم أتوقع أي جواب. ومع ذلك، شعرت بوجود شخص غامض يقف قبالتي، فرفعت نظري وأنا مرعوبة، ورأيت صورتي منعكسة في المرآة أمامي وجهاً لوجه. وبدا مظهري أشعث، وبدوت متوترة ومنفعلة، فبعثت هيئتي الإحباط في نفسي. قلت لنفسي وأنا أنظر إلى صورة وجهي في المرآة: "إنني منهكة. نعم، إنني منهكة فعلاً لا أكثر".

"هلا تكشف لي النقاب عن وجه
محمد جلال الدين رومي"
استيقظت عندما شعرت بضوء ساطع يلامس وجهي. ولكن الصباح لم يشرق بعد، فالغرفة لا تزال تقبع تحت جنح الظلام الدامس. إذاً، من أين أتى ذلك الضوء؟ جلست على السرير، وحاولت أن أجد مصدره. بدا لي قادماً من المرآة، ولكن، كيف؟ وعندئذ، لاحظت وجود الكمبيوتر المحمول مفتوحاً. تذكرت أنني أطفأته قبل أن أذهب للنوم، ولكن لا بد أنني مخطئة. نهضت من السرير متعثرة لأطفئه، ولكن وجود بقعة لافتة للنظر على الجدار شتّت انتباهي، ورأيت الباب الأزرق الفاتح لا يزال في مكانه. اعتبرت ذلك أمراً طبيعياً لأنني تركت الكمبيوتر مفتوحاً. حاولت أن أتجاهله، ولكنني عندئذ لاحظت أن أحد جانبي الباب المزدوج موارب بعض الشيء. فتلكأت قليلاً وأنا أتساءل: كيف يكون له جانبان في المقام الأول؟ أليس مجرد انعكاس؟ عندما دنوت منه لألقي عليه نظرة فاحصة، تشوه شكله وأخذ يمتد إلى الأعلى والخارج ثم إلى الأسفل حتى أصبح عند قدمي. وقفت أمامه مذهولة وأنا أراه ينفتح على مصراعيه ويصدر صوت صرير. استولى عليّ شعور لم أستطع أن أحدده، فهو ليس شعوراً بالخوف تحديداً بل مزيجاً من التوتر والفضول. وأخيراً، مددت رأسي إلى الداخل لأحاول أن أتبين ما يوجد خلفه، فبدا أشبه بممر سري يؤدي إلى مكان مجهول. لم أستطع أن أميز أي شيء في الظلام الدامس. ومع ذلك، عجزت عن مقاومة فضولي أكثر، وشعرت أنني مجبرة على التسلل عبر الباب المفتوح.
عندما خطوت أول خطوة، هبت رياح باردة على وجهي وسمعت عويلها وهي تشق طريقها عبر إحدى الغابات. خطوت خطوة أخرى، فوجدت نفسي في حديقة. ترى، أهذه هي حديقة المنزل الذي أتيت إليه بصحبة والدي؟ لم أستطع أن أميزها لأن كل شيء فيها كان مغموراً بضوء فضي خافت. بالكاد استطعت أن أميز بركة خزفية لامعة أمام مبنى قرميدي. رأيت انعكاس صورة البدر على صفحة الماء. كنت سأشعر بالصدمة لولا رائحة نبات إبرة الراعي التي فاحت في كل مكان، ولكن ذلك العطر المسكر جعلني أخلط بين المظاهر والحقيقة. أردت أن أعود إلى رشدي مجدداً، وأن ألمس هذه الرؤيا المربكة لأستعيد حواسي، لذا انحنيت ووضعت إصبعي على صورة البدر الشفافة التي أضفت لوناً فضياً على البركة، فارتجف البدر، وارتجفت المياه في البركة، ثم ارتجفت الزهور وأشجار الحور

والحديقة كلها بحشراتها وطيورها النائمة، وسرت رعشة في أطراف أصابعي، وهزت أوصالي. شعرت أنني متواصلة مع الحديقة والمنزل القرميدي الصامت والبركة الخزفية والبدر المنعكس على صفحة مياهها؛ وكأنني أسبح في تلك البرودة الفضية القارسة.

سمعت همساً أشبه بصوت شخص يتلو دعاء أو أمنية أو يفضي بسريرة نفسه في الخفاء. التفت حولي لأعرف مصدر الصوت. فبدا قادماً من المسافة المفتوحة إلى يميني. مشيت نحوه، ومررت بصف من أشجار الحور الطويلة، وهناك رأيت رجلاً راكعاً على بلاط حجري ويداه مرفوعتان إلى السماء وهو يتمتم بصوت منخفض. لم أستطع أن أرى وجهه ولا أن أسمع ما يقوله بوضوح. ومع أنني وجدته مألوفاً، إلا أنني ظننت أنه من الحكمة ألاّ أدعه يعرف بوجودي. اختبأت خلف جذوع الأشجار النحيلة، وتفحصت المنطقة بحثاً عن مكان يساعدني على رؤية وجهه بوضوح. احتجب البدر خلف الغيوم، فمنحني هذا فرصة لأعبر إلى وراء الورود المتسلقة التي شكّلت أجمة مقابل الرجل. ومع أنني لم أستطع أن أرى وجهه في ضوء البدر الخافت، إلا أنني تمكنت الآن بسهولة من أن أسمع كل ما قاله. ميزت صوته، ولكن ما لفت انتباهي أكثر هو كلامه.

"يا مخلوقات السماء الطاهرة، أيتها الكائنات النورانية النقية، أسألك باسم الخالق عز وجل أن تسمي لي أحد أصفياء الله المخلصين".

ألقيت في المكان نظرة خاطفة لأرى من يتحدث إليه الرجل، ولكنني لم أر أحداً. وفي الوقت نفسه، هز صوت عويل أرجاء الحديقة مزلزلاً إيّاها، فارتجفت أوراق الحور وزهور الزنبق، واهتزت أجمة الورد التي اختبأت خلفها. وعندئذ، سمعت صوتاً مدوياً من مكان لم أستطع أن أراه.

"إن الحياة التي تسأل عنها حياة مخفية عن أنظار الجميع، حياة تحظى بالعفو والنعمة. إنها حياة جلال الدين رومي ابن سلطان العلماء بهاء الدين البلخي القونوي".

وقفت متسمرة في مكاني بينما واصل الرجل الراكع ابتهاله بتصميم هادئ وطبيعي وكأنه يتحدث إلى صديق قديم.

"هلا تكشف لي عن صورة جلال الدين رومي وعن الوجه المبارك لصفي الله المبجل؟".

مرة أخرى، هزّ صوت هدير الحديقة وهو يقول: "ماذا ستدفع سداداً لدينك وامتناناً لخدمتي؟".

من دون تردد أو وجل، رسم الرجل بأحد أصابعه خطاً على حنجرته

وأعلن قائلاً: "سأضحي برأسي!".
في تلك اللحظة، أشرق ضوء القمر من خلف الغيوم، وأضاء وجه الرجل كالمصباح، فوجدت أنه الدرويش نفسه الذي أعطاني الخاتم، والذي ناداني لاحقاً أمام النافورة ودعاني باسم كيميا. ترى، ما الذي يفعله هنا؟ ومع من يتحدث؟ بينما كان ذانك السؤالان يتصارعان في رأسي، التفت الرجل إليّ وحدق إلى وجهي من خلال الورود المتسلقة وكأنه يعرف طوال الوقت بوجودي. فتراجعت إلى الوراء خلف الأغصان والزهور النضرة كي لا يراني، ولكن البدر تعمد أن يضيء الشجيرة كشمس الصباح. استولى عليّ شعور طفولي بأنني إن لم أنظر إليه فلن يتمكن هو أيضاً من رؤيتي. مكثت على ذلك الحال لبعض الوقت، ولكن عندما لم أعد أسمع أي صوت، عاودت النظر إلى الباحة الحجرية التي كان راكعاً فيها فلم أجده هناك. أبقيت حواسي متنبهة وأنا أتوجه خارجة من وراء الشجيرة، وأتقدم نحو الأمام بخطوات قصيرة؛ منحنية من تحت الأشجار، وعدت أدراجي بهدوء. ومع ذلك، ثبت لي أن خوفي غير ضروري لأنني تمكنت من الوصول إلى البركة أمام البيت القرميدي بسهولة حيث وقفت لأستعيد رباطة جأشي. وفجأة، أفزعني صوت قعقعة خشب يجره أحدهم على الأرضية الحجرية. فالتفت نحو مصدر الصوت ووجدت باباً يؤدي إلى إحدى الغرف قد انفتح وانعكاساً باهتاً للضوء القادم من الداخل يتسرّب عبر الأساس الحجري للحديقة ويسقط على البركة. عند مدخل الباب المفتوح، رأيت الصورة الظليلة للرجل ذي العمامة ولم أرَ وجهه، ولكن من الواضح أنه كان يبحث عن شخص ما. تراجعت إلى الوراء وأنا مرعوبة، وخطر ببالي أن أصل إلى الأشجار حيث لا يمكنه أن يراني. وفي تلك اللحظة، قبضت يد قوية على رسغ يدي بإحكام، وسمعت صوتاً يقول لي: "كيميا...".
التفت إلى الوراء فوجدت الرجل الملتحي والمتسربل بالسواد، ورأيت الغضب يقدح شرراً في عينيه اللوزيتين لدرجة أنني صحت بأعلى صوتي.
لا بد أن صوتي نفسه هو ما أيقظني من نومي، فجلست منتصبة، ونظرت في أنحاء الغرفة التي أصبحت الآن مغمورة بضوء الشمس الساطع. حاولت أن أهدئ ضربات قلبي العنيفة وقلت لنفسي: "إنه مجرد حلم... حلم".
تراجعت إلى الوراء معتمدة على ذراعيّ، وكررت مرة أخرى بصوت منخفض: "إنه مجرد حلم". لا بد أن تلك الكلمات كان لها تأثير مهدّئ عليّ. ولكن، عندما تذكرت تينك العينين الثاقبتين للرجل الغريب المتسربل بالسواد، لم أستطع أن أمنع القشعريرة التي سرت في جسدي.

"عمل الله لغز غامض تحار فيه العقول"
تأملت الصورة المعلقة على جدار غرفة الفطور والتي تظهر درويشاً يدور حول نفسه ويده اليمنى مفتوحة نحو السماء والأخرى نحو الأرض. أدركت أن ثمة معنى لهذه الحركة. فقد شرحه لي والدي، ولكنه غاب عن ذاكرتي. بدت السماء والأرض في الصورة مظلمتين، وحتى إن وجه الدرويش لم يظهر بشكل واضح، ولكن رداءه الأبيض وحده ظهر منيراً وساطعاً وكأن كل القصة تكمن في هذا القماش الأبيض وتلك العباءة المتطايرة عديمة الكمين والياقة التي حولت الدرويش إلى مخلوق غريب، وأضفت تأثيراً خاصاً على هذه الصورة.
"إنها صورة جميلة، أليست كذلك؟".
التفت إلى الوراء وقابلت مينان وجهاً لوجه. نظر إلى عيني بعينيه الخضراوين من دون تكلف، وكأننا نعرف بعضنا منذ سنوات طويلة. لم أعرف كيف أجيب عن سؤاله، ولم أستطع أن أقرر إن كان ينبغي عليّ أن أبتسم أم أن أبادره بالتحية. استولى الارتباك على مينان عندما لم أبادله لقاءه الحار بمثله، فقال لي بلطف رغم كبريائه المجروحة: "إنني آسف. أظن أنني أزعجك".
فأجبته نادمة على رد فعلي الجاف قائلة: "آه، كلا... كلا... إنك لم تزعجني على الإطلاق. صباح الخير، يا سيد فيدان. تفضل بالجلوس لو سمحت".
تمكنت من إجبار نفسي على الابتسام، وأنا ألوح له بيدي نحو الكرسي المقابل لكرسيي، فتلاشى التوتر من ملامح وجه الرجل الممتلئ.
وقال لي وهو يجلس: "صباح الخير. كيف أمضيت الليلة الماضية؟ هل نمت جيداً؟".
لم أكن بالطبع أنوي أن أخبره عما مررت به من أحداث وعن الحلم الذي راودني.
فقلت: "نعم، لقد نمت جيداً. شكراً لاهتمامك".
قال: "إنه فندق جميل". وأشار إلى صورة الدرويش قائلاً: "أظن أنك كنت تنظرين إلى هذه الصورة؟".
"نعم. إن رداء الدرويش قد لفت انتباهي، فهو لا يبدو كالثياب العادية بل يبدو أشبه بامتداد لجسم الراقص".
لمعت عينا الرجل ببريق البهجة وأعلن قائلاً: "هذه تنورة".
"تنورة!؟".

كرر الكلمة بحماسة وقال: "نعم، هذا اسمها".
التفت لأعاود النظر إلى الصورة وقلت: "هل لها معنى؟ أم إنها مجرد زي للرقص؟".
فصاح برعب قائلاً: "مجرد زي للرقص؟! لا سمح الله!".
كانت تلك هي المرة الأولى منذ التقينا التي استشعرت فيها بنبرة نقد في صوته.
قال مينان: "هذا الرداء يرمز إلى الكفن". وتوقف قليلاً، ثم أضاف ظناً منه أنني لا أعرف ما يتحدث عنه قائلاً: "إن الكفن قماش أبيض نلف به الميت قبل أن ندفنه. ينبغي ألاّ يلبس عباد الله أي شيء سوى هذه الأكفان البيضاء عندما يلاقون وجهه الكريم، أي بكامل طهرهم ونقائهم".
أشرت إلى القبعة التي تشبه الكوز على رأس الدرويش، وقلت: "وماذا عن هذه؟".
فقال مينان بسعادة: "إنها ترمز إلى شاهدة القبر".
قلت باستغراب: "شاهدة قبر؟! كم هذا غريب! يوجد الكثير من المعاني المتعلقة بالموت. ما سبب هذا؟ إنها مجرد رقصة على كل حال، والدراويش راقصون أحياء يرزقون".
أشاح بوجهه وهو يبحث بارتباك عن إجابة، ولكن ارتباكه لم يدم طويلاً على كل حال. فحاول أن يجد صياغة مناسبة لجوابه.
"كلا... كلا، لا تقولي شيئاً من هذا القبيل. مجرد رقصة! إن الرقصة الدائرية ليست مجرد رقصة. والمولوي أو الدرويش، كما تسمونه أنتم، ليس مجرد راقص". أخذ مينان يجهد نفسه ليعثر على الكلمات الصحيحة، وأضاف محاولاً أن يصيغ الشرح بجمل مترابطة: "إن الرقصة الدائرية نوع من العبادة كالصلاة. أتعرفين كيف تقومون بالاعتراف في الكنيسة بحضرة الكاهن وما إلى هنالك؟ إنها أشبه بذلك".
مع ذلك، لم يبدُ مينان مقتنعاً بالتفسير الذي قدمه. فجرب تفسيراً آخر، وقال: "إن الرقصة الدائرية لا تمثل الموت بل على العكس تمثل الحياة، أعني الولادة من جديد، أي أن يصبح الإنسان طاهراً من ذنوبه، ويجتاز العالم الحسي إلى مملكة الحقيقة. في أثناء هذه الرقصة، يرتدي الدراويش عباءات سوداء فوق التنانير البيضاء، وهذه العباءة السوداء في الحقيقة تمثل قبر الدرويش".
لم يضف سماع كل هذا الكلام إليّ إلا المزيد من الارتباك، فسألته قائلة: "وهذا هو بالضبط ما لا أفهمه. أعني إنك تتحدث عن القبر وشاهدة القبر

والكفن... ما علاقة كل هذا بالحياة أو بالرقص؟".
مدّ مينان ذقنه العريض الحليق، واعترف قائلاً: "لأتوخى الصراحة معك، فأنا لا أعرف الكثير عن هذا، ولكن ما أعرفه عن الأمر هو أن الدرويش ينزع العباءة السوداء أولاً، وهذا يعني خروجه من القبر، ثم يبدأ بالرقصة الدائرية".
"أتعني الدوران؟".
تنهد مينان بغضب، وقال: "ليس مجرد دوران. إن صوفيي الطريقة المولوية لا يجدون هذه الكلمة ملائمة بل يفضلون مصطلح الرقص الدائري. وهكذا، عندما يخلع الدرويش عباءته السوداء، فكأنه يبعث من القبر. وعندما يبدأ الرقص، فهو ينطلق على الطريق الصحيح نحو الإنسان الكامل".
"ما المقصود بالإنسان الكامل؟".
"الإنسان الكامل يعني كائناً حكيماً وروحانياً يصبو إلى التقرب من الله؛ وهذه أصعب مهمة يمكن للمرء أن يقوم بها. إذ يجب عليه أن يمر بالعديد من المراحل المنفصلة أو البوابات. والممر الذي يصل بين هذه البوابات هو ما يتم تمثيله خلال الرقصة الدائرية التي يؤديها الدراويش. وهناك أربع حركات موسيقية واضحة تمثل أربع تحيات، وهذا ما تسمى به أجزاء الرقصة. فالبوابة الأولى هي الشريعة؛ وهي مجموعة من القوانين التي لا يزال معظم المسلمين يعيشون وفقها، وتُحدّد سلوكهم. والبوابة الثانية هي الطريقة؛ وهي البعد الداخلي الغامض للطريقة المولوية الصوفية. والبوابة الثالثة هي المعرفة؛ وهي أشبه بإنجاز مكافئ كاللحظة التي نستوعب فيها الحقيقة المطلقة. أما البوابة الرابعة، فهي الحقيقة؛ وهي المرحلة الأخيرة التي يشارك فيها الدرويش المتنور حكمته. فعندما يفتح الدرويش يده اليمنى للأعلى، فإنه يتلقى البركات من الله. وعندما يفتح يده اليسرى نحو الأرض، فإنه يمنحها للناس. وبهذه الطريقة، يكمل الدرويش دورة الولادة من جديد، وهي ولادة مباركة بكل تأكيد". مسح مينان بظاهر يده قطرات العرق التي تجمعت على جبهته، وقال: "إنني، كما أسلفت لك، غير متعمق في هذه المواضيع، ولكن إن أردت يمكنني أن أصطحبك إلى مأوى الدراويش. فأولئك الناس يعرفون الكثير عن هذه الأشياء".
في الواقع، وجدت شرحه أكثر من كاف بالرغم من أنه لم يقنعني. ولم تكن لديّ أي نية في الذهاب إلى مأوى الدراويش أو أي شيء من هذا القبيل. فإن لم يستطع والدي أن ينور بصيرتي وأنا في الثانية عشرة من عمري، فكيف يمكن لأي شخص من المأوى أن يفعل ذلك؟ لا بد أنني

ووالدي ناقشنا هذه الأمور من قبل، وأنني سمعت منه هذه المصطلحات التي تعني القبر وشاهدة القبر والكفن. فلماذا أعاني من وقت عصيب في تذكرها إذاً؟ ربما لم يخض والدي في التفاصيل خشية أن يثير كلامه الخوف في نفسي، أو ربما أراد أن ينتظر إلى أن أكبر قليلاً، أو ربما امتنع عن ذكر ذلك بسبب أمي.

لم تكن أمي امرأة متدينة في حياتها. ولم تعتبر نفسها مسيحية، أو تخجل من الاعتراف بذلك. فقد اعتادت أن تقول: "إن وجود الرب لا يعني أنه إله للمسيحيين وحدهم، فهو في الوقت نفسه إله اليهود والمسلمين وكل الديانات الأخرى".

ذات مرة، طرحت أمي سؤالاً على كاهن كاثوليكي قابلته في إحدى الحفلات. وقالت وهي تنظر إلى عينيه الزرقاوين الواسعتين البريئتين كعيني الأطفال: "أخبرني إذاً، لماذا لا يتدخل الله ليمنع الشر؟".

كان الكاهن رجلاً طيباً فلم يبد أي دلالة على التصغير من شأنها بل منحها كل انتباهه ورد على سؤالها بابتسامة صادقة قائلاً: "لأن عمل الله لغز غامض تحار فيه العقول".

اكتسبت ملامح وجه أمي تعبيراً يدل على خيبة الأمل، وقالت: "أتمنى لو أنه ليس كذلك". وهزت رأسها وأضافت قائلة: "أتمنى لو أن عمل الله واضح وسهل للفهم كهاتين العينين الزرقاوين اللتين أراهما في وجهك". لم يجد الكاهن ذو العينين الزرقاوين رداً على ما قالته أمي. فأطرق والتزم الصمت.

أخرجني مينان من أحلام يقظتي عندما بادرني قائلاً: "يمكننا أن نذهب الليلة إن أردت ذلك".

"إلى أين؟".

"إلى مأوى الدراويش. لا تقلقي فهم أناس طيبون ويقدرون الأجانب المهتمين بالتعاليم الصوفية المولوية، ويسرون للإجابة عن كل تساؤلاتك".

أيقنت أن كلامه صحيح، ولكنني لم أشعر برغبة في مقابلة أحد. وأوشكت أن أقول ذلك عندما بدأ هاتفي الجوال يرن.

اعتذرت من مينان لأرد على المكالمة، ووجدت أن أمي هي المتصلة. إذاً، لقد تذكرت ابنتها أخيراً!

"مرحباً يا أمي. لقد تأخرت بالاتصال. أين كنت؟".

بدا صوتها موحياً بالتعب. فردت باقتضاب قائلة: "في المستشفى".

وفجأة، ملأني الرعب، وتساءلت إن حدث مكروه ما لنايغل.

"المستشفى؟ لماذا؟".
"لقد توفي".
"من؟".
لم أسمع أية إجابة. وشعرت أنني أكاد أفقد صوابي. فكررت عليها السؤال بفزع قائلة: "من الذي توفي يا أمي؟".
"العم ماثيو. توفي الليلة الماضية".
تنفست الصعداء. فقد كان العم ماثيو يخضع للعلاج من السرطان منذ ثلاث سنوات، ولكن وضعه ازداد تدهوراً خلال الشهرين الماضيين. فكنا جميعاً نصلي له ليتخلص من معاناته.
قلت بصوت منخفض: "الحمد لله. فقد انتهت معاناته". سألتها لأفهمها ربما أو لأخفف عنها أو لمجرد كسر الصمت: "هل اتصلت بك زوجته؟".
"كلا، بل إن موظفي المستشفى هم من فعلوا ذلك".
كررتُ كلامها بدهشة، قائلة: "المستشفى؟".
فأجابت أمي بصوت متهدج قائلة: "لقد ذكر اسمي وهو يحتضر. اسمي أنا يا كارين. هل تفهمين؟ لم يذكر اسم زوجته ولا ابنته بل قال سوزان". وأجهشت بالبكاء.
"لا، يا أمي، لا تحزني. إن الرجل المسكين يرقد بسلام الآن بعد أن أمضى أشهراً في المستشفى. لقد حدثتني بنفسك عن مدى المعاناة التي مر بها".
ساد الصمت قليلاً، واستطعت أن أسمع من الجانب الآخر من الخط صوت أمي وهي تتنشق، ثم استجمعت قوتها مجدداً وواصلت الكلام قائلة: "أنت على حق. فقد رقد بسلام أخيراً. إنني لا أبكي لأنه توفي، ولكنني أبكي على الماضي؛ ماضينا الذي ضاع من بين أيدينا...".
كان الرجل الذي لطالما عرفته باسم العم ماثيو الحب الأول في حياة أمي منذ أيامهما في المدرسة الثانوية. في الواقع، لقد ربطت بينهما قرابة نسب. ذات مرة، رأيت صورة للعم ماثيو في كتاب المدرسة السنوي وهو طالب في مدرسة خاصة وعمره ستة عشر عاماً. فبدا شعره الأحمر - الذي اعتاد أن يقصه قصيراً - مزيناً جبهته العريضة. تذكرت عينيه الخضراوين الخجولتين العميقتين، ووجهه المرصع بالنمش، وذقنه الطويل تحت شفتيه الرقيقتين الشاحبتين. ولد ماثيو وفي فمه ملعقة من ذهب. إذ إنه ابن عائلة ثرية ومحافظة وعريقة تمتد جذورها إلى عدة أجيال في العائلة المالكة. كانت عائلة أمي ميسورة الحال أيضاً، ولكن ليس بقدر ثراء عائلة ماثيو. ومع ذلك، لم يشكل هذا أية أهمية لأن أمي والعم ماثيو نشآ نشأة متناقضة

كتناقض الثلج مع النار. وعندما أخبرتني أمي أول الأمر عن قصة حبهما، تخيلت ماثيو الشاب وهو يترجل من سيارة والده ذات طراز رولز رويس ليتمشى في الحدائق الواسعة في عزبتهم الكائنة بمنطقة ريتشموند، ثم تخيلت مظهر أمي في شبابها وهي ترتدي ملابس الهيبيين وتخرج في مظاهرة احتجاجية للسلام في ساحة ترافالجار. حتى في ذلك الوقت من الماضي، أيقنت أن بقاءهما معاً أمر غير وارد الحدوث على الإطلاق، ولهذا السبب لم تشعر أمي في شبابها بتأنيب الضمير عندما قطعت علاقتها به. ومع ذلك، بعد أن فارق أحد أهم الأشخاص في حياتها الحياة، بدأ ربما بعض الندم ينتابها رغم كل الاختلافات بينهما، وتألمت لموته أشد الألم لأنها أحبته من كل قلبها، ولكن بطريقتها الخاصة.

تمتمت بصوت مجروح: "ربما كان ينبغي عليّ أن أظل معه وأن أدعه يبقى الرجل الوحيد في حياتي".

بالرغم من أنني أدركت كم كان ذلك سيكون صعباً بالنسبة إلى امرأة مثل أمي لا تزال حتى في هذا السن غير قادرة على الاستقرار، فقد أدركت أيضاً أن هذا التفكير يفيدها. فعلى الرغم من كل حزنها والمأساة الحقيقية التي حلت بقلبها، فقد شكل ذكر ماثيو لاسمها وحدها وهو يموت لحظةً من أكثر اللحظات الجميلة والهامة التي مرت بها منذ سنوات. وهكذا، لم أجد أي سبب منطقي يجعلني الآن أصدمها بالواقع، وأفسد عليها هذه اللحظة الثمينة.

قلت لها: "نعم، ربما أنت محقة يا أمي، ولكن ذلك لم يحصل. فالحياة لها منطقها الغريب الخاص بها. حاولي ألاّ تغرقي نفسك بالأحزان. متى ستقام الجنازة؟".

قالت بكآبة: "لست أدري. بماذا يهم ذلك؟ فقد رحل، مات إلى الأبد. قد لا أذهب حتى لحضور الجنازة".

شعرت أنها تريد بذلك أن تتجنب رؤية زوجة ماثيو وابنته وهما في الحداد. فقد أرادت أن تتحمل وطأة خسارتها حبها الأول وحدها لأنها غير مهيأة لأن تشارك بؤسها مع أحد آخر، ولكن الشكوك ساورتني حيال قرارها لأنني توقعت أن تندم عليه لاحقاً.

"بعد الدور المهم الذي لعبه العم مات في حياتك، ألن ترغبي في أن تودعيه الوداع الأخير؟".

أجابت أمي بتصميم قائلة: "لقد ودعته ليلة البارحة إلى أن أتى الآخرون وقاطعونا. فأفضيت له بكل مكنونات قلبي، وقلت له كل ما لم أقله من

قبل". وبدأت تجهش بالبكاء مجدداً.
لم أعد قادرة على التخفيف عنها بعد الآن. فانتظرت إلى أن أصبحت المرأة التي بدت ضائعة في ذكريات شبابها مع حبها الأول هادئة ومتزنة مجدداً.
وقالت أخيراً: "كلا يا كارين، لن أذهب إلى تلك الجنازة".
لو أنني فكرت للحظة أنها لن تندم على قرارها لدعمتها فيه، ولكن معرفتي الوثيقة بأمي جعلتني متأكدة من أنها ستشعر بالندم بعد دفن ماثيو - وربما قبل أن يمضي أسبوع على دفنه - لأنها لم تذهب لحضور جنازته.
ألححت عليها قائلة: "حسناً، إن القرار عائد إليك حسبما أعتقد. ولكن، أليس هذا منافياً للأصول؟ ماذا سيقول الناس؟".
صاحت بغضب قائلة: "لست آبه للأصول البتة. لا يجب عليّ أن أشارك قلبي المفطور مع الآخرين".
اكتشفت أنه من غير المجدي أن أستمر في إلحاحي عليها، فكررت كلامي رغبة مني بأن أغير الموضوع: "إن القرار عائد إليك يا أمي. إن أمرك وحدك هو ما يهمني، لذا حاولي وحسب ألاّ تدعي الحزن يسيطر عليك".
"من السهل عليك أن تقولي هذا الكلام".
ها هي تتكلم بهذا الأسلوب مرة أخرى. لطالما اعتادت أن تفعل ذلك. فإن قلت لها: "حسناً، أنت محقة يا أمي"، قالت لي: "لا تقولي هذا، فأنا مخطئة". وإن قلت لها: "حسناً إذاً، فأنت مخطئة"، شعرت بالإهانة وقالت: "إنك دائماً تعتقدين أنني مخطئة على كل حال". ولكن الوقت لم يكن مناسباً لتبادل اللوم والعتاب.
تمتمت قائلة: "حسناً، هذا كل ما لديّ. ما الذي يمكنني قوله غير ذلك في كل الأحوال؟".
بدت نبرة صوتي موحية بالتأنيب بالرغم من أنني لم أتعمد ذلك، ولكن أظن أنها تفهمت موقفي.
فهمست قائلة: "إنك محقة. فأنا لا أعرف ما أقوله. ليس هناك ما يستطيع أحد أن يفعله لي على كل حال يا عزيزتي". ثم اكتسب صوتها نبرة أشد رقة وهي تقول: "لا تأبهي لأمري. متى ستعودين من السفر؟".
أخيراً هدأت أمي.
فقلت وأنا آخذ نفساً عميقاً: "لست أدري. فلديّ اجتماع بعد قليل. أعتقد أن الأمر سيتضح بعد هذا الاجتماع".
قالت بعد صمت قصير: "حسناً، لا تعلقي هناك لوقت طويل. فنحن

بحاجة إليك هنا".
أوشكت أن تقول شيئاً آخر؛ ربما عن والدي، أو ربما عن هذه المدينة التي أتت إليها قبل سنوات، ولكنها في النهاية أمسكت عن الكلام. لم تكن على الأرجح تريد أن تتذكر والدي أكثر مما أتذكره أنا؛ بالرغم من أن عدم الرغبة بالتذكر وعدم التذكر الفعلي حالتان مختلفتان كل الاختلاف. مع ذلك، غالباً ما فكرت فيه رغماً عن إرادتها. وبالطريقة نفسها التي لطالما اعتز بها العم ماثيو بحبه الأول رغم تخليها عنه، والدليل على ذلك أنه تفوه باسمها وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، فقد ظلت أمي عاجزة عن نسيان الزوج الذي خلفها وراءه ورحل. شعرت أن الحديث عن موت حبها الأول الذي أجبرها على إعادة تقييم حياتها قد أنهكها، ولم تعد تشعر أنها قادرة على مناقشة أمر قونية أو والدي، فسررت كثيراً لأن ألبي لها هذه الرغبة.
فقلت: "اعتني بنفسك، يا أمي".
ساد الصمت مرة أخرى. ترى، هل ستعيد فتح الموضوع؟ خطر ببالي أنها بدأت تفكر في والدي مجدداً كثيراً في هذه الأيام. وربما لم يفارق تفكيرها منذ أن قلت لها إنني مسافرة إلى قونية؛ إلى أن توفي العم ماثيو. في الحقيقة، أدركت مدى حزنها على والدي حتى وهي تتطرق إلى موضوع العم ماثيو. نعم، أوشكت أن تذكره ولكنها غيرت رأيها. فلم تكن ربما قادرة على إخفاء كبريائها أو راغبة بذكر اسمه احتراماً لذكرى ماثيو.
قالت بصوت مفعم بالكآبة: "اعتني بنفسك أنت أيضاً يا كارين". وبعد أن أنهيت المكالمة، شعرت بحزن عميق يستولي عليّ؛ ليس على أمي أو أبي، بل على العم ماثيو المسكين وقصة حبه الأول العنيف غير المتبادل الذي تمسك به إلى آخر رمق في حياته.
سأل مينان وتعبير وجهه موحٍ بالقلق: "هل هناك أخبار محزنة؟". كان جالساً قبالتي تماماً، ولكن يبدو أنني نسيت أمره كلياً. أيمكن أن يكون هذا الرجل قد فهم فحوى حديثنا؟ ولكن كلا، فتعبير وجهه لم يبدُ موحياً بأي معنى من ذلك النوع.
قلت له متجنبة الموضوع: "إنها مسائل عائلية".
لم يلح عليّ أكثر من ذلك. مددت يدي لآخذ فنجاني، وارتشفت رشفة أخيرة من الشاي بالحليب ليس لأنني أردت شربه، ولكن بحكم العادة. لم يعترض مينان، ولكنه أبقى عينيه المستطلعتين مركزتين عليّ. كان شعوره في محله، ولكن ذلك سبب لي عدم الارتياح. فقلت له وأنا أنهض مبتسمة: "هلا نذهب".

فنهض على الفور، وقال: "بكل تأكيد،كما تشائين".
أعدت وضع هاتفي في حقيبتي، وقلت: "لدينا متسع من الوقت لزيارة الفندق الذي تعرض للحريق، أليس كذلك؟".
تمتم مينان وكأنني طلبت منه طلباً شائناً: "الفندق!؟ لماذا؟ لقد تحول إلى حطام".
فقلت بفتور وأنا أنظر إلى عينيه: "أريد أن أتفقد حالته لأحاول أن أكتشف كيف اندلع الحريق، وأقرر إن كان عملاً تخريبياً، فهذه طبيعة عملي كما تعرف".
"عملاً تخريبياً؟! إن تقرير فوج الإطفاء يقول إنه مجرد حادث".
إلى جانب من يقف هذا الرجل المدعو مينان على كل حال؛ شركة التأمين أم شركة إيكونيون للسياحة والسفر؟".
قلت محاولة أن أتحلى بالحزم: "لقد قرأت ذلك التقرير، ولكن الإحصائيات تشير إلى أن ثلاثين بالمائة على الأقل من الحوادث التي تقرر الفرق الإطفائية أنها حوادث يتضح أنها حرائق أضرمت بفعل فاعل، ليس هنا فقط بل في إنكلترا أيضاً. ولهذا السبب، التقرير الوحيد الذي أثق به هو تقريري الخاص. وفي سبيل تحقيق هذه الغاية، يجب عليّ أن أزور موقع الحادث".
تنهد ونظر إلى ساعته قائلاً: "حسناً، سأصطحبك إلى هناك، ولكن ليس لدينا متسع من الوقت الآن. إذ يفترض بنا أن نقابل مدير شركة إيكونيون في غضون نصف ساعة. يمكننا أن نذهب في وقت لاحق. إذ ربما يودون أن يرافقونا إلى هناك".
"حسناً إذاً، سنذهب بعد الاجتماع، ولكنهم لن يرافقونا".
"لِمَ لا؟ إنهم أناس شرفاء، وهذا ما ستتأكدين منه بنفسك حالما تتعرفين عليهم".
بدأت أسأم تدخله في عملي، وشعرت أن الوقت قد حان لأتحدث إليه بصراحة، فقلت: "لست مهتمة أدنى اهتمام بالتعرف على أحد. فكل ما أريد فعله هو أن أحرص على أن يتم هذا التحقيق بصورة ملائمة".
مضت لحظة راح يحدق فيها إلى وجهي بسخط. أيمكن أن يكون ساذجاً إلى هذه الدرجة؟ أم إنه يحاول أن يعيق مجريات التحقيق؟ فجربت أن أشرح موقفي مرة أخرى.
فقلت له: "أصغ إليّ يا سيد فيدان. إن هذه البوليصة، كما تدرك جيداً، تساوي مبلغاً كبيراً من المال؛ حتى بالنسبة إلى شركة كبيرة مثل شركتنا، لذا

سنعتبر شركة إيكونيون للسياحة مشتبهاً بها إلى أن نختم هذا التحقيق. لن نقول هذا لمالكيها بالطبع، ولكننا سنظل نتوخى الحذر إلى أن نتأكد من أن شكوكنا لن تصل إلى أية نتيجة. وهكذا، يجب أن تقوم بعملك بناء على هذه التعليمات من فضلك، هلا تفعل ذلك".

استحال وجه ميتان إلى لون أحمر كالشمندر. من الواضح أن طلبي لم يعجبه، ولكنه على الأقل أدرك أخيراً من هو الآمر الناهي هنا.

قال وهو يطرق برأسه: "حسناً، كما تشائين".

أخذت نفساً عميقاً. لطالما صادفت مشاكل من هذا النوع. حاولت أن أهدئ من روعي، ونظرت مجدداً إلى صورة الدرويش المعلقة على الجدار وأنا أضع الحقيبة على ظهري. وفجأة، ظهرت صورة للعم ماثيو أمام عيني، ليس كرجل مسن بل كصبي في السادسة عشرة من عمره. لسبب ما لا يمكنني تفسيره، تخيلته مرتدياً تلك الثياب البيضاء النقية، وعيناه الخضراوان المفعمتان بالحب تتأملان أمي من تحت قبعة صوفية بنية اللون. رأيت ماثيو يؤدي الرقصة الدائرية والحياة تدب فيه من جديد ليعيش عمراً جديداً يمكنه فيه أن يحقق كل الأحلام التي لم يتمكن من تحقيقها في عمره. شعرت بغضبي يهدأ بعض الشيء، وبانفعالي ينحسر ويتلاشى مع حزني. تمنيت لو أن بوسعي أن أشرح كل هذا لأمي لأمنحها بعض السلام، وأسهل عليها التصالح مع فكرة موت حبها الأول، ولكن ذكر الدرويش قد يفتح جرحها القديم المتعلق بوالدي الذي ظلت عاجزة عن نسيانه. خامرني شك في أن تتقبل أمي فكرة تحول العم ماثيو إلى درويش مثل والدي. وبينما كنت أحاول أن أصرف هذه الفكرة عن رأسي، تسربت أشعة شمس الصباح الذهبية من شق بين الستائر وسطعت على رداء الدرويش، وانعكس الضوء على الزجاج، فنسيت نفسي في شعاعه الأبيض.

"ما يجعلها غالية هو أنها تفوق الوصف"
ركن مينان سيارته المرسيدس السوداء أمام باب خشبي كبير - أحد مصراعيه مفتوح على وسعه - في حي قديم فيه جدار طيني بني يمتد على طول الشارع على كلا جانبي الباب الخشبي، فلم أفهم السبب الذي دفعه للتوقف هنا.
قلت: "ما الذي يجري؟ هل ثقبت العجلة مجدداً؟".
أجاب مينان وهو يسحب فرامل اليد: "كلا يا سيدة غرينوود. ما هو احتمال ثقب العجلة مرتين في يوم واحد؟ لقد وصلنا. وهذا هو المكتب الرئيس لشركة إيكونيون للسياحة".
اعترتني الدهشة، إذ لم يخطر ببالي قط أن يكون مكتب زبوننا في مبنى قديم من هذا النوع. لاحت لي من خلف الباب المفتوح حديقة واسعة، ومن خلفها مبنى من طابقين مبني بالطين نفسه الذي بني به الجدار الخارجي.
"لا بد أنك تمزح! في هذا المبنى القديم التقليدي؟".
أجاب مينان: "نعم". والتفت إليّ ليشرح قائلاً: "تحوي مدينة قونية الكثير من البيوت القديمة التي تم ترميمها وتحويلها إلى فنادق منعزلة لأن السكان المحليين أدركوا أن الجيل الجديد من السياح يفضلها على فنادقكم الفخمة".
بدا حديثه شبيهاً بحديث مارغريت، زوجة سايمون التي سمعتها ذات مرة تتبجح كعادتها عن "المفهوم الجديد للسياحة"، وتتحدث عن تفضيلها البيوت المحلية على الفنادق الفخمة عندما تسافر إلى الخارج، وكيف أن تلك البيوت تمنحها فهماً أفضل للجانب الأصلي للبلاد. مع ذلك، إن دعاها أحدهم إلى كوخه المبني من القصدير في أحد بلدان أمريكا اللاتينية أو غيرها، انتشلت حقيبتها وجواز سفرها بلا شك وتوجهت إلى أقرب مطار في أسرع وقت ممكن. ومع ذلك، هناك العديد من الناس الذين باتوا يشاطرون مارغريت تفضيلها للفنادق الأثرية القديمة، وهذا يجعل إدارة إيكونيون من أول المستفيدين من هذه النزعة السياحية الحديثة.
قلت بصوت منخفض: "لدينا زبائن مثيرون للاهتمام، فهم ليسوا دهاة وحسب ولكنهم يتمتعون بذوق رفيع أيضاً".
بدا مينان حائراً، وكأنه يحاول أن يعرف ما إذا كنت أبدي إعجابي بهم فعلاً أم ألمح في كلامي إلى أنه ينبغي علينا أن نتوخى الحذر في تصرفاتنا.

فقال أخيراً: "نعم، إنهم أشخاص مثيرون للاهتمام". ولم يزد شيئاً على ذلك. على ما يبدو، لقد تجنب مينان بدوره التحدث بصراحة. اعتبرت هذا تطوراً في سلوكه، ولكنني وجدت أنه من الأفضل أن يظل موقفه واضحاً من أن يتصرف بجدية كبيرة وهو يحاول القيام بشيء ما من وراء ظهري. فتحت باب السيارة وترجلت منها، فشعرت بحرارة لاهبة نادراً ما يصادفها المرء في لندن. وبالرغم من أننا كنا لا نزال في فصل الربيع، إلا أن أشعة الشمس المحرقة لسعت وجهي. وبعد أن أمضيت شتاء شمالياً طويلاً، وجدت هذا الطقس الصيفي الجنوبي المبكر في غاية الروعة والبهجة. عانيت من وقت عصيب في منع نفسي من مدّ ذراعي والتمطي كالقطة. لحق بي مينان، وأغلق الباب، ثم ثبت أحد أزرار سترته الرمادية بأسلوبه الأنيق المعتاد، ومد يده إلى الأمام بأدب.

وقال: "دعيني أحضر لك كمبيوترك المحمول".

فابتسمت رغماً عني، وقلت: "شكراً، ولكنه ليس ثقيلاً جداً. سأحمله بنفسي". بات مينان الآن يعرفني معرفة وثيقة، حيث إنه امتنع عن التمادي في الإلحاح. تقدمنا نحو الباب الخشبي الذي علقت على يمينه لافتة خشبية نقشت عليها عبارة "شركة إيكونيون للسياحة". بدا الخشب المعتق وأسلوب النقش عليه مصمّمين بأسلوب ماهر يعطي الانطباع بأن اللافتة قد صنعت في الوقت الذي بني فيه هذا الجدار. وكان الطريق المؤدي إلى الباب مرصوفاً بحجارة صغيرة صفراء. بعد بضع خطوات، لاحظت وجود لوحة فسيفسائية على الطريق. لم أستطع أن أميز شكلها، لذا انحنيت لألقي عليها نظرة عن كثب. في البداية، تخيلت أنها زهرة أقحوان ضخمة، فأمعنت النظر ووجدتها عبارة عن صورة تمثال نصفي لرأس ذي شعر مجعد. ولكن كلا، ليس شعراً بل أفاعي!

صحت قائلة: "ميدوزا! هذا رأس الميدوزا". التفت نحو مينان الذي راح يراقبني بحذر وهو يتساءل عما أفعله بحق السماء، وسألته: "ما علاقة هذه الشخصية الأسطورية الشريرة بشركة إيكونيون للسياحة؟".

ابتلع ريقه بارتباك، إذ لطالما طرحت عليه أسئلة لا يملك لها إجابة. يا له من مسكين! أمعن النظر إلى اللوحة الفسيفسائية، وظل يتفحصها عن كثب لبعض الوقت وكأن الإجابة مكتوبة عليها، ثم هز كتفيه معلناً استسلامه.

قال بابتسامة خجولة: "لست أدري. لا بد أن لها علاقة بتاريخ قونية. إن السيد كويومكوزاد مهتم جداً بهذه الأشياء، يمكننا أن نسأله بالداخل".

"حسناً، ولكن الأمر ليس مهماً إلى هذا الحد. فأنا أشعر بالفضول ليس إلا".

انطلقنا مجدداً متوجهين إلى المكتب. وهذه المرة، لفت نظري خطّ عربي تم نقشه على إطار الباب الخشبي وتلوينه باللون الأسود. وبالرغم من أنني عجزت عن قراءته، إلا أنني دهشت من جماله وروعة سطوره المناسبة والملتوية على شكل دوائر وأقواس تلتقي بخطوط علوية وحلقات بيضاوية وخطوط ممتدة. إنها حروف وكلمات ورموز لحضارة لا أعرف عنها شيئاً، ونص يتحدث عن قصة تلك الحضارة. اعتاد والدي أيضاً أن يكتب بالحروف العربية بشكل جميل كالنقش الموجود على واجهة المبنى. فقد كان يملك حبراً خاصاً يكتب به بأقلام مصنوعة من القصب. ذات مرة، كتب اسمي هكذا: كارينكيميا: ثمرة الفردوس التي أنعم الله بها علينا. لم أفهم ما ترمز إليه الكلمات العربية، لذا شرح لي والدي بصبر معناها. وبالرغم من أنني لا أستطيع أن أتذكر الشرح جيداً، فقد ظلت المحادثة التي دارت بيننا حاضرة في ذهني.

سألت والدي قائلة: "ما هي ثمرة الفردوس يا أبي؟".

فابتسم والدي وأجاب: "إنها تحفة جميلة تفوق الوصف يا ابنتي. فلا يمكن وصف لونها أو طعمها أو رائحتها أو شكلها بمجرد الكلام. في الواقع، إن قيمتها النفيسة تكمن في بعدها عن الوصف".

اعترضت على كلامه بتكلف ودلال وقلت: "ولكن، انظر إليّ. يمكنك أن تراني".

أخذ والدي رأسي بين يديه بمحبة، وشم شعري وكأنه فاكهة ذات أريج محبب، وقال: "ويمكنني أن أشم رائحتك أيضاً، ولكنك أكثر من مجرد هذه الرائحة المحببة والوجه الجميل والصوت العذب يا صغيرتي".

اكتسب وجهه تعبيراً مؤثراً جداً لدرجة أنني لم أستطع أن أجد الشجاعة لكي أسأله عن المزيد. وظننت أنني إن طرحت عليه المزيد من الأسئلة، فسيذرف الدموع.

"انتبهي لخطواتك يا سيدة غرينوود".

أتى تحذير مينان متأخراً؛ فقد علقت قدمي ببلاطة صخرية تشكل عتبة الحديقة. ولحسن الحظ، لم أفقد توازني كلياً. فقد تشبثت بالإطار بيدي اليسرى وتمكنت من البقاء واقفة على قدمي. نظرت بامتنان إلى مينان الذي أمسك بيدي ليحول دون وقوعي.

أومأت نحو النقش على الباب وقلت: "لا بأس، إنني بخير. شكراً لك. لقد تشتت انتباهي بسبب هذا النقش".

تألق تعبير الفخر على وجه زميلي وهو يخلي سبيل ذراعي، فراح يتلو

العبارة وكأنه يعلن حدوث شيء مهم بصوت عميق.
"الشرق ملك لله وكذلك الغرب. أو شيء بهذا المعنى".
لم يكن المعنى ما أثار انتباهي، وإنما أن مينان تمكن من قراءتها.
"إذاً، أنت تتقن اللغة العربية".
"قليلاً. فقد علمونا إياها في مدارس الإمام حاطب، وهي من المدارس الثانوية التقليدية التي تدرس الشريعة الإسلامية، ولكنني نسيت معظمها بالطبع لأنني لم أصبح إمام مسجد".
يا لها من مفاجأة! لقد بدأ هذا الرجل حياته كإمام مسجد لينتهي به المطاف رجل أعمال.
"لماذا لم تصبح إماماً؟".
"في الواقع، لقد اقترح عليّ والدي العزيز الراحل أن أصبح إماماً، ولكنه توفي وأنا في السنة الأخيرة من المدرسة الثانوية، فأجبرتني الظروف على الالتحاق بعالم التجارة".
انتهزت فرصة فتح هذا الموضوع لأعرف المزيد عنه، فسألته: "إذاً، هل تستمتع بالعمل كوكيل لشركة تأمين؟".
"إنني أحب هذا العمل لأنه محترم. ورغم أن شعب قونية لم يكتشف بعد الحقيقة الكاملة وراء العمل بالتأمين، إلاّ أنه سرعان ما سيتعلم ذلك بإذن الله".
"إذاً، أنت متفائل؟".
"بالطبع. فإن حصلنا على خمسة زبائن مثل شركة إيكونيون للسياحة، فلن يعود لدينا ما نقلق بشأنه".
لعبت دور المديرة المسؤولة، ورحت أحذره مازحة: "إذاً، من الأفضل أن تبذل جهدك في العمل".
لمعت عيناه الخضراوان بمكر، وقال: "إننا نبذل ما في وسعنا يا سيدة غرينوود؛ من أجل شركتنا وأنفسنا".
بدلاً من أن أرد، ابتسمت وواصلت السير، ولكنني بالكاد عبرت من الباب عندما تجمدت في مكاني وأصابتني الصدمة. فقد ميزت المبنى القرميدي وأزهار الزنبق أمامه والأقحوان والورود وأشجار الحور الباسقة والبركة المرصوفة بالخزف والعطر...
ارتجفت وقلت: "لقد رأيت هذا المكان من قبل...".
سأل مينان بلا مبالاة قائلاً: "أهذا هو المنزل الذي أتيت إليه؟ أقصد ذلك المنزل الذي زرته قبل سنوات. لقد حدثتني عنه البارحة، أتتذكرين هذا؟".

هززت رأسي من دون أن أنظر إليه، وأجفلت من كلامي وأنا أقول: "ليس هذا. لقد حلمت بهذا البيت في الليلة الماضية، ولكن هذا مستحيل. إذ لم تكن لديّ أية فكرة أنني قادمة إلى هنا".
بدا مينان مرتبكاً، وقال: "ربما زرته من قبل".
نظرت إلى أشجار الحور، فلم أجد أحداً، أو أسمع صوتاً غريباً، أو أرى أي أثر للرجل الذي صادفته في الليلة الماضية.
تمتمت قائلة: "كلا. أين يمكن أن أكون قد رأيته؟".
" ربما في مجلة ما؟".
قلت: "لم أره في مجلة. إن هذا غريب جداً...".
قال وهو يبدو حائراً: "كيف حدث هذا إذاً؟".
كررت كلامي بصوت أعلى، ثم أخذت أشرح لمينان بانفعال قائلة: "لست أدري. هذا مجرد شيء غريب ليس إلا. هناك أشياء بمنتهى الغرابة تصادفني منذ أن وصلت إلى قونية؛ مثل ذلك الرجل الذي أعطاني خاتماً مساء أمس...". فتح مينان عينيه على وسعهما دهشة فقلت: "لقد رأيته مرة أخرى في الليلة الماضية أمام المسجد المقابل للفندق".
"إن فندقك لا يبعد كثيراً عن المكان الذي ثقبت فيه عجلتنا. فلا بد أنه مر من هناك".
"لم يمر من هناك مصادفة. إنني واثقة مما رأيته. فقد وجدته واقفاً مسمراً في مكانه أمام النافورة وهو ينظر إلى غرفتي".
ابتسم لي باعتداد قائلاً: "على رسلك يا سيدة غرينوود. ليس من الممكن أن يرى أحد غرفتك من أمام النافورة".
تجاهلت تعليقه، وأخذت أكرر الحادثة كاملة كعقرب ساعة يعود إلى الوراء، فقلت: "خرجت إلى الشرفة في الليلة الماضية. لا أعرف بالضبط في أي وقت حدث هذا، ولكن الوقت كان متأخراً تماماً. رأيته والتقت عيناي عينيه، ووجدته يمعن النظر إلى شرفتي، وكأنه يعرف أنني سأخرج إلى هناك. ربما لحق بي من المكان الذي ثقبت فيه عجلة سيارتنا. قد تجد هذا الكلام سخيفاً، ولكنني أؤكد لك أنه حدث". أوشكت أن أشرح لمينان كيف أن أحدهم دعاني باسم كيميا ثم لاحظت أن الابتسامة على وجهه قد تحولت إلى ابتسامة سخرية واضحة. ما الذي أفعله؟ سيظنون أنني مجنونة. لم يغب عن ذهني ما قد يؤدي إليه هذا التصرف المتهور؛ وهو إهمال تقريري. في نهاية المطاف، مهما أتيت بأدلة دامغة تدين شركة إيكونيون للسياحة، فلن يأخذها أحد على محمل الجد. عدت إلى رشدي على الفور،

ودار بخلدي أنه ربما كان هذا كله جزءاً من خطتهم المدروسة بإحكام. فربما دسوا شيئاً في حساء الباميا الذي تناولته في الليلة الماضية. فأنا لم أرهم وهم يحضرونه، بل أحضروه جاهزاً إلى غرفتي. قد يفسر هذا الهذيانَ والكوابيس التي راودتني. لقد حجز لي مينان في الفندق بنفسه، لذا إن كانت شركة إيكونيون قد دفعت له رشوة، فهذا يعني أنهم جميعاً متآمرون ضدي. هل الرجل الملتحي مشترك معهم يا ترى؟ لِمَ لا؟ وفجأة، تذكرت قصة الأخصائي الألماني الذي تم اختطافه في أثينا العام الماضي. ليست تركيا مختلفة كثيراً عن اليونان. فحتى في لندن، حدث كمٌّ لا يصدق من عمليات الاحتيال على شركات التأمين. رمقته بنظرة شكر، فمسح الابتسامة الساخرة عن وجهه، واستعاد مرة أخرى دور الرجل الخدوم ووكيل شركة التأمين الماهر.

قال: "إنها ربما مجرد مصادفة. فذلك الرجل متسول على الأرجح. هؤلاء الناس يحبون أن يتسكعوا أمام المساجد لكي يمنحهم المسلمون الذين يخافون الله المزيد من زكاة أموالهم. وعندما خرجت إلى تلك الشرفة...".

فأذعنت لقوله ظناً مني أنه من الأفضل أن أتجاوب معه: "لست أدري. ربما أنت محق، بل إنني واثقة من أنك كذلك. فعلى أية حال، هذه أرضك وأنت على دراية بهذه المواقف أكثر مني".

لو أن مينان تعامل مع الموضوع بطريقة شريفة ومستقيمة، لسره أنني بدأت أتكلم بصورة منطقية ولأنهى المناقشة وكأنها لم تحدث، ولكن الحظ لم يحالفني.

فقد تابع مينان المناقشة قائلاً: "ومع ذلك، فأنا عاجز عن فهم أي شيء عن الحلم الذي راودك. هل رأيت هذه الحديقة بالذات؟". فافترضت أنه طرح سؤاله هذا على ما يبدو على أمل أن يستمتع بثمرة جهده.

نظرت إلى الحديقة بتردد، وتأملت المبنى القرميدي والبركة المرصوفة بالخزف وأشجار الحور والزهور، وشممت العطر ذا الرائحة الحلوة، فبدا كل شيء بالضبط كما رأيته في حلمي، ولكنني كذبت عليه قائلة: "بعد النظر عن كثب أكثر... كلا، ليست هذه هي الحديقة؛ إذ إنني أتذكر وجود مبنى، ولكنه مبني من الحجارة، كما أن الزهور والأشجار بدت أيضاً مختلفة عن هذه الأشجار والزهور". وعاودت النظر إلى البركة ثم قلت: "كما أنني أتذكر وجود نافورة بدلاً من البركة. نعم، إنك محق بالفعل. أعتقد أنني أزعجت نفسي بشيء لا قيمة له".

رمقني بنظرة شك وهو واثق من أنني أتراجع عن كلامي. فلا بد أنني

قمت بخطوة سيئة عندما خرجت عن الموضوع بهذا الشكل.
فتابعت كلامي قائلة: "لا بد أن هذا يحدث لكل الأجانب، أي إنهم يجدون كل الأماكن متشابهة في المدن التي لا يألفون شوارعها. ومع ذلك، يستطيع الناس بالفعل أن يميزوا بين هذه الاختلافات بمرور الوقت. ذات مرة حين كنت في المغرب، أخطأت بين مسجدين مختلفين تماماً عن بعضهما".
عندما ظل ملتزماً الصمت، واصلت كلامي قائلة: "ألم يحدث هذا معك من قبل؟ ألا تظن أن البيوت في شوارع لندن مثلاً شديدة الشبه ببعضها؟".
قال بنبرة منطقية: "إنني أخلط عادة بين الفنادق".
وحين بدأت أشعر بالاسترخاء لأنني اعتقدت أنني تخلصت من المشكلة، قاطعني قائلاً: "ولكن، أن يراودني حلم عن مكان ما ثم أزوره مصادفة في اليوم التالي، فهذا ما لم يحدث معي من قبل".
التزمنا الصمت، فانطفأت ابتسامتي القسرية بمرور بضع ثوان ساد فيها التوتر.
"لم يحدث هذا معي أيضاً، ولكنني خلت نفسي رأيتها ليس إلا".
ظلت ملامح مينان جامدة، ولكنه نظر إليّ وكأنه يحاول أن يعرف ما الذي يدور ببالي.
"في هذه الحالة، ليس هناك سبب يدعو للقلق". ولوح بيده نحو الباب الذي خرج منه الرجل المعمم في الليلة الماضية وأضاف قائلاً: "ها قد وصلنا. دعينا نتحدث إلى زبوننا".
أصابتني موجة أخرى من الذعر عندما خطر ببالي أن ذلك الرجل الملتحي المتسربل بالسواد والذي أمسك برسغ يدي في الليلة الماضية سيكون الرجل نفسه الذي نوشك أن نقابله الآن، فحدثت نفسي بأن أتهيأ لأي شيء. وبينما كنت أخطو من فوق عتبة الباب، تخيلت نفسي أدخل شبكة معقدة من الألغاز الغامضة.

"محارب يحمل رأس ميدوزا
المقطوع بيده اليسرى"
عندما رأيت الرجل الذي رحب بنا داخل المكتب غمرتني موجة من الراحة. إذ لم يكن الرجلَ الطويل الغامض ذا اللحية المتشابكة والثياب السوداء المغبرة الذي رأيته في الكابوس، بل كان رجلاً حيوياً في أوائل العقد الرابع من عمره. شعره الأملس لامع وكأنه مصفف بملمع الشعر، ويرتدي بذلة داكنة ملساء تجعله يبدو أطول مما هو عليه فعلاً. ابتسم لي بدفء مبالغ به وكأننا التقينا من قبل، ومدّ يده ليصافحني.
"أهلاً بك يا سيدة غرينوود. أنا ضياء كويومكوزاد المدير التنفيذي لشركة إيكونيون للسياحة والسفر".
حدثني الرجل باللغة الإنكليزية بلكنة أمريكية، وبدت نبرة صوته مؤثرة، كما أوحت نظرة عينيه ولغة جسده ووقفته ووضعيته كلها بشعور ثابت بالثقة بالنفس. رددت له الابتسامة بمثلها، ولكن بتحفظ أكبر بعد أن صافحته وقلت له بأدب: "إن لم تمانع، دعنا نتكلم باللغة التركية، يا سيد كويومكوزاد". وأشرت برأسي نحو مينان وقلت: "إذ إنني أود أن يعرف وكيلنا التركي ما نتحدث عنه، فأنا واثقة أن لديه ما يريد أن يدلي به".
أحسست أنني باغت مينان وهو غير حذر، ولكنني لاحظت أنه سر من التعليق الذي أدليت به.
وافق على كلامي بثقة لا يشعر بها وقال: "بالطبع، ينبغي علينا أن نتحدث باللغة التركية".
ربت ضياء على ظهر ابن بلده، وقال له بخفة: "لا تقلق يا مينان. كل كلامنا سيكون باللغة التركية ولن تفوتك كلمة واحدة".
لم تكن الألفة السائدة بينهما مفاجئة لي الآن، فانتظرت ببرودة المستبصرين كي أتأكد من شكوكي، وتأهبت لتوقع كل شيء حتى تتضح الصورة أمامي، ويتقدم التحقيق في مساره الصحيح إلى الأمام. تظاهرت أنني لا ألقي بالاً للعلاقة الحارة التي جمعت بين زبوننا ووكيلنا، ورحت أتأمل المكان من حولي، ففوجئت للمرة الثانية منذ أن وصلت إلى هنا. إذ شعرت أنني دخلت موقع تصوير فيلم من أفلام الخيال العلمي، وليس مسكناً تاريخيًّا. فقد اختفت كل الجدران الطينية والخشب القديم والنوافذ ذات القضبان الحديدية الملتوية التي رأيتها في الخارج، واستبدلت بكل شكل من أشكال الأثاث الصناعي والمعادن اللامعة والزجاج السميك الداكن واللوحات البراقة.

في وسط الغرفة، رأيت طاولة بيضاوية زجاجية سوداء متوازنة على قائمة معدنية فضية واحدة تحيط بها كراس دوارة جلدية لامعة بعدة ألوان. بدت النوافذ مكسوة بالزجاج الأسود نفسه الموضوع على الطاولة، إلى جانب رفوف كتب فولاذية منتصبة على الأرضية الزرقاء المكسوة بألواح الخزف. أما الجدار الذي يقع خلف مكتب ضياء، فقد علقت عليه لوحة فسيفسائية لشخصية الميدوزا الأسطورية مطابقة تماماً للوحة التي رأيتها في الخارج؛ بالرغم من أن هذه اللوحة لم تظهر رأس الميدوزا فقط بل المحارب الذي قتلها وقطع رأسها أيضاً. بدت هذه اللوحة أشد تأثيراً من سابقتها؛ إذ أظهرت المحارب حاملاً رأس الميدوزا المقطوع بيده اليسرى وسيفاً هائلاً بيده اليمنى.

عندما لاحظ ضياء اهتمامي باللوحة الفسيفسائية، قدم لي شرحاً عنها قائلاً: "هذه صورة الفتى الذي قتل الميدوزا واسمه بيرسيوس...". وبدا غير واثق كل الثقة من كلامه، فأضاف قائلاً: "إنك تعرفين تلك الأسطورة، أليس كذلك؟".

كنت أعرف الميدوزا بالطبع، وأعرف قصة شعرها المكون من أفاع، ونظرتها الشريرة التي تحول الرجال إلى حجارة، كما أنني رأيت تماثيل وصوراً لها في أماكن متعددة في أنحاء العالم كافة، ولكنني لم أكن مطلعة على تفاصيل القصة أو آبهة لمعرفتها بالفعل. فلم تكن قصة الميدوزا ما أردت سماعه، بل القصة الكامنة وراء علاقتها بشركة إيكونيون للسياحة. ترى، لماذا اختارها زبوننا كشعار لشركته؟ ما سر هذا الاهتمام بالأساطير؟

قلت له محاولة أن أبدو مستغرقة بالموضوع: "إنني أعرف القليل عنها، ولكنني مهتمة بأن أسمعها منك أنت. دعني أسمع الرواية التركية للأسطورة".

أطلق ضياء ضحكة قصيرة وقال: "لا تقلقي يا سيدة غرينوود، فالرواية التركية ليست مختلفة كثيراً عن غيرها". وأشار نحو الكراسي المحيطة بالطاولة، وقال: "ولكنكما لا تزالان واقفين. تفضلا بالجلوس. ماذا تحبان أن تشربا؟".

فأجبت وأنا أجلس: "شاياً من فضلك".

"مع الحليب بكل تأكيد". أتى كلامه تأكيداً وليس سؤالاً، ولكنني رسمت على وجهي ابتسامة موافقة.

قال مينان بهدوء وهو يحل ربطة عنقه الزرقاء الضيّقة: "وأنا سأتناول كوباً من الشاي التركي العادي من فضلك، ولكن اطلبه لي خفيفاً لأنني أعاني من

تسارع في خفقان القلب عندما أشرب شاياً ثقيلاً".
فقلت بيني وبين نفسي إنه يعاني أيضاً من التعرق عندما يتوتر على ما يبدو. ومع ذلك، أدركت أنني على الأقل أبدو هادئة مقارنة به؛ على الرغم من جلوسي في هذا المكان وأنا محاطة بمحترفين في فن الخداع. استندت على ظهر الكرسي استعداداً لسماع الأسطورة التي استهلها ضياء بحيوية بعد أن طلب من سكرتيرته مشروباتنا عبر الهاتف.
"لم تولد الميدوزا بهذه الهيئة الوحشية البشعة. وعلى العكس من ذلك، كانت ذات مرة فتاة حسناء على قدر هائل من الجمال والجاذبية لدرجة أنها لم تنل اهتمام البشر الفانين فقط وإنما الكائنات الأسطورية أيضاً على حدٍّ سواء. ولسوء الحظ، غرقت الميدوزا أيضاً في حب جمالها، وهذا ما ملأها بالنرجسية والغرور، فارتكبت عملاً يحظر عليها القيام به وكسرت إحدى القواعد. ففي معبد أثينا، غازلت الميدوزا بوسيديون الذي أغرم بها منذ وقت طويل. يظن البعض أنها لم تفعل هذا طواعية، وأنه من الملائم أكثر القول إن بوسيديون هو من أجبرها على ذلك، ولكن أثينا لم تغفر هذا التدنيس الذي قام به بوسيديون في معبدها الخاص مطلقاً، فحولت ميدوزا إلى وحش بشع، وحولت كل خصلة من خصلات شعرها إلى أفعى. وأصبحت تلك الفتاة الجميلة مخلوقة رهيبة تحول إلى حجر كل من ينظر إلى وجهها.
في ما بعد، بدأت ميدوزا تنزل إلى بلدتها الأصلية الواقعة في جبال طوروس، وتقتل الناس، وتنشر الرعب في المناطق المحيطة بالبلدة كافة. فانتظر سكان البلدة ظهور بطل من الأبطال يأتي ويقتل تلك المخلوقة الفظيعة. ولكن، ليس من السهل قتل من تحول إلى حجر كل من ينظر إليها. وفي نهاية المطاف، تولى ابن زيوس الشجاع، بيرسيوس، تلك المهمة. فهبت أثينا التي لم تتلاشَ غيرتها من الفتاة الشابة بعد حتى بعد أن حولتها إلى مخلوقة متوحشة، لمساعدة بيرسيوس بحماسة كبيرة. نشأ صراع قويّ بينهما، وتمكن بيرسيوس في النهاية من قطع رأس الميدوزا وأنقذ أهالي البلدة من هذه المخلوقة المخيفة، فقام السكان عرفاناً منهم بجميل البطل الذي أنقذهم بنصب تماثيل وأيقونات تذكارية له في أنحاء البلدة كافة. وفي ما بعد، أطلق على البلدة التي أصبحت محاطة من كل جوانبها بهذه الأيقونات اسم إيكونيون".
كررت بصوت خافت: "إيكونيون. هل تقصد أن قونية...".
لم يدعني ضياء أكمل جملتي بل صفر بشفتيه وقال: "هذا ذكاء منك يا

سيدة غرينوود. إنني معجب جداً بسرعة بديهتك. نعم، هذا صحيح. إن اسم قونية مقتبس من إيكونيون أو إيكونيوم، وهي تعني الأيقونة".
زممت شفتي، مدركة أن الكثير من المدن في العالم قد اختلقت الأساطير لنفسها، وقلت: "لم أسمع من قبل أن أي مكان آخر...".
فعلق قائلاً: "ولن تسمعي". ثم أضاف بوقار شديد وكأنه يكشف عن سر تجاري: "إن قطاع السياحة قاس، والجميع يريد قطعة من الكعكة كاليونانيين والإيطاليين والمصريين. وهكذا، مهما بلغ عدد الأساطير والقصص، فهي كلها تتعرض للاستغلال للأغراض التجارية. ولكن، صدقيني، إن اسم قونية في الأصل هو إيكونيون، وهذه حقيقة ثابتة".
"وكذلك اسم الشركة إيكونيون".
نظر إليّ بثقة يتمتع بها شخص لا يشك بنزاهة أفعاله، وقال: "ها قد أتيت بالصواب مجدداً! لهذا السبب، اخترنا رأس الميدوزا كشعار لشركتنا؛ لنلفت الانتباه لتاريخ مدينتنا الذي يعود إلى سبعة آلاف عام. وعلى كل حال، نحن نعمل في قطاع السياحة أيضاً".
تدخل مينان وهو يعبث بمنديله قائلاً: "ولكنني سمعت قصة مختلفة". والتفت إلى ضياء قائلاً: "من فضلك لا تخطئ في فهمي يا ضياء، فأنا لا أحاول أن أناقض كلامك، ولكن أحد الدراويش في المأوى أخبرني قصة مغايرة لقصتك".
بدا ضياء أكثر اهتماماً مني، وقال: "حقاً؟ ما هي تلك القصة؟ لِمَ لا تخبرنا إياها؟ ربما سمعتها أنا أيضاً من قبل".
ربت مينان على جبهته، ثم بدأ بسرد القصة قائلاً: "حسناً إذاً. تقول الأسطورة إنّ اثنين من الدراويش جاءا من مقاطعة خراسان طائرين نحو الأناضول".
لم أستوعب مغزى كلامه، فسألته قائلة: "هل تقصد أنهما حضرا بالطائرة؟".
ضحك مينان وقال: "أية طائرة يا سيدة غرينوود؟ إننا نتحدث عن واقعة حدثت قبل زهاء أكثر من ألف سنة، أي عندما وصل الأتراك إلى الأناضول. في ذلك الوقت، كان أولئك الرجال الأتقياء يطيرون من تلقاء أنفسهم".
هذه المرة، ضحكت، وقلت: "أتقصد أنهما طارا كالطيور؟".
قال من دون أن يشعر بالإهانة من عدم تصديقي: "قلت لك إنها أسطورة. إنني أكرر أكذوبة تفوه بها شخص آخر".
صحح ضياء كلامه وقال: "ليست أكاذيب يا صديقي، بل أساطير، ولكن تابع كلامك. حضر الرجلان التقيان طائرين من خراسان إلى الأناضول. وماذا حدث

بعد ذلك؟".
"عندما أصبحا في سماء هذه البلاد نفسها، نظرا إلى الأسفل، وشاهدا مكاناً تكثر فيه الحدائق والكروم". التفت مينان إليّ ليوضح كلامه قائلاً: "يقال إن قونية في تلك الأيام، أي قبل ألف سنة أو نحو ذلك، كانت أكثر خضرة مما هي عليه الآن". وابتسم متابعاً: "أعني أنه كان يوجد فيها الكثير من الحدائق الغناء؛ حتى لو لم تكن بوفرة الحدائق في لندن. على كل حال، سأل أحد الدرويشين زميله المسافر عندما رأى تلك الأرض الجميلة تحته: ما رأيك، يا سيدي الموقر، هل أهبط هنا؟ نظر الدرويش الآخر إلى الأسفل واستحسن ذلك المكان الجميل. فأجاب قائلاً: قون يا! وهي تعني: نعم، اهبط هنا. وهكذا، هبطا في هذا المكان، ومن هنا أصبح اسم المدينة قونية".
ضرب ضياء ركبته بكفه عندما تذكر القصة، وصاح قائلاً: "نعم، سمعت عن هذه القصة بالطبع".
وبينما تبادل وكيلنا وزبوننا ابتسامة تآمرية - أو ينبغي ربما أن أقول ابني البلد متشابهي التفكير، إن لم أبالغ وأقل إنهما شريكان بالجريمة - حاولت أن أجد الكلمات المناسبة لأصوغ السؤال الذي راح يدور في ذهني.
"إن هذه الأسطورة تبدو أكثر ملاءمة للثقافة الإسلامية من غيرها، أليس كذلك؟ إذاً، لماذا اخترتم الميدوزا لتكون شعاراً لشركتكم؟".
أتى جواب ضياء جاهزاً، فقال: "لو أردت أن أستخدم الثقافة الإسلامية، لوجدت ثروة لا حد لها تحت تصرفي. فهناك كنز هائل يمتد من إمبراطورية السلاجقة إلى مدرسة الكاراتي، ومن مسجد وضريح شمس التبريزي إلى مسجد وضريح صدر الدين كونيفي، إلى الجوهرة التي لا تقدر بثمن، وأقصد هنا جلال الدين رومي نفسه بكل تأكيد. لا شك أن كل هذه الرموز الإسلامية مفضلة لدينا، ولكنها ليست الخيار الأفضل. ففي قونية يستخدم الجميع شخصية رومي وغيره من الشخصيات الإسلامية؛ حتى أكشاك بيع الشيش كباب. وليس هذا هو السبب الوحيد، ولكن لأن هدفنا هو السياحة الأجنبية وليس المحلية أيضاً".
وبختته بنبرة شبه مازحة قائلة: "لأن السياح الأجانب هم من يجلبون المال".
فلمعت عيناه الداكنتان بذكاء، وقال: "إن الأجانب يناسبون ملف زبائننا بشكل أفضل، هكذا أردت أن أعبر عن الفكرة".
اعترض مينان قائلاً: "ولكن هناك شيئاً أغفلته في حديثك. فارتباط رومي بالأجانب كبير جداً بالفعل".

تلوى ضياء على كرسيه بقلق، وقال بنبرة قاسية: "لم أقل قط إن احترامي لرومي وتقديري له معدومان". ورمق مينان بنظرة فتور وكأنه تجاوز حدوده، ثم واصل كلامه بحزم قائلاً: "لو أنني أفكر في هذه الطريقة، لما عملت على ترميم كل تلك البيوت الأثرية في قونية، ثم فتحتها بعد أن حولتها إلى فنادق". تلاشى التعبير المتجهم عن وجه الرجل عندما التفت لينظر إليّ، وقال: "وبالإضافة إلى ذلك، والدي أحد دراويش الطريقة المولوية؛ بالضبط كوالد السيدة غرينوود".

في البداية، لم أنتبه لما ذكره ضياء. فقد سمعته يذكر اسمي ويربطه بملاحظة عن الآباء. أكد الرجل وهو يشير بإصبعه إلى دمية الدرويش الشفافة الصغيرة الموضوعة على الطاولة السوداء الزجاجية قائلاً: "أليس كذلك، يا سيدة غرينوود؟ إن اسم والدك بويراز. وكان درويشاً في قونية".

ترى، كيف عرف هذا الرجل والدي؟ لا بد أنه قام ببحث عني. بدأت تصرفاته تثير أعصابي، فتلاشى كل الإيحاء الذاتي الذي استخدمته لأحافظ على هدوئي واتزاني، وشعرت أنني أريد أن أرد على هذه الإهانة، وأن أضع هذا الرجل الأنيق ذا الشعر اللامع عند حدوده. وبينما كنت على وشك أن أسأله عمّا يمنحه الحق للتدخل في حياتي، صاح مينان باهتياج واضح قائلاً: "سيدة غرينوود! يدك!".

نظرت إلى يدي بفزع، ورأيت بقعة حمراء على حضني، حيث وضعت يدي. للوهلة الأولى أصابني رعب شديد لأنني ظننت أنني أمر بحالة إجهاض، فرفعت يدي ونظرت إليها على حدة، ونظرت إلى ما بين ركبتي، ولكنني لم أر أي دم هناك.

قال ضياء: "إن يدك تنزف".

رفعتها ونظرت إليها بإمعان. فوجدت الدم يسيل من إصبع البنصر التي أضع فيها خاتمي. الخاتم؟! نعم، الخاتم الفضي موضوع في إصبعي! تحول الحجر البني إلى لون قرمزي من الدم المتجلط. لم أتذكر قط أنني ارتديته، ولكنني فكرت في أن هذا ليس الوقت المناسب للتفكير في أمر الخاتم. نهضت على الفور وأنا أمسك يدي النازفة بيدي الأخرى، وسألت:

"أين الحمام؟".

قفز ضياء على قدميه بحركة حيوية واحدة وأرشدني إلى باب معدني رمادي في زاوية الغرفة وهو يقول لي بسرعة: "تفضلي من هنا".

11

"زوجة شمس التبريزي

اسمها كيميا أيضاً"

غسلت أصابعي حتى أصبحت نظيفة، ثم خلعت الخاتم من إصبعي، ووضعته على حافة المغسلة، ونظرت إلى إصبعي وتفحصتها لأعثر على الجرح، ولكنني لم أجد أي جرح أو حتى خدش بسيط. حاولت أن أتفحص يدي بعناية أكبر فوجدت أن مصدر النزيف ليس إصبعي بل حجر الخاتم نفسه. انتشرت قطرات الدم الحمراء الصغيرة على المغسلة البيضاء الرخامية، وكأنها تصبغها شيئاً فشيئاً باللون الأحمر. أدركت أن الخاتم أرخص مما ظننت، وافترضت أن الصباغ بدأ ينحلّ على الرغم من أن شبهه بالدم الحقيقي بدا قوياً جداً لدرجة جعلت بدني يقشعر رغماً عني. خطر ببالي أن هذا هو بالضبط ما أراد ذانك الرجلان أن يحدث لي، أي أن أصاب بالفزع والرعب والاضطراب، ولكنني رفضت أن أسمح لهما بأن ينالا مني. قاومت خوفي ولمست السائل الأحمر الداكن بطرف إصبعي ثم مسحته بين سبابتي وإبهامي. بدا ملمسه دافئاً وسميكاً كالدم الحقيقي. تساءلت كيف نجحا في القيام بهذه الخدعة. وشعرت أن الأمور بدأت تلتبس عليّ. ترى، هل هما قادران فعلاً على تحقيق كل هذا؟ قد تكون هذه مجرد نوبة من نوبات الخوف التي اعتدت أن تصيبني بين الحين والآخر، ولكنني عجزت عن إيجاد تفسير آخر لما يجري. لا بد أن لهذا علاقة بالملايين الثلاثة التي يبذل ذانك الرجلان كل ما بوسعهما للاستيلاء عليها. حاولت أن أتذكر متى وضعت الخاتم في إصبعي. ترى، هل وضعته في الليلة الماضية وأنا شاردة الذهن؟ كنت متأكدة من أن هذا لم يحدث صباح اليوم. شعرت بدمي يفور من الغضب وأنا أتخيلهما يتسللان إلى غرفتي فيما كنت نائمة على سريري بملابس النوم ليدسا الخاتم في إصبعي. فصحت قائلة: "الوغدان القذران".

"سيدة غرينوود، هل أنت بخير؟".

عرفت أنه صوت مينان. لم يسمع الرجلان ما قلته، ولكنني أدركت أنهما سيسمعان إن قلت شيئاً الآن. تمنيت أن أخرج من الحمام وأمسك بخناق كل منهما وأمحوه من الوجود. ولكن، عندما نظرت في المرآة ورأيت الشرر يقدح من عيني أحجمت عن ذلك. وفكرت في ما يمكن أن أجنيه إن صحت عليهما أو حتى بصقت في وجهيهما، لا بد أن هذا سيدفعهما للادعاء بأنني مجنونة لأنني أحملهما مسؤولية أحلامي. وفي هذه الحالة، لن

يظل تقريري صحيحاً أو معترفاً به في المحكمة، لذا لن يتم الأخذ به في عين الاعتبار. تمتمت من بين أسنان مطبقة هذه المرة قائلة: "الوغدان!".

"سيدة غرينوود؟".

كان ذلك صوت مينان. وبدا من صوته أن قلقاً عميقاً يتملكه.

فأجبت محاولة أن أهدئ من روعي قائلة: "لا تقلقا، إنني على ما يرام. سأخرج في غضون دقيقة".

تأكدت الآن أن سايمون محق في شكوكه. فقد اكتشفت أن الرجلين اللذين نتعامل معهما ليسا ماكرين وحسب بل وقحين أيضاً. ولم أكن واثقة إلى أي حدّ يمكنهما أن يصلا لتنفيذ مخططهما. فكرت أنه يجب عليّ أن أظل دائماً متقدمة عليهما، وأن أحتفظ بأفكاري ومشاعري لنفسي، وأحافظ على هدوئي مهما كلف الأمر. ولكن، كيف سأفعل ذلك؟ فقد راحت يداي ترتعشان، وبدا وجهي في المرآة أحمر كالدم، وبات الغضب يتحكم بانفعالاتي. كومت بعض المناديل الورقية، ووضعتها تحت الصنبور، ثم مسحت بها صدغي الملتهبين. ساعدتني برودة المياه على تهدئة أعصابي. سألت انعكاس صورتي في المرآة بعد محاولة عابثة لتنظيف البقع عن قميصي: "حقاً، ما الذي سأقوله لذينك الرجلين الآن؟". أجابتني صورة المرأة المنهكة في المرآة قائلة: "أظن أنه يجب عليّ أن أتوخى الصراحة معهما". هذا صحيح. قررت أن أتحدث عن الأمر كما هو ببساطة ووضوح، وأقول إن رجلاً مختلاً أعطاني خاتماً رخيصاً، فسال صباغه ولطخ يدي وثيابي. هذه هي القصة برمتها! لا حاجة إلى أن أغضب لأن ضياء نبش القصص المتعلقة بوالدي. على العكس من ذلك، فما عرفاه قد يكون لصالحي ويساعدني على فهم أفضل لأبعاد هذه المؤامرة التي يخططان لها. بعد أن اتخذت هذا القرار، استعدت هدوئي، وجففت يدي، ونظرت إلى الخاتم مرة أخرى، فوجدت أن الطلاء لم يعد يسيل. ولكن، لم يعد بوسعي أن أثق بذلك، لذا لففته بمنديل ورقي قبل أن أخرج من الحمام.

عندما عاودت الدخول إلى الغرفة، وجدت مينان واقفاً على قدميه، وضياء متكئاً على مرفقيه عند رأس الطاولة السوداء الزجاجية، وكلٌّ من الرجلين ينتظر بصمت وعيونهما متجهة نحو باب الحمام. ابتسمت لهما بهدوء، وقلت وأنا أمسك بالخاتم الملفوف بالمنديل الورقي: "لم تنزف إصبعي، وإنما سال طلاء هذا الخاتم".

نهض ضياء، وتقدم نحوي وعلى وجهه سيماء الارتباك والحيرة، وكأنه لم يصدق ما يجري. أما بالنسبة إلى مينان، فقد أبدى رد فعل أسرع من رد

فعل الرجل الآخر، وأمسك بالخاتم بجفاء وفتح المنديل، وراح يتفحصه، ثم علّق بتجهم قائلاً: "لا أرى أي طلاء عليه". فعل ذلك قبل أن يتمكن شريكه في الجريمة من الوصول إلينا. فعلى ما يبدو، لم يسره أن مؤامرته لم تحدث أي تأثير عليّ.

قلت له محاولة ألاّ أبدي غضبي: "لقد غسلته. ولكن، إن أردت أن تختبره فيمكنك أن تضعه في يدك لبعض الوقت، وأنا واثقة من أنك ستصبح مغطى بالطلاء في غضون وقت قصير".

قال ضياء عندما انضم إلى صديقه: "هذا غريب، فهو لا يبدو خاتماً رخيص الثمن".

قلت بسخرية:"حسناً، إنني لا أنزف، لذا لا أجد أي تفسير لهذا، ما لم تكن إصبعي تنزف بشكل عجيب من دون وجود أي جرح فيها".

سأل مينان وهو يبدو مغموماً بشكل واضح: "بشكل عجيب؟! من أين أتتك هذه الفكرة؟".

هز ضياء رأسه، وكأنه يريد أن يعبر عن استغرابه من غباء مينان.

قال وهو ينتزع الخاتم من يده، ويتأمّله: "إنها تمزح. هذا خاتم جميل بالفعل. من أين اشتريته؟".

"لم أشتره، فهو هدية".

"حقاً؟ كم هذا محرج! أشعر بالأسف حيال الشخص الذي أهداك إياه. فقد سبب الكثير من الفوضى".

لعب ضياء دوره بكل براعة، فجاريته في التمثيل قائلة: "ليس شخصاً أعرفه، بل مجرد رجل غريب ملتح ومتسربل بالسواد".

تدخل مينان قائلاً: "أعتقد أنه متسول من أولئك المتسولين الذين يقفون أمام المسجد".

بدا ضياء متفاجئاً وقال: "حقاً! هل رأيت ذلك الرجل أيضاً؟".

"لقد حدث ذلك في الليلة الماضية بينما كنت أقل السيدة غرينوود إلى الفندق". وصمت قليلاً، ثم قال: "لم أره فعلاً. فقد كنت أغير عجلة السيارة في ذلك الوقت".

"إذاً، كيف عرفت أنه متسول؟".

"خمنت ذلك مما قالته لي السيدة غرينوود عنه. فقد قالت إن شعره ولحيته متشابكان، وإنها رأته يقف أمام المسجد المجاور لفندقها في وقت لاحق".

قاطعته قائلة: "كلا. لست واثقة من أنه الرجل نفسه، فقد كنت خائرة

القوى. لا بد أنني رأيت شخصاً آخر".
أظهرت ملامح مينان شعوره بالخيانة، فظننت أنه سيتحدث عما قلته له في الحديقة، ولكنه لم يقل شيئاً لحسن الحظ.
سألني وهو يبدو لاذعاً: "إذاً، هل غيرت رأيك وقررت أنه ليس الشخص نفسه الآن؟".
أجبته محاولة ألاّ أدعه ينال مني: "كلا". وحدقت إلى عينيه بلا وجل قائلة: "لا أظن أنه هو".
سمعنا أحدهم يدق على الباب، ثم دخلت السكرتيرة ومعها مشروباتنا، فابتسم ضياء وأرشدنا إلى كرسيينا من جديد.
وقال: "فلنجلس ولنكمل حديثنا في أثناء شرب الشاي".
جلسنا على كراسينا المريحة والمترفة على الرغم من تصميمها المتسم بطابع ما بعد الحداثة. لم يعد مينان ينظر باتجاهي بعد الآن. فقد شعر على الأرجح بالامتعاض لأن الشخص الذي نصب له فخاً لم يقع فيه حسب ما تم التخطيط له. ارتشفت الشاي متجاهلة وجوده. وكان ضياء قد طلب فنجاناً من القهوة التركية لنفسه، فأخذ رشفة من فنجانه أيضاً. ومع ذلك، قام مينان بمجرد الجلوس على كرسيه وهو يتعرق كطفل بدين متجهم والبخار يتصاعد من فنجان الشاي على الطاولة أمامه.
أخيراً، قال ضياء ليكسر جدار الصمت: "إذاً، هل أعجبك الشاي؟".
في الواقع، لم يعجبني. فقد كان الحليب فيه أكثر من الشاي. ومع ذلك، لم أجد الوقت مناسباً للتفكير بحاسة الذوق الآن، فكذبت عليه قائلة: "إنه جيد، شكراً لك".
"يسرني أنه أعجبك. لا يزورنا الكثير من الضيوف الإنكليز، لذا خشيت ألاّ يتمكن الصبية من تحضير الشاي الملائم لذوقك". والتفت إلى ابن بلده الممتعض الذي لاحظ امتعاضه هو أيضاً، وقال بعبث: "إذاً، لماذا لم تتذوق شايك يا مينان؟ إن السيدة غرينوود قد أحبّت الشاي، فلِمَ لن تحبه أنت؟".
اعتدل مينان في جلسته، وقال بخجل: "بالطبع ليس هذا هو السبب يا ضياء. فأنا أنتظر أن يبرد. ألا ترى كم أتعرق؟".
"هلا أطلب لك زجاجة صودا باردة".
"كلا، شكراً لك. إنني مستريح هكذا".
بدت الفرصة سانحة لتغيير الموضوع، وبدء الحديث عن العمل، ولكن ضياء أخذ رشفة أخرى من الشاي ولم يفعل ذلك.

"اعذري فضولي. ولكن، أين قابلت ذلك الرجل الملتحي للمرة الأولى؟".
لم يفاجئني سؤاله، بل وجدت أنه من الطبيعي جداً أن يعيد الموضوع إلى الرجل الملتحي أو الخاتم، ليستخدم كل هذه المحادثة ضدي في المستقبل إن لزم الأمر.
فقلت وأنا أضع فنجاني على الطاولة: "لست واثقة من المكان. فقد رأيته أمام حديقة فيها مسجد".
لم يعد مينان راغباً بالتدخل في الحديث، وما كان ليفتح فمه ربما لولا أن ضياء طرح عليه سؤالاً مباشراً وقال: "أين ذلك المكان يا مينان؟".
"إنه ضريح شمس التبريزي".
كرر ضياء كلام مينان، ونظر إليّ بشكل مباشر من دون أن يرمش بعينيه، ثم قال: "هل تعرفين من هو شمس التبريزي يا سيدة غرينوود؟".
فكرت في الأمر كما فعلت في اليوم السابق عندما قرأت الاسم على لافتة المسجد. لا بد أنني سمعت الاسم في مكان ما من قبل؛ ربما من والدي على ما أعتقد.
فقلت له وأنا أهز كتفي: "لست أدري. لا بد أنه أحد الدراويش".
أومأ برأسه وقال متأملاً: "ليس مجرد درويش عادي بل كان درويشاً مهماً جداً، فهو الرجل الذي أثّر في رومي وجعله ما هو عليه إن صح التعبير".
"أفهم من قولك أنه رجل عظيم. ومع ذلك، لماذا ينبغي عليّ أن أعرف أي شيء عنه؟".
لا بد أنه ظن أنه أزعجني لأنه بدأ يدافع عن نفسه على الفور.
"ليس عليك ذلك...". وأوشك أن يشرح لي ولكنه عدل عن رأيه وهو يبدو حائراً، ثم قال: "ليس عليك أن تعرفي شيئاً عنه بالطبع، ولكن...".
"نعم؟". ترى، ما الذي جعله يراوغ هكذا؟
"لا بد أنها صدفة بحتة".
"عن أي صدفة تتحدث؟".
"تعرفين أن اسمك الأوسط هو كيميا، صحيح؟ على حدّ علمي، اسمك هو كارين كيميا غرينوود".
"هذا صحيح".
"حسناً، إن زوجة شمس التبريزي كانت تدعى كيميا أيضاً، وهي ابنة رومي بالتبني".
شعرت بموجة برد تسري في جسدي، ورن الصوت الذي ناداني باسم كيميا في أذني مرة أخرى، وكادت كل الكوابيس التي طاردتني تتدفق عائدة إليّ،

وهذا هو على الأرجح ما خطط له الرجلان، فأخذا يحدقان إليّ بعيون مفتوحة على وسعها بانتظار رؤية تأثير الكلمات عليّ.
"وماذا في ذلك؟ لقد كان والدي يحب اسم كيميا، ولذلك أطلق عليّ هذا الاسم".
"لست أقول إن هناك أي سبب يدعو إلى ذلك، ولكنها مجرد مصادفة غريبة".
ها هما يمارسان الألاعيب معي! ولكنني قررت ألاّ أمنحهما رداً يرضيهما.
قال ضياء موجهاً كلامه إلى مينان عندما لم يجد رد الفعل الذي توقع الحصول عليه: "ما الذي كنتما تفعلانه هناك على كل حال؟ إن ضريح شمس التبريزي لا يقع على الطريق من المطار إلى الفندق".
"لقد أرادت السيدة غرينوود أن تبحث عن منزل كبير ذي حديقة". وأمسك عن الكلام. إذ لا بد أنه ظن أنني سأناقض كلامه مجدداً، ثم سألني قائلاً: "إنني لست مخطئاً في ما قلته يا سيدة غرينوود، أليس كذلك؟".
ابتسمت له باعتداد بالنفس وقلت: "كلا، إنك محق يا سيد فيدان. كنت أبحث عن منزل كبير ذي حديقة واسعة. فقد ذهبت إلى هناك في المرة الأولى التي زرت فيها قونية".
"أهو منزل أبيك؟".
"لست أدري". أبليت حسناً بالحفاظ على هدوئي عندما ذكر اسم والدي، وتابعت قائلة: "في الواقع، لقد بدا أشبه بمركز ديني وليس بمنزل".
أومأ برأسه بذلك اليقين المزعج مجدداً، وقال: "إنه مركز جماعة المولوية. يمكنني أن أصطحبك إلى هناك إن أردت ذلك".
قلت له وأنا أتمنى بصدق أن أراه: "أود ذلك. كيف تعرف عن ذلك المكان؟".
ابتسم كاشفاً عن أسنان عريضة مصفرة بعض الشيء، وقال: "هل تتذكرين أنني قلت لك إن والدي صوفي من أتباع المولوية؟ ربما ذكره والدك أمامك. إن اسمه عزت، ويدعوه الناس عزت أفندي صانع الفضة لأنه عمل بصياغة الفضة لسنوات عديدة. إنه يعرف والدك، بويراز أفندي. فقد ظلا لسنوات يترددان على مركز الدراويش نفسه. هل تودين أن تقابليه؟".
قلت: "إن تسنى لنا الوقت لذلك". وشعرت أن الوقت قد حان لإنهاء موضوع العائلات والعودة إلى العمل، فقلت: "هلا نتحدث الآن عن الحريق قليلاً".

فرفع ضياء سبابته في الهواء، وقال: "بكل تأكيد، ولكن قبل ذلك لا يزال هناك شيء واحد يتملكني الفضول حياله. ألا يزال والدك يعيش معك؟ فقد مضت عشرون سنة منذ أن رآه والدي آخر مرة. قال لي إنه لم يعد يسمع عنه منذ أن غادر قونية".

"لماذا تسأل؟".

أتى وقع صوتي بالضبط كما أردت له أن يأتي؛ أي بارداً وفاتراً ورسمياً. فشعرت أن تعبيره الدال على الثقة بالنفس قد تبعثر وتلاشى بلمح البصر.

قال: "إنني آسف. من فضلك، لا تسيئي فهمي. ما يهمني في الأمر هو والدي نفسه، لذا أسأل عن والدك لأفهم طبيعة والدي".

"أحقاً ذلك!؟".

"صدقيني. كان والدي ذات مرة من أمهر صانعي الفضة في قونية. لقد أصبح متدربوه الآن من أكثر الناس ثراء في المدينة، ولكنه هو نفسه لم يتغير قيد أنملة من أربعين عاماً وحتى الآن".

فقلت له بلهجة العارفة: "حسناً، ولكنني ألاحظ أنك تبلي حسناً بصرف النظر عن وضع والدك".

ربت على طيات سترته المفصلة بعناية، وقال: "هذا بفضل جدي عثمان". وتوقف ثم قال: "إنه والد أمي. أما عائلة والدي، فقد عاش أفرادها فقراء طوال حياتهم. ولولا جدي عثمان، لكنا الآن نرزح تحت وطأة فقر مدقع، وأنا واثق من ذلك. لحسن الحظ، تحلى جدي عثمان بالذكاء والحنكة، وعمل بتجارة الجبن حتى أصبح رجل أعمال ناجحاً جداً. ولطالما أحببت أن أقلده وأتخذه مثالاً يحتذى في حياتي".

قلت: "حسناً، يستطيع كل شخص أن يختار طريقه في الحياة. وقد آثر والدك أن يختار طريق الدين".

اعترض ضياء على الفور قائلاً: "ليس هذا قصدي. فقد اعتاد جدي عثمان أن يصلي خمس مرات في اليوم أيضاً. نحن مسلمون ونعبد الله. ليس ما أتحدث عنه أمراً متعلقاً بالدين، ولكن جدي ووالدي مجرد رجلين من طينتين مختلفتين".

تدخل مينان قائلاً: "إنهما مختلفان كل الاختلاف في شخصيتيهما وأفكارهما ومشاعرهما ورؤاهما وطرائقهما...".

أومأ ضياء نحو مينان متضايقاً، وقال:

"لقد عمل أيضاً واعظاً في المسجد، لذا هو واسع الاطلاع في أمور الدين. وعلى كل حال، هذا هو ما أتوق لمعرفته. إذ لا يزال والدي يعيش في

بيته القديم، ويجلس على كرسيه القديم، ويقلب الصفحات نفسها في الكتب القديمة نفسها. وعندما يتعلق الأمر بالحب، فهو يقرأ القصائد نفسها. ولا يزال يذهب إلى بيوت الدراويش نفسها كعادته، كل هذا جيد وليس جريمة. ولكن، ألن يقتلك الملل إن ظللت تقومين بالأشياء نفسها كل يوم لو كنت مكانه؟ إنني أحاول أن أسبر أغوار شخصيته، ولهذا السبب أسألك عن والدك".

ارتسمت على وجهه نظرة يأس قبل أن يتابع كلامه قائلاً: "أتظنين أنني لم أسأله عن ذلك؟ حسناً، لقد فعلت هذا مرات عدة، ولكنه أجابني بالجواب نفسه قائلاً: لا تتوقع أجوبة مني يا ولدي. فالأجوبة هنا عند أطراف أنوفنا، ولكن أين العين التي تراها؟".

عجز مينان عن كبح ضحكة أفلتت من بين شفتيه، فرمقه ضياء بنظرة غضب بالرغم من أنه أمسك لسانه.

"لقد ربطت بين والدي وبويراز أفندي علاقة صداقة في الملة، وأخوة في الطريق نفسه، ولهذا السبب أتساءل إن كان والدك كوالدي".

لم أفهم ما عناه بقوله: صداقة في الملة وأخوة في الطريق نفسه، ولكنني شعرت أنه صادق في سؤاله، ولهذا السبب لم أجد سبباً يمنعني من منحه جواباً صادقاً بقدر ما أعرف، وهو ليس بالكثير.

"أعتقد أنه كذلك، لكنه لم يعد يعيش معنا بعد الآن. إنه يعيش في باكستان، ويقوم على الأرجح بالأشياء نفسها التي يقوم بها والدك كل يوم وهو مغتبط بالحياة التي يعيشها".

استرخت شفته السفلى وهو يقول بشرود: "إنهما رجلان غريبان. لا بد أنهما الأخيران من نوعهما". ظل على تلك الحال للحظات، وكأن مشكلة عويصة تواجهه، ثم ارتشف رشفة أخيرة من قهوته واستعاد حيويته، وقال: "حسناً، الآن يمكننا أن نناقش أمور العمل".

هذه المرة، قاطعته أنا وقلت: "لحظة واحدة من فضلك". وأخرجت كمبيوتري المحمول من حقيبته، ثم شغلته وفتحت ملفات شركة إيكونيون، ثم قلت: "ها قد بدأنا. سيرهاد غوكوز ونزيهة بوستانسيوغلو وقدير غيميليك... أريد أن أقابل هؤلاء الناس". اكفهر وجه ضياء مرة أخرى، ولكنني تجاهلته وواصلت كلامي قائلة: "هؤلاء هم الشهود على الحريق. لقد سبق لي أن اطلعت على الإفادة التي أدلوا بها في مخفر الشرطة، ولكنني أريد أن أسمع روايتهم بنفسي".

قال ضياء وهو يتكئ إلى الوراء: "بكل تأكيد. إن سيرهاد ونزيهة من

موظفي الفندق، لذا يمكننا ترتيب لقائك بهما ببالغ السهولة. ولكن، لسوء الحظ، السيد قدير غيميليك لم يعد يعمل لدينا. فقد توجب علينا أن نصرفه لأنه تعرض لأذى خطير بسبب الحريق. دفعنا له تعويضاً أكثر من كاف بالطبع، ولكن الحادث ألحق به أذى عقلياً كبيراً، ويؤسفني القول إنه لم يعد يتمتع بكامل قواه العقلية".

قال مينان من دون تفكير: "سأجده". يا لها من مفاجأة! لقد عثر مينان على لسانه الذي أكله القط، وقال: "إنه صديقي منذ الطفولة. فقد نشأنا في الحي نفسه".

رمق ضياء مينان بنظرة حادة، وقال: "بالطبع يمكنك العثور عليه. يمكنني أنا أن أعثر عليه أيضاً، ولكن ذلك ليس ما قصدته". والتفت إليّ وقال: "إن "قدير" غير مدرك لما يقوله ويتفوه بالتفاهات. إن أردت أن تزوريه، فإنني أنصحك بأن تلقي كل ما يقوله وراء ظهرك لأنه محض هراء". أوشكت أن أسأله عما يعنيه عندما تابع ضياء مفسراً كلامه طواعية: "إنه يدعي أن مخلوقات فضائية أحرقت الفندق، وأن رجلاً يضع هوائياً على رأسه دخل غرفة الغسيل، وشغّل كل المكاوي".

فعلق مينان مستظرفاً: "يا لها من قصة جميلة! ترى، هل ذكر السبب الذي دفع المخلوقات الفضائية لإشعال الحريق؟".

"نعم. على ما يبدو، إن أضواء الفندق قد جذبتهم، وبالطبع لم يعثروا على مكان يهبطون فيه".

قال مينان معززاً رواية ضياء: "لم يعد قدير المسكين على طبيعته. فقد سمعته يتفوه ببعض الكلام التافه في المستشفى، ولكن الأطباء قالوا إنه سيتعافى. لم نره منذ بضعة أيام، لذا...".

فنصحني ضياء قائلاً: "لا أزال أؤكد لك أن كلامك معه مضيعة للوقت؛ مع أن القرار يعود إليك بالطبع في نهاية المطاف".

هكذا، أصبحت الآن على يقين من أنه ينبغي عليّ بكل تأكيد أن أزور هذا الشخص المدعو "قدير" الذي يرى الكائنات الفضائية.

سألت وأنا أعاود النظر إلى شاشة الكمبيوتر: "وماذا عن الآخرين؟ سيرهاد غوكوز و...".

فأكمل ضياء الجملة بدلاً مني قائلاً:"ونزيهة بوستانسيوغلو. كما قلت لك، إنهما لا يزالان يعملان لدينا، ويمكنك أن تقابليهما متى شئت".

نظرت إلى ضياء بامتنان وقلت له: "شكراً لك. لقد قدمت لي مساعدة كبيرة".

"هذا من دواعي سروري يا سيدة غرينوود".
نظرت إليه باستحسان، وقلت: "حسناً، إن احترافيتكم أمر يبعث على الرضى. فالكثير من زبائننا يشعرون بالتوتر عندما نجتمع بهم. على كل حال، لديّ طلب أخير. أيمكنك أن ترسل الموظفين إلى موقع الحريق؟".
لا بد أنني أخذته وminan على حين غفلة.
فقد قال ضياء: "إلى الفندق؟! لماذا؟".
"أريد أن ألتقيهما في موقع الحريق ليتسنى لهما أن يشرحا لي مجريات الحادث على أرض الواقع. إذ إنّ إعادة تصور الحادث وأنا في الموقع أسهل بكثير، وهذا سيساعدني على صياغة تقريري بصورة أكثر واقعية؛ مما يعني بالطبع مشكلات أقل في الحصول على توقيع شيك التعويض في لندن".
أشرق وجه ضياء بامتنان وقال: "هذا رائع جداً. شكراً لك. كلما حللنا هذه المشكلة بسرعة سهل هذا علينا إعادة إصلاح الفندق وتشغيله. إننا نخسر المزيد من المال بمرور كل دقيقة، لذا سنكون أكثر امتناناً إن تمكنا من حل هذه المسألة بالسرعة المطلوبة".
أيقنت أن ضياء سيعرض عليّ رشوة، ولكنه عندئذ قام بمجرد الابتسام ثم قال: "لا تقلقي. سأرسل سيرهاد ونزيهة إلى الموقع".

"على بركة الله، الفاتحة
على أرواح الأموات"
كان فندق ياقوت يقع في جادة جديدة واسعة شمال المدينة، ويعتبر أفضل فندق في قونية. فقد بني على مساحة إجمالية قدرها 3500 متر مربع بالإضافة إلى الحدائق وبركة السباحة والملحقات الأخرى كافة. هالني منظر الفندق وهو يبدو الآن هيكلاً محترقاً؛ نوافذه متفحمة، وغرفه مغبرة من السخام الأسود، وقضبانه الحديدية ملتوية بسبب شدة الحرارة، وطلاؤه منصهر، وزجاجه المعتم محطم إلى شظايا، وطوابقه التسعة كلها محروقة. لو لم يكن الفندق قيد الإصلاح، لوقعت إصابات أكثر بكثير. أعاد منظر الفندق المحترق إلى ذاكرتي حادثة حصلت في ماليزيا. فبالرغم من أن الطوابق الأربعة العلوية من أصل أحد عشر طابقاً هي التي دمرها الحريق، إلاّ أنّ سبعة عشر شخصاً لقوا حتفهم؛ خمسة منهم ماتوا من جرّاء الحريق، والباقون اختنقوا من جراء الدخان الكثيف. لحسن الحظ، كان هذا الفندق شاغراً عندما شب الحريق.
قبل أن يصل سيرهاد ونزيهة، قمت بجولة صغيرة في أنقاض الفندق بصحبة مينان. وفي غمرة الحطام الفوضوي الذي يملأ المكان، بدا من المحال أن يعرف أحد ما الذي جرى بالضبط. لم نستطع أن نتحمل لوقت طويل رائحة الخشب المحترق القوية ورائحة البلاستيك المنصهر، فأسرعنا إلى الخارج على الفور عندما توقفت سيارة مرسيدس كحلية اللون أمام الفندق، وترجلت منها امرأة في منتصف العمر وشابان. كان السائق رجلاً ضخم الجثة حليق الرأس يضع نظارة شمسية تعكس عدستاها الشمس كما لو أنهما مرآتان، ولكن القفازين الجلديين البنيين اللذين ارتداهما على الرغم من ارتفاع درجة الحرارة هما ما لفت انتباهي. لم يقترب الرجل منا، بل اكتفى بالتلويح بيده من بعيد، فرد عليه مينان بإيماءة بالكاد يمكن رؤيتها، بينما لم أكترث أنا بردّ التحية بمثلها. وعندئذ، أخرج الرجل قطعة قماش من جيبه الخلفي وشرع يمسح مقابض أبواب السيارة.
قال مينان هامساً من بين أسنان مطبقة: "يا له من مخبول! إنه كافيت مهووس النظافة. إنه يرتدي قفازين كي لا تتسخ يداه".
لم يتوجب على مينان أن يهمس على كل حال، لأن الرجل الآخر شغل نفسه في تلك الأثناء بتفحص سيارة مينان المرسيدس. فقد راح يحوم حول السيارة، ثم يربت على الغطاء بإعجاب مصطنع، وقال: "من أين لك بهذه

السيارة يا مينان؟ من المؤكد أنها تخطف الأبصار. إن أعمالك تسير على ما يرام، أليس كذلك؟".

سببت كلمات الشاب القلق لمينان، ورسمت تقطيبة على وجهه. لا بد أن هذه هي مكافأة ضياء لوكيلنا على عدم إخلاصه لنا.

أجابه مينان بنبرة حادة قائلاً: "هذا ليس من شأنك". ثم التفت إليّ وقال ليعرفه عليّ: "هذا سيرهاد غوكوز. وهذه نزيهة بوستانسيوغلو". وأشار إلى سيدة نحيفة داكنة البشرة تتمتع بوجه نحيل، وعظمتي وجنتين حادتين يحيط بهما وشاح كحلي اللون تضعه على رأسها. نظرت إليّ عيناها العسليتان الغارقتان في سنوات من التعب والسأم ببعض الخجل ولكن بالكثير من الشك. أما بالنسبة إلى سيرهاد، فقد كان شاباً لا يتجاوز أواسط العقد الثاني من عمره، شعره الأجعد مقصوص قصيراً، وقميصه مفتوح الأزرار ليكشف عن تميمة يبدو أنها جالبة للحظ معلقة على صدره. وقف أمامي ويداه مدسوستان داخل جيبي بنطاله، وعلى وجهه تعبير يجمع بين قلة الاحترام والوقاحة، ونظر إليّ بعينيه الزرقاوين المائلتين للون الرمادي.

بدأت الكلام قائلة: "شكراً لحضوركما. أظن أنكما تعرفان سبب استدعائكما إلى هنا".

قال سيرهاد: "كلا، إننا لا نعرف". وأخرج يديه من جيبيه، وقال: "لقد طلب منا ضياء أن نحضر فحضرنا".

قالت نزيهة وهي تومئ برأسها: "نعم، هذا صحيح. طلب منا ضياء أن نحضر، فحضرنا. فليباركه الله".

كنت مستعدة لسماعهما يرددان ما قاله لهما ضياء كلمة كلمة، ولكن مينان فاجأني عندئذ بقوله: "انسيا أمر ضياء الآن". ووقف منتصباً، ووضع يديه على خصره، ثم قال: "لا يوجد ضياء هنا الآن. والقانون إلى جانبنا". وأشار إلى أطلال الفندق المحترق خلفه، وقال: "انظرا إلى حالة هذا الفندق؛ هذا البناء الوطني الجميل الذي تحول إلى كومة من الرماد. وبالإضافة إلى ذلك، لقد لقي شخصان حتفهما. إنهما رجلان لديهما عائلتان مثلي ومثلكما تماماً. لقد قطعت السيدة غرينوود كل تلك المسافة من لندن لكي تجري هذا التحقيق. هذه مسألة خطيرة، لذا يجب أن أحذركما، إن كذبتما أو أدليتما بأي معلومات غير صحيحة...".

عجزت عن إيجاد سبب لرد فعله العنيف هذا. لا بد أنه أراد أن يسوي أموره مع سيرهاد بعد الملاحظة التي أدلى بها حول السيارة، ولكن سيرهاد لم يبدُ من النوع الذي يستسلم بسهولة، فقاطعه قائلاً: "لماذا تقول هذا

الآن؟ منذ متى وأنت تعرفني كاذباً؟ يجب أن تخجل من نفسك لتفوّهك بهذا الكلام أمام ضيفتنا الأجنبية".

مما يثير الاستغراب أن تلقيبـي بالأجنبية هو ما أزعجني أكثر من كل شيء آخر. ومما فاجأني أنني وجدت نفسي أرد عليه بحدة قائلة: "لست أجنبية". ونظرت إلى عيني سيرهاد عديمتي الأهداب، وأضفت قائلة: "إنني مواطنة من قونية مثلكم تماماً. وكان والدي يمشي في هذه الشوارع قبل أن تولد".

قال مينان: "إن سيرهاد ليس من قونية. وهو يدعي أنه من أنطاليا، لذا فهو لا يشبهنا في أي شيء".

نظر سيرهاد إلى مينان شزراً، فخشيت أن ينقض عليه، وهذا ما لم يفعله لحسن الحظ.

قال محولاً التحدي في عينيه إلى احترام مصطنع: "إنني آسف يا سيدة غرينوود. ليست لديّ مشكلة معك أنت، ولكن السيد فيدان تخطى حدوده ليس إلا".

أوشك مينان أن يرد عليه، ولكنني رفعت حاجبي مشيرة له أن يكف عن ذلك. لم أستطع أن أفهم سبب عدائيته. حسناً، قد يكون الشاب سيئ الخلق بعض الشيء، ولكنه لم يرتكب أي إساءة في حقنا بعد. ومع ذلك، ربما تعمد مينان إثارة هذه المشكلة ليحدث صدعاً بيني وبين موظفي الفندق لكي يغيرا رأييهما حيال الكلام. ولكن، كيف تمكن مينان وضياء من إيجاد الوقت المناسب بالضبط لترتيب هذه المؤامرة؟ إذ بعد أن خرجنا من مكتب شركة إيكونيون للسياحة، توجهنا مباشرة إلى مكتب مينان، وهو عبارة عن شقة متواضعة تقع بجانب علاء الدين حيث أقيمت في الماضي قصور سلاطين السلاجقة. جلست بضع ساعات منهمكة بقراءة الأوراق التي لم تصل إلى لندن، ولم يفارقني مينان خلال تلك الفترة بطولها. وبعد ذلك، توجهنا عائدين إلى الفندق حيث غيرت ملابسي، وارتديت ملابس أكثر ملاءمة لمعاينة موقع الحريق. أمضينا هناك نصف ساعة. وهكذا، كان بوسعهما أن يتحدثا عبر الهاتف في تلك الأثناء، ولكن التخطيط للأمر برمته بهذا التفصيل لا يمكن أن يحدث بهذه السهولة. هل الرجلان ممثلان؟ تفحصت مينان بعناية، وأحسست بأن لديه حساباً شخصياً يريد أن يصفيه مع سيرهاد. فقد بدا على وشك الانفجار، ولكنه كظم غيظه على الأرجح لأنه شعر بالخجل في وجودي. وفي كلتا الحالتين، قررت ألاّ أسمح لهذا التوتر بأن يعيق مسار التحقيق.

تدخلت قبل أن تتاح لمينان فرصة التشاجر مع ذلك الفتى الذي يبلغ

بالكاد نصف عمره، فقلت: "إن سيرهاد يحاول أن يقدم المساعدة ليس إلا".
قطب الشاب ذو التميمة جبينه، وأخذت عيناه ترمشان بغضب تحت حاجبيه الرقيقين، وقال: "ذلك ما أحاول القيام به يا سيدة غرينوود. إننا شريفان، وليس لدينا ما نخفيه. ونحن مستعدان لأن نقول لك كل ما نعرفه. فما الذي يدفعنا للقدوم إلى هنا لولا ذلك؟".
تدخلت نزيهة مرة أخرى، وقالت: "نعم، ما الذي سيدفعنا للقدوم إلى هنا لولا ذلك؟".
واصل سيرهاد عرض حجته قائلاً: "إن القانون إلى جانبنا. فما الحاجة إلى استخدام أساليب التخويف هذه؟".
وجدت كلامه صحيحاً. فقد خطونا أول خطوة في تحقيقنا معهما بالاتجاه الخطأ عندما هددهما مينان وهاجمهما بلا أي مبرر يذكر، لذا قررت ألاّ أتيح الفرصة لوكيلنا لكي يقوم بأي مبادرة بعد الآن.
"إنك محق. فقد تجاوزنا حدودنا معكما، وأنا أعتذر منكما. أعتقد أننا بدأنا بداية سيئة، ولكن المثل الإنكليزي يقول: خير الأمور أحمدها مغبة. إذاً، حللنا المشكلة. دعونا الآن نبدأ العمل".
عندما لم أسمع أي اعتراضات، باشرت عملي ومددت يدي لأخرج كاميرا الفيديو الخاصة بي من حقيبتي. وحين رأت نزيهة الكاميرا، تراجعت إلى الوراء على الفور.
"ما هذه؟".
"إنها كاميرا فيديو. فأنا أريد أن أسجل إفاداتكما لكي لا أنسى ما يقال".
"هل ستقومين بتصويري؟".
"نعم، يمكنك قول ذلك".
غطت المرأة وجهها بيديها، وأشاحت به بعيداً عن الكاميرا، وكأنها موجهة نحوها.
"من فضلك لا تفعلي هذا".
"ليس هناك ما يدعو للقلق. لن أقوم بعرضه على التلفزيون أو ما شابه. أنا الوحيدة التي سترى ما تم تصويره".
"كلا، سأتوتر. لا أستطيع التحدث أمام ذلك الشيء".
قال مينان محاولاً مساندتي: "لا تقلقي. إنها مجرد كاميرا عادية. ابذلي جهدك للتركيز على الكلام".
فأجابت وهي ترد رأسها إلى الوراء بعناد: "مستحيل. انسيا الموضوع. لن أتحدث أمام أي كاميرا".

لم يعد أحد قادراً على تحمل احتشام هذه المرأة الذي لا طائل منه؛ حتى سيرهاد أيضاً، فقال لها محاولاً أن يهدئ من روعها: "هيا، يا نزيهة. إنها مجرد كاميرا. ما المشكلة؟".

"أتظن أنني لا أعرف ما هي؟ قلت لا، يا سيرهاد. لم أتحدث إلى مصور التلفزيون ذي اللحية الذي حضر إلى هنا في العام الماضي. أتتذكر ذلك المصور الذي طلب أن يصور برنامجاً عن فندقنا. لقد رفضت التحدث إليه فتحدث إلى حسيب الذي يعمل في غرفة الغسيل بدلاً مني".

ظلت المرأة مصممة على موقفها ورافضة أن يتم تصويرها.

فقلت لها محاولة ألاّ أخيفها أكثر من ذلك: "حسناً، لن أصورك، ولكنني سأسجل صوتك فقط".

مع ذلك، لم توافق على الفور. ولا بد أنها ظنت أنني أحاول خداعها.

"أتعنين أن صورتي لن تظهر؟".

"لن تظهر صورتك وإنما صوتك فقط".

ولكنها لم تمنحني ثقتها، بل نظرت إلى زميلها، وعيناها تستجديان منه المساعدة.

فقال سيرهاد: "لا تقلقي، يا نزيهة. لن تصورك السيدة غرينوود. إنها تقطع لك وعداً".

"حسناً إذاً". ولكنها لم تكف عن القلق، فقالت: "ولكن، أصغيا إليّ، إن فعلتما ذلك...".

"لن نفعل. لا يمكننا أن نصورك بدون إذن منك على أية حال".

كررت قائلة: "لم تحصلا على إذني، لذا لا تصوير".

"سنسجل صوتك فقط".

"على الشريط؟".

"على الشريط".

"حسناً، التسجيل على الشريط لا بأس به".

أعدت الكاميرا إلى الحقيبة، وأخرجت مسجل الكاسيت. وأخيراً، أصبحت قادرة على البدء بعملي. فضغطت على زر التسجيل.

سجلت مقدمة عن التحقيق بصوتي قائلة: "قضية حريق فندق ياقوت في قونية. معي شاهدا العيان سيرهاد غوكوز ونزيهة بوستانسيوغلو".

بدأت بتوجيه المسجل نحو سيرهاد خوفاً من أن تثير نزيهة الفوضى.

"ما هي وظيفتك في الفندق؟".

"إنني مشرف الأمن في الطوابق السفلية".

"هل كنت متواجداً في الفندق ساعة اندلاع الحريق؟".
"نعم، كنت أشرب الشاي في قاعة الاستقبال".
"وحدك؟".
"نعم، وحدي. فقد قررت إدارة الفندق إخضاعه لبعض الإصلاحات، وطلبت من عمال الطلاء أن يحضروا في اليوم التالي. وهكذا، تواجد خمسة أشخاص في الفندق، وهم أنا وقدير ونزيهة، ومسعود وحسين اللذان توفاهما الله".
أومأت المرأة برأسها مجدداً موافقة على كلامه.
"نعم، العدد الإجمالي هو خمسة أشخاص".
أطفأت المسجل، فنظرا إليّ، ثم إلى بعضهما متسائلين عما أنوي فعله. وبدا مينان متفاجئاً بقدرهما.
قلت لهم معلنة عن نيتي بكل بساطة: "هلا ندخل المبنى. إنني أفضل أن تشرحا لي ما حدث في المكان الذي حدث فيه".
بدا القلق على سيرهاد، فكررت طلبي مستخدمة العبارة الوحيدة التي لا يمكنه الاعتراض عليها.
"هذا هو ما ناقشناه مع ضياء. ستشرحان لي ما حصل داخل الفندق".
ارتسمت ابتسامة اعتداد بالنفس على شفتي سيرهاد الرقيقتين الشاحبتين.
"لا مشكلة بالنسبة إلينا، ولكن المبنى محطم ومليء بالزجاج المكسور. لا أريد أن تتعرضي لضرر ما أو ما شابه".
كان إتقاني للغة التركية ممتازاً بما يكفي لكي أدرك ما تضمنه كلام ذلك الفتى الذي يظن نفسه أحد قطاع الطرق في عصابة المافيا. فقد عملت ذات مرة كسكرتيرة في شركة تركية في لندن، وهناك علمتني امرأة تركية مسنة، واسمها توركان، المعاني السرية للغة الشوارع العامية. كانت توركان تتمتع بلسان جعل الجميع يمنحونها لقب "توركان الرجل". اعتادت تلك المرأة أن تقول: "لن تتقني إحدى اللغات إتقاناً تامًّا إلى أن تتعلمي كيف تشتمين بهذه اللغة". وهكذا، إن أصبحت الآن أتحدث التركية وأكتبها بإتقان بالإضافة إلى الإنكليزية، فالفضل في هذا يعود إلى توركان أكثر من والدي.
إذاً، بالرغم من أنني فهمت ما قصده سيرهاد بكلامه بالضبط، فقد علمتني توركان مرادف كلمة أحمق، وهي من بين الكلمات المفضلة لديّ، لذا فضلت الاستمرار بلعب دور المرأة الإنكليزية الغافلة عما يدور حولها.
قلت له محاولة الإبقاء على نبرة صوتي هادئة: "هذا لطف كبير منك. ولكنني معتادة تماماً على دخول أماكن من هذا النوع، فهذا جزء لا يتجزأ من طبيعة عملي. فإن لم يكن لديك أي اعتراض، دعنا نواصل هذه

المحادثة بالداخل".
لم أزعج نفسي حتى بطرح السؤال على نزيهة مخافة أن ترفض الدخول، وتوقعت منها أن تلحق بنا إلى الداخل، وهذا ما فعلته، ولكنها توقفت قبل الوصول إلى حيث حصل الحريق، ونظرت إلى كل منا على حدة.
وقالت: "على بركة الله. الفاتحة على أرواح جميع الأموات!".
بدأ كل من نزيهة ومينان يتمتمان باللغة العربية، بينما تظاهر سيرهاد بأنه يتلو الفاتحة أيضاً، ولكنني رأيته يحرك شفتيه فقط. وقمت أنا بمجرد رفع كفي نحو السماء بلطف كما فعل الآخرون. انتهت تلاوة الفاتحة بسرعة، فقال كل منهما بالدور "آمين"، ثم مسح على وجهه بيديه؛ وهذا ما لم أفعله أنا، بل اكتفيت بأن أضفت قائلة: "رحمهما الله".
تقدمنا إلى الأمام من جديد، ونحن نتلمّس طريقنا على أطراف أصابعنا، ونتوخى الحذر الشديد لئلا ندوس على أي من قطع الحديد أو شظايا الزجاج. وسرعان ما وصلنا إلى مكان مكشوف هو ردهة الفندق. نظر مينان في أنحاء الردهة ببؤس، وأنّ بكآبة رغم أنه حضر إلى هنا من قبل.
"هذا مؤسف. انظري إلى حالة هذا الفندق الجميل". وأشار إلى كومة من المعدن الملتوي حيث كان مكتب الاستقبال على ما يبدو، وقال: "لقد أتيت إلى هنا مرات لا حصر لها، وأظن أن آخرها كانت عندما أقام سايمون هنا. تناولنا العشاء معاً، فأفقده الطعام اللذيذ صوابه". وأخذت عيناه تتأملان الردهة المتفحمة مجدداً.
كرر قائلاً: "يا لها من كارثة فادحة!".
لم أجد نفسي قادرة على مجاراة مينان في تفجعه بسبب الهواء الراكد والحرارة ورائحة الرماد وطعمه والرائحة اللاذعة التي أحرقت أنوفنا. ولم أستطع أن أمنع نفسي من فتح فمي لآخذ نفساً عميقاً. أعدت تشغيل المسجل وقربته من سيرهاد لأستأنف الحوار معه.
"حسناً، أين كنت عندما اندلع الحريق؟".
بدلاً من أن يجيب، أشار سيرهاد بيده إلى الأعلى، وقال: "لا ينبغي علينا أن نقف هنا. فقد تقع الثريا فوقنا".
رفعنا نظرنا إلى الأعلى، فرأينا ثريا كبيرة زجاجها أسود كالفحم. كان سيرهاد على حق، فقد بدا من المحتمل أن تقع تلك الثريا في أية لحظة، لذا تحركنا بضع خطوات إلى اليمين.
قلت وأنا أمد المسجل نحو سيرهاد: "هذا المكان مناسب".
أشار سيرهاد نحو الجانب الأيمن من الردهة من دون أي تردد وكأن

الحريق لم يقع، وكأن الغرفة غير مصابة بأي أذى.
وقال: "كنت جالساً هناك على ذلك الكرسي".
بدا الشيء الذي أشار إليه الآن على أنه كرسي أشبه بكومة من البلاستيك المنصهر الذي تبرز منه قضبان حديدية من كل الاتجاهات.
أكدت قوله قائلة: "أي مقابل مكتب الاستقبال. كيف لاحظت اندلاع الحريق؟".
ضحك سيرهاد وكأن السؤال سره كثيراً، وقال: "كيف يسعني ألاّ ألاحظ؟ فقد انفجر كالقنبلة".
كنت قد اطلعت مسبقاً على التفاصيل من التقرير، ولكنني أردت أن أسمعها منه.
فسألته قائلة: "ما الذي انفجر؟".
"برميل من المادة المخففة من تركيز الطلاء".
"ما سبب وجود برميل من هذه المادة في الفندق؟".
"قلت لك إن إدارة الفندق قررت إجراء إصلاحات عليه، لذا حددت موعد البدء بعملية الطلاء في اليوم التالي. وضع العمال كل علب الطلاء والمادة المخففة في غرفة واحدة، فشبت النيران فيها، ثم وقع انفجار عنيف جداً لدرجة أن كرسيي اندفع إلى الأمام وكأن الأرض قد تزلزلت، وطار كوب الشاي من يدي وتحطم".
التفت إلى نزيهة، وقلت لها: "وماذا عنك؟ أين كنت عندما وقع هذا الانفجار؟".
شعرت المرأة المسكينة بأنها ضبطت وهي على غير استعداد، فتمتمت قائلة: "أنا؟ أين كنت؟".
"نعم، أنت. كنت في الفندق، أليس كذلك؟".
حولت نظرها عني، وأجابت قائلة: "لقد كنا في غرفة كي الغسيل؛ أنا ومسعود وحسين. ولم يكن قدير معنا. قمنا بتغطية المكاوي والطاولات بالنايلون بسبب أعمال الطلاء المقرر إجراؤها في اليوم التالي. فقد توجب علينا أن نغطي كل شيء لئلا يتلطخ بالطلاء".
"متى لاحظت اندلاع الحريق؟".
رفعت نظرها لتنظر إلى عيني أخيراً بعد أن تغلبت على حالة التوتر العصبي التي سببها لها الكلام.
"شم مسعود رائحة حريق، وقال إن هناك شيئاً ما يحترق. في البداية، لم نفهم ما عناه، ثم شممنا الرائحة أيضاً. كان مسعود شاباً ذكياً وفطناً.

رحمه الله! قال لنا: فلنذهب ولنلقِ نظرة. واندفع إلى الغرفة المجاورة ولحق به حسين. وفي اللحظة التي فتح فيها الباب، سمعت صوت انفجار عنيف، وشعرت أن الأرض انشقت إلى نصفين، وانقلبت رأساً على عقب. وفي ذلك الوقت، كان مسعود وحسين قد توفيا، أما أنا، فقد وقع باب غرفة الغسيل فوقي وحماني، وهذا شيء جيد. إذ لولاه لما رأيتني الآن واقفة أتحدث إليك".

"حسناً، من أنقذك من الحريق؟".

ارتسمت على وجهها نظرة خزي، فظننت أنها تشعر بالبهجة والندم في آن معاً لأنها لم تلقَ حتفها.

"أنقذني قدير. إذ حالما سمع صوت الانفجار، أسرع وحملني على ظهره وخرج بي من الفندق".

"أتقصدين قدير غيميليك؟ الرجل الذي تعرض لإصابة في الحريق؟".

"نعم، قدير هو المسؤول عن مجموعتنا، وهو الذي منحني هذه الوظيفة. إنه رجل طيب، باركه الله. لولا إنقاذه لي، لكنت الآن قد قابلت وجه ربي كما حدث لمسعود وحسين".

"هل تعرض قدير للإصابة فيما كان يحملك وينقلك إلى الخارج؟".

قالت وكتفاها منحنيتان إلى الأمام: "لست أدري، يا سيدتي. فقد أغمي عليّ ولم أرَ أي شيء".

تأثرت بالاحترام الذي تبديه نحوي، وبمناداتها لي بلقب سيدتي؛ مع أنني أصغرها بعشرين سنة على الأقل. فبدأ شعور بالتعاطف معها يخالجني.

قال سيرهاد مجيباً عن سؤالي: "كلا. بعد أن أنقذ قدير نزيهة، اندفع إلى داخل الفندق مرة أخرى. وعندئذ، تعرض للإصابة".

"أتعني أنك رأيت "قدير" وهو يخرج السيدة بوستانسيوغلو من الفندق؟".

"بالطبع رأيته. في الواقع، لقد طلبت منه ألاّ يعود إلى الداخل، ولكنه رفض أن يصغي إليّ بل قال وحسب: اعتنِ أنت بنزيهة وسأدخل أنا لأخرج "مسعود" و"حسين"".

انضم مينان إلى الحوار قائلاً: "يا له من رجل شجاع! لست أقول هذا لأنه أحد أصدقائي من أيام الطفولة، ولكنه بالفعل كالأسد المغوار".

بدا صوته متهدجاً؛ وكأن العاطفة تغلبت عليه، وتجمعت الدموع في عينيه، وبدت على وشك أن تنهمر على التراب والرماد الذي يغطي الأرض. تركته ليتعامل مع عواطفه وحده، والتفت إلى سيرهاد.

"ما الذي كنت تفعله في تلك اللحظة؟".

لم أقصد أن أتهمه بأي شيء، ولكن أظن أنه شعر بالإهانة على كل حال.
فأجاب بلهجة عنيفة قائلاً: "ماذا يفترض بي أن أفعل؟ كنت أساعد نزيهة. فقد تعرضت لإصابة في رأسها. وكان الدم يغطي وجهها وعينيها".
قالت نزيهة: "نعم، كان الدم يغطي وجهي وعيني".
"هل تم الاتصال بفوج الإطفاء على الفور؟".
"حسناً، في البداية أصبت ببعض الارتباك بالطبع. فالمرء لا يتعرض لموقف من هذا النوع كل يوم".
وجد مينان الفرصة سانحة للتدخل فقال: "هيا، أخبرها أنك أصبت بالهلع".
"نعم، أصبت بالهلع. أتساءل عما كنت ستشعر به لو تعرضت لمثل هذا الموقف".
أوشك الرجلان أن ينقضا على بعضهما مرة أخرى، ولكنني صممت على ألاّ أسمح لهما بالشجار.
"إذاً، متى اتصلت بفوج الإطفاء؟".
"حالما تمكنت من استجماع قواي العقلية، أعني أنه لم يمض وقت طويل. على كل حال، كانت نزيهة حينئذ قد بدأت تستعيد وعيها".
"ولكن فوج الإطفاء يدعي أنكم لم تبلغوه إلاّ بعد مرور ساعة على اندلاع الحريق".
تجهم وجه الشاب وعقد حاجبيه الرفيعين، وأخذت قطرات من العرق أكبر من تلك التي بدت على جبين مينان تتجمع على جبينه.
قال وهو يبتلع ريقه بصعوبة: "لأن الانفجار لم يقع إلا بعد مرور فترة من الزمن على اندلاع الحريق".
رغم أنني كنت أعرف كل تفصيل من تفاصيل ما حدث، إلا أنني رمقته بنظرة تساؤل، وقلت: "حقاً؟! لم أكن أعرف ذلك".
رمقني مينان بنظرة غريبة؛ لأنه أدرك أنني قرأت التقارير، وأنني أكذب على سيرهاد. ظننت أنه سيدلي بتعليق ما ليكشف تلاعبي، ولكن ما أدهشني وسرني في آن معاً هو أنه حافظ على هدوئه وواصل الاستماع لحديثنا بصمت.
شرح سيرهاد وهو مقتنع بأن مساهمته تشكل حجر أساس في التحقيق قائلاً: "بالطبع. فقد اندلع الحريق في غرفة التخزين، وهذه الغرفة تقع بالضبط إلى جانب الغرفة التي وُضِع فيها مخفف الطلاء. اندلع الحريق من مقبس كهربائي هناك. في بادئ الأمر، شبت النار في السجادة، ثم اشتعلت الستائر ثم البياضات وهكذا... وبعد ذلك، وصلت النار إلى غرفة الغسيل؛

حيث وضع الطلاء ومخفف الطلاء، فانفجر هذا الأخير. إذاً، كما تلاحظين، إن اندلاع الحريق وانفجار المخفف وقعا في مكانين منفصلين تماماً، ثمة فجوة زمنية بين الحادثتين. وهكذا، حسب فوج الإطفاء وقت وقوع الحريق واستنتج أننا تأخرنا في الإبلاغ عنه".

"ألم تشم أي رائحة؟ أقصد قبل وقوع الانفجار؟".

"كلا، كيف يمكنني ذلك؟ فقد اندلع الحريق في الطابق الذي يقع تحتي تماماً".

بدأ الإحباط يتملك الشاب، فوجدت هذا أمراً إيجابياً. فإن تملكه الغضب أكثر من ذلك، فسيفقد السيطرة على نفسه، وسيتفوّه بأي شيء ربما يخفيه عني.

قلت له محاولة أن أضعه تحت الضغط: "من الممكن أن تتسرب الرائحة عبر الفتحات".

ظل مصراً على الإنكار بحزم قائلاً: "كلا، لم أشم أي شيء".

"ومع ذلك، استغرق فوج الإطفاء وقتاً ليصل إلى هنا".

بدا الغضب مرسوماً في عينيه الرماديتين.

"هل الذنب ذنبي إن كانت حركة المرور مزدحمة في قونية في ذلك الوقت من اليوم؟".

قلت له بهدوء: "إنني لا أتهمك، بل أحاول وحسب أن أضع يدي على كيفية وقوع الأحداث. ولهذا السبب، أدقق في التفاصيل". بدا وجهه يتصبب عرقاً، فقلت: "ماذا فعلت بعد أن اتصلت بفوج الإطفاء؟".

"اتصلت بالإسعاف، وقلت لهم إن هناك بعض المصابين".

سألته قائلة: "هل تعني أنك أخرجت "قدير"؟". تعمدت طرح هذا السؤال رغم معرفتي أنه لم يفعل.

استفحلت نظرة الغضب في عينيه وقال: "لم أخرج "قدير"، بل رجل الإطفاء هو من فعل ذلك".

"إذاً، لقد تركت "قدير" وحده في الداخل؟".

"لم أستطع أن أترك نزيهة من دون رعاية". وأشاح بوجهه عني، وكأنه هو نفسه لم يقتنع بإجابته.

"قل ذلك وحسب. لا بد أنك لم تجد في نفسك الشجاعة الكافية".

لم يستطع مينان أن يقاوم أكثر، فتدخّل على الرغم من تحذيري له. وكاد أن يدفع سيرهاد للانفجار غضباً مرة أخرى. ومع ذلك، تجاهل سيرهاد كلام مينان؛ إذ إن ضميره الذي يشعر بالذنب وضعه في حالة المدافع عن

نفسه.
وقال: "لقد حاولت أن أدخل خلفه، ولكنني وجدت المكان برمته كتلة من اللهب".
قال مينان بوقاحة لم يستطع التخلي عنها: "لقد دخل رجال الإطفاء في حين عجزت عن ذلك، وأخرجوا "قدير" سالماً ومعافى. ولو دخلت قبلهم، لكان قدير الآن في حالة أفضل".
سيطر الارتباك على سيرهاد كأرنب خائف، وقال: "ولكن هذه وظيفتهم. من أين لي أن أعرف كيف أنقذ الناس من الحرائق؟".
رمق مينان الشاب بنظرة احتقار، وقال له: "أيها الغبي الصغير، لا تزال تتظاهر بأنك شاب قوي!".
شكلت هذه الملاحظة القشة التي قصمت ظهر البعير، فانتصب سيرهاد بخشونة أمام مينان وزمجر قائلاً: "انتبه إلى ألفاظك يا صديقي. نعم، إنني شاب قوي، وماذا في ذلك؟ إنني أناديك بكلمة سيدي من باب الاحترام لسنك، ولكن يجدر بك أن تتوخى الحذر وتقف عند حدك".
لم يتراجع مينان عن موقفه، بل استشاط غضباً وكأنه ديك مصارعة، واندفع بجذعه نحو الشاب المتمرد.
"ماذا ستفعل حيال هذا، يا صاح؟ هيا، دعنا نرى ما لديك".
أصبح الرجلان على وشك الانقضاض الفعلي على بعضهما، فتوجب عليّ أن أتدخل بسرعة لأنقذ الموقف.
"ماذا تفعلان، اضبطا نفسيكما". لم يبدُ صوتي قوياً بقدر ما تعمدت أن يكون، ولكنه أتى بالنتيجة المرجوة، فصمتا متفاجئين نظراً إلى عدم توقعهما رد فعل كهذا من سيدة إنكليزية في وسط مدينة قونية. بدأ مينان فجأة يتنحنح ويتلعثم بالكلام، ولكنني تجاهلته والتفت إلى الشاب قائلة: "انظر إليّ يا سيرهاد. إن رغبت بالإجابة عن أسئلتي بصدق فتفضل. وإن لم ترغب بذلك فاذهب في سبيلك. وفي كلتا الحالتين، يمكنني الحصول على بقية القصة من ضياء".
عندما سمع الشاب اسم ضياء، ارتخت قبضتا يديه المشدودتين، واسترخت كتفاه المتشنجتان، وقال وهو يشيح بوجهه مجدداً: "إنني آسف. ليس ذنبي أن الحريق قد اندلع. ومع ذلك، فالجميع يواصلون اتهامي ولومي، وحتى إن ضياء ينتقدني. كيف لي أن أعرف أن حريقاً يشب في غرفة التخزين؟ حالما لاحظت الحريق، أبلغت عنه. ما الذي يفترض بي أن أفعله غير ذلك؟ طلبت من قدير ألاّ يدخل، ولكنه أصرّ على ذلك ورفض الإصغاء إليّ. هل

كان من واجبي أن أدخل في أعقابه وألقى حتفي؟".
بدا اعتراضه محقًّا. فقد جعلنا مظهر الردهة المحبط والهواء الخانق نشعر جميعاً بالتوتر وليس هو فقط.
قلت له محاولة أن أخفف من توتر الجميع: "هدئ من روعك. لن نصل إلى أية نتيجة إن صرخنا في وجوه بعضنا. فلنحاول أن نستمع إلى بعضنا بهدوء".
كان زميلنا الوديع مينان هو من اعترض في النهاية وليس سيرهاد.
فقد سألني مينان، وهو يحدق إلى وجهي بعينين محمرتين كالدم: "كيف يمكنني أن أحافظ على هدوئي يا سيدة غرينوود. فقد ترك هذا الشاب رجلاً من أعز أصدقائي يواجه الخطر بمفرده".
الآن، أصبحت واثقة تمام الثقة أنه يتعمد إفساد التحقيق.
فصحت في وجهه قائلة: "لِمَ لا تريد أن تفهم يا سيد فيدان؟ ليس هناك أي شيء يسعك الآن أن تفعله لصديقك. إنني أحاول أن أجري تحقيقاً هنا. من فضلك، التزم الصمت. وإن لم تستطع ذلك، فتفضّل وانتظرنا في الخارج".
احمر وجهه كالدم، ولكنه ظل هادئاً. لا بد أن ضياء قد أمره بألاّ يتركنا وحدنا مهما حدث. التفتُّ مرة أخرى إلى سيرهاد.
"نعم يا سيرهاد. أكمل كلامك. كنت تقول...".
ولكنه قال وهو يهز رأسه بتصميم: "كلا، لم يعد لديّ أي شيء أقوله".
وأشار نحو مينان، وقال: "إن بقيت هنا وقتاً أطول فسوف أتورط بمشكلة كبيرة. قولي لضياء ما تريدين".
استدار إلى الوراء مغادراً، وشاهدته وهو يتوجه في طريقه إلى خارج الفندق من دون أن أتمكن من القيام بأي شيء. وبعد أن مشى بضع خطوات، توقف والتفت مجدداً، وقال لنزيهة التي ظلت واقفة من دون أن تدري ما يجدر بها فعله: "هل أنت قادمة معي؟".
بعد أن ألقت نظرة خاطفة نحوي، قالت بسرعة: "نعم، إنني قادمة. انتظرني".
أرجعت المرأة رأسها إلى الخلف وحثت خطاها لتلحق بسيرهاد.

"لقد تهيأتِ للخروج بعذوبة
من هذه الحياة"
وقفت بين حطام الفندق المحترق عاجزة عن الكلام، وأنا لا أزال ممسكة بجهاز التسجيل. شعرت أن الجو ازداد حرارة، وأن الرائحة تلسع أنفي، وأن ذرات الرماد المتطايرة في الهواء تجعل التنفس أشد صعوبة بالنسبة إليّ.
وقف مينان أمامي، وهناك قطرات من العرق تلمع على وجهه.
قلت أخيراً، وأنا أنفخ بغضب: "تهانينا. فقد نجحت أخيراً في الوصول بهذا التحقيق إلى حالة جمود".
"لم أتعمد فعل هذا".
"من فضلك، لا تضف الإهانة إلى الأذى بمحاولتك تفسير تصرفك". لم أعد قادرة على تحمل سماع كلامه بعد الآن، وخشيت إن تفوهت بالمزيد من الكلام أن أفقد السيطرة على نفسي، وأبدأ بالصراخ عليه ومطالبته بأن يقول لي ما ينوي وضياء أن يفعلاه. لذا، التفت إلى الوراء، وحثثت الخطى بغضب نحو الباب.
أسرع مينان خلفي ليدركني قائلاً: "انتظري يا سيدة غرينوود. أصغي إليّ. إنني آسف لأنني أخفقت، ولكنك رأيت ذلك الولد التافه بنفسك. فقد بدأ يستفزني منذ اللحظة التي ترجل فيها من سيارته".
هززت رأسي من دون أن أنظر إليه، وقلت: "إنك تضيع وقتك. انتهى وقت المناقشة".
"ولكن...".
رن هاتفي منقذاً إيّاي من هذا الموقف، فحملته بسرعة من دون أن أنتظر لأسمع ما أراد مينان أن يقوله. وجدت أن نايغل هو المتصل، فشكرته في سرّي ورددت على المكالمة.
"نايغل؟".
توجب عليّ أن أبتعد عن ذلك المكان على الفور، لذا واصلت المشي وأنا أتحدث.
"كيف حالك يا عزيزتي؟ كيف تسير أمورك؟".
أجبت وأنا ألقي نظرة خاطفة نحو مينان الذي ظل يلحق بي على بعد خطوة واحدة: "حسناً، كما تعرف...". قلت في سرّي: ماذا إن كان مينان يفهم الإنكليزية. حسناً، فليفهمها. تذمرت بصراحة قائلة: "إنني أحاول أن أركب شيئاً يحاول غيري أن يفككه".

"آه! يبدو أن أحدهم بدأ ينزعج منذ الآن. أتساءل من هذا الذي يحاول أن يزعج فتاتي القوية؟".
"لا تكترث لهذا الآن. ما الذي تفعله أنت؟".
تنهد بسعادة قائلاً: "إنني أقرأ الشعر".
لم أستطع إلا أن أجد هذا الأمر شيئاً يصعب تخيله، أي تخيّل صديقي نايغل وهو يقلب صفحات أحد دواوين الشعر في عيادته في شارع هارلي.
"إنك لا تحب الشعر".
"كيف تعرفين أنني لا أحبه؟".
"حسناً، لم تقرأ لي قصيدة من قبل".
التزم الصمت للحظة محاولاً أن يتذكر، ثم قال: "هل أنت واثقة من هذا؟ ألم أتل على مسمعيك أية قصيدة؟".
وبخته قائلاً: "هذا ليس شيئاً يمكنني أن أنساه؛ تماماً كما لم أنس أول باقة زهور أرسلتها لي وأول هدية أهديتني إياها...".
"حسناً، أعتقد أنني أهملت هذه المسألة". وتوقف عن الكلام قليلاً، ثم قال: "ولكن، إن لم أقرأ لك شعراً، فهذا لا يعني أنني لا أحبه".
بدا من كلامه أنه جاد، ولكن لطالما عجزت عن التمييز بين الجد والمزاح في كلامه.
"نايغل، هل تعبث معي؟".
"لماذا لا تصدقينني؟ لماذا؟ أؤكد لك أنني أقرأ الشعر. ليس لديّ ما أفعله بعد أن أنهيت عمليتي الجراحية هذا الصباح، لذا أسندت قدمي على مكتبي وشرعت بقراءة القصائد".
"أي قصائد؟".
"قصائد مختارة".
"نعم، فهمت ذلك، ولكن من الشاعر؟".
التزم نايغل الصمت قليلاً، ثم قال مراوغاً: "دعيني أقرأ لك قصيدة أولاً. فقد تتعرفين على الشاعر من أسلوبه".
يا له من موقف سخيف! إذ قبل لحظات معدودة، انهمكت بتوبيخ زميلي في العمل. والآن، ها أنا أصغي إلى صوت حبيبي عبر الهاتف وهو يردد على مسمعيّ قصيدة من لندن، متوقعاً مني أن أحدد هوية الشاعر لا أقل من ذلك. أدركت أنه لن يشعر بالإهانة إن طلبت منه أن يعاود الاتصال بي، ولكنني خشيت أن أضيع هذه اللحظة العذبة أو أن أؤذي مشاعره. فقد فكر بي في أثناء قراءته قصيدة على كل حال.

قلت: "حسناً، إنني أصغي إليك، ولكن ابق على الخط للحظة واحدة. فأنا لا أزال وسط حطام الفندق، ولكنني في طريقي إلى الخارج. أريد أن أنظر إلى السماء وأنت تقرأ القصيدة لي".

"حسناً حسناً. تريدين أن تنظري إلى السماء، أليس كذلك؟ من الشاعر الآن؟".

"توقف عن إغاظتي. إن المكان رهيب هنا، لذا إن أجمل القصائد في العالم لن تحدث أي تأثير بالطبع؛ ما لم تكن قصيدة مرعبة".

انفجر نايغل ضاحكاً وقال:

"إنك مضحكة جداً يا كارين. لهذا السبب أحبك. فحتى عندما تبدو الأشياء في أسوأ حالاتها، تستطيعين أن تمزحي بشأنها".

"أهذا هو السبب الوحيد؟".

"كلا. ولأنك تستشيطين غضباً أيضاً عندما تنفعلين من دون أن يتوقع أحد ذلك منك، ولأنك تحبين مغازلتي... ولأنك...".

"حسناً، فهمت الآن".

أصبحت خارج الفندق أخيراً. وحالما ابتعدت عن الجو الخانق والرائحة المثيرة للاشمئزاز، أخذت نفساً عميقاً.

سألني حبيبـي الفطن قائلاً: "أظن أنك خرجت الآن. أيمكنك أن تري السماء؟".

في الواقع، قبل أن أرفع نظري لأتأمل السماء، راقبت سيارة المرسيدس الكحلية وهي تنطلق إلى آخر الجادة، ثم التفت لأرمق مينان بنظرة لسان حالها يقول: انظر إلى ما فعلته، هذه هي نتيجة عملك.

رد رأسه إلى الوراء، فابتعدت عنه قليلاً، وقلت بصوت مفعم بالحب: "نعم، إنني أنظر إليها الآن. إنها زرقاء داكنة تشوبها بعض السحب البيضاء. قد لا تصدق هذا، ولكن إحدى هذه السحب تشبه شكل جسدك".

ضحك نايغل بصوت مرتفع وقال: "أتقارنين سحابة بيضاء كالثلج برجل أسود البشرة؟".

لطالما أحب نايغل أن يشير إلى أنه رجل أسود البشرة؛ ولا سيما عندما يكون بصحبة أشخاص بيض من أهالي لندن.

"لم أقل إن لونها يشبه لونك بل قلت إن شكلها يشبه شكلك".

"إنّ الأمرين متماثلان. وعلى ما يبدو، أنت تفتقدينني. ومع ذلك، أجدك بحال أفضل".

"أفضل!؟". وفاجأني كلامه.

"نعم، أفضل". وأضاف بقناعة أشد رسوخاً قائلاً: "حسناً، إنك غاضبة الآن، ولكنك بدوت في الليلة الماضية محبطة؛ وكأنك طفلة يتيمة وحيدة. والآن، تبدين امرأة راشدة كبيرة وقوية، تعرفين هدفك جيداً، ولكنك غاضبة لأنك غير قادرة على تحقيقه. هل أجرؤ على القول إنك أصبحت امرأة راشدة طموحة؟".

كان نايغل يعرفني حق المعرفة. وكان صوته يكتسب نبرة نقدية إن أراد أن يتهمني بإنهاك نفسي بالعمل أكثر ممّا ينبغي. وقد اعتاد أن يقول لي: "هذا لا يستحق العناء. ارأفي بعقلك وقلبك". أو "كفي عن إنهاك نفسك، فنحن نعيش على سطح هذا الكوكب لنستمتع لا لنصبح عبيداً له". لطالما اتفقت معه، ولكنني عجزت في بعض الأحيان عن السيطرة على نفسي كما حدث معي هنا. فقد وجدت نفسي عالقة في هذا النزاع في حين أنني في اليوم الفائت لعنت هذا التحقيق الذي جلبني إلى قونية في المقام الأول. نايغل محقٌّ في ما قاله؛ فقد توجب عليّ أن أبقي الأمور في مسارها الصحيح. ومن ناحية أخرى، توجب عليّ أن أؤدي عملي بأمان واحترافية. فكرت أن ذلك كله يتعلق بالمكان الذي يجب عليّ أن أضع فيه الخط الفاصل بين هذا وذاك.

سألني نايغل: "ما الأمر؟ لماذا التزمت الصمت فجأة؟ هل أثرت استياءك؟".

"بالطبع لا. لماذا سأستاء! أنت محقّ. سكتُّ لأنني أنتظر سماع القصيدة".

"حسناً، انتبهي جيداً. يجب أن تعرفي اسم الشاعر في ما بعد!".

لقد تهيأت لترحلي كحياة عذبة
وأسرجت حصان وداعك فقط لتغيظيني
ارحلي وشاهدي أراضي جديدة وتجولي في عوالم مسحورة
ولكن، لا تنسي تلك الأراضي التي عشت فيها معي. تذكّريني، هلا تفعلين.
لقد رحلت يا حبي. أنت الآن في رحلة
القمر المستدير وسادتك الآن وأنت مستغرقة في النوم
ليكن نومك عذباً، ولتكن أحلامك حلوة
ولكن، لا تنسي تلك الأيام التي غفوت فيها بين أحضاني. تذكريني، هلا تفعلين.

كانت قصيدة جميلة جداً لدرجة أنها أخذت بأنفاسي فشعرت أنني عاجزة عن الكلام. لم يصدر أي صوت عن نايغل أيضاً. ربما أدهشتنا القصيدة بعمق لأنها تتحدث عن الفراق.

تمكنت أخيراً من القول: "يا لها من قصيدة جميلة ومرهفة الحس!".

"إنها على الأرجح أجمل بلغتها الأصلية".
"إذاً، فالشاعر لم يكتبها باللغة الإنكليزية. انتبه فأنت تعطيني تلميحات من دون قصد".
ضحك وقال: "أنت دون غيرك ينبغي أن تعرفي من هو".
إلامَ يلمح يا ترى؟
"لا أعتقد هذا. لم أسمع بهذه القصيدة من قبل".
"هذا مستحيل. من المؤكد أنك تعرفينها".
ترى، ما الذي جعله متأكداً؟
"انتظر... هل الشاعر تركي؟".
فقال مقلداً صوت مذيعي برامج المسابقات: "هناك اختلاف حول هذا الأمر. يقال إن جذوره العرقية تركية. وبالإضافة إلى ذلك، قضى سنوات طفولته في تركيا أو بشكل أكثر دقة في الأناضول، ولكن أعماله الأدبية كلها مكتوبة باللغة الفارسية".
"أهو فارسي؟ هل هو عمر الخيام؟".
قال وهو يبدو محبطاً: "قلت لك يا سيدتي إنه عاش في الأناضول بل في قلب الأناضول".
التفت لأنظر إلى سهب قونية المسطح الممتد إلى مسافة بعيدة. وفجأة، انقشعت الغمامة عن عيني.
وقلت: "هل يمكن أن يكون رومي؟".
"أحسنت! لقد أصبت الهدف! نعم، إن اسم شاعرنا هو مولانا جلال الدين رومي". وتابع قائلاً: "ولكن، يجب عليّ أن أعترف يا سيدتي، أنني توقعت أن تميزيه من أول بيت قلته. إذ إنني على يقين تام أن والدك اعتاد التحدث عنه".
لقد فعل ذلك حقاً عدة مرات، والأهم من ذلك أنني ظللت أتذكر بعض القصائد الأكثر شعبية من بين قصائد رومي. أما بالنسبة إلى القصيدة التي أحببتها أكثر من غيرها، فهي تلك القصيدة التي تجادل والدي ووالدتي بسببها لساعات.
كم من المبهج أن تسافر إلى مكان جديد كل يوم
كم من المبهج أن تهبط في مكان جديد كل يوم
كم من المبهج أن تطير المياه وتتدفق من دون أن تتلوث أو تتجمد
لقد مضت مع الأمس
تلك الكلمات التي تنتمي إلى الأمس

والآن، آن الأوان لتُقال كلمات جديدة
فقد أحبت والدتي القصيدة بالرغم من أنها لم تقتنع بذاك المقطع الذي يتحدث عن تدفق المياه من دون أن تتلوث أو تتجمد. وقد عبرت عن رأيها قائلة: "كل المياه التي تتدفق على سطح الأرض ملوثة. فهي تحتوي على التراب والطين اللذين لا يبقيانها نقية وصافية. وإن أصبح الجو بارداً، تحولت المياه إلى جليد. ليس المهم بقاءها نقية ونظيفة وطاهرة أو عدم تجمدها، ولكن أن تبقى متدفقة إلى ما لا نهاية. فطالما أنها تتدفق، فهناك أمل بأن تستعيد نقاءها مرة أخرى. وبطريقة ما، لا يوجد كائن حي نقي أو بريء بشكل كامل لأن كل الكائنات الحية تتعرض للتلوث. إن ما نحتاج إليه هو أن نجعل النقاء والبراءة ما نطمح إليه في حياتنا. فكل شيء يعود إلى الحياة. وطالما أنّ هناك حياة، يوجد أمل باستعادة النقاء".
لكن والدي عبر عن رأي مخالف لرأيها تماماً، فقد قال: "إن جوهر الماء نقي وكذلك جوهر الإنسان. المهم في الأمر هو الحفاظ على هذا الجوهر، وحمايته من الشر والقسوة والطمع، وهذا أصعب عمل في الوجود. إن حياتنا اليومية تدور على عجلة من اللاإنسانية. فلكي تبعدنا الحياة عن جوهرنا النقي تقوم بتقديم سلسلة من العلاقات؛ كل واحدة منها مبهرة أكثر من الأخرى: علاقات مطلية بالأكاذيب والخداع والمصالح الشخصية والألاعيب الملونة البراقة التي تعزز شهواتنا الحسية وتستعبد أرواحنا، وتجبر عقولنا وأجسادنا على الرضوخ لها، وهذا ما يحذرنا منه شاعرنا الملهم رومي. فأولئك الذين لم يتلوثوا أو يكتسوا بأي غشاوة أو يتجمدوا هم الذين يمدحهم في شعره".
انتهت المناقشة من دون أن يتم حلها. لا أتذكر إلى أي جانب انحزت. ولكن، منذ ذلك الوقت وحتى الآن لم أنس تلك القصيدة. ومع ذلك، من الطبيعي تماماً أن أحب رومي، ولكن الأكثر إثارة للاهتمام هو أن نايغل قد اهتم به.
قلت لنايغل: "إذاً، أخبرني. من أين أتتك هذه الرغبة المفاجئة بقراءة شعر رومي؟".
"منك أنت طبعاً. في الليلة الماضية، بعد أن تحدثنا أجريت بحثاً عن قونية على الإنترنت وصادفت كماً كبيراً من المعلومات عن رومي. أثار ذلك الشخص فضولي، لذا توجهت إلى تلك المكتبة الضخمة التي تقع في حي كامدينتاون واخترت هذا الديوان الذي يتضمن قصائده المختارة".
"حسناً، لقد فاجأتني بكل تأكيد. فالقصيدة التي اخترت أن تقرأها مثالية".

تذمر متظاهراً بالسخط وقال: "وتقولين إنني لا أحب الشعر!".
"ولكن، كيف لي أن أعرف؟ فأنت لم تذكر هذا من قبل".
"هناك وقت مناسب لكل شيء".
خيم الصمت علينا لبعض الوقت، فنظرت إلى مينان الجالس على غطاء سيارته بانتظار انتهائي من مكالمتي. وحين رآني وأنا أنظر إليه استقام في جلسته وحاول الابتسام. ورغم أنني كنت غاضبة منه، إلا أنني لم أشح بوجهي عنه، بل حاولت أن أرد له الابتسامة بمثلها، ثم عدت لمتابعة محادثتي الهاتفية.
"شكراً لك يا نايغل. لقد أدخل كلامك البهجة إلى قلبي. واصل مفاجأتي دائماً بمثل هذه المفاجأة الرائعة. وحتى لو لم تقرأ لي الشعر دائماً، اتصل بي كثيراً، هلا تفعل هذا".
أجاب نايغل: "هذا من دواعي سروري. ولكن، بينما أنت منهمكة بالتعامل مع بوليصات التأمين تذكريني. ومن وقت إلى آخر، احتفظي بصورة حبيبك الأسود في ذهنك، هلا تفعلين".
فقلت له بنعومة: "لا أستطيع أن أنساك حتى لو أردت ذلك. فأنا أحبك يا نايغل".
"أحبك أيضاً يا كارين كيميا غرينوود".
كيميا؟! هذه هي المرة الأولى التي يناديني فيها بهذا الاسم.
"ما الذي جعلك تقول هذا؟".
دهش نايغل من سؤالي وقال: "ماذا تعنين؟ هل تفوهت بكلام خاطئ؟".
"لماذا قلت كيميا؟".
"آه... إنه اسمك، أليس كذلك؟".
لم أشعر بالرغبة في إخبار نايغل أن رجلاً غريباً هنا ناداني بهذا الاسم.
"إنني أجد تصرفك هذا غريباً بعض الشيء. فأنت لم تستخدم اسمي الأوسط من قبل. لا بد أنك لا تزال تحت تأثير شعر رومي".
"من المستحيل نوعاً ما ألاّ أخضع لتأثيره. ولكن، ينبغي لي أن أتركك الآن. إذ يبدو أنني اتصلت بك وأنت في خضم جدال مع شخص ما. سأتركك لتعودي إليه، ولكن لا تدعيه ينال منك، اتفقنا؟ في الواقع، ربما قد يفيدك أن تقرئي بعض شعر رومي".
قلت له وأنا على وشك أن أنهي المكالمة: "سأحاول فعل ذلك إن توفر لي متسع من الوقت". وعندئذ، تذكرت أمي، فقلت: "نايغل، هل سمعت أن العم ماثيو قد توفي؟".

فقال بأسلوبه الجاف الذي يتميز به الأطباء: "نعم، انتهت معاناته أخيراً. فقد كانت حالته تزداد سوءاً بمرور كل دقيقة. يا له من مسكين!".
"هذا ما قلته لأمي بالطبع، ولكن من الصعب عليها أن تتقبل هذا. بدت مفطورة القلب في الليلة الماضية. يتملكني القلق بشأنها، فأنا لست موجودة بجانبها، ممّا يجعلها تشعر بالوحدة. هلا تتصل بها يا نايغل. إنها تحبك وتحب أن تسمع صوتك".
"بالطبع يا حبيبتي. لا تقلقي بشأنها. سأتصل بها في الحال، وسأدعوها لتناول العشاء الليلة إن وافقت على الخروج معي".
كانت أمي تحب نايغل بكل تأكيد. فمن بين كل الأصدقاء الذين تعرفت عليهم في حياتي، استلطفت نايغل. ولا يرجع سبب ذلك إلى كونه مختلفاً عن الصورة النمطية للرجل الأبيض التقليدي؛ مع أن هذا من ضمن الأسباب. إذ لطالما فضلت أمي أيّ شيء يعتبره الناس مخالفاً للعادة. لم أتزوج تركياً ربما لأن ثقافته معارضة تماماً لثقافة الأنغلوساكسون التي تحبها أمي، ولكنها لم تجد ارتباطي برجل تحرر أسلافه من العبودية فكرة سيئة أيضاً. ومع ذلك، فالسبب الحقيقي الذي جعلها تعجب بنايغل هو أن ذلك الرجل الأسمر الطويل أثار اهتمامها. فنايغل في الواقع هو الصديق الوحيد لي الذي أبدى استعداداً لتحمل الاستماع إليها حين تسترسل بالكلام لساعات. ومما يثير الاستغراب، أنه لم يفعل ذلك من باب الأدب واللياقة، ولكن لأنه وجد أحاديثها مثيرة للاهتمام بالفعل. في الواقع، لقد جمعتهما علاقة وثيقة جداً؛ لدرجة أنني اعتقدت أنهما سيبقيان صديقين حتى لو انفصلت عنه. بالطبع، لم أستطع أن أخمن ما قد تقوله أمي إن اكتشفت أمر الطفل. فقد كان أكبر أحلامها طول العامين الماضيين أن تحمل حفيداً لها. وقد قالت لي: "ستنجبين فتاة ذات عينين سوداوين ونظرة ثاقبة كنظرتك". نعم، لقد حددت جنس المولود أيضاً! لم أستطع أن أتوقع ما سيكون عليه رد فعلها إن سمعت أنني حامل وأن نايغل لا يريد الطفل. تخيلتها تستشيط غضباً وتصيح قائلة: "لا تبالي بما يقوله ذلك الجراح الأناني. يجب أن تنجبي حفيدتي!". وقد تجرب حلاً أكثر اعتدالاً عن طريق إقناع نايغل بأنها ستعتني بالطفلة ليتسنى له القيام بأي شيء ممتع يحبه. وبتلك الطريقة، ستحظى أميس بحفيدتها، وستساعدنا في الوقت نفسه. ومع ذلك، ما أحتاج إليه في الوقت الحاضر هو مساعدته هو وليس مساعدتها. وهكذا، أشعرتني كلمات نايغل بالراحة.
"شكراً لك يا نايغل. أشك بأن ترغب والدتي بالخروج لتناول العشاء. ولكن،

ينبغي عليك أن تدعوها في كل الأحوال".

"لا تقلقي. سأعتني بسوزان. هيا، عودي إلى عملك، ولكن حافظي على اعتدال مزاجك، اتفقنا؟ سنتكلم لاحقاً".

"حسناً، إلى اللقاء".

بعد أن أنهيت المكالمة، وجدت أنني استعدت أخيراً صفاء الذهن الذي فقدته داخل الفندق الذي تحوّل إلى أنقاض، كما هدأ غضبي من مينان. بماذا يفيد الغضب على أية حال؟ توجب عليّ أن أنظر إلى الأمور من منظار آخر، وأن أبدأ بداية جديدة، ولكن بالطريقة التي لطالما صبوت إليها؛ أي من دون أن أفقد رباطة جأشي أو أسمح للقلق والخوف بالسيطرة على عقلي. استنشقت هواء قونية الحار والجاف، ثم توجهت عائدة إلى حطام الفندق الضخم؛ حيث وقف مينان وهو يبدو مفعماً بالخشية والخوف.

"الرجل الغريب يظهر بشكل
ميدوزا مشتعلة"
مع كل خطوة خطوتها، ازدادت الرائحة قوة، وتنامى الضغط في أذني. شعرت أن جدران المبنى المحترق ستنهار فوقي، وأن السقف سيقع عليّ. ولهذا السبب ربما، حثثنا الخطى ومررنا فوق السجادة التي حولها الحريق إلى فتات. وصلنا إلى درج ضيق، فرأيت ضوءاً أحمر يغمر المكان، وظننت أنه ضوء الشمس المتسرب عبر النوافذ المسودة. نظرت إلى مينان الذي سبقني بخطوة واحدة فوجدته مغموراً بالضوء الأحمر؛ شعره المتموّج، وعنقه الثخين، ويديه الضخمتين اللتين أمسك بإحداهما منديله الرطب، وسرواله الذي يبدو أكبر من قياسه بقليل، وحذاءه الجلدي، وكل شيء فيه.
التفت قليلاً إلى الوراء وقال لي: "من هنا". وعندها، رأيت جبهته العريضة، وأنفه الأفطس، وذقنه ذا الطابع، وأسنانه اللامعة في فمه نصف المفتوح، وملامحه... رأيتها كلّها متوهجة. منحت أشعة الشمس الغرفة مظهراً غريباً، فبدت وكأنها تلتهب بالنيران مرة أخرى. أشار مينان بإصبعه الممتلئة نحو درج يؤدي إلى طابق سفلي، وأكد قائلاً: "سننزل إلى هناك".
مررنا بالجدران الحمراء والسياج المحترق، ونزلنا الدرجات المغطاة بفتات السجاد. رأينا آثار الحريق تملأ المكان؛ بدءاً من زجاج النوافذ المسودّ بفعل الدخان، ومروراً بالمرايا التي فقدت بريقها، ووصولاً إلى اللافتات التي انصهر طلاؤها والورود البلاستيكية التي التوت وتحولت إلى أشكال غريبة بفعل الحرارة. ارتفعت الحرارة مع كل خطوة خطوناها، وبدأت أشعر بحرقة في عينيّ، وشعرت أن النار لا تزال تشتعل في مكان ما في الطوابق السفلية. اندفع مينان إلى الأمام وكأن كل ذلك لا يؤثر عليه بالرغم من أنه راح بين الحين والآخر يلتفت إلى الوراء لينظر إليّ، ولكنني وجدت صعوبة في مجاراة خطواته. وكلما التفت إلى الخلف، بدا الوميض في عينيه الحمراوين منذراً بالشر.
أدى بنا الدرج إلى ممر طويل. وفي اللحظة التي خطوت فيها على السجادة البنفسجية، تلاشى الضوء الأحمر. نظرت حولي مصعوقة؛ فقد بدا مظهر المكان موحياً بأن ألسنة اللهب لم تمسه قط. إذ لم أرَ أي سخام على الجدران الخضراء الزيتونية، أو أي علامات على السجاد تشير إلى تعرض الفندق إلى حريق؛ وكأننا عدنا إلى حالة الفندق السابقة قبل الحريق. بحثت عيناي عن نهاية الممر عبثاً، فقد كان يمتد إلى ما لا نهاية.

تساءلت إن كان هذا الممر تحت الأرض يمتد تحت كل الفندق. ولكن، كيف ظل سليماً بعد الحريق؟ وبينما كنت منشغلة بمحاولة تفسير هذا اللغز، لاحظت على جداري الممر بقعاً ظليلة سوداء تبعد عن بعضها مسافات منتظمة. وعندما تفحصتها عن كثب أكثر، اكتشفت أنها صور فوتوغرافية. لفتت الصورة الثانية إلى اليسار نظري. فقد بدت أشبه بساعة بيغ بين، ممّا أثار استغرابي. فما سبب وجود صورة برج ساعة أثري في بلادي في فندق في قونية؟ ولكن تلك لم تكن الصورة الوحيدة. فقد وجدت أن الصورة التالية أيضاً تمّ التقاطها في لندن. أليست تلك ساحة ترافالغار؟ نعم، ومع ذلك، أكثر ما أدهشني هو اكتشافي أنها صورة تم التقاطها حديثاً. ففي الخلفية، رأيت لافتة إعلان لمعرض تم افتتاحه قبل شهر فقط. إذاً، لقد جعل المصور هذه الصورة بالأبيض والأسود بناء على ذوقه ورغبته ليس إلا. انتقلت إلى الصورة التالية ووجدتها مأخوذة في موسويل هيل؛ الحي الذي أعيش فيه! وقفت لأتأمل تلك الصورة. نعم، تلك الشقة إلى اليسار تقع في مبناي، والرجل الذي يقف أمام المبنى ليس إلا جاري السيد سكوت العجوز! حاول ذهني أن يستوعب كل ما يجري، بينما حملتني قدماي إلى الصورة التي تليها. يا الله! إنها صورة شقتي! كانت كل الستائر المطلة على الشارع مفتوحة. بدت اللقطة قريبة جداً، فقد استطعت أن أرى المطبخ من الداخل، ووجدت مظهره مماثلاً لمظهره الحالي. وها قد ظهرت صورتي وأنا واقفة عند الطاولة أطبخ على ما يبدو. لاحظت وجود شخص واقف خلفي، فافترضت أنه نايغل. ألقيت نظرة فاحصة أكثر، ولكنني لم أستطع أن أحدد هويته. فقد بدا وجهه معتماً. ربما في الصورة التالية... نعم، لقد صدق ظني. ففي الصورة التالية، بدت اللقطة مقربة من المطبخ أكثر. لم أكن أطبخ بل كنت أضع الأطباق المتسخة على الطاولة. لا بد أننا كنا قد تناولنا طعامنا للتو. رأيت نايغل واقفاً خلفي وهو يرتشف شراباً. ألقيت نظرة متمعّنة أكثر، واكتشفت أنه ليس هو من يقف خلفي، بل ذلك الرجل الذي أعطاني الخاتم. فقد ميزت لحيته الطويلة السوداء، وعينيه الداكنتين الكحيلتين.

أتى من خلفي صوت يقول: "لماذا أنت متفاجئة؟".

ظننت أن المتحدث هو مينان، ولكنني حين التفت رأيت الرجل الآخر يقف مقابلي وجهاً لوجه، وعيناه تحدقان إلى عيني مباشرة. لم تعد ملابسه سوداء بل صارت مغمورة بوهج أحمر اللون؛ الوهج الذي لا بد أنه لحق بنا إلى الداخل، وجعل شعر الرجل ولحيته وعباءته الطويلة وعينيه اللوزيتين كلها

قرمزية اللون.

"أتيت للبحث عن النار. وها قد وجدتها الآن".

مدّ يده نحوي فأخذت ألسنة اللهب تتصاعد من أطراف أصابعه، فتراجعت إلى الخلف مجفلة. قال: "لا تخافي. أنت من أتيت سعياً وراء الحقيقة. وها قد أحضرتها إليك". لمس وجهه بيده التي تحولت الآن إلى شعلة، فشبت النار في لحيته ثم شعره، وتلوّت كل ألسنة اللهب متحولة إلى أفاعٍ، بينما اكتسب الرجل الغريب مظهر ميدوزا مشتعلة بالنيران. أصبت بالرعب، وأردت أن أهرب وأفلت من هذا الممر الملعون، ولكنني وجدت نفسي مسلوبة القوى وعاجزة عن الإتيان بأية حركة أو اتخاذ أية خطوة؛ وكأنني بت مسحورة بتينك العينين الناريتين اللتين راحتا تحدقان إلى عيني. وقفت هناك عاجزة وأطرافي مشلولة؛ وكأنها مربوطة بحبال خفية، بينما أخذت الميدوزا النارية تقترب مني رويداً رويداً. شبت النار في الصور والسجادة البنفسجية والجدران الزيتونية، وبدأ الممر برمته يتحول إلى جحيم حي. تبخر العرق عن وجهي، وأصبح جلدي مشدوداً، وانبعث البخار من بياض عيني، وازداد الضغط في أذني حتى بات لا يطاق. وبدأ الممر الذي ظننت أنه لم يتأثر بالنار يشتعل بذلك الضوء الأحمر القادم من العالم الآخر. مدت تلك الميدوزا النارية أصابعها المشتعلة نحو وجهي. وفي تلك اللحظة، سمعت صوتاً.

"الله أكبر... الله أكبر".

فتحت عيني ووجدت نفسي غارقة في عرقي. نظرت حولي فوجدت أن النيران والضوء الأحمر كلها اختفت الآن، ولكن صدى الصوت ظل يتردّد في أنحاء غرفتي.

"أشهد ألاّ إله إلا الله".

لم أستطع أن أميّز الصّوت الذي كنت أسمعه على الفور، ولم أتمكن من تحديد إن كان ضمن الكابوس أم لا. حبست أنفاسي وأرهفت سمعي، ولكنني تأكدت أن الصوت حقيقي، وأنه صادر عن مسجد السلطان سليم المقابل للفندق، وتذكرت أنني سمعت هذه الكلمات العربية نفسها حين توقفنا ليغير مينان إطار السيارة، وأنّ هذا صوت المؤذن من المسجد يدعو المؤمنين إلى صلاة العشاء. إذاً، لا بد أن هذا الوقت هو نفسه الذي رأيت فيه الرجل الملتحي أول مرة، أي بعد حلول الظلام، هذا صحيح. لم أره بالنهار قط. ترى، أهناك سبب يجعله لا يظهر لي إلا ليلاً؟ عادت إلى ذاكرتي كلمات قالها لي والدي، ولكنني ظننت أنني نسيتها منذ وقت

طويل...
لا بد أن حطام الحريق والميدوزا وشكوكي المتعلقة بمينان ومكالمة نايغل من لندن قد اختلطت في ذهني كلّها، وسببت لي هذا الكابوس المروع. ربما كان من الأفضل أن أواجه مينان، ولكنني خشيت أن يقلب القيام بذلك المعادلة ضدي. لذا، توجّب عليّ أن ألتزم الهدوء، وأن أتحلى بالصبر والقوة. لقد قمت بما هو صواب اليوم عندما رفضت العودة إلى الفندق بعد مكالمة نايغل. فقد شعرت أنني مرهقة وبحاجة إلى قضاء بعض الوقت وحدي كي أفكر. أخذت أتأمل بالكلمات التي تفوه بها الرجل: "أتيت سعياً وراء الحقيقة. وها قد أحضرتها إليك". ترى، هل أراد أن يخبرني أنه أضرم الحريق بنفسه؟ ولكن هذا ليس منطقياً. لا بد أن عقلي الباطن تلاعب بي في أثناء نومي. ولكنني حين رأيته للمرة الأولى لم أكن نائمة، ولم يكن حلماً. قال الرجل الكلمتين نفسيهما: "لا تخافي". في كل من اللقاء الفعلي والكابوس. توجب عليّ أن أعترف أنه على الرغم من الهالة المرعبة لهذا الكابوس الأخير، إلاّ أن صوت الرجل وعينيه لم تحمِل على أي تهديد. لا شك أن التجربة كانت مرعبة، ولكنني لم أشعر أنني خائفة من الرجل الغريب.
كنت قد قرأت على اللافتة فوق المسجد عندما رأيته أول مرة: "مسجد شمس التبريزي وضريحه". ألا يمكن أن يكون هذا الرجل مجرد رجل مضلل يظن أن روح شمس التبريزي قد تجسدت فيه؟ ولكن، من هو شمس التبريزي بالتحديد؟ إنه معلم رومي، أليس هذا ما قاله ضياء؟ لولا تعليمات شمس التبريزي، لظل رومي مجرد طالب علم ديني عادي، ولكن التبريزي قام بدور أهم بكثير من مجرد دور المعلم لرومي، فهو أيضاً زوج كيميا، ابنة رومي بالتبني. ومع ذلك، ما علاقة كل هذا بي؟ ليست هناك أية علاقة واضحة. ومع ذلك، يواصل هذا الرجل ملاحقتي من مكان إلى آخر، ويدعوني كيميا. هل هدفه الوحيد من ذلك هو إخافتي؟ ولكن، ماذا عن الصوت الذي سمعته في الطائرة؟ لم أكن حينذاك قد هبطت في قونية بعد. إذاً، إن كوابيسي ناجمة بلا شك عن سنوات من المشاعر المكبوتة التي أكنّها لوالدي، والتي استفاقت كلها الآن، وبدأت تغزو عقلي. لا بد أن هذا هو السبب؛ السبب المنطقي الوحيد. كان ينبغي أن يعيد إليّ توصّلي إلى هذه النتيجة صفاء الذهن، ولكن قدراً كبيراً من الأسئلة ظلّ يؤرقني من دون أن أجد له أي إجابات.
نهضت وشغلت كمبيوتري، وخطر ببالي أن أقوم ببعض الأبحاث عن هذا

المدعو شمس التبريزي. وفي غضون دقائق، ظهرت لي عشرات المواقع الإلكترونية.

اسمه الحقيقي شمس الدين محمد. ولد في تبريز التي تقع في وقتنا الحاضر في إيران على بعد مئات الكيلومترات من قونية. لا يُعرف له تاريخ ميلاد محدد؛ رغم أن معظم المواقع قدرت ولادته سنة 1185 للميلاد. بدأت علامات التعاليم الصوفية تظهر عليه حين كان طفلاً. وفي أحد المواقع، قرأت كيف وصف طفولته بكلماته الخاصة.

لم أصل لمرحلة البلوغ بعد. ومع ذلك، غصت في بحر من الحب. لم آكل شيئاً لأربعين يوماً وليلة. منعت نفسي عن كل نوع من أنواع الرغبات، وتحملت الجوع والعطش لأيام وليال، فتملك القلق والدي المسكين لدى رؤيته إيّاي على هذه الحال.

وسألني قائلاً: "هل فقدت صوابك يا ولدي. إن مزاجك في غاية الغرابة. لم أعد أفهم أي شيء من تصرفاتك". ووبخني قائلاً: "إلى أين سيقودك هذا؟". فأجبته بالكلام التالي:

إن علاقتنا، يا والدي، تتلخص بهذه القصة: تحت إحدى الدجاجات وضع أحدهم بيضة إوزة إلى جانب بيض الدجاج. مر الوقت وفقست كل البيوض وخرجت منها الفراخ. وعندما كبرت قليلاً، اصطفت في رتل خلف أماتها وتبعتها إلى حافة البركة. وبينما راحت الفراخ الأخرى تخربش في الأنحاء، ألقى الفرخ الذي فقس من بيضة الإوزة نفسه في الماء على الفور. وعندما رأت الدجاجة الأم ما حدث، أخذت ترفرف في الأنحاء وهي تقوقئ قائلة: "وا حسرتاه! سوف يغرق فرخي!" في حين أن فرخ الإوزة راح يسبح ببهجة وسعادة. أرأيت يا أبي!؟ هذه حالنا أنا وأنت. يا والدي العزيز، إنني أبحث عن بحر أسبح فيه، فذلك البحر هو المكان الذي أعتبره موطني. مزاجي مزاج طير بحري لا يستطيع أن يطيق البعد عن البحر. إن كنت مثلي، هلم إليّ ودعنا نسبح معاً. ولكن، إن لم تكن مثلي، فعد أدراجك وابق مع طيور الحظيرة".

لم أستطع أن أصدق مدى ثقة ذلك الرجل بنفسه وكياسته في التعامل مع أبيه. حاولت أن أتخيل الرجل الملتحي الذي أعطاني الخاتم. فقد اتسمت شخصيته بالغرور نفسه، رغم أنه حاول أن يتصرف بلطف أكثر، وبدت نظرة مؤثرة في عينيه، وكأن كل أسرار العالم تكشفت أمامه، لذا لم يعد أي شيء أو أحد قادراً على مفاجأته. وفي الواقع، لم يكن هذا السلوك المتعالي واللامبالي غريباً عليّ. فقد تميز صديق والدي وتوأم روحه الباكستاني

شاه نسيم الذي تركنا والدي من أجله بشخصية مطابقة لهذه الشخصية. إذ إنه لم يتصرف بفظاظة مع أحد في حياته. وعلى العكس من ذلك، لطالما أبدى اهتمامه بالآخرين. فكلما صادفته، ابتسم لي. وإن جلس بجانبي، راح يداعب شعري ويسألني عن المدرسة. ولكن، كان هناك شيء... ربما في نبرة صوته أو لمعان عينيه أو سلوكه المتحفظ... جعلني أشعر بالمسافة بيننا. وحتى لو لم يتعمد أن يفعل هذا، فقد جعلنا جميعاً نشعر أنه ينظر إلينا وإلى كل ما نفعله بدونية؛ وكأنه ليس واحداً منا بل ينتمي إلى عالم مختلف تماماً. أما والدي، فلم يكن كذلك. فإن ابتسم، حملت ابتسامته أسمى معاني الصدق. وإن عانق أحداً، عانقه من كل قلبه. فلم يكن حبه يخضع لأي قيود. ومع ذلك، إن رأى والدي شاه نسيم توقف العالم كله بالنسبة إليه، وتحول انتباهه بكامله إليه، ولم يعد يبدي أي اهتمام بي أو بأمي. لم أستطع قط أن أدرك سرّ العلاقة التي جمعت بينهما، ولكنني أظن أن شاه نسيم كان شبيهاً بشمس التبريزي أو يحاول أن يتشبه به ويقتدي بأسلوب حياته.

عاودت النظر إلى شاشة الكمبيوتر، وقرأت أن شمس التبريزي كان متقناً لكل من اللغتين العربية والفارسية، وضليعاً بأدب كلتا اللغتين، بالإضافة إلى معرفته بالخيمياء والفلك والمنطق والفلسفة والدين بالطبع. تتلمذ شمس في بداية حياته على يد شيخ معروف باسم أبي بكر حائك السلال. ففتح ذلك الرجل عقل شمس وقلبه وعينيه للمعرفة السرية التي كلما تعلمها المرء أكثر شعر أنه مجبر على تعلم المزيد منها، وأصبح يتوق لاستبدال الأشياء التي عرفها من قبل بأشياء أكثر حداثة. ولأنه وصل إلى النضج الروحي في وقت وجيز، أصبح الناس جميعاً يشيرون إليه باسم حكيم تبريز ويوقرونه، ولكن شمس تعلم المزيد والمزيد من علم أبي بكر حتى لم يعد علمه أو الشيخ نفسه كافياً له. وشرح شمس ما حدث بالكلام التالي:

كانت نشوة الشيخ أبي بكر حائك السلال الروحية نابعة من حبّه لله، ولكنه لم يحظَ قط بالرصانة التي تتبع يقظة تلك النشوة.

أراد شمس أن يقضي كل لحظة من لحظات حياته وهو يسبح في بحر المحبة الغامض، بما في ذلك ليس لحظات النشوة وحدها بل لحظات الصحو أيضاً. أظن أن تلك حالة من حالات عدم القدرة على الإشباع أو التكيف.

"إنها حالة مزمنة من حالات سوء التكيف". هذا هو ما عبرت به أمي عن طبيعة والدي. فقد قالت لي ذات مرة: "أينما ذهب والدك، فلن يعتبر تجاربه كافية أو مرضية له أبداً، وهذا لا ينطبق على حياته معنا فقط.

والأسوأ من ذلك أنه لا يدرك هذه الحقيقة". وكما هجرنا والدي، هجر شمس شيخه أيضاً واختار لنفسه طريقاً آخر. وخلال حياته، ظل درويشاً رحالة هائماً على وجهه. وأطلق عليه بسبب تجواله الدائم اسم "شمس الرحال".

في مقالة بقلم أحد المؤرخين الإيرانيين، ذُكر أن شمس أمضى عمراً كاملاً في رحلة بحث مستمرة إلى أن صادف مولانا جلال الدين رومي. فشكل رومي - الذي اكتشفه في قونية - ذروة حياة الدرويش الهائمة، ووضع نهاية لتجواله وارتحاله. تذكرت الاسم الذي سمعته في حلمي الماضي، محمد جلال الدين. فقد رفع الرجل الملتحي يديه نحو البدر وهو يتضرع، ثم أتاه الجواب من ذلك الصوت الغامض، وهو: "إن الحياة التي تسأل عنها حياة مخفية عن أنظار الجميع، حياة تحظى بالعفو والنعمة. إنها حياة جلال الدين رومي ابن سلطان العلماء بهاء الدين البلخي القونوي".

استولت عليّ الحيرة مرة أخرى. ألم يقل ضياء عن شمس إنه المسؤول عن تحويل رومي إلى الشخص الذي نعرفه في وقتنا الحاضر؟ ومع ذلك، شكل رومي الفكرة الرئيسة لكل المقالات التي وجدتها عن شمس تقريباً. إذ إن الجميع أغدق عليه المديح بينما توارى شمس في الخلفية كصديقه الحميم فقط لا غير. وجدت أن الوقت قد حان ربما لكي أقوم بزيارة إلى والد ضياء. فقد ذكر لي أنه خبير بالموضوع، لذا فكرت في الذهاب إليه لأطلب منه إجابة عن تساؤلاتي. ولكن، هل موضوعي متعلق بشمس فعلاً؟ أم إن والدي هو القضية الحقيقية؟ قد يكون السؤال الحقيقي الذي يجب أن أسأله هو سبب حضوري إلى هذه المدينة فعلاً. فهل جئت للتحقيق في حريق الفندق أو لاكتشاف ما حدث لوالدي الذي لم يرسل لي كلمة واحدة طوال سنوات عديدة؟ قد لا تكون لهذه الأحلام التي أراها عن الرجل الذي شككت أنه شمس علاقة بضياء أو مينان. وماذا عن الخاتم؟ لقد تهت واختلطت أفكاري!

عاودت النظر إلى شاشة الكمبيوتر وعدت إلى مقال بعنوان: "اللقاء بين شمس ورومي". وفي تلك اللحظة بالذات، بدأ الهاتف في الغرفة يرن. فقلت في سرّي: تباً! لا بد أن مينان هو المتصل. فعندما تركته قلت له إنني لا أشعر بأنني على ما يرام؛ لأنني أردت أن أتملص من تناول العشاء معه. أظن أنه لم يقتنع بكلامي. فقد سبب لي إزعاجاً كبيراً، ولا بد أنه أدرك ذلك. لذا، افترضت أنه قدّم لي الدعوة على سبيل الاعتذار، ولكنني لم أشعر أن مزاجي يسمح لي بالتعامل معه. ومن ناحية أخرى، إن لم أرد على

الهاتف، فقد يقلق عليّ ويحضر إلى الفندق بنفسه. وهكذا، لم يعد لديّ خيار سوى أن أمد يدي وأرفع السماعة.
"مرحباً...".
"مرحباً يا سيدة غرينوود".
لم يكن مينان. عرفت المتصل، ولكن قبل أن أتمكن من قول أيّ شيء، أعلن صاحب الصوت عن اسمه قائلاً: "ضياء من شركة إيكونيون للسياحة يتكلم".
"سيد كويومكوزاد! كيف حالك؟".
"في أحسن حال. شكراً لك. كيف حالك أنت؟".
"إنني بخير. ماذا يسعني أن أفعل من أجلك؟".
"في الواقع، إنني أتصل بالنيابة عن سيرهاد. فقد سمعت أنه تصرف بوقاحة اليوم، وأنه انسحب في وسط المقابلة. سمعت بما حدث للتو، وأثار هذا الأمر غضبي كثيراً".
"لا بأس، ولكنني لم أستطع وحسب أن أكتشف سبب تصرفه هذا".
فضحك ضحكة متعمدة وقال: "ليس للأمر أية علاقة بك. فالمشكلة بينه وبين مينان".
"هكذا إذاً! هل للأمر علاقة بالعمل؟".
"آه، كلا، ليس العمل بل الجواب الأكثر دقة هو الحب".
"الحب!".
"في السنة الماضية، تقدم سيرهاد لخطبة ابنة مينان، واسمها هوليا. فوقعت الفتاة في غرام سيرهاد حتى أذنيها، ولكن مينان لم يقبل بتزويجها له. وقال إنه يريد أن يرسل ابنته لتلتحق بالجامعة. ومنذ ذلك الوقت، وهما يكرهان بعضهما. وهكذا، يمكنك أن تري أن لا علاقة لما حدث اليوم بك أو بالحريق".
بدا تفسيره للموضوع مثيراً للشكوك كالعادة، ولكنني ضحكت على الرغم من ذلك، وقلت: "الآن فهمت. كدت أظن أن سيرهاد مغفل".
"أعرف أنه يتصرف كرجل عصابات". ثم أضاف بعد فترة صمت قصيرة: "إنه شاب مندفع بكل تأكيد، ولكنه ليس سيئاً في الحقيقة، فهو كفؤ في عمله ومخلص جداً، ولهذا السبب أبقيه في وظيفته".
قلت له مازحة: "من فضلك، لا يجب عليك أن تدافع عنه. فشركتنا ليست مهتمة بسياسة زبائننا في التعامل مع الموظفين".
أطلق ضياء ضحكة خشنة وقال: "شكراً لتفهمك!".

"لا شكر على واجب. إنني أحاول وحسب أن أبقى ضمن نطاق سلطة شركتنا. في الواقع، كنت على وشك أن أتصل بك لأسألك عن الوقت المناسب كي أقابل والدك. فقد قلت إنك تريد أن تعرفني به. أتتذكر هذا؟".

"بكل تأكيد. متى شئت. ما رأيك بيوم غد صباحاً على سبيل المثال؟".

كنت قد اعتزمت أن أزور الشاهد قدير غيميليك صباح ذلك اليوم؛ ذلك الرجل الذي ادعى أن مخلوقات فضائية هي التي أشعلت الحريق، لذا سألته:

"أيمكنك أن تجعل الزيارة غداً عصراً؟".

"بكل تأكيد. إذاً، الثالثة عصراً في مكتبي، ما رأيك؟".

"ممتاز. أراك غداً. أتمنى لك أمسية سعيدة".

"شكراً لك. وأنت أيضاً".

تساءلت وأنا أنهي المكالمة إن كنت قد أخطأت في ظني أنّ الشجار التافه الذي وقع بين سيرهاد ومينان هدفه إفساد سير المقابلة. فقد اتضح أن النزاع متعلق بابنة مينان. أيمكن أن يكون الأمر بهذه البساطة؟ وإن لم يكن كذلك، يتوجّب عليّ أن أتقبل أن ضياء يعمل على خطته بجد لكي يفسد تقريري. ومع ذلك، قد يكون كل ما يجري مجرد أوهام تملأ رأسي، ومجرد جنون ارتياب ناجم عن التوتر، وهذا من المخاطر المحتملة للمهنة؛ أي ربط كل شخص وكل شيء بالتحقيق الذي أجريه. فكرت أن هذا ما كان عالم النفس التابع لشركتنا أوليفر سيقوله لو سمع بالقصة.

ذات مرة، وبينما كنت أحقق في سرقة ألماس في مدينة مانشستر قبل بضع سنوات، تعاملت مع المسألة برمتها على أنها أكثر خطورة مما هي عليه في الواقع، وادعيت أن الزبون قتل زوجته. واعتقدت اعتقاداً جازماً أن ما أقوله صحيح؛ لدرجة أنني أصبت بصدمة كبيرة عندما عادت زوجة الزبون إلى البيت من إجازتها في جزيرة مايوركا بعد أسبوع. ومع ذلك، لم أقتنع بما حصل. ولو سنحت لي الفرصة، لوصلت إلى حد الادعاء بأن تلك ليست زوجته الحقيقية. ولحسن الحظ، أنهى سايمون القضية، وأرسلني لأتحدث إلى أوليفر الذي نصحني بالحصول على إجازة من العمل وعرض عليّ أن آخذ دواء مضاداً للاكتئاب، فاشتريت الحبوب ولكنني لم أتناولها. وبدلاً من ذلك، خرجت مع نايغل في رحلة إلى تونس، وهذا ما عدل مزاجي. ظلت الحبوب بحوزتي، ولكنني لم أظن أنه من الضروري أن آخذها. فقد نفضت عني التشاؤم، على حدّ تعبير نايغل. ورغم أن التوتر استولى عليّ بعض

الشيء بسبب الكابوس، إلاّ أنني شعرت بكل تأكيد أن حالتي قد تحسنت. قد يكون الكابوس متعلقاً بطفولتي نوعاً ما. فقد قالت لي أمي إنني ظللت أمشي في نومي إلى أن بلغت التاسعة من عمري. ذات مرة، عثروا عليّ على حافة البركة في الحديقة. وفي مرة أخرى، عثروا عليّ أمام المِقرَأ الذي أحضره والدي من قونية. كنت واقفة قربه وأنا أحدق إلى صفحات القرآن وشفتاي تتحركان وكأنني أقرأ. وعلى ما يبدو، يشير ذلك إلى أنني لا أملك أعصاباً فولاذية. يا للغرابة! إذ خلف هذا المظهر الخارجي القاسي الذي أتمتع به تختبئ هشاشة خطيرة. لا بد أن هذا هو السبب. فتأثير التوتر الذي عانيت منه وأنا مستيقظة يطفو على السطح في الكابوس عندما أغمض عيني. توجب عليّ أن أحاول الاسترخاء، وأن أخفف من اكتراثي قدر المستطاع كما أرشدني أوليفر. وفي نهاية المطاف، هذه مجرد وظيفة. وحتى لو فشلت في تنفيذ مهمتي، فهذه ليست نهاية العالم لأنني سبق أن حققت للشركة نجاحات لا حصر لها. بعد أن سويت المسألة، أدركت فجأة أنني جائعة، وأردت أن أتصل بخدمة الغرف وأطلب بعض الطعام، ثم غيرت رأيي فجأة. شعرت أنني أعاني من جنون ارتياب مؤقت، ولكنني أدركت أنه لا يزال عليّ أن أتشبث بعملي جيداً، لذا قرّرت أن أخرج لتناول العشاء.

"لأن الأسرار مخفية
في أعماق بحر من الصبر"
تناولت طبقاً شهياً من الكباب المشوي بالفرن، فهو أحد الأطباق المميزة في قونية؛ تماماً مثل حساء الباميا. ومع ذلك، لم أكن قد سمعت عنه من قبل. فوالدي لم يكن من محبي أطباق اللحم الثقيلة الدسمة قط. ولم يكن طبق الكباب بالفرن خفيفاً بأي حال من الأحوال، والأسوأ من ذلك أنهم قدموه لي مع بصلة نيئة. ولحسن الحظ، كان النادل الشاب الذي سئم من المتطلبات المستمرة لهذه السيدة الإنكليزية الناطقة بالتركية يتمتع باللياقة الكافية لكي يقدم لي طبقاً إضافياً من شرائح الطماطم والخيار، فأتيت على ما في الطبق، ولكنني تركت نصف طبق الكباب من دون أن أمسه. ولم يدع فنجان القهوة التركية الذي تلا الوجبة مجالاً لتمني أي شيء آخر. فقد قُدمت لي القهوة ساخنة والبخار يتصاعد منها والرغوة تملأ سطحها في فنجان صغير الحجم وإلى جانبها قطعتان من الحلوى التركية المخبوزة. قبل أن آخذ رشفة من القهوة، تنشقت عبيرها الزكي وفكرت بأمي التي لطالما أحبت القهوة التركية. لم يكن والدي يأبه بها بأي حال من الأحوال رغم أنها مشروب بلاده التقليدي، ولكنه كان يعشق الشاي المنقوع؛ من دون قطرة واحدة من الحليب بالطبع. لم تحظ القهوة التركية وحدها باهتمام أمي التي أتت إلى هذه المدينة قبل ست وثلاثين سنة، فقد أحبت البيوت القرميدية، والمدارس الإسلامية ذات المباني الحجرية والخشبية التي بنيت بيد السلاجقة، وموسيقى الناي، ورقص الدراويش... والأهم من كل ذلك - وهذا سبب شغفها بكل تلك الأشياء - أحبّت والدي؛ الدرويش بويراز أفندي، كما دعاه ضياء. ومع ذلك، سئمت أمي بمرور الوقت من صوت الناي ورقص الدراويش لدرجة أنها كفت عن حب والدي أيضاً، ولكنني أدركت أنّ هذه مجرد كذبة كذبتها على نفسها. إذ إنها لم تعد تطيق الحياة من دونه، ومن دون قهوتها التركية وفناجينها الصغيرة من إسطنبول وزركشتها السلجوقية التركوازية والصواني المزينة التي اعتادت أن تقدمها بها وإبريق تسخين القهوة النحاسي التقليدي. اعتادت أمي أن تغلي القهوة على نار هادئة إلى أن تصبح الرغوة والقوام والرائحة مضبوطة تماماً. لطالما جعلتني رؤيتها وهي تشرب قهوتها واضعة إحدى ساقيها تحتها على كنبة أرجوانية اللون تركتها لها إحدى عماتها المحببات أشبّهها بامرأة أناضولية. قالت لي والدتي ذات مرة: إن أحبّ أحدنا شخصاً ما فهذا يعني أن يحبه ويحب

ثقافته أيضاً. ولكنها هي نفسها برهنت أن ذلك غير صحيح. فمهما وصل بها عشقها للقهوة التركية، فقد باتت تمقت الناي ورقصة الدراويش مع أنهما من بين الأسباب الرئيسة التي جعلتها تغرق حتى أذنيها في حب والدي في المقام الأول. مضت ست وثلاثون سنة منذ ذلك الوقت الذي حطت فيه رحالها في قونية بناء على نصيحة أحد الأصدقاء في طريق عودتها من الهند والنيبال. أرادت أمي أن تبحث عن أجوبة، وحاولت أن تكتشف طريقة تساعدها على بدء حياة جديدة في عقيدة إيمانية قديمة بعد أن هربت من ثقافة أوروبا المتكررة والمستهلكة التي فقدت اهتمامها بها. وبعد أن تعرفت على معابد الهندوس والبوذيين القديمة في كاتمندو، وصلت إلى هذه المدينة المشمسة في قلب الأناضول حيث أحدثت طقوس رقصة الدراويش في مأوى المولوية تأثيراً عميقاً في نفسها. ومع ذلك، لم ينته الأمر عند ذلك الحد؛ لأن قلب والدتي تعلق بذلك الدرويش النحيل الشاب الذي رأته يدور حول نفسه مع الدراويش الراقصين.

قالت لي أمي: "ليست مجرد رقصة، بل إنها أشبه بأن ينسى المرء نفسه في صوت الناي الرقيق ويطفو مع موسيقاه. ومع ذلك، ما أثر بي ليس رقص والدك بل الألم الذي رأيته مرسوماً في عينيه عندما راحت جفونه تنفرج قليلاً بين الحين والآخر".

مع ذلك، مرت السنوات ولم تعد أمي تطيق صوت الناي. فكلما أمسك والدي بالآلة الموسيقية التي لم تبارح جواره قط، غادرت والدتي البيت في غمضة عين.

"إنني أقدر أيضاً روحانية الناي، ولكنها ليست الآلة الموسيقية الوحيدة على وجه الأرض. لقد أمضى والدك اثنتي عشرة سنة وهو لا يعزف أو يستمع إلا إلى الآلة الموسيقية نفسها، ولكن هناك أشياء أخرى في الحياة غير الناي".

تساءلت عما قاله والدي عن تغير رأي زوجته المفاجئ حول الآلة التي لطالما تاقت لسماع عزفها. لم يقل أي شيء على الأرجح، ولكنه لم يتخل عن العزف مطلقاً في كل الأحوال، فهو لم يستطع ذلك لأن الناي لم يكن بالنسبة إليه مجرد آلة موسيقية بل جزءاً متمماً لعقيدته.

ولكن أمي لم تعد تريد أن تسمع صوت الناي، ولا أن تشارك بيتنا مع شاه نسيم. ورغم حبها لوالدي - وقد شككت بذلك حتى في تلك الأيام - لم تعد تحتفظ بارتباطها القديم بثقافته، وظلت تحب شيئاً واحداً فقط من قونية التي زارتها قبل أكثر من ثلاثين عاماً، وهو القهوة التركية. فإن

سئمت أمي من شربها يوماً، دلني ذلك على أنها تخلت عن حبها لوالدي. ولكنها لم تقلع عنها حتى الآن. ويبدو لي أنها لن تفعل ذلك أبداً. أما بالنسبة إليّ، ورغم أنني لم أدمن على شرب القهوة التركية مثل أمي، فقد ظللت أستمتع بشربها بين الحين والآخر؛ ولا سيما بعد وجبة ثقيلة كوجبة الكباب بالفرن.

وبينما كنت آخذ رشفة أخرى من قهوتي، لفت نظري وقوع شجار في الشارع أمام المطعم. فقد رأيت النادل الشاب واقفاً في الخارج وهو يمسك طبقاً بيده ويصيح في وجه رجل آخر قائلاً: "ما خطبك؟ لقد أضفت بعض اللحم لحسائك لأنني أردت أن يشبعك ويضفي بعض اللون على وجهك".

فأجاب الرجل: "من طلب منك أن تضع لحماً في حسائي؟".

رأيت الرجل واقفاً عند الباب وظهره باتجاهي، وهو مرتد ثوباً طويلاً أسود اللون كالمعطف فوق سروال تركي تقليدي فضفاض. وما ظننته في البداية خفًّا، اتضح أنه حذاء مدبب من الجلد غير المدبوغ. لا بد أنه متشرّد أو متسوّل رغم أن لهجته لم تبدُ شبيهة بلهجة المتسولين.

تابع الرجل كلامه موبخاً النادل: "من تظن نفسك؟".

بدأ القلق يتملك صاحب المطعم الجالس بتجهم عند الصندوق خوفاً من تأزم المشاجرة، فرفع نظارته ذات العدستين السميكتين على جبهته ونهض عن كرسيه. وأخذ يجر جسمه البدين على قدميه الصغيرتين متجهاً نحو الباب.

"ماذا يحصل هنا؟". لم أستطع أن أحدد إن كان يوجه نبرته المرتفعة إلى النادل أم إلى الرجل العجوز. وأضاف قائلاً: "ما المشكلة؟".

التفت النادل نحو مديره ووجهه محمر، وحاول أن يشرح قائلاً: "لا شيء يا أسطة رحمي". وبدا مستاء لأن مديره كلف نفسه عناء القدوم كل تلك المسافة إلى الباب، ثم شرح وهو يشير إلى الرجل الذي افتعل المشاجرة معه قائلاً: "إن هذا الرجل المسن يأتي إلى هنا كل مساء حاملاً هذه الزبدية بيده، ويأخذ حساءه من عندنا. إنه عادة يطلب أرخص أنواع الحساء من دون أي لحم. هذا المساء، شعرت بالأسى لحاله وأشفقت عليه فوضعت له بعض اللحم في الحساء، ولكنه استشاط غضباً في وجهي".

قال صاحب المطعم: "ماذا تريد أكثر من ذلك أيها الجد؟ إن الشاب يقدم لك خدمة. فلماذا تثير هذه الجلبة أمام مطعمي؟".

صاح الرجل بغضب قائلاً: "لست جدك ولست بحاجة إلى أي خدمات من أحد. إنني أدفع ثمن الحساء. ولو أنني أردت لحماً فيه لطلبت ذلك. إن

واجبك أن تخدم الزبون ليس إلا. فإن قلت لك إنني لا أريد لحماً في حسائي، فهكذا يجب أن يكون".

توقعت أن يعبر المدير عن غضبه للرجل، ولكنه بدلاً من ذلك نظر إلى وجهه وتراجع خطوة إلى الوراء وكأن انزعاجه قد تلاشى عندما رآه، ثم التفت إلى النادل حريصاً على ألاّ ينظر إلى الرجل مرة أخرى.

"حسناً، دعنا لا نطيل هذا الشجار. أعطه ما يريده ودعه يذهب بحال سبيله".

لكن الرجل صاح بغضب قائلاً: "لا أريد منك شيئاً. أعطني زبديتي، وهذا كل شيء".

هز النادل رأسه وكأنه يحاول أن يتحلى بالصبر، ولكن مديره لم يدعه يتكلم.

"افعل ما طلبه منك. لا أريد أي شجارات أمام مطعمي".

أخذ النادل ينفخ بغضب، ثم أعاد الزبدية إلى الداخل، وهو يقول لنفسه: "يا الله! لماذا يجب أن يأتي إلينا كل مجنون في هذه البلاد؟".

مرّ النادل بين الطاولات الخشبية الصغيرة، وتوجه عائداً إلى المطبخ. أبقيت نظري مركزاً على الرجل الواقف أمام الباب مع أنني لم أستطع أن أرى وجهه. فقد ظل واقفاً، وظهره باتجاهي، وهو ينتظر بصمت أن يفرغ النادل زبديته، وبقي على تلك الحال إلى أن عاد النادل وبحوزته الزبدية الفارغة. عندما عاد النادل أخيراً، وهو يتمتم لنفسه بانزعاج، وقدّم الزبدية للرجل العجوز، قال الرجل: "أصغ إليّ يا بني. لا تظن أنك الوحيد في العالم الذي يكتشف حقائق الأمور. يجب عليك أن تحترم طلبات الآخرين مهما بدت لك غريبة. إن الآخرين يعرفون ما لا تعرفه أنت؛ سواء أأدركت ذلك أم لم تدركه. لذا، لا تفترض من تلقاء نفسك أن شخصاً ما قد وقع تحت وطأة ظروف سيئة".

بدا هادئاً، وصوته لطيف، وكأنه صوت رجل راشد يقدم نصيحة لشخص أصغر منه سنًّا. ومع ذلك، بدت كلماته كافية لكي تثير مراجل غضب النادل الثائرة مسبقاً.

"هل تريد الآن أن تقدم لي النصائح؟ أنا أحاول أن أقدم لك خدمة، وأنت تهاجمني، ثم تجد في نفسك الوقاحة الكافية لكي تقف أمامي هنا وتعظني؟". وأقحم الطبق في وجهه وهو يقول: "خذ طبقك وانصرف من هنا. ولا تفكر مجرد تفكير في أن تعود مرة أخرى". من المثير للدهشة أن الرجل لم يغضب مجدداً، بل قام بمجرد هز رأسه بحزن.

"أنت لا تدري ما تقوله. إنني أتناول حسائي في هذا المحل منذ مئة سنة". لم أخطئ في فهمه. من المؤكد أنه قال مئة سنة. لا بد أن الرجل المسكين فاقد صوابه رغم أنه بدا هادئاً ومتزناً تماماً بالنسبة إلى رجل مجنون.

"من دوني لن يعود هذا المكان مباركاً بالثروة أو الوفرة". التفت قليلاً وهو يأخذ زبديته، وبالرغم من ذلك لم أتمكن من رؤية وجهه. أوشك النادل أن يجيبه، غير أن الرجل العجوز رفع صوته فجأة وأخرسه قائلاً: "لا تجرؤ أن تفتح فمك. لا تجرؤ أن تصرخ في وجهي. ستجلب وقاحتك غضبي، وعندئذ لن يتبقى أي مكان لوقاحتك ولا لنيتك الطيبة، وستنتهي من الوجود كما سينتهي هذا المكان".

وبالضبط كما فعل المدير، تراجع النادل خطوة إلى الوراء وملامح وجهه مفعمة بالخوف والرهبة، وبهت النور في عينيه الفتيتين، وانتشر ظل قاتم على بشرته بأكملها. تراجع بضع خطوات أخرى إلى الوراء بعد أن نظر مرة أخيرة إلى الرجل، واستدار من دون أن يتفوه بكلمة واحدة وعاد إلى المطعم. تمكن هذا الرجل المتشرّد المخبول من أن يخيف رجلين راشدين أحدهما صاحب مطعم، فأصبحت أتوق إلى معرفة من يكون هذا الرجل. وفي تلك اللحظة بالذات، التفت إلى الوراء، فرأيت عينيه الكحيلتين؛ تينك العينين اللتين حلمت بهما قبل ساعة من الآن. نظر إليّ بشكل مباشر، ولكنني لم أجد في عينيه أي دليل على الغضب. فقد بدت نظرته نظرة ابتهال وترجٍّ. وفجأة، خيل إليّ أنه سيقترب مني، فارتعشت أوصالي. ولكنه بدلاً من ذلك، عاود الالتفات وكأنه لم يميزني، ثم انطلق مبتعداً عن المطعم.

لم يتطلب الأمر مني وقتاً طويلاً لأتصرف. فحتى تلك اللحظة، لاحقني ذلك الرجل في كل مكان. والآن، حان دوري لملاحقته. تركت قهوتي التي لا يزال البخار يتصاعد منها على الطاولة، وتقدمت نحو الصندوق متجاهلة تعبير الذهول البادي على وجه كل من النادل وصاحب المطعم، ثم دفعت حسابي بسرعة وهرعت خارجة من المطعم. رأيت الرجل يتجه إلى اليمين، لذا أسرعت بذلك الاتجاه. حثثت الخطى محاولة أن ألمحه بين حشد المارة على الرصيف، ولكنني لم أتمكن من رؤية شعره المجعد بين رؤوس الناس المزدحمين في الشارع. تساءلت إن كان قد عبر الشارع إلى المتنزه المسمى جبل علاء الدين على الجانب الآخر، ولكنني لم أجد أثراً للرجل الغامض بين الحشد هناك أيضاً. كان الشارع يتجه إلى اليسار. دخلت الشارع، وهناك رأيت الرجل يشق طريقه بغضب عبر المارة. أسرعت الخطى، وكدت أجري

لئلا أفقده، ثم رأيته يتوقف، فتوقفت بدوري. استدار إليّ، وعلى الرغم من المسافة الفاصلة بيننا حدقت عيناه إلى عيني. وشعرت بشيء يجذبني إليه كالوميض وكانفجار صامت يحرق عيني. وفجأة، حل الظلام من حولي. فقد انطفأت أضواء الشارع والمحلات والسيارات، ولم يعد هناك أي ضوء في الشارع بعد أن امتصه الوميض، فأصبح كله مغموراً بظلام دامس، ولكن لم يختف الضوء وحده، بل تلاشت الضوضاء أيضاً. فقد اختفى صوتا طفلين كانا يلعبان أمامي، وقعقعة معدنية صادرة عن إغلاق أحد محلات القرطاسية أبوابه، وصوت بائع الحلوى ذي الخدين الممتلئين وهو ينادي الزبائن المجاورين له، وأبواق السيارات وضوضاء المدينة. لم يعد أي من هذا مسموعاً بعد الآن. وخيم صمت عميق في كل الأنحاء. وقفت متسمرة في مكاني، وأنا لا أعرف إلى أين أذهب ومن أنادي. وبعد ذلك، لاحظت ضوءاً خافتاً أشبه ببريق تحت جنح الظلام؛ كألماسة مدفونة في كومة من الفحم، أو نجمة تلمع بعناد في سماء اختفت شمسها. تقدمت نحوه وأنا أشعر أنه يجذبني كما انجذب الإنسان القديم لأول نور رآه على وجه الأرض. ومع كل خطوة خطوتها، ازداد النور تبلوراً وجاذبية، وازدادت دهشتي. فجأة، وصلت إليه، ورأيته ساكناً وصامتاً ولامعاً وكأنه ينتظرني. مددت يدي نحوه على أمل أن أميز بلمستي ما عجزت عيناي عن تفسيره، ولكنني شعرت بيد نحيلة ودافئة جلدها مجعد، فأجفلت وسحبت يدي. وعندئذ، سمعت ذلك الصوت.

فقد قال: "لا تخافي. لقد سلمتك الأشياء التي تعود إليك".

استجمعت شجاعتي، ومددت يدي مرة أخرى، فلامست أصابعي حجراً قاسياً ودافئاً وكأن الدماء تنبض فيه. لم أتمكن من رؤيته، ولكنني شعرت به. إنه ذلك الخاتم الفضي ذو الحجر البني الذي نزف وكأنه إنسان جريح. ومما يثير الاستغراب أن الخاتم جعلني أشعر بالتحسّن وأمدني بالقوة. أخذته ووضعته في إصبع يدي اليمنى، وبدأ الظلام ينجلي من حولي.

"لا تعطي شيئاً تملكينه لأحد، فهو بالنسبة إلى الآخرين كسب حرام".

رفعت نظري، ورأيت الرجل الغامض واقفاً في الظلام المنحسر. وللمرة الأولى، نظرت بشكل مباشر إلى عينيه من دون أن أجفل أو أفقد أعصابي.

تابع قائلاً: "لا تفرطي في هذا الشيء الذي تملكينه يا كيميا. إنه لك وحدك، وليس لأحد سواك".

قلت له بجفاء: "أنا لست كيميا".

فاكتست عيناه السوداوان بغشاوة ملؤها الأسى، وشحب جلده؛ وكأنه تذكر

ذكرى غير سارة، وقال بصوت منخفض: "أعرف هذا. لا يمكنك أن تكوني كيميا حتى لو أردت ذلك".
كان ينبغي أن أشعر بالراحة، ولكنني بدلاً من ذلك شعرت بالإهانة.
قلت له متجاهلة الموضوع ومشيرة إلى الخاتم في إصبعي: "على كل حال، لماذا تعطيني هذا الخاتم؟".
حدق الرجل إلى الخاتم بإمعان وقال هامساً: "هذا الخاتم سيعلمك الحقيقة".
"الحقيقة؟! أتقصد أنه سيخبرني عمّن أشعل الحريق؟".
كشفت نظرة عينيه عن خيبة أمله العميقة، وتهدلت شفته السفلى، وكأن لسان حاله يسألني عن سبب عدم قولي كلاماً أفضل من هذا.
"أياً يكن من أشعل ذلك الحريق فهو ليس ذا أهمية، وليست له أية علاقة بالحقيقة التي أتحدث عنها".
"بم هو متعلق إذاً؟".
وضع يده على فمه وهو يقول: "ذلك... ذلك متعلق بالربح المادي لا غير. وليست هذه هي الحقيقة التي تسعين إليها في نار الشياطين المهتاجة تلك، بل أنت تسعين إلى المال، ولكن الحقيقة أنفس من المال".
تملكتني الحيرة فسألته بصراحة قائلة: "إذاً، في هذه الحالة ما هي الحقيقة؟".
صمت قليلاً وهو يتفحصني ببراعة أستاذ يحاول أن يساعد تلميذه، ثم سألني: "هل أنت مستعدة لتعلمها؟".
"نعم، إنني مستعدة".
ارتسمت ابتسامة غامضة على شفتيه، ثم علق قائلاً: "لا أحد على أتم الاستعداد. فنحن نعرف أننا مستعدون للحقيقة فقط بعد أن تواجهنا".
كانت لديه إجابة عن كل تساؤل، فبدأ السأم ينال مني بسبب هذا الوضع.
قلت له بعناد: "لا أستطيع التكلم نيابة عن الآخرين، ولكنني مستعدة. هيا، قل لي. إنني على أهبة الاستعداد".
قبل أن يتكلم، رمقني بنظرة عتاب، ثم تنهد وقال: "أنت عديمة الصبر". ثم بدأ يشرح لي بتمهل وكأنني أعاني من صعوبة في فهمه: "في الواقع، إن كل مخلوقات الله مرتبطة ببعضها بخيط من الصبر. فالعالم كله يدور حول الصبر، والشمس والقمر يأخذان وقتهما ولا يتعجلان، لذا تحلي بالصبر. فالأسرار تختفي في أعماق بحر من الصبر، ولكي تحلي الألغاز العظيمة،

يجب أن تتعلمي كيف تسبحين في ذاك البحر".
أذعنت لقوله قائلة: "حسناً، سأتحلى بالصبر. على الأقل، سأحاول ذلك".
قال: "أحسنت. كوني قابلة للتكيف. فالقدرة على التكيف شيء جميل، وهي من أجمل ميزات الماء. فالماء رمز الصبر لأنه موطن المحارة. وإن لم يكن هناك ماء فلن نحظى بأية لآلئ، لذا تحلي بالصبر إلى أن تتشكل اللآلئ".
لفتني أسلوبه في الكلام بغرابته، وكأنه لغة تركية شعرية قديمة. ولكنني لطالما وجدت كل ما في هذا الرجل استثنائياً، لذا إن آخر ما استطعت أن أعلق انتباهي عليه هو أسلوبه في الكلام.
"لا تقلق. سأتحلى بالقدرة على التكيف أيضاً. نعم، أكمل كلامك. إنني مصغية إليك".
قال محاولاً أن يقرأ أفكاري: "حقاً؟! هل تظنين أنك ستتعلمين الحقيقة من كلماتي؟".
فسألته بصدق كامل: "نعم، وإلاّ كيف يمكنني أن أتعلم؟".
بدا مظهره مريباً، وقال: "إن الكلمات ليست الحقيقة، بل إنها مجرد أصوات تخرج من أفواهنا. فحتى أكثر الناس براعة وفصاحة بالكلام في كل الأزمان لا يملك القدرة على أن يشرح لنا أبسط دقائق الحياة. إنه لا يستطيع أن يرينا الألوان، أو أن يسمح لنا بالإحساس بالروائح، أو أن يساعدنا على سماع الأصوات ويجعلنا نتذوق الطعام. لنقل إنه استطاع بمعجزة ما أن يفعل ذلك، إلا أنه يظل غير قادر على أن يبلغنا بكل ما يجري في الروح البشرية. قد يستخدم التفكير المنطقي، ويبني أفكاره على المنطق، ويأخذها في جولة في آفاق وعيه اللانهائي، ولكنه لا يستطيع أبداً أن يشرح الحالة دائمة التغير للروح البشرية".
عندما لاحظ عجزي، واصل شرحه قائلاً: "لا تدعي التشاؤم يسيطر عليك. فما تعجز الكلمات عن وصفه، تستطيع الحياة أن تصفه. ولكي تتعلمي الحقيقة، أنتِ لا تحتاجين إلى الكلمات بل إلى التجارب".
بت الآن في حالة ضياع كاملة. ومع ذلك، توخيت الحذر وامتنعت عن طرح أية أسئلة لأنني أردت أن أتجنب تلك النظرة النقدية الوعظية التي ترتسم في عينيه، ولكنني أدركت أنني لن أفهم شيئاً ما لم أسأله، لذا قلت:
"هل تقول لي إن عليّ أن أعيش كل التجارب بنفسي قبل أن أتعلم شيئاً؟".
قال: "هذا صحيح. يجب أن تختبري كل شيء بنفسك".

وعندما لاحظ النظرة الفضولية على وجهي، لم يواصل حديثه. وبدلاً من ذلك، ابتسم للمرة الأولى ابتسامة عريضة وهادئة كابتسامة الطفل. ومن بين شفتي ذلك الرجل المخيف الغامض، ظهرت أسنان طفل صغير. ومن دون أن أتفوّه بكلمة واحدة، رددت له الابتسامة بمثلها وهو يمد لي يده.

"إذاً، بما أنك بت مستعدة، وبما أن الأوان قد حان لتبدئي رحلتك. تعالي معي! تعالي واختبري هذا".

أمسكت بيده الممدودة نحوي. وفجأة، غمر الضوء المكان من حولي.

"شاهدي صورة صديقي الراقص
في سواد عيني"
لم تشتعل الأضواء التي انطفأت سابقاً نفسها، بل بزغ الفجر في المدينة، فرأيت ضوءاً حلواً عسلي اللون في كل مكان؛ بالضبط كذلك اليوم قبل سنوات طويلة عندما أتيت إلى هنا للمرة الأولى مع والدي. شعرت بأشعة الشمس الآن أكثر رحمة وتعاطفاً؛ ليس الشمس فقط بل الرياح أيضاً. فقد شممت مع النسيم العليل رائحة المطر الآتية من سفوح الجبال البعيدة. ومن الحدائق خلف الجدران الطينية المدعومة بدعائم خشبية، وصل إلى سمعي صوت تغريد الطيور. نعم، هذا صحيح. فكل الجدران التي رأيتها طينية أو حجرية، وكل الطرقات ترابية. لم ألاحظ وجود أي إسفلت أو إسمنت في أي مكان، وساد الهدوء في الشارع. إذ لم تكن فيه أية سيارات على الإطلاق. رأيت حصانين مربوطين أمام أحد النزل - أحدهما بني والآخر أبيض - يهزان ذيليهما باستمرار ليطردا الذباب الذي أخذ يتجمع على أردافهما. ووجدت كلباً عجوزاً خالياً من الوبر بسبب التقدم في السن نائماً بجانبهما أمام باب خشبي يقف خلفه حمار رمادي يبدو مسحوقاً تحت وطأة خرجه المحمل بالأثقال. لم أرَ أي نساء، بل رأيت رجالاً يتجولون في الأنحاء، معظمهم يلبسون قمصاناً عديمة الياقات وسراويل داكنة فضفاضة، ولا يمكن تحديد إن كانوا شباناً أم شيوخاً بسبب العمائم التي يعتمرونها.
كيف وصلت إلى هنا يا ترى؟ حاولت بفزع أن أكتشف محيطي، وأحدد مكان وجودي. رأيت قصراً ذا جدران سميكة قابعاً بشكل مهيب على التلة إلى يميني، وثمانية جنود مسلحين بسيوف عريضة ورماح طويلة يحرسون باباً حجرياً منقوشاً. أهذا هو قصر السلاجقة المهيب المبني على تل علاء الدين الذي مررت به قبل دقائق؟ وجدت الإجابة في صورة الدرويش الغريب المتسربل بالسواد المنعكسة على صينية نحاسية كبيرة مسنودة على باب دكان النحاس الذي وقفت أمامه.
"من يقول إنه مستعد لتعلّم الحقيقة لا يملك الحق بإبداء كل هذه الدهشة".
الرجل مصيب في ما قاله. فها هي كلماتي ترد في وجهي. لذا، صممت أن أضبط دهشتي وخوفي. ومع ذلك، إن عدنا إلى زمن السلاجقة، فما الذي سيفعله أناس يعودون إلى سبعة قرون خلت بامرأة مثلي بسترتي الجلدية وسروالي الجينز؟

قالت لي صورة الرجل الملتحي المنعكسة على صينية النحاس: "لا تخافي. انسي أمر كيميا أو كارين، فهي لم تعد هنا. هناك فقط شمس التبريزي الذي اجتاز آلاف الفراسخ لكي يلتقي صفي الله الذي يخفي سره عن العالمين".

ولكن الشيء الذي أثار استغرابي أنني شعرت في أثناء تكلّمه أن شفتيّ هما اللتان تحركتا؛ وكأنني أنا التي تكلمت وليس هو. نظرت إلى نفسي وأنا أشعر بالخشية والقلق، فوجدت أنني أرتدي عباءة تقليدية سوداء من وبر الماعز وأنتعل حذاء تقليدياً. رفعت يدي ووجدتها داكنة وعريضة. والآن، بعد أن أصبح جسدي جسد شمس، فروحي هي ما بات يريده.

أمرني بصوت ناعم وكأنه نسيم يتلاعب بشعري: "انسي! انسي ما أحضرته معك من العالم الآخر الأقدم من عالمنا. هناك حياة مجهولة بالنسبة لك تنتظرك في عالم أحدث من عالمك بسبعمائة سنة. إن ما أنت على وشك أن تختبريه في هذه المدينة التي يقطنها الرجال الأتقياء ليس له مثيل. ستكتشفين المجهول وسترين الخبايا. دعي هذه المدينة الأقل تلوثاً بسبعمائة سنة مما هي عليه في عصرك تملأك بروح جديدة، وتعلمك بما جرى من أحداث هنا. سواء أكنت كارين أم شمس، ما الذي يهم في الأمر؟ ألم نخلق جميعنا بالقالب نفسه؟ ألم ندخل الحياة بالنفس نفسه؟ انسي أمر تلك المرأة القادمة من لندن الآن، وافتحي أبواب روحك كضحكة ناعمة لهذا الدرويش القادم من تبريز".

وتحقق ما أمرني به. فعندما عاودت النظر إلى انعكاس صورتي على الصينية النحاسية، لم أعد أرى الرجل الملتحي بعينيه الكحيلتين وملابسه السوداء المنسوجة من صوف الماعز غريباً لأنّنا أصبحنا شخصاً واحداً ولأنني لم أعد بعد الآن كارين كيميا غرينوود بل محمد شمس الدين أو شمس التبريزي المعروف أيضاً باسم حكيم تبريز المستنير روحياً وشمس الرحال. أصبحت الآن درويشاً هائماً كرس حياته للعثور على الحقيقة العظيمة المخفية. وعندما عثر عليها فقدها من جديد، وعندما فقدها طاردها بحماسة أكبر من ذي قبل. أصبحت الآن درويشاً أراد أن يعثر على الحقيقة، فمشى أياماً وليالي متبعاً طريقاً اهتدى إليه. عبرت صحراء خانقة، وتعرضت لرياح جبلية قاسية حتى وصلت إلى سهول قونية الذهبية لأرى ذلك الذي وعدت بلقائه ليمسح عني ألم السنين التي عشتها.

قال لي من وعدني بهذا اللقاء: "إن من تسأل عنه مخفي عن عيون الناس، فهو إنسان حياته مفعمة بالفضائل والسماحة. إنه جلال الدين ابن

سلطان العلماء بهاء الدين البلخي القونوي".
فأجبته قائلاً: "أيها المخلوق الكريم، أرني الوجه المبارك لصفي الله الخفي".
سألني الصوت قائلاً: "كيف ستدفع دينك عرفاناً بالجميل؟".
فمددت عنقي بدون تردد وقلت: "برأسي!".
قال: "هذه هي الروحانية الحقيقية. وهذه هي المحبّة الأصيلة. إن المحبة لها ثمن واحد فقط وهو حياة الإنسان. والمحبة التي لا تكرس للموت ليست حقيقية. بوعدك هذا، يصبح محمد جلال الدين بن بهاء الدين البلخي القونوي توأم روحك ورفيق دربك. فاذهب الآن وابحث عنه واعثر عليه، ولكن لا تنس الوعد الذي قطعته لي".
استفقت مجفلاً ونهضت على الفور من فوق سجادتي المهترئة في غرفتي المتواضعة. وتذكرت الحكمة التي تقول: "هناك حكمة وراء كل كلمة...!".
همت على وجهي في أصقاع الأرض الواسعة، وصادفتني عقبات كثيرة كالجبال والبحار والمدن والمدارس وبيوت إيواء الدراويش والناس... واستمر فراقنا طويلاً جداً. ذكرت من قطع لي الوعد بلقياه. فجعلنا نلتقي مرة أخرى وجهاً لوجه.
كنت أتجول بين آخرين يعيشون حالتي نفسها، حين لمست يد يدي. نظرت فرأيت رجلاً يرتدي ملابس غبراء والنور يشعّ من وجهه. نظرت عن كثب، فرأيت محمد جلال الدين رومي. أخذ بيدي بين يديه وهمس قائلاً: "أيها الشيخ الجليل والرجل الحكيم، افهمني". وقفت متسمراً أمامه وكأنني تحولت إلى حجر جلمود ضخم. ومرة أخرى، فتح فمه الكريم، وقال: "أيها الشيخ الجليل والرجل الحكيم، اعثر عليّ". وشعرت بأنفاسه الدافئة الحلوة تمسح الأقذار عن وجهي، وتزيل الكرى من عيني، وتجدد بشرتي وكأنها براعم زهرة ريانة تحت مطر الربيع. أعادتني رؤية وجهه وسماع كلماته طفلاً ذا روح نقية، ونقاؤه مبارك. وبحلول الوقت الذي استيقظت فيه من هذه المملكة المبهجة من عالم الأحلام وفتحت عيني، وجدت هذا الصديق حلو الوجه واللسان قد تلاشى، ولكن آن الأوان لأجدّ في البحث عنه. فما وُعدت به يجب أن يصل إلى ثمرته المرجوة ويدع الأحداث تتوالى الواحد تلو الآخر لكي أتمكن من تحقيق وعدي وأدع هذا العالم بحماسته التي توهجت منذ زمن بعيد يزدهر ثانية بمعنى جديد.
حولت بصري نحو مدرسة بيمبيفوروسان وانتظرت لأنه قيل لي: "شاهد صورة صديقي الراقص في سواد عيني". انتظرت لأن الصديق وعدني بأن محمد جلال الدين رومي سينهي محاضراته الآن وسيغادر المدرسة ليعود إلى

بيته من هذا الطريق. وبينما كنت أنتظر، شعرت بأحدهم يقترب مني وظله يخيم على وجهي.
"سلام الله وبركته عليك".
رأيت مالك محل النحاس يقف أمامي ويبادرني بالتحية، فوضعت يدي اليمنى على قلبي وقمت بانحناءة طفيفة وأجبت قائلاً: "وعليك السلام والبركة".
أشار لي بيده المسودة من تبييض النحاس نحو كرسيين خشبيين صغيرين أمام محله، وقال: "لا تقف على قدميك أيها الغريب، تعال واجلس هنا".
ولكن الوقت لم يكن مناسباً للثرثرة معه، فقلت له بلهجة ودية: "شكراً لحسن ضيافتك، ولكنني لم آت إلى هنا للجلوس. فالشخص الذي أنتظره سيصل عما قريب".
ابتسم وانفرج فمه الذي يشبه جرحاً عميقاً في وجهه المستدير كاشفاً عن أسنان سفلية صفراء فيها بعض الفراغات حيث فُقدت بعض الأسنان.
"هل سيصل الشخص الذي تنتظره في وقت أبكر إن انتظرته وأنت واقف على قدميك؟".
من الواضح أنه ظن أنني رجل رحالة ساذج. بصراحة بالغة، شعرت أنه يستحق أن ألقنه درساً، ولكنني تحدثت إليه بلغة يمكنه أن يفهمها على أية حال.
فقلت له وأنا مبتسم: "بالطبع لن يصل بشكل أسرع. ولكن، إن جلست معك فسوف أشاركك متعة انتظاره في حين أن هذه المتعة من حقي أنا وحدي".
لمعت عيناه الآسيويتان عديمتا الأهداب من شدة الفضول. للأسف، لا بد أن هذا الرجل الثرثار مصر على عدم تركي وشأني.
"من الشخص الذي تنتظره؟".
صددته قائلاً: "لست أدري. سنعرف من هو حالما يصل".
لا بد أنه راح يتساءل إن كنت أسخر منه.
"ما هذا؟! أيمكن ألاّ يعرف الرجل من هو الشخص الذي ينتظره؟".
"إن شخصاً له عقل في رأسه قد يعرف. ولكن، كيف يمكن لشخص عقله مسجون في قلبه أن يعرف؟".
انفجر النحاس ضاحكاً من كلامي، وقال: "إنني أستلطفك أيها الغريب. فأنت رجل مسل جداً".
"وأنت أكثر تسلية مني بالرغم من أنك لا تدرك ذلك".

لم يستطع الرجل أن يحدد ما إذا كنت أثني عليه أم أنتقده. وفي كلتا الحالتين، تملكه الغيظ.
قال لي متجهماً: "انصرف من هنا، أيها الغريب! فقد تجاوزت حدود كرم الضيافة. لا تتلكأ هنا لحظة واحدة. انصرف في الحال!".
قلت له بتصميم: "لا يمكنني الذهاب حتى لو أردت ذلك. إن واجهة محلك ومحلك نفسه وهذه الشمس التي تسطع في السماء وكل شيء هنا لا تعادل متعة مقابلته؛ وكذلك أنت وأنا والجميع".
أخذت عينا الرجل اللوزيتان تقدحان شرراً من فرط الغضب، وزمجر قائلاً: "أيها الأخرق!". ولكن، في تلك اللحظة بالذات، لفت نظره شيء يلوح من بعيد، فابتلع ريقه وقال بصوت منخفض: "أيها المجنون! لا تسبب لي المتاعب...".
التفت لأعرف ما ينظر إليه الرجل، فرأيته ممتطياً بغله، وعلى رأسه عمامة متواضعة، وعلى ظهره عباءة داكنة مهلهلة. جلس منحنياً إلى الأمام وهو يتأرجح يمنة ويسرة بينما كان البغل يشقّ طريقه بتمهل. وجدت سبعة شبان من أتباعه ومريديه يحتشدون حوله. لم أستطع أن أحدد ما إذا كانوا يخشون عليه من التعرض للأذى أو يريدون وحسب أن يظلوا في حضرة وجهه المبارك أطول وقت ممكن، ولكنهم راحوا يحومون حول شيخهم متماشين مع سرعة البغل. وعندما لاحظ النحاس وجه صفي الله رومي، تلطف وتراجع عن شتائمه، ونسي كل ما يتعلق بي وهو يراقب أكثر الرجال احتراماً في قونية يمر أمامه، وانفتح فمه من فرط الرهبة كالحفرة السحيقة. لمست كتفه قبل أن يرحل لكي يعرف أنني لم أنس أمره.
"هل رأيته؟ وا حسرتاه! ها قد أتى. أخبرني، كيف يمكنني أن أعرفه قبل أن تقع عيناي عليه؟".
ومن دون سابق إنذار، وقبل أن يتمكن النحاس التعيس من ردعي، ألقيت بنفسي أمام البغل، فهب التلاميذ السبعة وتجمعوا مشكلين جداراً يفصل أستاذهم عني.
صاح أحدهم: "من هذا الرجل ذو الشعر الأسود والعينين السوداوين واللحية السوداء؟".
وقال آخر: "إن كان قلبه بالسواد نفسه، إذاً فالويل والدمار لنا".
ولكن مولانا ظل هادئاً وساكناً كصفحة ماء البحيرة. وعندما نظر إلى عيني، رأيت في عينيه وميضاً من النور بالرغم من أننا كنا في وقت الظهيرة. نعم، لقد نظر رومي إلى عيني! وعندما فعل هذا، تفتحت براعم الربيع

التي لم تكن ستتفتح إلاّ في الأيام القادمة، وملأت باقات الورود حدائق قونية كافة. وعندما نظر إلى عيني، ظهرت الغمازات على خدود الأجنّة في بطون أمهاتهم. نظر رومي إلى عيني، ورفع يديه لأتباعه وأمرهم بالهدوء قائلاً: "دعوه وشأنه".

ما إن وقعت عينا رومي عليّ حتى عرفني. وحالما رآني، فهم سبب حضوري إليه. ومع ذلك، لم يبتسم ولم تصدر كلمة عذبة واحدة من بين شفتيه، بل قال لأتباعه ببساطة: "دعوه وشأنه". إن من لا يقدر أن يمحو حاجز الجهل، فلن يقدر أن يتحمل عبء المعرفة.

انحلت العقدة الوثيقة التي شكلها التلاميذ السبعة بالطريقة نفسها التي هُدِم بها الجدار الذي بناه الصناع الأرمينيون المهرة حجراً تلو آخر. شققت طريقي عبرهم وكأنني أجتاز بوابة حصن منيع، واقتربت وأنا أنظر إلى عيني رومي؛ إلى عيني الرجل الذي اختاره لي الله ليكون صديقي المخلص والوفي.

قلت له باحترام وأنا أتشبث برسن بغله: "يا إمام المسلمين، لديّ سؤال أريد أن أطرحه عليك، سؤال لم أستطع أن أجد له حلاً. ارتحلت في أنحاء خراسان وسمرقند ودمشق وبغداد، ولكنني لم أستطع أن أجد جواباً عن هذا السؤال. إنك رجل محمود ذكره في كل مكان، لذا قطعت البوادي والأمصار ليلاً ونهاراً من آخر الدنيا على أمل أن تجد لي جواباً عن تساؤلي".

قال لي وهو يربت على لحيته الخفيفة: "تفضل، أيها الرحالة. لأنك اخترت مدينتنا من بين عشرات المدن، ولأنك أتيت إلينا بعد أن تحملت عناء السفر لمسافات شاسعة ومترامية، دعنا نغترف من بئر المعرفة في قلوبنا ونرويك منها. ما هي مشكلتك؟ ما هو سؤالك؟".

لم تتح لي الفرصة لأكفكف دموعي قبل أن تنهمر من عيني، فهذا هو الرجل الذي بحثت عنه طوال تلك السنوات، والذي سعيت وراءه من آخر الدنيا في كل فصول السنة. هذا هو الرجل الذي سيجيب عن كل أسئلتي ويحل كل مشاكلي.

سمعت صرخة نحيب تردد صداها في الأنحاء. أخرجت من حنجرتي يا ترى؟ أم من ذهني أم من قلبي؟ لم أستطع أن أعرف.

"مكان التقاء بحرين"
"كارين كيميا... سيدة غرينوود...".
في الظلام الحالك، سمعت صوتاً ينادي باسمي. كان صوتاً بعيداً ومكتوماً، وأشبه بصرخة من أعماق بئر سحيقة. انفرجت جفوني بعض الشيء، وشعرت بضوء أبيض مبهر يحرق عيني فأغمضتهما مجدداً.
"كارين... سيدة غرينوود".
ازداد الصوت وضوحاً وقرباً، وشعرت به يصبح مألوفاً أكثر من ذي قبل.
قال صوت آخر لم أسمعه من قبل: "إنها تستعيد وعيها. تراجعوا إلى الوراء. دعوها تتنفس".
انفرجت جفوني مرة أخرى. وهذه المرة، لم يبدُ الضوء ساطعاً بشدة كما بدا في المرة الأولى. رأيت رجلاً مرتدياً رداء أبيض واقفاً عند رأس السرير، ووجه مينان القلق فوق كتفه. تقدم زميلي البدين متجاهلاً نصيحة الطبيب واقترب مني.
"هل أنت بخير يا سيدة غرينوود؟".
تلفت حولي في أنحاء الغرفة فوجدتها مغمورة بضياء أبيض صارخ، وجدرانها رمادية داكنة مجردة من أي صورة أو زينة من أي نوع. وشممت رائحة دواء ثقيلة في الجو. وعندما نظرت إلى الأسفل، رأيت مصلاً معلقاً بيدي.
"أين أنا؟".
قال الرجل ذو الرداء الأبيض بلغة إنكليزية ذات لكنة ثقيلة: "في غرفة الطوارئ. فقد سقطت مغشياً عليك".
"غرفة الطوارئ؟!".
عندما خرجت الكلمتان من فمي، أدركت أنني قلتهما بالإنكليزية أيضاً. فلا بد أنني عدت بشكل لا شعوري إلى لغتي الأم وأنا أستعيد وعيي.
شرح مينان باللغة التركية، وهو يفرك أصابعه البدينة بتوتر: "إننا في المستشفى. فقد عثروا عليك فاقدة الوعي على الرصيف. لا نعرف كم مضى عليك من الوقت وأنت خارج الفندق".
وبينما كان يتكلم، استعادت ذاكرتي كل ما جرى. فتذكرت الشجار الذي وقع خارج المطعم، ومطاردتي الرجل الملتحي، وانقطاع التيار الكهربائي، وتحولي إلى التبريزي... لم يتملكني مجرد شعور عابر أنني شمس، بل تحولت فعلاً إلى شمس التبريزي نفسه، ولم يبق أي شيء من هويتي الحقيقية أو من عالمي المعاصر. ولكن أكثر ما أثار دهشتي هو أنني

استطعت أن أتذكر كل تفاصيل التجربة بدقة عجيبة. فقد شعرت أنني ما زلت مسحورة بجمال عيني الرجل البراقتين وبنظراته العميقة وهو ينظر إلى عيني من مكان جلوسه على ظهر بغله. وفي النهاية، صحت بأعلى صوتي. وبعد ذلك، فقدت وعيي، أم إن شمس هو من فقد وعيه؟ قد نكون فقدنا وعينا في آن واحد ثم ساد الظلام.

قال مينان فجأة ما أجفلني: "لم ير أحد الشخص الذي هاجمك، وذلك بسبب الظلام الذي ساد في ذلك الوقت".

عدت للغة التركية وأنا أحاول الجلوس وقلت: "أي مهاجم؟ عم تتحدث؟".

أمسكني الرجل ذو المعطف الأبيض بلطف من كتفي. وبينما كان يفعل ذلك، رأيت وجهه عن قرب. كانت له عينان خضراوان شاحبتان وخال كبير على الجانب الأيمن من أنفه... قرأت ما كتب على بطاقة هويته المعلقة على جيب معطفه: الدكتور بولينت أصلان.

حذرني باللغة التركية أيضاً: "من الأفضل ألاّ تقومي بأية حركات مفاجئة. تحركي بتمهل".

عاودت الاستلقاء على السرير، ولكنني عجزت عن التخلص من الفزع الذي راح يتنامى في داخلي.

"ماذا حدث لي؟".

نظرت إلى مينان وسألته، ولكن الدكتور أصلان سبقه في الإجابة.

"لا شيء خطير. فقد سقطت على الأرض، ولكن ليست هناك أي جروح أو كدمات على رأسك. إنك تعانين ربما من بعض التيبس في عنقك، ولكنك خلافاً لذلك بصحة جيدة جداً".

أدركت من كلامه أن الطفل أيضاً على ما يرام. فبعث هذا على الأقل بعض الراحة في نفسي.

واصل الدكتور أصلان كلامه قائلاً: "مع ذلك، نحن غير واثقين من سبب الإغماء الذي أصابك. ربما كان ناجماً عن الصدمة التي تسبب بها الحادث الذي تعرّضت له، ولكننا أجرينا بعض الفحوصات ولم نجد ما يستوجب القلق. علقنا لك محلولاً وريدياً، لذا ينبغي أن تتحسن حالك في أسرع وقت".

عجزت عن فهم ما يجري معي. ترى، هل رجعت بالزمن إلى الوراء سبعمائة سنة مع ذلك الرجل الذي يدعو نفسه "شمس"؟ أم ينبغي عليّ أن أقلق من أن يكون أحدهم قد دس شيئاً في الطعام الذي تناولته في المطعم. ماذا سيحدث لي أكثر من ذلك؟ ترى، هل سأتهم كل سكان قونية

بالتآمر وبالتلاعب بطعامي وشرابي؟ توجب عليّ أن أكف عن هذه الريبة الزائدة عن الحد. ومع ذلك، هل ثمة تفسير لما مررت به من أحداث؟

قلت موجهة كلامي إلى مينان: "هل قلت إنني تعرضت لهجوم؟ هجوم من أي نوع؟".

"نظن أن شخصاً ما قد هاجمك عندما انقطع التيار الكهربائي".

سألته بانفعال: "إذاً، لقد انقطع التيار الكهربائي، أليس كذلك؟".

نظر إليّ محاولاً أن يكتشف الشيء المهم حيال ذلك.

وقال: "نعم، بالطبع. فقد حدث عطل في محطة الكهرباء، وتأثرت كل مدينة قونية بذلك. لا بد أنك تعثرت ووقعت أو...".

فأكملت جملته نيابة عنه قائلة: "أو أن أحداً قد هاجمني".

سألني وهو يفتح عينيه على وسعهما وكأن ذلك ليس اقتراحه هو: "هل ذلك ما حدث فعلاً؟".

ما الذي كان يفترض بي قوله؟ لم تكن لديّ أية فكرة عما حدث. فإن قلت له إنني عدت سبعة قرون إلى الوراء، وشاهدت مقابلة شمس التبريزي الأولى مع رومي وأنا مسكونة بروح شمس لا أقل من ذلك، فسوف يظن أنني مجنونة. وعندئذ، من المؤكد أن الطبيب سيؤيد هذا الكلام ويقول إن هذا طبيعي بعد تعرضي لإصابة في الرأس.

قلت وأنا أهز رأسي: "كلا...". وشعرت بألم شديد في مؤخر عنقي فأطلقت صيحة صغيرة.

سأل الدكتور أصلان وهو ينظر إلى وجهي باهتمام مهني وقال بهدوء: "هل أنت بخير؟".

عندما بقيت ساكنة، تضاءل الألم، فقلت: "نعم، إنني بخير".

"هذا الألم طبيعي. سيستغرق بضعة أيام ليتلاشى. وفي تلك الأثناء، يجب أن تتناولي بعض مسكنات الألم دوّنتها لك".

قاطعه مينان قائلاً: "الحبوب بحوزتي". وبالرغم من ذلك، شعرت أنه مهتم بما جرى معي أكثر من اهتمامه بحالتي الصحية. فقال: "أيمكنك أن تتذكري كيف وقعت يا سيدة غرينوود؟".

فقلت له وأنا حريصة على عدم تحريك رأسي مجدداً: "كلا. كل ما أتذكره هو أن الأضواء انطفأت وأنني لم أعد أرى شيئاً. لا أتذكر أي شيء عن السقوط أو عن ضرب أحدهم لي. وعندما فتحت عيني وجدت نفسي هنا".

حك مينان ذقنه ذا الطابع وقال: "إن ما يثير استغرابي هو المكان الذي عثروا فيه عليك فاقدة وعيك". شعرت أنه يلمح إلى تفصيل معين، ولكنه

بدا غير واثق من الطريقة التي يمكنه أن يعرض بها الموضوع. وأخيراً، شعر أنه لم يعد قادراً على الصمت أكثر من ذلك، فأضاف قائلاً: "إنهم يسمون ذلك المكان مرج البحرين؟".

"ما الذي يعنيه هذا؟".

كرر بحماسة: "مرج البحرين، أي مكان التقاء بحرين. وقد أطلق الناس هذه التسمية على المكان الذي شهد أول لقاء بين شمس التبريزي ورومي، أي مرج البحرين".

تملكتني الدهشة والصدمة لدى سماعي كلامه. فلو أنني لم أشهد اللقاء بنفسي، لقلت مرة أخرى إنني تعرضت للخداع ولبحثت عن تفسير منطقي للموضوع. ومع ذلك، لقد رأيت كل شيء بأم عيني وسمعته وشعرت به في أعماقي. لقد عزز ما قاله مينان تجربتي الجنونية، لذا لم يسعني أن أعترض على كلامه. ومع ذلك، تولى الطبيب ذو الرداء الأبيض ذلك بالنيابة عني.

فسأل وهو يرمق مينان بنظرة سخط: "وما علاقة هذا الكلام بما تعرّضت له السيدة؟ هل توجد أي صلة محتملة بين إغماء السيدة غرينوود وشيء حدث قبل مئات السنين؟".

حاول مينان في نوبة أخرى انتابته من نوبات العناد أن يقنع الرجل.

فقال: "أكثر مما تعرف أيها الطبيب. عندما وصلت إلى قونية أول الأمر، ثقبت عجلة سيارتنا أمام ضريح شمس التبريزي و...".

زم الطبيب شفتيه باشمئزاز، وقاطعه قائلاً: "من فضلك لا تكمل. لقد انتهت العصور المظلمة منذ زمن بعيد. هلا تحاول من فضلك ألاّ تشتت ذهن مريضتي بخيالاتك الخرافية. دعيني يا سيدتي أقدم لك تفسيراً أكثر بساطة. لقد قام أحد اللصوص مستغلاً انقطاع التيار الكهربائي بسرقة حقيبتك؛ ففقدت توازنك وسقطت على الأرض".

نظرت حولي بقلق وقلت: "حقيبتي... هل سرقت؟".

استحال وجه مينان إلى لون أحمر كالدم وكأنه هو من سرقها.

"نعم، ولكننا وجدناها. فقد قام أحدهم برميها في حديقة مسجد إبليكتشي".

"ولكن...".

"لسوء الحظ، لم نجد أي محفظة أو جواز سفر فيها".

يا لسوء حظي! هذا هو الشيء الذي لطالما توجست منه كلما سافرت إلى الخارج. فها قد أضعت جواز سفري! ويتوجب عليّ الآن أن أذهب إلى السفارة، وأقدم طلباً للحصول على جواز سفر جديد. فكرت في أن أتصل

بالسفارة في تلك اللحظة، ولكنني تساءلت عن مكان هاتفي، وبدأت الاحتمالات التي خطرت ببالي تثير أعصابي فعلاً.
"وماذا عن هاتفي؟ هل سرق أيضاً؟".
قال مينان: "لا تقلقي. فقد عثرنا على هاتفك في جيب سترتك". وابتسم ابتسامة طفولية وكأنه مسرور لأنه يزف لي خبراً جيداً.
"حسناً، على الأقل لا يزال لديّ هذا". وتنفست الصعداء قبل أن يعاودني الشعور بالرعب لدى تذكري فقداني جواز سفري. حاولت أن أنهض من سريري ناسية تحذير الطبيب، وقلت: "ألا ينبغي علينا أن نبحث عن جواز سفري؟".
قال مينان محاولاً أن يهدئ من روعي: "ستتولى الشرطة هذه المهمة. إنهم يعملون على تمشيط المدينة بينما نحن نتحدث الآن. فهم من أبلغوني بالحادث على أية حال بعد أن عثروا على بطاقتي في حقيبتك".
تملكني القلق من أن يتعقد الموقف إن تورط فيه رجال الشرطة، ومن أن يستغرقوا أياماً ليعثروا على أغراضي المسروقة. أردت أن أعود إلى الفندق لأتصل بالسفارة، أو لأعلم سايمون بما حدث، ولأستفسر منه عمّا يجب عليّ فعله في ما بعد. ألقيت نظرة خاطفة على المصل المشبوك بذراعي ثم على يدي، فوجدت أصابعي مجردة تماماً. وهكذا، فقد اختفى الخاتم أيضاً. فكرت في أن الأطباء ربما نزعوه من يدي عندما علقوا المصل، فالتفت إلى الطبيب على أمل أن يخبرني شيئاً عنه.
"وماذا عن خاتمي؟ كنت أضع خاتماً فضياً في يدي اليمنى".
لم يبدُ أن الدكتور أصلان على دراية بالموضوع. ومع ذلك، كان مينان كله آذان صاغية.
"هل اختفى الخاتم أيضاً؟ ذلك الخاتم الذي ينزف؟".
بدا مينان مهتماً جداً بسير الأحداث. ولولا كل الأمور التي مررت بها، لأكدت له أن الخاتم لم ينزف وأن طلاءه قد سال، ولكنني عجزت عن أن أقول له أيّ شيء ما عدا: "نعم".
خاتم ينزف ومرج البحرين وشمس التبريزي... نظر الطبيب إلينا بحذر. وقال بتجهم: "هل أنت واثقة من أنك بخير؟". حاول الطبيب أن يتحلى بأكبر قدر من الأدب كي لا يشير إلى الجنون الذي يبدو في كلامنا، وقال: "هل أنت واثقة من أنك لا تشعرين بأي دوار أو ما شابه ذلك؟".
"كلا، إنني بخير، ولكن الخاتم مهم جداً بالنسبة إليّ، وها قد تعرض للسرقة أيضاً".

قال الطبيب من دون أن يحاول إخفاء نبرة السأم في صوته بعد الآن: "حسناً، إنني آسف حيال هذا. إن لم تكونا بحاجة إليّ بعد الآن، فسأعود إلى مكتبي".

قلت له وأنا أبتسم ابتسامة شكر وامتنان: "بالطبع. ولكن، متى يمكنني المغادرة؟".

تأملني الطبيب بشكل سريع وكأنه يستطيع أن يقيم حالتي من مجرد النظر إليّ.

"إن أحسست أنك على ما يرام فبوسعك أن تغادري حالما ينتهي المصل، ولكن هناك ضابط شرطة في الخارج ينتظر سماع إفادتك. بعد ذلك، يمكنك العودة إلى فندقك مباشرة والتصرف كما يحلو لك". وأخرج بطاقة من جيبه وقدمها لي قائلاً: "اتصلي بي إن شعرت بالغثيان أو بأي عارض غريب".

وقبل أن أتمكن من الإجابة، انتزع مينان البطاقة من يده وقال: "لا تقلق. سنكون على ما يرام، آمل ذلك على الأقل، ولكن إن طرأ أي شيء، فسنتصل بك على الفور".

انتظر مينان إلى أن أصبحنا وحدنا في الغرفة قبل أن يواصل كلامه قائلاً: "على أية حال، إنك في حالة جيدة يا سيدة غرينوود". تلاشى كل توتره بعد رحيل الطبيب، وكأنه شعر بالراحة العميقة نفسها التي يشعر بها الإنسان عندما يبقى مع أفراد عائلته بعد أن يغادر الضيوف إلى بيوتهم. لا بد أنه ظن أن الشعور نفسه تملكني، وتوقع مني أن أفشي له سراً ما، لذا سألني هامساً بنبرة تآمرية: "إذاً، ما الذي حدث لك فعلاً؟".

"لا أتذكر. هل من المهم فعلاً أن أتذكر ما حدث؟".

"كلا... ولكنني أعني... لقد ظننت أنك ربما رأيت من هاجمك. فقد يكون شخصاً تعرفينه".

الآن، ما معنى هذا الكلام؟

"شخصاً أعرفه! هل تعرف شيئاً لا أعرفه يا سيد فيدان".

"بالطبع لا. كيف لي أن أعرف؟".

ولكنني أيقنت أنه يعرف شيئاً ما، أو على الأقل أن هناك فكرة تراوده. لم يمض وقت طويل قبل أن يؤكد مينان شكوكي بنفسه.

"في الحقيقة، لديّ بعض الشكوك. فقد خطر ببالي الحديث الذي أجريناه عصر اليوم".

"أي حديث؟".

"تعرفين... عصر هذا اليوم... في فندق ياقوت".

"ماذا؟".
"ذلك الشاب عديم النفع سيرهاد! لقد أزعجك كثيراً، أليس كذلك؟".
"هل تلمح إلى أنه الشخص الذي هاجمني؟".
"إن ضياء رجل شريف لا غبار عليه. أما سيرهاد من جهة أخرى، فهو شاب مزعج، وكذلك الأمر بالنسبة إلى ذاك التافه كافيت". وضح لي مينان ظناً منه أنني لم أتذكر: "إنه ذلك الرجل المهووس بالنظافة الذي راح يمسح مقابض أبواب سيارته المرسيدس. لا يمكن الوثوق بأي من هذين الشخصين، فهما لا يتورعان عن ارتكاب أي عمل مهما بلغت درجة حقارته. ولهذا السبب، أقول إنهما استشاطا غضباً اليوم و...".
ترى، هل أراد مينان استغلال الفرصة ليعاود فتح موضوع سيرهاد، أم إنه صادق في كلامه بالفعل؟ لم يسعني القول إنني لم أجد الفكرة معقولة. فعلى الرغم من أن مينان حاول أن يحمي ضياء، إلاّ أن الهجوم الذي تعرضت له - على افتراض أنني تعرضت لهجوم فعلاً - ربما يكون من تخطيطهم هم الثلاثة، أي ضياء وسيرهاد وكافيت. وفي هذه الحالة، يتوجب عليّ أن أتقبل أن مينان ليس من أتباع ضياء على أية حال، وأن شكوكي حيال زميلي شكوك لا مبرر لها. ومع ذلك، وجدت صعوبة في تحديد موقفي منه.
قلت له أخيراً: "لا أظن ذلك. وحتى لو كان ما تقوله صحيحاً، فأنا لم أرَ أحداً؛ لا سيرهاد ولا صديقه كافيت. لست أدري ما حدث، ولكنني مرهقة الآن ولا أريد أن أفكر في الأمر أكثر".
تفقدت المصل مجدداً، فوجدته على وشك أن يفرغ.
تذمرت قائلة: "حين ينتهي هذا الشيء اللعين، سنتمكن من الخروج". لاحظت تعاسته بسبب تغييري الموضوع، وأيقنت أنه كان سيسر كثيراً إن ألقيت باللوم على سيرهاد، ولكنني لم أجد أنني في مزاج مناسب للخوض في هذا الموضوع لمجرد إدخال السرور على قلبه، فسألته: "إذاً، أين ندفع الفاتورة؟".
رفع مينان يده وعلى وجهه تعبير طفولي عابث، وأجاب وهو فخور بلياقته قائلاً: "لا تقلقي أبداً. فقد اهتممت بهذا".
لقد عجزت طوال حياتي عن فهم هذه العادة التركية الغريبة؛ أي عادة التضحية الزائدة بالنفس في سبيل الآخرين، والإصرار على استضافتهم أو دفع الفاتورة نيابة عنهم؛ كالحالة التي أصادفها الآن مع مينان. ترى، هل هي رغبة صادقة أم مجرد استعراض مزيف للكرم؟ دلتني النظرة البريئة التي

بدت في عيني ميان أن الخيار الأول هو الصحيح. ولكن، في كلتا الحالتين، رفضت أن أدعه يدفع تكاليف علاجي.
"لا يمكنني قبول هذا. وعلى أية حال، التكاليف ستتم تغطيتها كلها عن طريق الشركة. إننا نعمل لصالح شركة تأمين. أتتذكر هذا؟".
بدأ الموقف يثير أعصابي، وعجزت عن منع نفسي عن توبيخه.
أجاب ميان وهو يمسح العرق عن جبهته بمنديله: "ولكنك ضيفتي...".
قطبت جبيني وقلت: "كلا، لست ضيفة أحد. إنني هنا لأؤدي عملي. وأنت خدوم جداً بالفعل، شكراً لك، ولكنك قمت بالواجب وزيادة".
أشاح بوجهه مستسلماً من دون أي مقاومة، وقال: "حسناً إذاً، سأعطيك الفاتورة لاحقاً".
اكتسب خدّاه الممتلئان لوناً أحمر قرمزياً مرة ثانية وتهدلا بكآبة، فشعرت بالندم لأنني صحت في وجهه.
"شكراً لك يا سيد فيدان. إنني أقدر صنيعك بالفعل. ليس بوسعي أن أدفع لك المبلغ الآن حتى لو أردت ذلك؛ لأن محفظتي مسروقة كما تعرف، لذا سنسوي الحساب لاحقاً". وربت على كتفه وأنا أبتسم: "إنك مدين لي بدعوة على العشاء. لا تظن أنني نسيتها".
صرف ميان مشاعره الجريحة على الفور، وتألق وجهه، وزاد اللمعان في عينيه، وأصبح متهوراً على الفور، وقال: "متى شئت. في الواقع، إن كنت تشعرين أنك جائعة الآن...".
"كلا، شكراً لك. لست جائعة الآن. دع ذلك لوقت آخر".
تراجع عن رعونته المعهودة، وقال: "دعيني أتحدث إلى رجل الشرطة الواقف في الخارج. وعندئذ يمكننا أن نتولى أمر هذه الإفادة من دون أن نتعبك أكثر من ذلك ثم نتوجه عائدين إلى الفندق".

"أعظم لغز من ألغاز البشرية هو الدماغ"
بحلول منتصف الليل، تمكنا أخيراً من التوجه بسيارتنا عبر شوارع قونية التي بدت الآن متحررة من السيارات والناس والظلام يخيم عليها متجهين إلى الفندق. وبينما نحن في الطريق، اتصلت بسايمون من هاتفي المحمول، وشرحت له الموقف، فتملكه القلق وشعرت بنبرة تأنيب ضمير في صوته.
قال لي: "لا تقلقي. سأتصل بالقنصل في وقت مبكر من صباح الغد، وأبدأ بإجراءات طلب جواز سفر جديد لك. إنك بخير، أليس كذلك؟".
فقلت: "ليست حالتي بالغة السوء. فأنا أشعر ببعض التحسن بفضل المصل الذي أعطيت إياه في المستشفى".
توقعت منه أن يأمرني بالتخلي عن المهمة والعودة إن شعرت أنني لست على ما يرام، ولكنه لم يفعل ذلك، ولم يكن ليفعل قط. فالعمل هو العمل، ويجب على المرء أن يؤدي ما عليه من واجبات. ومع ذلك، حتى لو قال لي إن العمل أصبح شديد الخطورة، وإنه ينبغي عليّ أن أتخلى عنه، لم أكن واثقة من أنني راغبة بفعل هذا على أية حال. نعم، هناك أشياء غامضة حدثت حولي، وبثت الرعب في نفسي، ولكنني وجدت أن هذا الموقف يُلزمني بطريقة غريبة بالاستمرار، ولم أستطع أن أكف عن التساؤل عن المكان الذي ستؤدي بي إليه هذه المغامرة. وبالإضافة لذلك، شعرت أن كل هذا له علاقة بوالدي؛ حتى لو لم أكتشف بعد وجه هذه العلاقة.
عندما وصلنا إلى مدخل الفندق، سألني مينان إن كنت أود أن يأخذ غرفة له؛ فقد خطر بباله أنني سأشعر بطمأنينة أكبر إن وجدته قربي في حال احتجت إلى أي شيء، ولكنني شكرته، وقلت له إنه لا حاجة إلى ذلك، وأرسلته إلى بيته. مررت بجانب مكتب الاستقبال حيث وجدت موظف الاستقبال المتطفل مرة أخرى.
قال لي وهو يحدق إليّ باهتمام: "مرحباً بعودتك يا سيدة غرينوود. هل أمضيت يوماً ممتعاً؟".
أجبته وأنا أبتسم ببرودة وأتجه بسرعة نحو المصعد: "نعم، شكراً لك".
وصلت إلى غرفتي. وبينما كنت أضع المفتاح في القفل في ضوء الممر الخافت، سرت في أوصالي موجة من الرعب. ترى، ماذا سأفعل إن سمعت صوت ذلك الدرويش المتسربل بالسواد ثانية أو رأيت كابوساً آخر؟ تمنيت لو أنني لم أرسل مينان إلى بيته. وعندئذ، ضحكت؛ فهل يعقل أن أطلب من الرجل أن ينام معي في غرفتي لأشعر بالاطمئنان؟ أدرت المفتاح في

القفل، وأنا أحاول أن أنفض عني الأفكار السلبية. انفتح الباب بهدوء، فلم أجد الغرفة مظلمة بل يشع فيها ضوء أصفر مبهم منعكس من مسجد السلطان سليم. وجدت السرير الذي تركته غير مرتب عندما غادرت لأتناول الطعام، والمرآة التي تبدو أشبه بحفرة مظلمة في الجدار، والطاولة الصغيرة وعليها كمبيوتري المحمول كلها كما تركتها. ومع ذلك، أشعلت الضوء قبل أن أغلق الباب، فظهرت لي الغرفة بوضوح بكل كآبتها وانعزالها. مهما بدت أنيقة ومفروشة بشكل جميل، بدا أن الانعزال والكآبة الشديدة هما المصير المشترك لكل مكان في هذا الفندق، ولكنني في تلك اللحظة لم آبه قيد أنملة للجو الكئيب. فقد استوطن في داخلي خوف عميق لدرجة أن إشعال الضوء لم يبعث أية راحة في نفسي. دخلت الحمام وأشعلت الأضواء فيه بسرعة أيضاً. جعل خواء الحمام ذي الجدران البيضاء المكسوة بالخزف المكان يبدو بارداً وموحشاً. لم أسمع سوى صوت جريان المياه المكتوم في الأنابيب بينما كان أحد نزلاء الفندق يستحم في إحدى الغرف المجاورة. تركت أضواء الحمام منارة، وعدت إلى غرفة النوم. شعرت بألم مفاجئ في جسدي عندما حركت عنقي، وأصابني دوار خفيف، فاستلقيت على السرير مباشرة، وهذا ما جعلني أشعر بتحسن في البداية. ولكن، لم يمر وقت طويل حتى بدأت أفكر بشمس وأستعيد ذكرى المغامرة التي خضتها، أو بالأحرى التي أجبرني على خوضها. بدأ كل ذلك عندما انقطع التيار الكهربائي. وفي تلك اللحظة، أغمي عليّ وشاهدت في عالم أحلامي أول لقاء جمع بين رومي وشمس. لم أستطع أن أكتشف كيف تمكنت من رؤية ذلك من دون أن أعرف أي شيء عن كيفية لقائهما أو مكانه أو ما قالاه لبعضهما. أم إنني كنت أعرف؟ ألا يمكن أن يكون والدي قد أخبرني بهذه القصة؟ قد تكون القصة مخفية في أعماق عقلي الدفينة وبدأت تطفو على السطح الآن عندما حضرت إلى قونية. ها قد بدأت أتحدث مثل أمي. لطالما اعتادت أن تتحدث عن لغز الدماغ البشري وكيف أن أحداً لم يتمكن من اكتشاف كل خباياه بعد.

فقد قالت لي ذات مرة: "إن أعظم ألغاز البشرية هو الدماغ. فالطريقة التي يعمل بها وقدرته غير معروفتين بعد. كيف ندرك مليارات الأشياء المبرمجة في جيناتنا؟ أو تلك التي ندركها بحواسنا أو نتعلمها من تجاربنا؟ أين نحتفظ بكل تلك المعلومات التي أدركناها مما سمعناه ورأيناه وشعرنا به وتذوقناه ولمسناه، من دون أن نستخدمها إلا نادراً؟ كم هو مقدار ما يمحوه عقلنا منها؟ وكم هو مقدار ما يخزنه؟ إن هذا كله لغز ضخم

ومحير".
إذاً، ربما لم يعد شمس التبريزي من الماضي، وربما لم يتقصد أحد إيذائي سواء أكان ضياء ورجاله الذين يسعون وراء ذلك المبلغ الضخم من المال تعويضاً عن العطل والضرر الذي أصاب الفندق أو مينان الذي يغرق في عرقه كلما توتر أو فقد أعصابه، بل أنا؛ ربما كنت أنا المسؤولة عن كل هذا بسبب دماغي المشوش وأفكاري المضطربة. ترى، لأي درجة يخضع دماغ أي منا لسلطة عقله الباطن؟ شعرت بتحسن سريع غير متوقع. فقد تمكنت من التوصل إلى تفسير منطقي ومقنع لكل ما جرى معي. ولكن في هذه الحالة، هل يعتبر ضياء بريئاً؟ بالطبع لا. فتلك مسألة أخرى لا يزال يتوجب عليّ أن أواصل البحث فيها. وقد يكون مينان مذنباً أيضاً. ولهذا السبب، قررت أنه من المهم جداً أن أحافظ على موعدي مع هذا الموظف السابق المدعو قدير الذي ادعى أن مخلوقات فضائية أضرمت النيران في الفندق. وحتى لو فقد عقله، فهو لم يعد من رجال ضياء. وإن أخفت نزيهة وسيرهاد أي معلومة عني، فلا بد أنني سأسمعها من قدير.
ألقيت نظرة خاطفة على سروالي الجينز فوجدته ملطخاً بالطين الجاف، ولم تكن سترتي أفضل حالاً. عاودت الدخول إلى الحمام لأستحم، ولكنني قلقت من أن أصاب بالدوار مرة أخرى، فترددت وغيرت رأيي، وقررت أن أكتفي بغسل وجهي ويدي، وأجلت استحمامي للصباح. ورغم أنني لم أشعر بالنعاس، فقد عدت إلى الغرفة وارتديت بيجامتي ثم تذكرت الدواء المسكن الذي أعطاني الطبيب إياه. مددت يدي إلى حقيبتي، وأخرجت زجاجة الدواء وفتحتها، ووضعت بعض الحبوب في راحة يدي، ولكنني تذكرت الطفل فأعدت الحبوب إلى العلبة وأغلقتها من دون أي تفكير. ما الذي أفعله!؟ هل أنوي أن أحتفظ بهذا الطفل فعلاً؟ فحتى كلمة "طفل" بدا وقعها غريباً بالنسبة إليّ. ومن ناحية أخرى، وجدت فكرة إجهاضه مرعبة. ففي المرة الأولى التي أجهضت فيها مررت بتجربة سيئة بما فيه الكفاية، وشعرت أن حفرة ضخمة فتحت ليس في جسدي فقط وإنما في قلبي ورأسي على حد سواء. في ذلك الوقت من الماضي،كنت لا أزال شابة قوية وعديمة الخبرة. أما في هذه الأيام، فقد بدأت أشعر أنني هشة ومعرضة للأذى. لهذا السبب تملكني الخوف، ولكنني أدركت أنه سيتوجب عليّ أن أتخذ قراراً عاجلاً أم آجلاً، وأن أدافع عنه في وجه نايغل حالما أعود إلى لندن؛ رغم خشيتي بأن يؤثر هذا القرار على علاقتنا. رن هاتفي، فرددت على المكالمة من دون أن أنظر إلى اسم المتصل ظناً مني أنه مينان، ولكن

صوت أمي المرح هو ما رن في أذني.
"مرحباً كارين؟".
"مرحباً أمي. هل كل شيء على ما يرام؟".
"نعم، لم أوقظك من نومك، أليس كذلك؟". وواصلت أمي الكلام من دون أن تفسح لي مجالاً للإجابة قائلة: "إن نايغل شاب لطيف جداً. إنني أحذرك، إن فكرت بالتخلي عنه فلن أسامحك ما حييت".
"لا تقلقي، يا أمي. لا أنوي فعل هذا، ولكن بالطبع، إن لم يعد هو يريدني...".
"لا تتفوهي بهذه الترهات. إنه متيم بحبك. لقد اتصل بي هذا المساء. واحزري ما قاله لي؟".
لقد أحسن نايغل صنعاً ولم يتردد في دعوتها لتناول العشاء. ورغم ذلك، تظاهرت بالطبع أنني لا أعرف شيئاً عن الأمر.
"هيا، أخبريني".
"لقد دعاني لتناول العشاء في نادي الجاز الذي أحبه؛ ذلك النادي الذي اصطحبتني إليه ذات مرة".
"النادي رقم 606؟".
"نعم، هذا هو. لا يزال لديهم ذلك الطاهي الفرنسي، أليس كذلك؟".
"حسناً، لم أذهب إلى هناك منذ بعض الوقت، ولكنني أظن ذلك".
ضحكت أمي، وقالت: "سنتمكن من أن نثرثر عنك قليلاً في غيابك".
تساءلت عن سبب هذا التغيير المفاجئ في مزاج أمي. وعندئذ، اتضحت لي الفكرة.
"هل احتسيت الشراب يا أمي؟".
ضحكت أمي ضحكة مرحة كطفلة شقية، وقالت: "من؟ أنا؟ توقفي عن الافتراء على أمك العجوز".
"لا يفترض بك أن تحتسي الشراب يا أمي. فهذه أوامر الطبيب".
تذمرت أمي قائلة: "حسناً، فليذهب الأطباء إلى الجحيم. لقد منعوا ماثيو عن الكثير من الأشياء أيضاً، وانظري ماذا حدث له. لم يعش سوى ثلاثة أشهر أخرى وهو طريح الفراش في المستشفى. لم يتمكن حتى من أن يدخن سيجاره الكوبي المحبب للمرة الأخيرة قبل أن يموت. لا تتكلمي عن الأطباء يا كارين. إنهم لا يعرفون شيئاً لعيناً واحداً. وبالإضافة لذلك، أنا لم أشرب الكثير بل مجرد كأسين صغيرتين".
لم يوح لي صوتها بأنها شربت كأسين فقط. كانت أمي مصابة بالسكري

وبارتفاع في ضغط الدم، كما شخص الأطباء إصابتها بتضخم في القلب مؤخراً.
"إن هذا أشبه بالانتحار يا أمي. ستلقين بنفسك في التهلكة. لماذا تفعلين هذا؟".
تمتمت أمي بنقمة وهي مجروحة المشاعر: "ربما لأنني لا أستطيع أن أتقبل الوضع بصراحة".
كنت عالقة في وضع غريب لا أجد له تفسيراً. والآن، توجب عليّ أن أعالج مشكلتها أيضاً.
عاتبتها قائلة: "من فضلك لا تتكلمي بهذه الطريقة. لماذا تريدين قتل نفسك؟ ما الخطب الذي تعانين منه في حياتك تحديداً؟".
"ما الخطب!؟". وبدا صوتها مليئاً بالتمرد وهي تقول: "ألا ترين كيف يغادر الناس الذين أحبهم من حولي ويرحلون؟ أولاً، والدك، والآن مات. بت وحيدة تماماً في هذا العالم الواسع".
"وحيدة! إنني هنا، أليس ذلك؟".
"أنت... أنت ابنة محبة، ولكن لديك حياتك الخاصة لتعيشيها. لا يسعني التصديق أنك لا تزالين قادرة على التدخل بحياتي حتى من بعيد".
بدا صوتها عاطفياً جداً وكأنها على وشك أن تذرف الدموع. ما مشكلة هذه المرأة؟
"ماذا تعنين يا أمي؟".
"لا تتجرئي على إنكار أنك أنت التي طلبت من نايغل أن يدعوني لتناول العشاء. لم أصبح مسنة وخرفة إلى حدّ يجعلني غير قادرة على اكتشاف هذه التصرفات".
"بالطبع لم أطلب منه أن...".
"كارين، كفي عن هذا! لا يمكنك أن تبرعي بالكذب. لم تتمكني من ذلك طوال حياتك، فقد ورثت هذه الصفة عن أبيك. طلبت من نايغل أن يتصل بي، وهذا تصرف جيد. إنني واثقة من أنه كان سيفعل ذلك من تلقاء نفسه إن فكر به، ولكنك تعرفين كيف يتصرف الرجال بغباء في بعض الأحيان. يجب عليك أن تذكريهم في بعض الأحيان. لذا، ذكرت نايغل بي، لا تنكري هذا. وبالإضافة إلى ذلك، لقد أدخلت دعوته البهجة إلى قلبي. لا بد أنك تدركين كم أنا متيمة بصديقك الأسمر الوسيم. ومع ذلك، إن تركنا المزاح جانباً، فهو رجل صالح، ومن نوعية الرجال التي يصعب العثور عليها في هذه الأيام".

ناشدتها قائلة: "من فضلك لا تشربي المزيد يا أمي. إن لم يكن ذلك من أجلك، فمن أجلي أنا إذاً. إذ يخالجني شعور سيئ جداً".
قالت لي وهي تحاول أن تبقي صوتها حازماً: "ليس هناك ما يدعو للمشاعر السيئة. إنني بخير. لم أشرب الكثير بالفعل، مجرد كأسين. حسناً، فلنقل إنني شربت أربع كؤوس، ولكن لا أكثر. ولن أشرب المزيد. سأضع رأسي على مخدتي وأنام حالما أنهي المكالمة. إذاً، ماذا تفعلين؟ كيف تسير مغامرتك الجديدة في قونية؟ هل طرأت تغييرات كبيرة على تلك المدينة الغامضة؟".
بدا صوتها مفعماً بالحنين. فلا بد أنني ذكرتها بالأيام الخوالي.
"أظن أنها تغيرت. فهناك جادات عريضة لا أتذكر أنني رأيتها من قبل، وأبنية أكثر ارتفاعاً...".
تمتمت بصوت يائس: "إنهم يفسدون المكان ويدمرون كل الجمال القديم فيه. وهم لا يفعلون هذا في قونية وحدها ولكن في أنحاء العالم كافة. إنهم ينشرون الفوضى البربرية بلا أية رحمة. أظن أنه يجب أن يظهر أحدهم فجأة وينقذ العالم من البشر. يجب أن يُنتزع هذا العالم الجميل من بين أيدينا لندرك قيمته".
قلت محاولة أن أخفف عنها: "ليس الوضع بهذا السوء. فالكثير من البيوت والمساجد القديمة لا تزال محمية. والشوارع عريضة ومشمسة. كما قاموا بترميم ضريح رومي، وأصبحوا يعتنون به بشكل أفضل من ذي قبل".
"ألا يزال مأوى الدراويش هناك؟".
أدركت أنها تتحدث عن البيت ذي شواهد القبور المعممة الذي ذهبت إليه مع والدي، ولكنني أردت أن أسمع منها ما تعرفه عنه، لذا تظاهرت بأنني لا أعرف ما تتحدث عنه.
"أي مأوى للدراويش؟".
"ذلك المأوى الذي عاش فيه والدك. إنه المكان الذي التقيته فيه لأول مرة. اعتاد أن يرقص هناك".
تذكرت كلمات مينان عندما قال إن المولوية لا يحبون مقارنة الرقصة الدائرية بالرقص العادي.
"أتقصدين الرقص الدائري؟".
فاستعاد صوتها نبرته المرحة وقالت لي ساخرة: "نعم، أعني الرقص الدائري. أنت ابنة أبيك. إذ لطالما اعترض بويراز على مقارنة الرقص الدائري بالرقص العادي".

"هل ذهبت أنا أيضاً إلى هناك يا أمي؟ إنني جادة فعلاً. فأنا لا أتذكر أنني ذهبت".
"لا بد أنك ذهبت. لست واثقة بالطبع يا حبيبتي. فنحن الاثنتان لم نذهب إلى قونية معاً. ولكن، لا بد أن والدك قد اصطحبك إلى ذلك المنزل، فهو منزله".
"منزله؟".
"نعم، إنه بيته الحقيقي. لا تقولي لي إنك لا تتذكرين هذا أيضاً".
عندما التزمت الصمت، أطلقت أمي صيحة ساخرة صغيرة.
وقالت: "آه، يا كارين! ستصابين بالخرف قبل أن أصاب به يا عزيزتي. لقد ترك أحدهم والدك عند باب ذلك المأوى وهو طفل رضيع... أتتذكرين؟".
كلا، في الواقع لم أتذكر، فافترضت أن هذه المعلومة مدفونة بلا شك في مكان عميق في عقلي الباطن.
"إن شرحت لي قليلاً فقد أستعيد تلك الذكرى".
تمتمت قائلة: "هذا غريب! كيف يعقل ألاّ تتذكري؟ لقد تحدث عن هذا الأمر مرات عدة. من هناك يأتي اسم والدك".
"من أين؟".
"ألا تتذكرين حقاً؟ هذا مدهش!".
لكن معرفتي أن ذلك مدهش لم تقدم لي أية مساعدة.
فتذمرت قائلة: "نعم، مدهش، ولكنني نسيت. من أين أتى الاسم؟ أخبريني لكي أعرف الآن على الأقل".
"حسناً، سأشرح لك". شعرت أنها بدأت تصحو شيئاً فشيئاً. ربما صدقتني القول عندما قالت إنها لم تفرط في الشرب.
"عندما كان والدك رضيعاً، وضعته عائلته لسبب غير معروف في سلة، وتركته أمام مأوى الدراويش. حدث ذلك في نهاية شهر كانون الأول، وكان الطقس شديد البرودة. ولو أنه بقي هناك لوقت أطول بقليل لتجمد حتى الموت، ولكن الرياح الشمالية الشرقية هبت من المجهول؛ تلك الرياح التي يسمونها بويراز باللغة التركية. وبدأت الرياح تضرب باب المأوى بشدة؛ وكأنها شخص بحاجة إلى مساعدة عاجلة وملحة. سمع أحد الدراويش في الداخل صوت قرع على الباب وظن أن زائراً قد حضر، ففتح الباب ووجد الطفل الصغير داخل السلة، أي والدك بكل تأكيد. أمسك الدرويش بالطفل وأدخله إلى المأوى. وعندما سمع سكان المأوى بالقصة، اعتبروا عثورهم على الطفل فألاً حسناً. وبعد ذلك، أتى شيخ اسمه حكمت وأخذ أباك تحت

جناحه ورباه وكأنه ابنه. وقام الدراويش بتكريم تلك الرياح التي أنقذت حياة أبيك فأطلقوا عليه اسم بويراز تيمناً بها".

نعم، لقد بدأت بعض الذكريات المبهمة تعاودني؛ ليست ذكريات بالضبط بل أشبه بقصاصات من الصور راحت تمر أمام عيني. خُيّل إليّ أنني أرى ثلجاً يضرب كالسوط في مهب الرياح العاتية، ووالد الطفل الذي غطّى وجهه خجلاً من أن يعرف الناس بفعلته، واتقاء من الثلج والرياح على حدٍّ سواء. ذلك هو الوالد الذي تخلى عن طفله في هذا العالم عديم الرحمة، وهو نائم في سلته وغافل عن عجزه. وخيل إليّ أنني أرى تلك الرياح الجنونية وهي تقرع على الباب بكل قوتها رغبة منها في إنقاذ الطفل، أو ربما غضباً من الشر الذي وجد ذلك الرجل في نفسه الجرأة على ارتكابه. إنها الرياح التي أنقذت بويراز الصغير فوهبتني الحياة بدوري. تخيلت صورة ذلك الدرويش بوجهه المتهلل وهو يفتح الباب ويعثر على الطفل داخل السلة عند قدميه...

علقت قائلة: "لا بد أنه شعر بالاستياء عندما كبر واكتشف ما حدث له".

اعترفت أمي قائلة: "هذا محتمل، ولكنني لم أره قلقاً حيال هذا الموضوع. في الواقع، أظن أنه كان فخوراً بهذه القصة؛ إذ إن هجر أحدهم طفله أمام ملجأ تصرف فظيع بكل تأكيد".

"حسناً، لقد تخلى عنا أيضاً في نهاية المطاف".

ما كان ينبغي عليّ أن أقول هذا لأمي وهي في حالة الحزن تلك. ولكن، زل لساني، وساد صمت عميق وأجوف.

"نعم، بكل تأكيد. تباً له".

التزمت الصمت؛ ليس لأنني أردت ذلك، ولكن لأنني لم أعد أعرف ما يجدر بي قوله.

تابعت أمي كلامها وهي تتنشق: "حاولي ألاّ تفكري بهذا كثيراً". ها قد دفعت أمي لذرف الدموع! قالت أمي: "لا تتحدثي عن أبيك بسلبية. فأنا واثقة أن لديه أسبابه الخاصة".

أجبتها وأنا أحاول أن أسيطر على الغضب الذي أخذ يتأجج في داخلي: "إنني واثقة من ذلك، وواثقة من أن الشخص الذي تركه أمام باب مأوى الدراويش وهو طفل لديه أسبابه الخاصة أيضاً".

"من يعرف نفسه يعرف الله"
بعد أن أنهيت المكالمة مع أمي، شعرت بالنوم يجافيني فشغّلت كمبيوتري المحمول، ودونت بعض الملاحظات عن المقابلات التي أجريتها اليوم. وبعد ذلك، شغلت المسجل، واستمعت إلى إفادة كل من سيرهاد ونزيهة. ورغم عدم وجود تفاوت كبير بين الإفادتين، لاحظت وجود شيئين مثيرين للاهتمام. الأول، أن قدير غيميليك هو من أنقذ نزيهة من الحريق. والثاني، أن فوج الإطفاء - وليس سيرهاد - هو الذي هب لنجدته بعد أن عاد إلى داخل الفندق. لم تكن هاتان الحادثتان موجودتين في إفادتيهما المكتوبتين. لذا، قررت أن أسأل قدير غيميليك عن الأمر في أثناء المقابلة التي اعتزمت أن أجريها معه في اليوم التالي؛ هذا إن تمكن من فهم أسئلتي وإعطائي أجوبة منطقية. ورغم أن الأمر قد لا يبدو مهمًّا، إلاّ أنّ التفاصيل الصغيرة التي تبدو عديمة الأهمية كهذه التفاصيل هي التي تتجمع وتساهم في حل الألغاز. أطفأت المسجل، وأغلقت الكمبيوتر المحمول، وتوقعت أن يوماً عصيباً آخر ينتظرني. شعرت أنني بحاجة إلى نيل قسط من الراحة استعداداً لليوم التالي، فأطفأت الأضواء، وأويت إلى الفراش.
عدت بذاكرتي إلى اللقاء الذي جمع بين شمس ورومي. في الواقع، وجدته أشبه بلقاء مدبر وغير عابر أو بمحض الصدفة؛ وكأنه أتى بترتيب من القدر. فقد أطلق شمس العنان لنفسه عندما ابتهل إلى الله طالباً منه أن يكشف له عن وجه أحد "أصفيائه المخلصين" وعرض رأسه ثمناً لذلك، ولكن رومي لم يبد غافلاً عن ذلك. ألم يقابل شمس قبل سنوات في دمشق ويرجوه قائلاً: أيها الشيخ الجليل، اعثر عليّ! لقد حدث لقاؤهما بفعل مصير مشترك غير قابل للتغيير، فانصاع الرجلان لمصيرهما من دون تردد، ولكن كل فصل من فصول قصتهما بدا مكتوباً، وكل خاتمة متوقع بها. فعندما وقع نظر شمس على رومي بادئ ذي بدء، امتلأ قلبه بالمحبة وبسعادة غامرة وحماسة لا حدود لها. وماذا عن رومي؟ تذكرت لمعان عيني الرجل الذي رأيته يمتطي البغل وهو مغمور بحالة من النشوة اللامتناهية حتى أكثر من شمس. أي صلة مشتركة جمعت بينهما؟ شبهت ذلك النور الذي توهج في عيني رومي بالنور الذي اعتاد أن يشع من عيني والدي عندما كان ينظر إلى شاه نسيم. لم تلمع عيناه بفعل تلك العاطفة حتى عندما كان ينظر إليّ أو إلى والدتي. ولم يمنحه أحد قط الحماسة التي كان يشعر بها لدى حديثه مع شاه نسيم. لم يعد لي أو لأمي دور في قصة حياته. ولهذا

السبب، استطاع أن يتركنا من دون أي شعور بالندم. من يدري بماذا ضحى كل من شمس وورومي في سبيل الآخر؟ أهي كيميا على سبيل المثال؟ لماذا قد يود رومي أن يزوج شمس ابنته بالتبني؟ والأهم من ذلك، كيف استطاع صوفي مثل شمس أن يتزوج فتاة صغيرة وبريئة في مثل سنها؟

أسئلة كثيرة جالت في ذهني من دون أن أجد لها إجابات. مهدت تلك الأسئلة لطريق الشك الذي بدأ يخامرني تجاه كل شيء أعرفه، وراحت تتنازع لتحتل مساحة في عقلي من دون أن تدع مجالاً لأي راحة أو طمأنينة. أدركت أن النوم سيجافيني تلك الليلة، فجلست على سريري. سمعت صوت همهمة تلفزيون من مكان ما، فخطر ببالي أن أشغل التلفزيون ليؤنس وحدتي.

مددت يدي لآخذ جاهز التحكم عن طاولة الزينة. في البداية، لم أرَ سوى ألوان مشوشة على الشاشة. وتوجب عليّ أن أنتظر دقيقة كاملة إلى أن تشكلت صورة طبيعية. لم أميز أياً من الوجوه الظاهرة على الشاشة، ولكنني ظننت أنها وجوه مطربين وممثلين وممثلات أتراك، أي مشاهير تركيا إن صح التعبير. كانوا يحاولون أن يسحبوا كأساً زجاجية من تحت هرم من الكؤوس من دون أن يسقطوا مجموعة الكؤوس. وبينما أخذ التوتر يتصاعد أكثر وأكثر، صدحت الموسيقى في الخلفية، فغيرت المحطة، ووجدت فيلم عنف تركيًّا كنت قد شاهدت أفلاماً مشابهة له عشرات المرات، لذا غيرته أيضاً. وهذه المرة، عثرت على شيء أشبه بمسلسل بوليسي، ولكن المشاهد راحت تتغير بسرعة خاطفة لدرجة أنني خشيت أن أصاب بالدوار ثانية إن واصلت المشاهدة. ضغطت على زر جهاز التحكم مرة أخرى. في البداية، سمعت صوت عزف على الناي يملأ الغرفة، ثم توضحت الصورة، فلاحظت أن مكان التصوير لا يبعد سوى مائتي متر عن مكان جلوسي الآن على السرير؛ أي في ضريح رومي. وبينما كانت الكاميرا تتوجه من مدخل الضريح إلى الحديقة بالداخل، أخذ المذيع يتلو بنبرة صوت مترنمة تناسب الجو المحيط أبياتاً من الشعر قائلاً:

أنت يا من تسبر الألغاز
هناك روح داخل الروح، ابحث عنها في قلبك
ابحث عن جوهرك داخل نفسك
أنت يا من تسبر الخفايا، ابحث عنها في كل مكان
ومع ذلك، فهي لا تحيط بك، ابحث عنها في داخلك

دخلت الكاميرا الضريح مترافقة مع تلاوة القصيدة. وفي ضوء الضريح

الذهبي، رأيت صفاً تلو صف من شواهد القبور عليها نقوش عربية بديعة. لم يعرف أحد اللغز سواهما وحدهما. تحرق الاثنان شوقاً بنار الفراق، فبحثا عن بعضهما لسنوات؛ ربما ليتشاطرا أسرارهما الكثيرة، وربما ليوحدا جزأيْ سر واحد ويتعلما الحقيقة الكامنة وراءه.

الآن، غادرت الكاميرا الضريح، وراحت تنتقل خطوة تلو أخرى في شوارع قونية المظلمة. وفجأة، توقفت وتسمرت في مكانها. بدأ الفجر بالانبلاج، فميزت المكان. إنه المكان الذي قال لي مينان إن اسمه مرج البحرين، أي مكان التقاء بحرين.

تقدمت الكاميرا إلى الأمام من جديد، وشقت طريقها بشكل متعرج عبر أحد المتنزهات. لم يكن متنزهاً كبيراً، ولكنه بدا واسعاً وشرحاً. خطر ببالي أنني رأيته من قبل بينما كانت الكاميرا تقوم بجولة لتصور مسجداً داخل المتنزه. نعم، ذلك مسجد شمس التبريزي، وذاك ضريحه؛ حيث بدأت كل الأحداث التي صادفتها. وعندما بدأت الكاميرا تقترب من المسجد، علق المذيع بصوت جياش بالعواطف.

"لم يفارق شمس رومي قط. فاكتسبت مدينة الصالحين درويشاً عظيماً آخر". بدا أنّ الصورة الظاهرة على شاشة التلفزيون تتكسر. وعندما صفت من جديد، ظهرت صورة رجل متسربل برداء أسود يقف عند باب المسجد. تابع المذيع كلامه وقال: "عمت البهجة الناس، وانتشت المدينة برمتها فرحاً".

صاح الرجل ذو الرداء الأسود وهو يقحم قبضة يده اليمنى عبر الهواء: "هذا محض كذب!". ها قد ظهر شمس، بطل كوابيسي في قونية!

زمجر الرجل قائلاً: "إنهم يكذبون. لا تصدقيهم. هذا ليس صحيحاً!". ونظر إلى عيني بإمعان. كيف تمكن من فعل ذلك؟ لقد تمكن من الظهور في برنامج تلفزيوني يشاهده ربما ملايين الناس ليخاطبني بشكل مباشر. نسيت على الفور كل الاستنتاجات التي توصلت إليها للتو عن ألغاز الدماغ البشري وعن سبب رؤيتي هذه الأشباح. في الواقع، لقد أزاح قلبي عقلي جانباً تاركاً مساحة فارغة تحت إمرة عقلي الباطن، وهيمن عليّ الفضول أكثر من الخوف. ولهذا السبب، أصغيت بعناية لكلمات شمس.

واصل شمس كلامه وهو متجهم: "لم يبتهج أحد؛ لا السلطان ولا الجنود ولا العلماء، وبالتأكيد ليس الناس. فقد كرهوني من اللحظة التي رأوني فيها. كرهوني جميعاً وأرادوا طردي من قونية. كانوا سيقتلونني من دون تفكير لو تسنت لهم الفرصة لقتلي. هذا كان حال الناس جميعاً باستثناء السيد وابنه بهاء الدين".

سألته وأنا مندهشة من جرأتي: "من هو السيد؟".
"ومن يكون السيد سوى رومي؟".
"من أطلق عليه لقب السيد؟".
"لست أنا من فعل ذلك، ولكنني لم أمتنع عن دعوته بذلك اللقب الذي أطلقه عليه أبوه لأنني أحببته أيضاً". وفجأة، بدا مستغرقاً في التفكير وكأنه يتذكر الماضي، وظل واقفاً بصمت أمام المسجد لبعض الوقت.
سألته وصوتي مفعم بالتعاطف: "لماذا؟ لماذا لم يتقبلك الناس؟".
تجهم وجهه الداكن بكآبة وكأن تلك الأحداث وقعت صباح اليوم.
"لأنهم لم يفهموني. وكل ما لا يفهمه أمثال أولئك الناس يعتبرونه شريراً. فقد ظن العلماء أنني سآخذ منهم، في حين أنني أردت في الواقع أن أجعل من رومي سلطان العالم؛ ليس في حياته فقط كوالده بل على طول الزمان...".
"وماذا عن رومي؟ ماذا قال لهم؟".
"السيد؟ كان مخلوقاً من طبيعة مختلفة وطينة أكثر ليونة. فدمه أعذب من مياه البحيرات، وأنفاسه ألطف من النسيم. كان يملك الأمل ولكن ليس الريبة، والتسامح وليس الغضب، والمحبة وليس الكراهية. وعندما رأى صورة نفسه في روحي، عجز عن السيطرة على انفعالاته فأطلق لها العنان؛ كراية نشرها لترفرف في السماء بعد أن احتفظ بها مطولاً في صندوق بعيداً عن الأنظار. وفي اللحظة التي لامست فيها الرياح تلك الراية، راحت تخفق بحماسة وطرب. لم يعد يأبه البتة للقصر أو العلماء أو الشعب، وحزم حكمته وتعقله ورمى بهما في هاوية لا قرار لها، فتحول جسد رومي بأكمله إلى قلب نابض بالأحاسيس. ولهذا السبب، باتت كل كلمة من كلماته قصيدة وكل حركة من حركاته جمالاً".
"وماذا عن طبيعتك أنت؟".
قبل أن يجيب عن سؤالي، ربت على لحيته وهو يمعن في التفكير ثم قال: "لم يتصف السيد بشيء سوى الجمال، في حين أنني أتسم بكل من الجمال والقبح، ولكنه رأى الجمال فقط وتجاهل القبح. لم أنافقه قط، بل قدمت له كلاً من جانبي السيئ والجيد لكي يعرفني حق المعرفة. إنهم يسمون المكان الذي التقينا فيه مرج البحرين. وهكذا، تم اللقاء بيني وبين رومي؛ بينما حافظ كل منا على جوهره وطبيعته الخاصة. إن أردت أن تدركي الفرق في الطبيعة بيني وبين رومي، فعليك أن تنظري إلى والد كل منّا أو إلى علاقتنا بهما. فقد كان رومي يجل والده ويقدره، ويصدق كل كلمة

يتفوه بها، ويعتبر كل كلمة يكتبها قانوناً ودستوراً، ويعتبره مثله الأعلى. في حين أنني أدركت حتى قبل بلوغي أن والدي غير كفؤ. فلو أنني شعرت مثله وتصرفت مثله لأصبحت مجرد مسلم تبريزي عادي. نعم، لقد كان والدي رجلاً عادياً، وحبة رمل بين ملايين حبات الرمل في الصحراء. لم يفهمني طوال حياته، بل تحيز ضدي بسبب اختلافي عنه".

بدأ غرور شمس يثير غضبي، فقلت له منتقدة: "إذاً، فقد قللت من شأنه".

ضاقت عيناه بمكر، وقال: "إن قصتي أشبه بقصة الإوزة التي فقست من بيضة الدجاجة. لم أقلل من شأنه، بل حاولت أن أشرح له موقفي وأبين أنني مختلف عنه ليس إلا".

اكتسب صوته نبرة جدية مرة أخرى، وواصل كلامه بهدوء؛ ليس كأستاذ بل كشخص أسيء فهمه، أو كشخص أدرك أن الآخرين لم يفهموه فهماً كاملاً ولكنه بدأ يتقبل تلك الفكرة.

"الجميع يظنون أننا بسيطان وهادئان، ولكن طبيعتي معقدة. فالطينة التي خلقت منها قاحلة؛ لا يمكن لكل النبتات أن تنمو فيها، ودمي حامض كالخل، وأنفاسي جارفة كالرياح التي تهب على جرف صخري. هناك شك أكثر من الأمل في قلبي، وغضب أكثر من التسامح. ورغم أنني لا أضمر لأحد عداء لا مبرر له إلا أنني أيضاً لا أكن له عاطفة من دون سبب وجيه. إنني أقف إلى جانب الحقيقة والواقع. ولهذا السبب، أعتقد أن أولئك الذين اكتسبوا الامتياز هم الذين يستحقون محبتنا؛ لأنها أغلى وأنفس من أن نقدّمها لأولئك الذين لم يكتسبوها بجهدهم".

"ترى، هل كسب رومي هذا الامتياز؟".

أجاب شمس من دون أي تردد: "ما الذي يعنيه الكسب هنا؟ لقد منحته محبتي واحترامي طواعية منذ البداية. حدث ذلك بشكل طبيعي؛ كسنبلة القمح المنحنية، وكالرضيع الذي ينجذب إلى حليب أمه. إنها حياة تقودها حياة أخرى، ولكن السيد لم يدرك ذلك على الفور بل عجز عن فهمه".

"وماذا عنك؟ هل فهمته منذ البداية؟".

ابتسم وتألقت عيناه السوداوان الفاحمتان وقال: "لم أدرك ذلك كل الإدراك إلى أن التقيته. وعندما رأيته، عرفت الحقيقة. ولكن، قبل ذلك لم تراودني سوى رؤى وصور غامضة وألوان داخل ألوان وروائح ممتزجة بروائح أخرى وأصوات مختلطة بأصوات أخرى. ولكنني لم أعرف أين اختفت هذه الأشياء، ولا بأي صورة حدث ذلك. وعندما رأيته، فهمت كل شيء. أدركت عندما

رأيت رومي أن ما بحثت عنه طيلة تلك السنوات هو في الواقع نفسي".
"هل رأيت نفسك فيه؟".
قال لي بلهجة يأس: "إنك لا تفهمينني، أليس كذلك؟". ضاقت عيناه مرة أخرى، وتحولتا إلى بركتين متلألئتين في وجهه الطويل الداكن. وبعد ذلك، أصبحت تانك البركتان البراقتان كل ما يمكن رؤيته على الشاشة. لم يعد بوسعي أن أرى شفتيه وهما تتحركان، ولكنه قال: "إن أردت أن تعرفي، فعليك أن تأتي معي".
"إلى أين؟".
انفتحت الشاشة ووقف شمس أمامي وهناك ابتسامة لطيفة مرتسمة على وجهه النحيل.
"تعالي معي. هل نسيت ما قلته لك عندما التقينا في وقت سابق؟ لكي تعرفي الحقيقة، لا بد أن تعيشيها بنفسك. ويجب عليك في سبيل تحقيق هذا الهدف أن تتحلي بالشجاعة".
ها هو يدعوني مرة أخرى لأحل محله وأعيش تجاربه. لم أقوَ على رفض عرضه، فمددت يدي، وأنا مأخوذة بكلماته، وأمسكت بيده القوية التي اسمر لونها من جرّاء التعرض لأشعة الشمس لسنوات طويلة.

"من يخضع لشهواته،
يخضع للشياطين"
عدت مجدداً إلى تلك الحديقة التي أضعت نفسي فيها وأنا داخل جسم رجل. انبعثت من حقل الزهور بجانب المبنى القرميدي عطور أزهار الزنبق والخزامى والورود وكأنها تريد أن تؤكد أن العالم مكان جميل. وفي وسط الحديقة، رأيت بركة محاطة بحجارة بيضاء وجوفها مبلط بألواح خزفية زرقاء. وفي وسط البركة، انعكست أشعة شمس الظهر بشكل جميل. وعند أسفل سور الحديقة، راحت أشجار الحور الباسقة تتمايل يمنة ويسرة باختيال، وبدت خلفها شجرة جوز ضخمة. ترى، من أنا؟ هل أنا كارين القادمة من لندن أم شمس التبريزي؟ زودتني الصورة المنعكسة على صفحة الماء في البركة المرصوفة بالخزف بإجابة كافية.
"إن هذه الشمس أصغر سناً بسبعة قرون من شمسكم، وهذا الجسد أكبر من جسدك بسبعمائة سنة".
نظرت إلى البركة ملياً، ورأيت انعكاس صورتي المتسربلة بالسواد. وقبل أن أنسى كل شيء عن كارين، سألت صورتي التي تظهر على صفحة الماء: "أهذا بيت رومي؟".
أجابت صورتي المنعكسة على صفحة الماء المتموج بلطف: "كلا، بل هذا بيت الله. فهذا المكان - كخلية النحل، وصخرة النسر، ووكر النمل، وجحر الدب، وقصر السلطان - ملك للخالق عز وجل. قدم الله هذا البيت منحة بيد السلطان إلى أفراد عائلة السيد ليستخدموه طالما هم على قيد الحياة؛ ليس كبيت يعيشون فيه فقط، بل كمدرسة دينية يعلمون بها العلوم الشرعية".
التفت لأنظر إلى البيت. لم ألاحظ من قبل كم هو كبير وواسع. تساءلت عن عدد الغرف الموجودة فيه. كانت غرفة السيد تقع في الطابق العلوي، ويقيم فيها مع سيدة جميلة من أصل يوناني اسمها كيرا اعتنقت الإسلام قبل أن تتزوجه. أما الغرف الأخرى، فقد شغلها الأطفال والخدم. أثارت رائحة الطعام القادمة من المطبخ في الطابق السفلي شهيتي، فتراجعت إلى الوراء لكي أسيطر على جوعي. وبينما كنت أتراجع مبتعداً عن المطبخ، كدت أصطدم بشخص ما.
قلت له وأنا أتجنبه: "أفسح الطريق". ثم نظرت، ورأيت ابن السيد الأوسط علاء الدين، وخلفه كيميا التي أزهرت وازدادت جمالاً يوماً بعد يوم. إنها

كيميا التي اعتادت - رغم أنها ليست من دم السيد ولحمه - أن تمشي في أنحاء البيت رافعة رأسها، وأن تنظر إلى عيني المرء مباشرة من دون وجل أو تحفظ أو ارتباك. ترى، ما الذي جمع بينها وبين هذا الصبي؟

وبخت علاء الدين قائلاً: "تمهل في مشيك. لقد كدت تلقيني أرضاً في وسط الباحة".

قبل أن يتكلم، رمقني علاء الدين بنظرة شرسة كنظرة حيوان بري. ولو لم تكن كيميا معه لتجاهلني بلا شك، ولكنْ من الواضح أنه لم يسر لتعرضه للتوبيخ أمام الفتاة.

أجابني بحدة قائلاً من دون أي إحساس بالتواضع: "لم أرك. وأنا أيضاً كدت أسقط على الأرض".

كان علاء الدين صبياً لا يخضع لأحد، ويتجاوز حدوده دائماً، ولا يطابق القالب الذي خلق فيه. أما أنا، ومع أنني لم أخشَ في حياتي أن أنظر إلى عيني الشيطان الحمراوين الناريتين، فقد ارتعت من النظرة الحادة التي بدت في عيني ذلك المراهق. لذا، صحت متظاهراً بالغضب لأحاول التغلب على خوفي: "لماذا تجري هكذا في أنحاء المنزل وكأنك جندي منغولي يسرع ليبلغ قائدهُ بالأخبار؟ إنني أتوقع منك اعتذاراً".

فقال الفتى بضغينة: "اعذرني، فلديّ درس في مدرسة الشيخ الكاراتي، ويجب عليّ أن أحضره".

ثم انطلق مسرعاً متعمداً الجري وكأنني لم أحذره، بينما أسرعت كيميا في أعقابه. لم يكن ذلك الفتى يطيقني. ولم تخبُ شرارة العداء التي تبدو في عينيه تجاهي منذ اليوم الأول الذي وصلت فيه. توجب عليّ أن ألقنه درساً، ولكنني احتفظت بهدوئي في تلك اللحظة، وأنا أتمتم لنفسي: ليلهمني الله الصبر، ثم مضيت في طريقي. وقبل أن أمشي بضع خطوات، صادفت ابن السيد الأكبر بهاء الدين. إن كان علاء الدين هو النار، فبهاء الدين هو الماء. وإن كان علاء الدين هو العاصفة، فبهاء الدين هو الهدوء. وإن كان علاء الدين هو الغضب والتمرد، فبهاء الدين هو السلام والخضوع.

قال وهو يمسك بيدي ويقبلها: "سامحني يا شيخي. إن أخي فتى جامح لا يقدر قيمة الناس. ورغم كل ما فعله والدي، فذلك الفتى لم ينل كفايته من التهذيب بعد. سامحه إن أخطأ في حقك، ولا تأخذ كلامه على محمل الجد. لا يتعلق السبب بك أنت بل بطبيعة أخي المعيبة".

احمر وجهه ذو اللحية الخفيفة بحمرة خفيفة؛ وكأنه تفاحة تبدأ بالنضوج. لمست بلطف خد هذا الشاب ذي الوجه المحبب والروح الطاهرة، والذي

ينطق بأعذب الكلمات وقلت: "إنني أبحث عن أبيك. هل تعرف أين هو؟".
"إنه في غرفته يا شيخي. في منتصف الليلة الماضية ذهبتُ إليه، لم تكن هناك فسأل عنك. وحين أدّيت صلاة الفجر لم تكن موجوداً أيضاً فسأل عنك. والآن، أخذت له خبزه وماءه فسأل عنك مجدّداً. لذا، أظن أنه يتساءل عن مكانك في هذه اللحظة".
استدرت وتوجهت إلى غرفته، وهي أصغر الغرف وأشدّها ظلمةً وتواضعاً، ولكنها أشدها تباركاً أيضاً في كل ذلك البيت الكبير. تبعني بهاء الدين إلى غرفة أبيه، فتوقفنا أمام الباب.
قلت له: "انتظر في الخارج، فأنا أريد أن أتحدث إلى أبيك".
حنى الفتى رأسه، وضم يديه إلى بعضهما، وقال: "كما تشاء يا شيخي".
تركته في الخارج، ودخلت عبر الباب الخشبي المقوس، فوجدت رومي جالساً على الأرض متصالب الساقين أمام حامل الكتب وهو يقرأ.
"سلام الله عليك".
حالما رآني، اعتدل جالساً وقال: "وحب الله لك".
تقدم مني وحاول أن يقبل يدي، ولكنني تغلبت عليه وقبلت يده أولاً. ومع ذلك، لم يستسلم بل لمس يدي بشفتيه.
قال ببهجة: "الحمد لله أنك أتيت يا سيدي. الحمد لله أنك هنا اليوم".
ألقيت نظرة خاطفة على حامل الكتب فرأيت عليه كتاباً بعنوان المعارف، وهو الكتاب الذي ألفه والده سلطان العلماء. وكنت قد طلبت منه من قبل ألاّ يقرأ ما كتبه والده، ولكنني اكتشفت الآن أنه لا يزال يقرأه. أدركت أن هذه العادة من أسوأ أنواع الإدمان، ويصعب التخلي عنها. ولكن، كيف يمكن لدرويش لا يستطيع التغلب على إدمانه أن ينتصر على رغباته. نظرت إلى عيني رومي وكررت عليه ثلاثاً: "لا تقرأ! لا تقرأ! لا تقرأ!".
شحب وجهه فجأة كوجه طفل صغير، وخيم الصمت على غرفته المفعمة بالتجربة والمعاناة كالظلام الدامس، وانهار الندم كجبل شامخ على كتفي رومي، فأغلق غلاف كتاب المعارف بيدين مرتجفتين، ثم وضع الكتاب على الرف بجانبه. نظرت إلى هناك ورأيت المزيد من الكتب: كتاب محي الدين بن عربي فصوص الحكمة، وكتاب أبي الفرج الأصفهاني كتاب الأغاني، وكتاب أبي حامد الغزالي إحياء علوم الدين، وكتاب كليلة ودمنة لابن المقفع، وكتاب ألف ليلة وليلة. ورغم أنني لم أمانع قراءة هذه الكتب، إلا أنني

عندما رأيت ديوان الشاعر المتنبي الذي ادعى النبوة، بدأت الشكوك تنتابني. أيمكن أن أكون مخطئاً؟ هل من الممكن أن أكون قد أخطأت في تحديد هوية الشخص الذي وعدت به رفيقاً لروحي؟ أليس محمد جلال الدين رومي هو الصفي الذي اختاره لي الله؟ هل يعقل أن أنخدع بوهم وأنجرف معه كورقة شجر جافة في مهب الريح؟

رأى رومي ملامحي تكفهر وأنا أنظر إلى ديوان المتنبي، ولاحظ التغير في روحي، فارتجف ذقنه كالطفل، وبدا عاجزاً جداً لدرجة أن قلبي كاد يهتز أيضاً، ولكنني لم أسمح لقلبي بأن يلين ولا لكبريائه بأن تستيقظ.

سألته بنبرة حادة: "إلى متى ستظل تقرأ كتب الآخرين يا محمد جلال الدين؟ إلى متى ستظل تبحث عن حقيقة نفسك في كلمات غيرك؟ حتى لو كانت كلمات عالم ديني كأبيك، أو أبيات شاعر يصوغ كلماته بمهارة كالصائغ، أو كلمات عالم يشيد أبنية من الكلمات على لوح رقيق من الجليد في روحك، دعنا ننسى هذه الكلمات المهترئة ونتركها للماضي. فأنت لن تستطيع أن تكتشف حقيقة نفسك إلا بكلماتك الخاصة".

فناشدني قائلاً: "ولكن...". ثم سكت وشفتاه منفرجتان قليلاً.

"لا مجال للاعتراض هنا يا جلال الدين. لا مجال للتردد والتعثر. لا وقت لهذا الآن. فقد انتهى الليل وبزغ فجر يوم جديد، وظهر طريق سيتعين عليك أن تجتازه الآن أو ألاّ تجتازه أبداً".

دمعت عيناه المرهقتان من قلة النوم، وارتسمت نظرة عذاب على وجهه الشاحب. وفي تلك اللحظة، بدا لي في غاية البراءة والتقى، ولكنني كبحت الإعجاب الذي تولد في داخلي متذكراً ما يجب عليّ فعله، وحصنت نفسي بالصرامة. غير أنني لم أتمكن من السيطرة على نفسي، ولم يعد بوسعي أن أنتظر أكثر من ذلك. فقد آن أوان الشمس وآن أوان القمر وآن أوان الأرض أيضاً.

فقلت وأنا أهبط قرب قدميه: "أنت الشيخ الحقيقي وأنت الصديق الحقيقي الذي اختاره لي الله. أتوسل إليك أن تقبلني تلميذاً عندك".

وفي الحال، خر رومي راكعاً على الأرض، وأمسك بيديّ وقبلهما. انهمرت الدموع على خدي، فقبّل تلك الدموع ثم شدني لأنهض على قدمي، وقال: "ليس الشيخ من يؤمن، بل من يجعل الآخرين يؤمنون. وليس من يشرح، ولكن من يدل على الشيء بسلوكه. وليس من يعلم، ولكن من يكشف النقاب. وأنت كشفت النقاب عن عيني، وأريتني الجوهر الفعلي لحقيقتي. وهكذا، فأنت الشيخ والأستاذ والصديق الحقيقي والحقيقة نفسها...".

"أيدي اللصوص تقطع من الأرساغ"
عندما فتحت عيني، رأيت فرساناً أتراكاً يلوحون بسيوفهم وفوق رؤوسهم رايات ترفرف عليها ثلاثة أقمار. كان الفرسان يطاردون موكب خيالة بيزنطيًّا يحمل راية رمز النصارى الديني. ورغم أن الأمر استغرق مني بضع دقائق لأستجمع أفكاري، إلا أنني استوعبت الموقف في نهاية المطاف. فقد استغرقت في النوم والتلفزيون لا يزال يعمل. عدلت جلستي، بينما أخذ الفرسان الأتراك يصيحون صيحة الحرب الإسلامية: "الله أكبر... الله أكبر...". راحت الجياد تعدو وهي تزبد، وصوت حوافرها يتردد صداه في أنحاء الغرفة. فوجئت لأنني رفعت صوت التلفزيون إلى هذه الدرجة قبل أن أنام، فكتمت الصوت، وضغطت على زر الإطفاء في جهاز التحكم الذي كان في حضني، ولكن الضوضاء لم تتوقف. فاكتشفت أن صوت وقع حوافر الخيل ليس ما يتردد صداه في أنحاء الغرفة، بل صوت القرع على الباب. لا بد أنني تركت الصوت مرتفعاً جداً لدرجة أن النزلاء الآخرين أتوا إلى باب غرفتي ليحتجوا على الإزعاج. نهضت مسرعة، وأشعلت الضوء، ورتّبت هندامي قليلاً وأنا أنظر إلى المرآة ثمّ توجهت إلى الباب. سمعت في الجانب الآخر صوت رجلين. ميزت الصوت الأول على الفور، وهو صوت موظف الاستقبال المزعج.
"إنها موجودة، أنا واثق من هذا. فقد عادت إلى الفندق في منتصف الليل تقريباً. استمع... اختفى صوت التلفزيون. لا بد أنها سمعتنا".
صاح الصوت الآخر قائلاً: "من الأفضل أن تكون قد فعلت ذلك. إنني لا آبه بخصوصية الزبائن، لذا سوف أحضر مفتاحاً إضافياً وأدخل على الفور إن اقتضت الضرورة".
فتحت الباب قبل أن تتسنى للموظف الفرصة لكي يجيب، ورأيت أمامي ثلاثة أشخاص. فإلى جانب الموظف، رأيت رجلاً فظاً بحوزته جهاز لاسلكي وامرأة شابة جذابة شعرها معقوص على هيئة كعكة. زمجر الرجل قائلاً: "الشرطة، افتحي الباب. يجب أن نتحدث إليك".
هذا ما لم أتوقع حدوثه قط. ما الذي تريده الشرطة مني؟ فتحت الباب محاولة الظهور بمظهر هادئ.
"نعم، ما الذي يمكنني فعله من أجلكم؟".
واصل ضابط الشرطة الفظ الزمجرة بصوت مرتفع، وقال بصوت موح بالتوبيخ: "إننا نحاول الوصول إليك منذ بعض الوقت يا سيدتي".

فقلت متصدية له: "كارين. اسمي كارين غرينوود".
تعمدت أن أجعل صوتي فاتراً وجافاً وواثقاً وكأنني أريد أن أجعله يفهم أنه يتعامل مع شخص لا يمكنه التصرف معه كما يحلو له.
سحب بطاقة من جيبه ونظر إليها ثم قال: "أليس هناك كيميا أيضاً؟".
"أرجو المعذرة؟".
فقال باستظراف: "كيميا. تذكر هذه البطاقة هنا أن الاسم هو كارين كيميا غرينوود. لا أريد أن أتحدث مع الشخص الخطأ".
"حسناً إذاً. اسمي كارين كيميا غرينوود".
فتغيرت ملامح وجهه الذي يبدو عليه الإنهاك وهو يتظاهر بالاحترام، وقال بصوت يوحي بالسخرية: "وأنا المحقق راغب. هل يمكننا الدخول من فضلك؟ لا يمكننا أن نستمر بالكلام هنا عند الباب. فقد سبق أن أزعجنا بقية النزلاء بما يكفي".
فصددته قائلة: "في بادئ الأمر، أود أن أعرف السبب".
قال وهو يبدو منزعجاً من طلبي تفسير سبب حضوره: "بسبب عملية السلب والأشياء التي سرقت من حقيبتك، هذا هو السبب".
"ألم يسعك الانتظار حتى الصباح؟".
حدق إليّ بنظرة خالية من التعبير، وهو لا يبدي أي نية للإجابة عن السؤال هذه المرة. تملكني القلق من أن يكون ثمة شيء ما قد حدث من دون علمي. فكرت في أن أطلب منه انتظاري في الطابق السفلي، ولكنني تساءلت في سرّي: وما الذي لديّ لأخفيه؟ لذا قلت له باستياء: "حسناً، ولكن أمهلني دقيقة لأرتب غرفتي".
"لن تهربي، أليس كذلك؟".
لا بد أنه اعتبر نفسه طريفاً. لذا، بدلاً من أن أجيبه، رمقته بنظرة صارمة وأغلقت الباب. لم تكن غرفتي فوضوية بالفعل، ولكنني احتجت إلى بعض الوقت للتفكير. ما الذي حدث وجعلهم يحضرون إلى غرفتي في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟ ربما كانت هذه هي الطريقة التي تتعامل بها الشرطة مع القضايا في هذه البلاد. لم أستطع أن أجد تفسيراً لتصرّف الشرطة؛ ولكن هذا كل ما تمكنت من التوصل إليه. ملست السرير قليلاً، ثم التقطت السترة والسروال اللذين رميتهما في الليلة الفائتة وعلقتهما. وقبل أن أعود إلى الباب، نظرت إلى وجهي وشعري في المرآة مرة أخرى، فوجدت هالتين سوداوين تحيطان بعيني وتعبير ذهول على وجهي لم أتمكن من محوه.

"تفضلوا بالدخول".
تمتمت الشابة وهي تشعر بالإحراج من اقتحام المحقق راغب للمكان كالثور قائلة: "نعتذر عن إزعاجك في هذا الوقت المتأخر من الليل".
شعرت أنني مجبرة على الرد على لباقتها بمثلها، فأجبتها قائلة: "لا بأس. فأنتما تقومان بواجبكما فحسب".
نظر راغب إلينا باهتمام وكأنه يسأل عما يجري، وقال وهو لا يزال يبتسم بسخرية: "نسيت أن أعرفكما على بعضكما. إنها المفتشة زينب". ونظر بتنازل إلى زميلته، ثم قال: "إنها أكثر تحضراً مني، فهي من إسطنبول".
سألتها متجاهلة "راغب": "هل هناك أية تطورات في قضيتي؟".
كان السؤال موجهاً إلى زينب، ولكن "راغب" قاطعها بكل فظاظته المعهودة ولم يسمح لها بأن تجيب، وفتح موضوعاً لا علاقة له بسؤالي على الإطلاق. "إن لغتك التركية متقنة جداً يا سيدة غرينوود. أين تعلمت التحدث بلغتنا بهذا الاتقان؟".
وبينما كان يقول هذا، نظرت عيناه إلى عيني للحظة واحدة فقط، ثم بدأتا تجولان في أنحاء الغرفة وتتفحصانها بدقة. تمنيت لو أنني لم أسمح لهما بالدخول، ولكن الأوان فات على تغيير رأيي الآن، فأجبته قائلة: "في لندن".
تلوت قسمات وجهه بحماسة مبالغ بها، وقال: "في لندن! هل يتحدثون اللغة التركية في لندن؟".
ما هذه السخافة؟ هل يظن هذا التافه نفسه جذاباً؟ شرحت له من دون أن أفسح له مجالاً للتأثير بي: "كان والدي يتحدث التركية في البيت".
"لماذا؟ هل والدك مدرس للغة التركية؟".
"كلا، بل إن والدي تركي".
ردد بإعجاب قائلاً: "تركي!". ثم التفت إلى زينب التي راحت تتفحص الغرفة، وقال: "هل سمعت هذا يا زينب؟ إن السيدة غرينوود تركية".
لم تنتبه زينب كثيراً لما قاله راغب، بل واصلت تفحص الغرفة. وعندما لم يحصل راغب على رد الفعل الذي توقع الحصول عليه من زميلته، تابع التحدث إليّ.
وقال: "تعلّمك لغتنا أمرٌ رائع".
أجبته ببغض قائلة: "شكراً لك".
"من الواضح أنك موهوبة". ولكنه لم يعد ينظر إليّ، بل أخذ يحاول أن يرفع غطاء الحقيبة المفتوحة بجهاز اللاسلكي في يده. استعددت للتدخل في

حال بدأ يفتش ملابسي، ولكنه تركها والتفت إليّ وقال: "دعينا نفي والدك حقه من المديح. فقد علمك جيداً. أقسم إنك تتحدثين التركية كأي تركي". وتغيرت ملامحه وهو يتقدم خطوة نحوي، وقال: "ولكن، من الصعب على المرء أن يوقظك. فأنت تنامين كالصخرة، يا كيميا!". شممت رائحة السجائر تفوح من أنفاسه، وانفرجت شفتاه الرقيقتان الشاحبتان عن الابتسامة المداهنة نفسها، وتابع كلامه قائلاً: "إنك لا تمانعين بأن أدعوك باسم كيميا، أليس كذلك؟ بالنسبة إلى سيدة تتحدث اللغة التركية بهذه البراعة، فأنا واثق من أنك ستشعرين بالفخر حين يدعوك الناس باسمك التركي".

"لا أظن ذلك. غير أن كيميا ليس اسماً تركياً بل عربياً".

ضحكت زينب بصوت مرتفع، فرمقها راغب بنظرة غضب ثم كبح شعوره بالانزعاج وعاود الالتفات نحوي.

"نعم، أظن أنك محقة. إذاً، أنت تعرفين أنه اسم يستخدمه المسلمون، أليس كذلك؟".

جميل جداً! الآن سيسألني عن دیانتي!

قطعت عليه الطريق قائلة: "لا مشكلة. يمكنك أن تناديني باسم كيميا، فهو الاسم الذي اعتاد والدي أن يناديني به".

لم أكن واثقة من صدق نظرة الاستحسان التي رأيتها في عينيه.

"يبدو لي أن والدك رجل صالح. لو أن جميع الأتراك الذين يعيشون خارج البلاد مثله، لأصبح العالم مكاناً أفضل اليوم".

قاطعته زينب التي شغلت نفسها بتفحص الملابس المعلقة على المشجب، وطرحت عليّ سؤالاً: "يوجد طين على كم هذه السترة يا سيدة غرينوود؟ هل تعاركت مع أحد؟".

خمنت قائلة: "لا بد أنها تلطخت بالطين عندما تعرضت للهجوم. أظن أنني وقعت عندما انتزع المهاجم حقيبتي".

اكتفت زينب بهذا التفسير، ولكن "راغب" تدخل على الفور وكأنه ضبطني متلبسة بشيء ما.

"ماذا تعنين بقولك إنك تظنين ذلك؟ ألا تعرفين أنك سقطت؟".

فأجبته وأنا مندهشة من شدة صبري: "لقد غبت عن الوعي في اللحظة نفسها التي انقطع فيها التيار الكهربائي، لذا لا أتذكر بقية الأحداث. وبحلول الوقت الذي صحوت فيه كان كل شيء قد انتهى".

"أتعنين أنك لم تري مهاجمك شخصياً؟".

"كلا، لم أر أحداً".

"حسناً، هذا وضع سيئ للغاية. ينتزع رجل ما الحقيبة من يدك ولا تلاحظين شيئاً!". ثم التفت إلى زميلته من دون أن يمنحني فرصة للرد وقال: "ما رأيك بهذا يا زينب؟".
رمقت الشابة رئيسها بنظرة خالية من التعبير. من الواضح أنها لا تأبه لأمره إطلاقاً.
حاولت استغلال فترة الصمت الوجيزة وتابعت شرحي المتوتر قائلة: "حدث كل شيء بشكل مفاجئ. قلت لك إنني غبت عن الوعي. لماذا تطرح عليّ هذه الأسئلة؟".
"حافظي على هدوئك. لا داعي للاستياء. في الواقع، إن كان هناك من يجب أن يستاء فهو نحن. فقد انتظرنا قرب بابك لوقت طويل جداً".
"منذ متى يعتبر الإرهاق جريمة؟".
راح يتأملني من الأعلى إلى الأسفل ثم قال: "في الواقع، لم يخطر ببالنا شعورك بالإرهاق عندما انتظرنا قرب باب غرفتك. ومع ذلك، فقد أثرت شكوكنا. أليس هذا صحيحاً يا زينب؟".
لم تجب زينب. فقد ذهبت إلى الحمام ربما لتتجنب صراخ هذا الرجل المزعج.
"لماذا لم تفتحي الباب حقاً؟ لو كنا نعتبرك مشتبهاً بها، لظننا أنك تحاولين أن تخفي بعض الأدلة".
نلت كفايتي من كلامه المزعج. إذ يحاول الرجل أن يلصق بي تهمة من لا شيء.
فقلت له من دون تفكير: "أي مشتبه بها؟ وأي أدلة؟ ما الذي تتحدث عنه؟".
سر المحقق من استيائي، وارتسمت نظرة سرور غامر على وجهه.
"سأدخل الموضوع مباشرة يا عزيزتي. لا داعي لأن تثيري أعصابك".
لم تكن لديّ نية للتراجع عن موقفي، فقلت: "بداية، لست عزيزتك، لذا انتبه من فضلك إلى طريقة كلامك معي. ثانياً، لست المجرمة هنا ولكنني الضحية. أتتذكر هذا؟ أنا من تعرضت للهجوم! وقد سُرقت حقيبتي مني...".
لم يعد المحقق يصغي إليّ. فقد تراجع إلى الخلف بعض الشيء في أثناء كلامي؛ ليس لأنه شعر بالخجل مني كما أدركت لاحقاً، وإنما لأن الجزمة المتروكة عند طرف السرير لفتت انتباهه.
قال لي من دون تفكير وهو يتفحص جزمتي: "أتدرين؟ لقد تعرضت لهجوم، فسرقت حقيبتك ونقودك وخاتمك...".

"وجواز سفري".
وقف باعتدال وهو يفكر بما قلته، ثم التفت إلى زينب وهي تخرج من الحمام وسألها:
"هل من جواز سفر بين الأغراض التي تمت استعادتها؟".
وفجأة، تلاشى كل توتري وسخطي، وقلت: "ماذا؟ هل عثرتم على أغراضي؟".
فقال بابتسامة أخرى مصطنعة: "عثرنا عليها بالفعل. عثرنا على ثلاثمائة وسبعين جنيهاً استرلينياً، وثمانمائة وعشرين ليرة تركية، وخاتم فضي ذي حجر بني اللون، ولكن من دون أي جواز سفر".
خمنت وجود شيء آخر لا يريد أن يخبرني به.
قالت زينب بنبرة تفاؤل: "ربما. لا بد من وجوده في مكان ما قرب مسرح الجريمة. لا تزال وحدة التفتيش تفتش المنطقة. إنني واثقة من أنها ستعثر عليه عما قريب".
قال المحقق راغب وهو يقف أمامي: "ربما". ولم تعد هناك أي سخرية أو غرور في تعابير وجهه. فقد تحول تعبير وجهه إلى تعبير يدل على اتهام صريح، وقال: "أو ربما يكون لديك".
"ماذا؟ أتقول إن جواز سفري ليس مسروقاً؟".
"بل لقد سرق فعلاً، ولكن الشخص الذي قتل مهاجمك ربما يكون قد أعاده إليك".
"من الذي قتل مهاجمي؟ ماذا تعني؟ هل الرجل الذي هاجمني ميت؟".
"لم يمت وحسب بل قتل يا سيدة غرينوود".
"أين حدث هذا؟".
رمقني بنظرة غريبة - وكأن السؤال غير متعلق بالموضوع - قبل أن يتحدث قائلاً: "هذا سؤال وجيه. نعم، من المثير للاستغراب التفكير بالمكان الذي تمّ العثور فيه على جثة مهاجمك، فهو المكان نفسه الذي تمت مهاجمتك فيه".
تمتمت بطريقة لاشعورية قائلة: مرج البحرين. لم ينتبه راغب ولكن زينب انتبهت لكلامي.
"أرجو المعذرة؟ ماذا قلت؟".
من حسن حظي أنها لم تفهم ما قلته.
"قلت إنه من المثير للاهتمام أن السارق يعمل دائماً في المكان نفسه".
أدركت زينب أنني أخفي شيئاً ما عنهما، وأوشكت ربما أن تتدخل، ولكن قبل أن تتمكن من ذلك، أنجدني راغب من حيث لا يدري، وقال: "أي

سرقة يا سيدة غرينوود؟ عند الساعة الثالثة صباحاً، يغدو المكان مهجوراً كلياً".
"أتعني أن الرجل قتل في مكان آخر ثم تم رميه هناك؟".
فأومأت زينب برأسها وهي لا تزال تتأملني، وقالت: "هذا ما نظنه".
بدأ الارتباك ينال مني، فسألت: "ما علاقة كل هذا الكلام بي؟".
فقالت زينب متبنية تلك اللهجة الباردة والجافة المناسبة للشرطة: "لا ندري. إننا نأمل أن تخبرينا أنت".
"بم أخبركما؟".
"بكل ما تعرفينه".
"لقد قدّمت إفادة مكتوبة للشرطة في المستشفى الليلة الماضية".
رمقتني بنظرة لسان حالها يتساءل عن سبب عدم فهمي قصدها.
"لقد حدث هذا قبل أن يتعرض مهاجمك للقتل بصورة وحشية".
شعرت بتوتري يتحول إلى خوف، فسألتها: "ماذا تعنين بقولك إنه قتل بصورة وحشية؟".
قال راغب وهو يعدل وقفته مجدّداً: "إنك لا تعرفين، أليس كذلك؟ أعني، أليست لديك أية فكرة عما جرى؟".
"من أين لي أن أعرف؟ كنت نائمة في غرفتي".
راح ينفخ بغضب، فشممت رائحة أنفاسه الكريهة. عاود الالتفات نحو الشابة، وقال لها: "هلا تزودين السيدة بالتفاصيل يا زينب".
قالت زينب وهي تستجمع أفكارها: "بالطبع، يا سيدي. إن ما حدث غريب بعض الشيء يا سيدة غرينوود. فقد وجدت يده اليسرى مقطوعة من الرسغ".
قاطعها راغب وهو عاجز عن منع نفسه من التدخل وقال: "لماذا قطعت يده اليسرى؟ أتعرفين سبب ذلك؟".
فقلت له وعيناي مفتوحتان على وسعهما كصحني طعام: "كلا، لا أعرف".
"لأن الرجل أعسر. إنه أكثر لصوص قونية شهرة، وهو يعرف باسم كامل الأعسر، ولكن اسمه الحقيقي كامل تينيك. كان شديد البراعة بالسرقة بتلك اليد اليسرى".
قلت له وأنا لا أزال عاجزة تماماً عن استيعاب العلاقة بين الأمرين: "لا أفهم".
فقال: "على سبيل العقوبة". وأخذ يراقب وجهي عن كثب وكأنه يريد ألاّ يفوته شيء؛ حتى أصغر تغيير في ملامحي، وتابع قائلاً: "جرت العادة أن

تقطع أيدي اللصوص من الأرساغ".
شرحت المفتشة زينب قائلة: "إنها عقوبة السارق في الإسلام". ولكنها خشيت عندئذ أن أسيء الفهم، فأضافت قائلة: "ولكنها لم تعد مطبقة بالطبع".
لم أكترث لأمر تطبيق الشريعة أو القانون المدني. فما شغل ذهني هو الجريمة التي وقعت.
فسألت قائلة: "هل نزف حتى الموت؟".
نظرا إلى بعضهما بدهشة غير متوقعين أن يسمعا سؤالاً كهذا مني. ولكن زينب أجابت أخيراً قائلة: "كلا، بل مات خنقاً".
"هل تعرض للخنق؟".
"كلا، في الواقع، إن الجريمة أشد عنفاً من ذلك. فقد أقحم أحدهم اليد المقطوعة في حنجرته".
تخيلت وجهاً عيناه جاحظتان، وهناك يد في فمه والرسغ بارز إلى الخارج. كانت صورة رهيبة للغاية، ولكنها لم تدع سؤالاً مهماً يغيب عن ذهني.
فقلت: "أليس هذا صعباً بعض الشيء؟ كيف يمكن ليد بشرية أن تدخل الفم؟".
قال راغب وهو يهز رأسه الكبير: "لا نعرف هذا بعد. فالجثة لا تزال في قسم الأدلة الجنائية. لن تصلنا هذه الأجوبة حتى الغد".
"إذاً، لا بد أنهم قتلوا الرجل في مكان آخر".
كررت زينب كلامها قائلة: "إن هذا هو ما نشتبه به كما قلت لك. فقد كان الدم يلطخ الجثة وحدها من دون وجود أية قطرة في المنطقة المحيطة بها".
"لا بد أن القيام بهذا يتطلب خبرة واسعة لدى مرتكب الجريمة".
نظر إليّ راغب بعينيه الكستنائيتين الخرزيتين بإعجاب مبالغ به، وقال: "إنك لا تكفين عن إدهاشي يا سيدة غرينوود".
"لماذا؟ ما الذي فعلته لأثير دهشتك؟".
قال لزميلته مجدداً: "إنها تتحدث مثلنا، أليس كذلك يا زينب؟".
فقالت وهي تبتسم ساخرة: "هذا صحيح يا سيدي. السيدة غرينوود تفكر بشكل تحليلي".
رمق راغب زينب بنظرة مضحكة. لا أظن أنه فهم كلياً ما تعنيه عبارة التفكير التحليلي، ولكنه اعتبرها مجاملة.
قلت: "بالمناسبة، إن عملي لا يختلف اختلافاً كبيراً عن عملكما. فأنا خبيرة في شركة تأمين. ويتوجب عليّ - مثلكما تماماً - أن أتوصل إلى حلول

لمشكلات عويصة؛ ولهذا السبب بدأت أفكر كما يفكر أفراد الشرطة سواء أأحببت ذلك أم لا. وهكذا، فأنا أعني بالتعليق الذي أدليت به عن خبرة مرتكب الجريمة أنه من الواضح أنها تطلبت تخطيطاً مسبقاً".

همهم راغب، وقال وهو يتكئ على الجدار: "من أي ناحية تطلبت تخطيطاً؟".

"حسناً، لأنه توجب على المجرم أن يمسك بالرجل، ويقطع يده ويقحمها في فمه، ثم ينقل الجثة إلى موقع آخر. يبدو لي أن هذا العمل يتطلب مجهود أكثر من شخص واحد".

استأنف راغب الحديث من حيث توقفت أنا وهو لا يزال مستنداً على الجدار وعيناه تحدقان إليّ.

"أيمكن أن يكون هذا انتقاماً؟ قبل بضع سنوات، اعتدى لص سيئ الحظ على شرطية بالملابس المدنية في أنقرة، فجن جنونها وأفرغت كل رصاصات مسدسها في جسد الرجل".

ارتسمت الآن الابتسامة الساخرة نفسها على كل من وجهي ووجه زينب بينما نحن نصغي إلى رئيسها، ولكن "راغب" واصل عرض نظريته وقال: "في مواقف من هذا النوع، قد يفقد الناس السيطرة على أنفسهم. أعني حتى أنت...".

بدأ راغب يتجاوز حدوده مجدّداً، فصحت في وجهه قائلة: "الآن، ماذا تقول؟ هل تلمح إلى أنني فقدت صوابي وقتلت الرجل لأنه سرق حقيبتي؟ وبالإضافة إلى ذلك، قطعت يده اليسرى وأقحمتها في فمه؟".

لامس بلطف جفني عينيه المنهكتين وقال: "حسناً، لنفترض أن ما تقولينه صحيح. من السخف والمحال على حدّ سواء أن تفعلي هذا. ولكن، ماذا إن كان شخص ما تعرفينه قد قتل الرجل؟".

"لا أعرف أحداً في قونية".

"مينان... ذلك الرجل الذي ذهب معك إلى المستشفى".

"ماذا؟ لا بد أنك تمزح! لقد قابلت الرجل أمس فقط. أتظن أن وكيل فرعنا في قونية مستعد لقتل لص من أجلي؟ والعمل بهذه الدقة وكأنه قاتل متسلسل؟".

لم تستطع زينب أن تسيطر على نفسها أكثر فبدأت تقهقه بهدوء، ولكن "راغب" لم يأبه بذلك، وتمتم قائلاً: "ماذا عن والدك؟ إن والدك من قونية. أين هو الآن؟".

"ليست لديّ أي فكرة. فأنا لم أره منذ أن تركنا قبل عشرين عاماً".

بدت عليه أمارات الصدمة الجادة وقال: "ماذا؟ والدك!! أتعنين ذلك الذي رباك حسب التقاليد التركية؟".
"لم أقل ذلك، بل قلت وحسب إنه علمني اللغة التركية".
"حسناً، أياً يكن، ولكنك تعنين أن ذلك الرجل هجرك وأنت فتاة صغيرة. حقاً؟!".
أردت أن أسأله عن سبب اهتمامه بذلك، ولكنني فضّلت ألاّ أثير الموضوع، واكتفيت بالإجابة بجفاء قائلة: "نعم، حقاً. هكذا هي الحياة".
"إذاً، أخبريني. أين هو الآن؟".
تفوه راغب بالسؤال، وكأنه يسأل عن قاتل بارد قاسي القلب.
"لا أعرف، ولا يهمني ذلك. والأهم من كل شيء أنه لا يعرف أنني في قونية. وحتى لو عرف أنني هنا، فهو ليس من النوع الذي يتجول في الأنحاء ويقتل الناس، بل إنه من الناس الذين يديرون الخد الآخر لمن يؤذيهم".
لم يؤثّر به كلامي فقال: "أن يهجر ابنته وهي مجرد فتاة صغيرة...". رآني وأنا أعبس في وجهه، فشعر أنه يجب عليه أن يشرح، لذا تابع قائلاً: "أعرف أن هذه مسألة عائلية، ولكنْ لديّ بنات أيضاً، أليس كذلك يا زينب؟ أعني، أي نوع من الرجال...".
شعرت زينب أن الموضوع بدأ يزعجني، ولكنها بدلاً من أن تقول أيّ شيء اكتفت بهز كتفيها ورفع حاجبيها وكأنها تقول إنه لا يسعها فعل شيء.
ومع ذلك، لم يبد راغب راضياً، وتابع كلامه قائلاً: "إنني أهتم لأمر بناتي طوال الوقت. ولا أريد أن تتعرض شعرة إحداهن للأذى. أقسم إنني حتى في ليالٍ كهذه - عندما أعمل في مناوبتي - يظل عقلي في البيت. أعني أن والد طفلة...".
بدا منزعجاً جداً بالفعل. لم أتوقع بصراحة أن أرى رد فعل عاطفيًّا من ضابط شرطة صارم مثله.
لذا، قلت وأنا أحاول أن أهدئ من روعه: "لا بأس. فقد حدث هذا قبل وقت طويل".
"ومع ذلك، أشعر بالأسى لسماعي أمراً كهذا". وبدا وجه المنهك مفعماً بالحزن، ثم قال: "ولكنك محقة، لا تأبهي لأمره. فوالد مثله لا يستحق التفكير فيه". رمش بعينيه ثم عاد إلى طبيعته المعهودة، وقال: "الآن، لنعد إلى العمل. ماذا فعلت بعد أن خرجت من المستشفى؟ أخبريني كل شيء وسننهي هذه المسألة. فقد سبق لنا أن قرأنا ما حدث حتى تلك اللحظة

في إفادتك المكتوبة".
"لم أفعل أي شيء مهم. بعد أن خرجت من المستشفى، أوصلني مينان إلى هنا. صعدت غرفتي وأويت إلى فراشي. أردت أن أشاهد التلفزيون، ولكنني غفوت. وبعد ذلك، حضرتما".
"ألم تتحدثي إلى أحد؟".
"اتصلت بي أمي من لندن فلم أخبرها عن حادثتي مع اللص، خوفاً من أن تركب الطائرة وتأتي إلى هنا وتقحم يد السارق في حنجرته".
حان دوري الآن لأتصرّف بظرف، ولكنه لم يعد يستمتع بذلك.
لذا، قال بفتور واضعاً حداً للحديث: "فهمت. تعالي إلى المخفر في وقت لاحق من اليوم وخذي أغراضك. يجب عليك أن تكرري ما قلته لندوّنه في المحضر".
مشى باتجاه الباب مشيراً إلى زينب بجهازه اللاسلكي لكي تتبعه. وعندما وصل إلى الباب، التفت وهو لا يزال يرسم على وجهه تلك النظرة المنهكة، وقال: "أعتذر عن إزعاجك. ولكن، إن كنت تفكرين مثلنا بالفعل، فستقدرين أننا نقوم بواجبنا".
قلت له وأنا مندهشة من مدى تسامحي: "لا مشكلة. إن أردت أن تسدي إليّ صنيعاً، فاعثر على جواز سفري. لا أريد شيئاً آخر".

"أظن أنني أعرف من ارتكب جريمة القتل"
بالإضافة إلى كل شيء آخر حدث معي، وجدت نفسي الآن عالقة وسط تحقيق بجريمة قتل. لا بد أن قتل الرجل الذي سرق حقيبتي والعثور على جثته بالمكان نفسه الذي هاجمني فيه حصلا صدفة. ومع ذلك، وجدت أن هناك الكثير مما يبرّر شكوك المحقق راغب. تساءلت عما حل بمينان، فلا بد أنهما قد ذهبا إليه أيضاً، وربما أخذا ذلك الرجل المسكين إلى المخفر. ورغم وجود شهود يمكنهم أن يشهدوا على مكان تواجدي ساعة وقوع الجريمة، إلا أنه لم يكن لدى مينان سوى أفراد عائلته ليشهدوا لصالحه. ولم أكن واثقة من أنهم سيعتبرونهم شهوداً موثوقاً بهم. فكرت بالاتصال بالمخفر لأتحقق من الأمر، ولكنني أدركت أن هذا لن يفعل شيئاً سوى التأكيد على شكوك المحقق راغب.
فتحت الستائر قليلاً ونظرت إلى الخارج، فرأيت ضوء الفجر يظهر في الأفق، ووميضاً أحمر ينتشر في السماء خلف الضريح. وفي تلك اللحظة، ارتفع صوت المؤذن بأذان الفجر. أخذ المؤذن يردد كلمات الأذان بصوت جميل ومؤثر جداً، فخرجت إلى الشرفة لأستمع إليه. ورغم أنني لم أفهم ما تعنيه الكلمات، إلا أنها أثارت الحزن في نفسي. تحول انتباهي إلى سيل الرجال المتوجهين نحو مسجد السلطان سليم لأداء صلاة الفجر. لم أجد بينهم أية امرأة. شاهدت بعض المصلين وهم يتوضأون عند النافورة أمام المسجد، وكان أحدهم يرتدي ملابس سوداء، فسرت رعشة باردة في جسدي عندما خطر ببالي أن ذلك شمس وأنه يراقبني. لم أتمكن من رؤية إلاّ جانب وجهه، ولكنني لم أستطع أن أتبينه بوضوح على أية حال؛ لأن المكان لم يُضَأ كليًّا بعد. ركّزت كل انتباهي عليه وهو ينهض ويرتدي سترته التي علقها على كتفه ليغسل يديه. وعندما التفت لينظر من فوق كتفه، استجمعت شجاعتي وتأمّلته. ولكن كلا، لم يكن التبريزي على أية حال. فقد بدا الرجل حليق الوجه وبديناً مثل مينان. أعتقد أنني سمحت للذعر بأن يسيطر عليّ من جديد. إن سمع عالمنا النفسي أوليفر بما يجري معي، لفسره بأنه أحد أعراض العصاب الذي أعاني منه في هذه الأيام.
تأملت السماء فيما كان الوميض الأحمر خلف الضريح يزداد سطوعاً. بدأت الشمس تشرق، ولم يمض وقت طويل حتى أخذت خيوطها الذهبية تتراقص على المنحنيات الخضراء على الضريح. وبينما أخذت الشمس تشع من خلف الغيوم، خطر ببالي فجأة صديقي الخيالي من أيام الطفولة، واسمه صني؛

أي مشمس. فتذكرت شعره الذهبي المجعد وعينيه الزرقاوين الواسعتين. إنه رفيق اللعب الخفي الذي اخترعته. لطالما اعتبرته طفلاً ضعيفاً وفي حاجة دائمة إلى مساعدتي؛ فاعتدت أن أطعمه وأضعه في فراشه وأعتني به عندما يمرض. وباستثناء والدي ووالدتي، فهو الشخص الوحيد الذي كنت أتحدث إليه على الإطلاق. لم يستطع والدي مطلقاً أن يفهم إخلاصي لهذا الصديق الخيالي، بل اعتبر وجوده أمراً غير طبيعي. وبدأ القلق يتملكه من أن يدل هذا على مشكلة أشد عمقاً تتطلب علاجاً نفسياً. في الواقع، اعترفت لي أمي بعد سنوات أن هذه المشكلة أثارت العديد من الجدالات بينهما.

فقالت لي: "لقد تملك القلق والدك. فحتى في أثناء جلوسك معنا، اعتدت أن تثرثري مع صديقك الخيالي صني. ووصل الأمر بك إلى حدّ الشجار معه وإنشاد الترانيم له لينام. ولكن الكثير من الناس يقولون إن هذا سلوك طبيعي ومقبول. وقال بعض المدرسين في ذلك الوقت إن هذا سلوك صحي ويدل على خيال خصب. ومع ذلك، رفض والدك أن يتفهم ذلك، وظل على قناعة بأن هذا السلوك يخفي شيئاً آخر. وأصر أنه يجب علينا أن نأخذك إلى الطبيب بالرغم من أنني أكدت له أن هذا غير ضروري لأنك كنت تحاولين وحسب أن تقيمي علاقة بينك وبين العالم، وأن تضفي معنى لوجودك. فسألني عما يمكن أن يمنح معنى لوجودك بالتحدث ليلاً ونهاراً إلى طفل غير حقيقي. وذات يوم، سئمت من الجدال معه وقررت أن أعبث معه قليلاً، فقلت له: وكيف تعرف أنه ليس حقيقياً؟

فقال: حقيقي! هل رأيته أنت أيضاً الآن!

اقترحت عليه حينها فكرة أنه كائن نوراني ربما يظهر لك في صورة طفل. وذكرته بأن الكائنات النورانية يمكن أن يراها فقط أولئك الناس الأكثر نقاء وبراءة. وعندما رمقني بنظرة شك، سألته قائلة: لِمَ لا؟ أليس هذا ما تحاول فعله؟ أي أن تكبح رغبات عقلك وجسدك لتبلغ حالة البراءة تلك؟ وبقيامك بذلك، ألا تبذل قصارى جهدك لتستعيد طفولتك من جديد؟ حسناً، إن ابنتك طفلة الآن، ويجب عليك أن تتقبل إمكانية أنها ترى كائنات نورانية وتتواصل معها".

أخذت أمي نفساً عميقاً قبل أن تتابع كلامها قائلة:

"ولكنه عندئذ رد عليّ بنبرة دفاعية، وسألني عن دافع الكائن النوراني للتواصل معك، لذا استخدمت كلماته نفسها مرة أخرى، وقلت له إن الكائنات النورانية تتقرب فقط من أولئك الذين تشعر أنهم بحاجة فعلية للمساعدة، وإنك ربما تحتاجين إلى مساعدة. ولكن ما قلته تجاوز الحدود

بالنسبة إليه، فلم يتفق معي، وقال مجدّداً إنه يتعين علينا أن نطلب بعض المساعدة من أجلك، فبدأت أفقد صبري من كلامه. عندها، رمقني بإحدى تلك النظرات وكأنني غافلة عمّا يدور حولي وسألني: إلام تلمحين يا سوزان؟

رفضت أن أتراجع عن موقفي، وحدّقت إليه مباشرة؛ بذلك الأسلوب البارد والهادئ الذي يثير جنونه وأجبته قائلة: لست أدري، ولكنكما أيضاً لا تدريان".

في الواقع، لم أنس أمر صديقي الخيالي صني في ما بعد. فقد جلست على مقعد المدرسة إلى جوار صبي اسمه توني. شعره أشقر ولكنه أملس، وعيناه خضراوان وبالكاد يمكن رؤيتهما تحت جفنيه المسترخيين. لا بد أنني استبدلت صديقي الخيالي به بعد أن حذرني بانزعاج عدة مرات قائلاً: "كفي عن مناداتي باسم صني يا كارين. اسمي توني".

وقعت في حب توني في فترة مراهقتي. وفي وقت لاحق، سافر توني ليدرس في الفاتيكان. وبعد سنتين، سمعت أنه توفي بعد أن تعرض للدغة سحلية في جزر غالاباغوس بينما كان يبحث عن دليل يساعده على إيجاد ثغرة في نظرية داروين للتطور. ورغم أن السحلية لم تكن سامة إلا أن الجرح المفتوح الذي تسببت به تعرض للالتهاب، فتوفي توني المسكين بعد إصابته بالغنغرينا ثم دفن جثمانه قرب الفاتيكان. أحزنني خبر وفاة صديقي، ولكن والدتي عزت ذلك إلى "لعنة داروين"، وكانت جادة في قولها هذا.

ومع ذلك، لم أعد أتذكر صني؛ حتى في ذلك الوقت. يا لي من خائنة! ففي الوقت الذي عشت فيه وحيدة بلا أي أصدقاء آخرين، ساعدني صني على تجاوز وحدتي، وبحت له بأسرار طفولتي. لم أعد أتذكر بكل صراحة أياً من محادثاتي مع صني، فقد غابت كلها عن ذاكرتي. ولكنني أدرك أنه أدخل إلى قلبي السعادة والأمان والحرية. ترى، كم ستغدو الحياة سهلة إن كان لا يزال لديّ صديق من هذا النوع الآن؟ ولكن، في الحياة الواقعية، لا يمكن لأي شخص حقيقي أن يظهر إخلاصاً خانعاً من هذا النوع.

مع ذلك، ماذا عن رومي؟ ألم يكن مخلصاً لصديقه شمس؟ لماذا أبدى تجاهه كل ذلك اللين؟ أي نوع من المحبة هذا؛ أي أن يشعر الشخص بالحاجة إلى اختبار الآخرين دوماً؟ تعدى الأمر حدود الاختبار؛ إذ توقع شمس أن يتخلى رومي عن الأشخاص الذين يحبهم أكثر من الجميع. ولكن، هل هذا صحيح؟

وجدت أوجه الشبه بين صداقة والدي وشاه نسيم وصداقة رومي وشمس

شديدة الغرابة. ربما تكون صداقة والدي وشاه نسيم قد تأثرت بصداقتهما. تأثرت بها؟! ربما يكون القول إنها تشكلت بقالبها أكثر دقة؟ يجب عليّ أن أتذكر أن أسأل والد ضياء عن هذا عندما ألتقيه. فعزت صديق قديم لوالدي، ونشأ معه في المأوى نفسه، ولا يمكن لأحد أن يعرفه أفضل منه.

رن هاتفي الخلوي مقاطعاً أفكاري، فتساءلت عن المتصل، وعمّا إذا كانت المكالمة من الشرطة. أجبت على الفور.

"مرحباً".

"مرحباً سيدة غرينوود... أهذه أنت؟".

رغم أن الصوت بدا مكتوماً بعض الشيء، فقد ميزته على أنه صوت مينان.

"مرحباً يا سيد فيدان. نعم، هذه أنا... تفضل...".

"هل غادر الشرطيان؟".

أخذ مينان يتحدث همساً، وكأنه يخشى أن يستمع أحد إلى المكالمة.

"نعم، لقد غادرا. كيف عرفت أنهما كانا هنا؟".

"لأنهما حضرا إلى هنا أولاً. لقد تعامل ذلك المحقق راغب معي وكأنني مجرم، ثم قال لي إنه سيذهب لزيارتك. ورغم أنني ألححت عليهما أن يؤجلا المحادثة معك إلى الصباح، إلاّ أنهما لم يصغيا إليّ".

بدا مينان منفعلاً؛ فقد تحدث بعجلة من دون أن يلتقط أنفاسه.

قلت له محاولة أن أهدئ من روعه: "لا يهم. فقد أجبت عن أسئلتهما وأنهيت المسألة. ورغم ذلك، أجد تعرّض الرجل الذي سرق حقيبتي للقتل أمراً غريباً".

ازداد صوت مينان حدة وهو يقول: "إن هذا غريب فعلاً يا سيدة غرينوود".

قلت له: "ليس هذا وحسب. فقد عثروا على جثته في المكان نفسه الذي سرقت فيه حقيبتي".

قال هامساً بصوت متهدج؛ وكأن الكلمات تنطوي على شيء عجيب: "مرج البحرين، أي مكان التقاء بحرين".

ترى، هل بدأ خوفه السخيف يسيطر عليه مرة أخرى؟ أم إنه توصل إلى استنتاج ما؟

كررت كلامه على أمل أن يبوح لي بما يدور في ذهنه: "نعم، يا لها من مصادفة! أليس كذلك؟".

"مصادفة! أن يُقتل الرجل الذي سرق أغراضك، وترمى جثته في المكان نفسه الذي هاجمك فيه! أي مصادفة هذه؟!".

بدأت كلماته تثير قلقي، فقلت له مازحة لأخفي توتري: "إنك تتكلم كالمحقق راغب يا سيد فيدان. إن ظللت تتكلم بهذه الطريقة فستتهمني بجريمة قتل بعد قليل".

"هراء! لا تقولي شيئاً كهذا. لن أتهمك بأي شيء أبداً".

قلت: "أعرف ذلك. إذاً، لماذا تتصل بي؟".

"حسناً، أردت أن أخبرك..." وأصبح صوته خافتاً جداً لدرجة أنني عانيت من صعوبة في سماعه.

"أيمكنك أن ترفع صوتك قليلاً؟ لا أستطيع أن أفهم ما تقوله".

"بالطبع". وبدا صوته متوتراً جداً لدرجة أنني سمعته وهو يبتلع ريقه عدة مرات، ثم قال: "أظن أنني أعرف من قتل ذلك الرجل يا سيدة غرينوود".

لم أستطع أن أستوعب ما قاله، فكررت كلامه من دون تفكير قائلة: "أتعرفه؟".

"نعم".

"هل أنت مدرك لما تقوله يا سيد فيدان؟".

"مدرك تماماً. يجب أن نتحدث على الفور".

شعرت بجسدي يرتعش؛ إذ بدا واثقاً جداً من نفسه. قد يكون ضياء من يقف وراء الجريمة، وربما يكون مينان نادماً على دوره فيها ويريد أن يريح ضميره.

ألححت عليه بالسؤال قائلة: "إذاً، من قتله؟".

فقال بصوت منخفض: "لا ترفعي صوتك من فضلك". وسكت عن الكلام قليلاً ثم قال: "لا أستطيع أن أخبرك هذا عبر الهاتف".

"أين أنت الآن؟".

"قرب الفندق".

فقلت له من دون تفكير: "حسناً، سألاقيك في الردهة بعد خمس دقائق".

"في العقيدة المولوية، لا يموت الناس
بل يلتزمون الصمت"

وجدت مينان جالساً بانتظاري في الردهة على حافة إحدى الكنبات الكبيرة؛ في أكثر الزوايا انعزالاً فيها، وهو يبدو شاحب الوجه كالأشباح. راقبته وهو يلقي نظرة خاطفة بطرف عينه إلى الباب وكأن هناك من يتعقبه. ما مشكلة هذا الرجل المسكين؟ وبينما كنت أتقدم لأقابل زميلي، أومأ موظف الاستقبال برأسه تحية لي، وفرك عينيه الناعستين وهو يتحضر بلا شك للتنصت على محادثتنا، فغيرت طريقي ومشيت متجهة نحوه. وعندما لاحظ أنني أتقدم نحوه، حاول أن يستجمع شجاعته. لا بد أنه ظن أنني سأوبخه على ما حدث في الليلة الفائتة، فأصابه الارتباك، وأوقع حامل الأقلام على المكتب، وبعثر كل الأقلام التي كانت فيه على الأرض. انحنيت لألتقط قلم حبر أسود جاف تدحرج حتى وصل إلى قدمي. وبحلول الوقت الذي نهضت فيه، وجدت الموظف بجانبي.

"ما كان ينبغي أن تزعجي نفسك يا سيدة غرينوود. ها قد حضرت لأخذه".

قلت له وأنا أعطيه القلم: "لا مشكلة. أيمكنك أن تحضر لنا بعض الشاي من فضلك؟".

"الشاي!". استطعت أن ألاحظ أنه تساءل عن سبب رغبتي في شرب الشاي الآن في هذه الساعة المبكرة من الصباح. تجاهلت تعبير وجهه المكتئب، وتابعت قائلة: "وسيكون لطفاً منك أن تحضر لنا بعض البسكويت أو شيئاً آخر لنتناوله مع الشاي".

كرر كلامي بكآبة وكأن نهاية العالم قد حلت: "شاي وبسكويت...".

"أيمكنك أن تحرص على ألاّ تحضر بسكويتاً قديماً؟ إن لم تجده طازجاً، فالبسكويت الجاهز سيفي بالغرض".

قال على مضض: "بالتأكيد. ولكن عمّال المطبخ نائمون جميعاً. أعني أنه سيتوجب عليّ أن أقوم بهذا بنفسي".

رأيت نظرة توسل في عينيه وكأنه يأمل أن أقول له: حقاً؟ إذاً لا داعي لذلك. ولكنني لم أفعل ذلك بكل تأكيد. بل ابتسمت له وقلت: "شكراً لك. سأكون بغاية الامتنان. بالمناسبة، لا تنس من فضلك أنني أشرب الشاي مع الحليب".

"بكل تأكيد". وارتسمت على وجهه الآن تقطيبة غاضبة وهو يقول: "لن

أنسى".
تركته ليجمع بقية الأقلام المبعثرة، وتوجهت نحو مينان مجدداً. وجدته واقفاً الآن؛ لا بد أنه نهض عن كرسيه حالما رآني. وكان يحمل بيده كتاباً سميكاً ذا غلاف جلدي. فتساءلت في سرّي عما يجري. هل أحضر معه مصحفاً؟ أدركت أنه لا يعرف شيئاً على أية حال، ولا بد أنني أتعبت نفسي بلا جدوى.
بدا تعبير وجهه دالاً على الاعتذار. ترى، هل كنت أتخيل أم إنني رأيت الرجل يرتجف فعلاً؟ أردت أن أساعده على استجماع شجاعته، لذا ابتسمت له ومددت يدي مصافحة.
"مرحباً بك مجدداً يا سيد فيدان". فلم يتفوه بكلمة، بل صافحني بضعف. فقلت: "تفضل بالجلوس. لقد طلبت الشاي وإلى جانبه شيئاً آخر لنأكله".
بدا مينان متفاجئاً من اتزاني، وعاجزاً عن إيجاد سبب منطقي لحديثي الهادئ، ولكنه جلس على أية حال.
وعندما فهم ما قلته، قال: "ماذا؟ آه، شكراً لك". أخذت عيناه ترمشان بتوتر، وكأنه يريد أن يدخل في الموضوع مباشرة. في الواقع، كنت متلهفة أيضاً لسماع ما لديه، فألقيت نظرة خاطفة نحو الكتاب الذي تشبث به بإحكام وكأنه جوهرة نفيسة لا تقدر بثمن.
سألته وأنا أحاول أن أقرأ ما كُتب على الغلاف: "أهذا قرآن؟".
أخفض بصره نحو الكتاب وقال: "كلا، هذا كتاب مآثر العارفين بالله". وعندما لاحظ النظرة الحائرة المرتسمة على وجهي، شرح كلامه قائلاً: "إنه يتحدث عن قصة حياة رومي وتاريخه وتاريخ معاصريه أيضاً".
كتاب يتحدث عن معاصري رومي! لا بد أن الكتاب يحوي الكثير من المعلومات عن شمس. ها قد عدنا إليه مرة أخرى! أيقنت أن مينان لم يحضر هذا الكتاب من دون سبب.
"من مؤلف الكتاب؟".
"إنه أحد الصوفيين، واسمه أحمد إفلاكي".
لم أميز الاسم، فلو كان مهماً، لاشترى والدي كتبه أو تحدث عنه على الأرجح. لذا، أظن أنه اختفى في ثنايا ذاكرتي البعيدة ككل شيء آخر حدثني عنه.
"هل إفلاكي من معاصري رومي؟".
"كلا، فقد ألف الكتاب بعد ذلك بوقت طويل؛ حسب الرواية التي رواها حفيد رومي".

"حفيد رومي الحقيقي!؟".
"بالطبع، فهو ابن بهاء الدين. في الواقع، يقال إن إفلاكي قابله شخصياً أيضاً".
لا بد أن بهاء الدين هو ذلك الفتى المهذب نفسه الذي قال لشمس "شيخي". ولكن، ماذا عن ذلك الفتى المتمرد الغاضب الذي رأيته مع كيميا؟ فقلت: "كان لرومي ابن آخر أيضاً، أليس كذلك؟ ابن أصغر من بهاء الدين؟".
تجهمت ملامح وجهه قليلاً وقال: "لا بد أنك تتحدثين عن ابنه الأوسط علاء الدين. لم تكن سمعته جيدة جداً كبقية أفراد العائلة".
هذا غريب. فقد تذكرت أن شمس لم يتفق معه كثيراً.
"ما سبب ذلك؟".
"إن السبب غير معروف بشكل مؤكد. يقال إن مزاجه كان فظيعاً وناريا،ً وإنه افتعل مشاكل مع شمس. وتقول الشائعات إنه تصرف بشكل غير لائق مع زوجة شمس واسمها كيميا".
في الحلم الذي شاهدته، بدا علاء الدين وكيميا على علاقة ودية مع بعضهما، في حين بدا الدرويش المتسربل بالسواد فاتراً ومتحفظاً. من المؤكد أن علاء الدين تمكن من إثارة غضبه، ولكن لم يظهر لي أي اهتمام من قِبَل شمس تجاه كيميا. وجدت أن الوقت قد حان لأركز على الهدف من مجيء مينان فقلت: "إذاً، ما علاقة هذا الكتاب بجريمة القتل؟".
أخفض نظره مجدداً وابتلع ريقه بصعوبة، ثم قال وهو يرفع يده المرتجفة عن غلاف الكتاب الجلدي: "لا علاقة بين الجريمة والكتاب بحدّ ذاته، ولكن محتويات هذا الكتاب إلى جانب ما مررنا به...".
كما توقعت بالضبط؛ لم يكن مينان يعرف أي شيء عن جريمة القتل، فقد أتى ليسرد على مسمعي مزيداً من قصصه، فاستندت إلى كرسيي وأنا أشعر بخيبة الأمل وقلت: "لا تقل لي إنك توقعت اسم القاتل هكذا فجأة".
كان منهمكاً جداً لدرجة أنه لم يلاحظ مزاحي معه، وقال بانفعال: "نعم. لقد اكتشفت الحقيقة بالاستعانة بهذا الكتاب".
أدركت أن كلامه سخيف، ولكنه لفت انتباهي، فقلت بلهفة: "إذاً؟ من هو؟".
لم يجب على الفور، ولكنه همس بدلاً من ذلك قائلاً: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم". وأخذ ينظر إلى الأمام والخلف وكأن ثمة شخصاً خفيًّا يراقبنا. تمكنت بصعوبة من فهم كلمة واحدة من الجملة التي تفوّه بها

وهي كلمة "الشيطان". لا بد أنه أراد أن يحمي نفسه من شيء ما بقوله ذلك. ورغم أنني وجدت تصرفاته غير عقلانية ومضحكة، إلا أنه قام بها بمنتهى الجدية؛ لدرجة بعثت الخوف في نفسي رغماً عني. وبعد أن أصبح على قناعة بأنه تمكن من طرد الجن والشياطين، اقترب مني قليلاً، وقال بصوت يمتزج فيه الخوف والتوقير: "المجرم هو شمس".

شعرت بضربات قلبي تتسارع وكأن خوفه أصابني بالعدوى. ما مشكلتي؟ هل صدقت كلامه السخيف؟ هل أنا ابنة أمي، كارين، التي لطالما حاولت أن تزين الأمور بميزان المنطق والعقل؟ أم إنني ابنة أبي، كيميا، التي تسعى لمعرفة معنى الحياة في ضوء هذه الأحداث الغامضة؟ بدا هذا الاحتمال أكثر قبولاً الآن، ولهذا السبب سألته لأكسب وقتاً أفكر فيه: "من؟ شمس؟! أتعني شمس رفيق رومي؟".

قال والرعب بادٍ في عينيه: "لا أحد سواه. إنه الشيخ شمس التبريزي التقي رحمه الله".

أما أنا، فقد دل تعبير وجهي على عدم التصديق.

توسلت إليه وأنا أحذر نفسي أكثر مما أحذره: "أرجوك، تحلَّ بالمنطق يا سيد فيدان". لم تحدث كلماتي أي تأثير بمينان الذي راح يحدق إليّ وكأنني ساذجة. فتجاهلته وأكملت كلامي قائلة: "حاول أن تتسم بالعقلانية. ما تتحدث عنه يحدث في القصص الخيالية وأفلام الرعب. إنّ القول إنّ رجلاً مات منذ سبعمائة سنة هو القاتل لن يساعد على حل القضية".

قال وكأنه يشفق عليّ: "هناك أمور لا تعرفينها يا سيدة غرينوود. فحسب العقيدة المولوية، لا يموت الناس بل يلتزمون الصمت ليس إلا. إن الموتى ليسوا إلا أشخاصاً أمسكوا عن الكلام، ولكنهم لا يزالون يعيشون بيننا. من يدري كم مرة سيظهر رجال دين عظماء مثل شمس بدءاً من هذه اللحظة وحتى قيام الساعة عندما ينفخ الملاك في الصور؟ إنهم يكسرون صمتهم ويتحدثون إلى أولئك الذين يتمتعون بحظوة لديهم". حدق مينان إليّ بعينين مفتوحتين على وسعهما ثم رفع صوته قائلاً: "هل تدركين ما أقوله يا سيدة غرينوود؟ إن شمس التقي يحاول أن يساعدك".

عبّر مينان بالكلمات عن الأفكار نفسها التي راحت تدور في ذهني. فقد خطر ببالي من قبل أن يكون شمس هو من أعطاني الخاتم.

ولكنني اعترضت على كلامه قائلة: "هذا سخف!". ورغم أن عقلي قاوم ذلك، إلا أن رعشة باردة سرت في جسدي، ثم قلت: "ولكن، لنفترض جدلاً أن معجزة ما جعلت شمس يعود إلى الحياة أو يكسر صمته على حد

تعبيرك ليتدخل في الأمور الدنيوية، أيمكنك أن تخبرني كيف يمكن لقتل ذلك السارق أن يشكل أي مساعدة لي؟ والأهم من ذلك، لماذا قد يقوم درويش ذو مكانة روحية عالية بقتل أي شخص حتى لو كان لصاً؟".

قال وهو يربت على الكتاب: "في البداية، راودني السؤال نفسه". ثم أخفض صوته مجدداً، وقال: "على سبيل المثال، لن يؤذي المولوي ذبابة، ولن يتفوه بكلمة سيئة في وجه أي شخص حتى أكثر الناس شراً وفساداً على الإطلاق؛ ناهيك عن أن يمد يده ليلحق به الأذى. إذ يُفضّل المولوي أن يتجنب أمثال أولئك الناس. أما بالنسبة إلى شمس، فالمسألة مختلفة كلياً".

تذكرت ما قاله لي شمس: "لم أنافقه بل أبرزت له الجانبين الإيجابي والسلبي لكي يعرفني حق المعرفة". ثم طردت صوته من ذهني على الفور. وجدت مينان لا يزال مستغرقاً كلياً بما يقوله؛ وهو غير مدرك لما يدور في ذهني. لا بد أنه كان على قناعة تامة بذلك الكلام، لدرجة أن عينيه كادتا أن تذرفا الدموع. ربما عادت به الذكريات إلى الأيام التي كان فيها تلميذاً شاباً مؤمناً بالخرافات في مدرسة الإمام حاطب.

"كل شيء مذكور في هذا الكتاب. إن أحد الألقاب التي أطلقت على شمس هو سيف الله لأنه لم يسامح أحداً قط إن قلل من قيمته أو من قيمة شخص يحبه".

فتح مينان الكتاب بأصابعه الثخينة وقال: "انظري، ذكر في الكتاب هنا أن بعض المسنين الحكماء أطلقوا عليه لقب سيف الله لأنه اعتاد أن يعاقب من يلحق به الأذى إما بقتله أو بفتح جرح في روحه".

"إن هذا لا يثبت أنه قاتل سارق الحقيبة".

هز رأسه وكأنه يتساءل عن سبب إخفاقي في فهم معنى كلامه.

"ليس شمس التبريزي مجرد درويش محب للانتقام. دعيني أقص عليك بعض القصص من هذا الكتاب. ذات يوم، سافر شمس إلى إحدى القرى حيث حط رحاله في مسجد صغير. وبعد أن رفع المؤذن أذان العشاء من المئذنة، حاول أن يطرد شمس من المسجد بوقاحة، وقال له: اخرج من هنا، اذهب وأمض ليلتك في مكان آخر.

حاول شمس أن يقنع الرجل بالسماح له بالبقاء، فتوسل إليه قائلاً: أتوسل لسماحتك، إنني عابر سبيل في هذه الأنحاء ولا أعرف أحداً. اسمح لي بالمكوث هنا الليلة. ولكن المؤذن وصل بالمسألة إلى حدود نفاد الصبر، وراح يكيل الشتائم لشمس، فنهض شمس التقي وغادر المسجد. ولكن، بينما كان يفعل ذلك، التفت وقال للمؤذن: أتمنى أن يجعل الله لسانك يتورم.

وفي الحال، بدأ لسان المؤذن يتورم، بينما توجه شمس في طريقه عائداً إلى قونية من دون أن يفكر بما حصل للحظة واحدة. وفي تلك الأثناء، وصل الإمام إلى المسجد، ووجد المؤذن يتلوى على الأرض متألماً، فسأله قائلاً: ما الأمر؟ ما خطبك؟

فأجاب المؤذن بصوت مختنق: إن ذلك الدرويش المتشرد هو من جعلني هكذا. أسرع! اذهب واعثر عليه وإلا فسأموت بكل تأكيد. انطلق الإمام على الفور ولحق بشمس، ثم ركع على ركبتيه أمام الدرويش التقي وتوسل إليه قائلاً: ارأف بحال ذلك الرجل المسكين فهو لا يعرف أي رجل عظيم أنت. أتوسل إليك أن تسامحه.

راح الرجل يتوسل ويبتهل طالباً المغفرة، ولكن شمس هز رأسه وقال: لقد قضي الأمر وانتهى. لم يعد بوسعي أن أفعل أي شيء له سوى أن أدعو وأطلب من الله أن يجعله يموت مؤمناً وألاّ يعذبه في جهنم.

أدرك الإمام على الفور أن شمس متشبث جداً برأيه ولا يتراجع عن كلمة قالها، فصدقه وأصبح على الفور تلميذاً لديه. وعندما عاد إلى المسجد، وجد المؤذن المسكين قد اختنق منذ وقت طويل وقابل وجه بارئه".

لم أستطع أن أفهم ما أراد مينان أن يثبته بسرده هذه الرواية المثيرة للجدل والتي لا يمكن تصديقها.

فسألته: "هل تصدق هذه القصص فعلاً؟".

شرح لي بقناعة راسخة لا يتمتع بها إلا شخص يؤمن بالمعجزات: "إنها ليست مجرد قصة. فقد حدثت هذه الأشياء على أرض الواقع، وكتب أحمد إفلاكي عنها مقتبساً من عدة مصادر؛ من بينها كتابات المولوي نفسها، بالإضافة إلى روايات ابنه بهاء الدين وشهادات أشخاص عاشوا في تلك الفترة. حسناً، قد تكون القصة منمقة بعض الشيء، ولكنها مجرد قصة من بين قصص لا حصر لها عن شمس". وراح مينان يقلب في الصفحات، ثم قال: "على سبيل المثال، هناك حادثة وقعت في بغداد...".

ومن دون أن يسألني إن كنت أريد سماعها أم لا، استهل سرد قصته قائلاً: "ذات يوم، مر شمس بجانب بوابة أحد القصور في بغداد، فسمع عزف موسيقى ودخل إلى هناك ليستمع إلى المعزوفة. وعندما رآه سيد القصر، أمر أحد عبيده قائلاً: اضرب ذلك الدرويش واطرده من هنا. فسحب العبد سيفه وهم بأن يهاجم شمس، ولكنه لم يستطع أن يحرك يده لأن ذراعه شلت. فأمر السيد عبداً آخر بأن يضربه، ولكن الذراع التي رفعها في وجه شمس شلت أيضاً. وعندئذ، غادر شمس المكان، فأرسل

السيد جنوده في إثره، ولكن لم يتمكن أحدٌ منهم من العثور عليه. وفي غضون يومين، مات صاحب القصر".

توهج وجه مينان من فرط الإثارة. ودلت قطرات العرق التي تجمعت على جبهته، والوهج الذي شعّ من عينيه، والحرارة التي بدت على وجنتيه، وانفراج شفتيه على أنه يصدق كل شيء يقوله قلباً وقالباً. لحسن الحظ، تغلبت على خوفي بينما كان يروي القصة، واستعاد عقلي سيطرته على جسدي مرة أخرى.

"إنني آسفة يا سيد فيدان، ولكن ما تقوله لا يدعم ادعاءك بأن شمس سافر عبر الزمن سبعة قرون ليرتكب جريمة قتل الآن".

نظر مينان حوله وكأنه على وشك أن يفشي سراً مهمًّا جداً، وهمس قائلاً: "ليس الأمر متعلقاً بجريمة القتل، فقد عاد شمس ليحميك أنت".

اجتاحتني موجة أخرى من الذعر، بينما التزم مينان الصمت وهو بانتظار أن أستوعب ما قاله.

ثم حاول مرة أخرى بصوت أعلى قائلاً: "يجب عليك أن تقدري ما يعنيه هذا. فالآلاف من الناس في قونية مستعدون لبذل الغالي والنفيس في سبيل الحصول على فرصة كهذه، ولكنها أتت إليك بنفسها. فلا تتراجعي، بل دعي شمس يساعدك".

لم يتحدث بأسلوب مهين، ولم يقصد بكل تأكيد أن يكلمني بقلة احترام، ولكنني انزعجت من كلامه على أية حال.

قلت له محاولة أن أبدو واثقة من نفسي: "إنني لست بحاجة بالفعل إلى أية مساعدة، ما لم يكن بوسع شمس أن يخبرنا إن كان الحريق الذي اندلع في الفندق عرضياً أم مفتعلاً".

سمعت صوت شمس يتردد في ذهني وهو يقول: "ليست الحقيقة ما تسعين إليه في ذلك الحريق بل المال، ولكن الحقيقة أغلى من المال بكثير".

قال مينان وكأنه سمع ذلك الكلام أيضاً: "إن حقيقة شمس أعظم بكثير من الحقيقة الكامنة وراء اندلاع الحريق. لست أدري ما الذي يريد أن يساعدك به، ولكن تعرض إطار السيارة للثقب أمام ضريح شمس ليس مجرد مصادفة، وكذلك الأمر بالنسبة إلى إعطائك الخاتم". لمعت عيناه، وبدأت قطرات العرق تتقاطر بين حاجبيه وعلى وجنتيه، ولكنه تجاهلها وواصل كلامه قائلاً: "كلا يا سيدة غرينوود، ليس ما سال من الخاتم مجرد طلاء. فأنا واثق تماماً أنه دم. وليس قطع يد ذلك الرجل اليسرى وإقحامها في فمه مجرد مصادفة، فقد سرق اللص الخاتم الذي أعطاك إياه شمس،

وفعل ذلك في المكان نفسه الذي التقى فيه شمس رومي للمرة الأولى. أيمكنك أن تتخيلي انتهاكاً أكبر من ذلك لحرمة ذلك المكان؟ أتظنين أن شمس التقي سيغض الطرف عن ذاك الانتهاك؟".

وجدت حجته مقنعة. ولكن، بالرغم من أنه رتب الأحداث بشكل متسلسل وذكي تماماً، فقد ظل أساس نظريته وهمياً وخالياً من المنطق، لذا شعرت أنني مجبرة على دحض حجته.

"لنفترض أن كل هذا صحيح. لنقل إن درويشاً كان يعيش قبل سبعمائة سنة يحاول أن يساعدني. مع ذلك، أنت حتى الآن لم تشرح لي أي دافع محتمل يدفعه لتقديم هذه المساعدة لي. من أنا بالنسبة إليه؟ إنني مجرد امرأة حضرت إلى هنا قبل يومين فقط. وأنا لست مسلمة أيضاً".

"إن والدك هو بويراز أفندي. وهو مولوي، كما أنه غادر مأوى الدراويش وذهب إلى لندن، ولا نعرف ما حل به بعد ذلك، ولكن...".

هذا لا يصدق! ها قد بدأ الآن يعرض لأشياء لا تخصه.

"ليست لوالدي أية علاقة بهذا".

تدفقت الكلمات من فمي بغضب وجدّيّة، ولم يكن من الممكن ألاّ يلاحظ مينان ذلك - رغم شدة استغراقه بالموضوع - ولكنه وجد في نفسه الوقاحة الكافية لكي يواصل إقناعي.

"ولكن، لكي نفهم ما جرى...".

أمرته قائلة: "هذا يكفي! من فضلك، أبعد والدي عن الموضوع".

ساد الصمت لوقت طويل، ثم قال مينان بلطف وهو يحاول أن يكتشف الخطأ الذي ارتكبه: "إنني آسف. لم أقصد أن أسيء إليك".

وبخته قائلة: "ولكنك أسأت إليّ فعلاً. فقد جعلتني أضيع أفضل وقت في صباحي وأنا أصغي إلى قصصك الخرافية السخيفة، ولكن هذا يكفي. لا يحق لك أن تقحم عائلتي في هذه المواضيع. إنه والدي. ما الذي تستفيده من التحدث عن شخص لا تعرفه؟".

التزم مينان الصمت؛ وكأنه معقود اللسان، ثم ابتلع ريقه بصعوبة وقال: "إنني آسف، لم أقصد أن أسيء إلى والدك أو أزعجك".

أجبته بعناد قائلة: "ولكن هذا ما حدث". أثار ذكره لوالدي حفيظتي، ولكن ما أثار جنوني أكثر هو جرُّه كوابيسي إلى وضح النهار لكي يثبت نظرياته، وتوقعه أن مخاوفي ربما لها أساس في الواقع.

اتهمته قائلة: "إنك تعرض الأشياء التي تتمنى أن تكون حقيقيّة كما لو أنها وقائع فعلية. أصغ إليّ يا سيد فيدان، إنني أحترم معتقدات الناس

طالما أنها لا تُفرض على الآخرين. ولكن ما حدث ليست له أية علاقة بشمس. فهذا غير ممكن على الإطلاق. إياك أن تذكر هذه الأمور بحضور رجال الشرطة وإلا فسيظنون أنك مجنون".

أوشك أن يعترض مرة أخرى، ولكن موظف الاستقبال ظهر في تلك اللحظة حاملاً صينية الشاي، وعلى وجهه تعبير متجهم. وحالما رآه مينان هدأ تماماً. على أية حال، لم يتبقَ لديه أي شيء يقوله بعد أن أدرك أنه لم يعد بوسعه أن يقنعني، فأخفض رأسه ونظر إلى حضنه متأملاً الكتاب الذي يبلغ عمره سبعمائة سنة ثم أغلقه.

"لا ترتكب خطأ، فالحكم حكمه"

عندما عدت إلى غرفتي، نظرت من النافذة، ووجدت المكان لا يزال مظلماً في الخارج. لم تكن الشمس قد ظهرت من بين الغيوم الرقيقة بعد. أما مينان، فبعد أن قال إنه ينوي أن يمر على مقر الشرطة بحلول الساعة العاشرة غادر الفندق. ولو أنني تركت القرار له، لأمضينا الساعات القليلة التالية ونحن نناقش موضوع شمس. كره مينان أن يفقد فرصته في التحدث؛ فالمعجزة التي قرأ وسمع عنها من مصادر مختلفة على مدى السنوات - رغم أنه لم يحظ بالفرصة لكي يشاهدها شخصياً - تجسدت فجأة في ضيفته القادمة من لندن. لا بد أنه يصدّق ما قاله قلباً وقالباً، وإلا فما الذي دفعه للبحث طوال الليل بين صفحات كتاب عمره سبعمائة سنة؟ لا بد أنه بدأ بقراءة ذلك الكتاب المسمى أعمال العارفين بالله حالما وصل إلى البيت. وعندما قاطعته زيارة المحقق راغب، لم يعد قادراً على السيطرة على نفسه، فاتصل بي حالما غادر المحقق والمفتشة. لا بد أنه تعيس جداً الآن؛ فقد قلت له: "اذهب ونل قسطاً من النوم". ولكن كلماتي لم تلاق قبولاً لديه، لذا أفترض أنه توجه إلى مكتبه مباشرة ليبدأ التنقيب مرة أخرى عن أدلة جديدة بين صفحات الكتاب، أو للاسترشاد ربما ببعض المصادر الأخرى التي قد تدعم نظريته. لم أستطع أن أنسى تلك النظرة المجنونة في عينيه المحمرتين من قلة النوم. ومع ذلك، توجب على الرجل أن يحاول على الأقل التشبث بسلامته العقلية...

انظروا من يتكلم! على الأقل، تحدث مينان عن صفحات في كتاب تاريخي قرأه. أما أنا، فقد عشت أحداث التاريخ بحذافيرها في أحلامي. توجب عليّ أن أسيطر على أعصابي، وأتقبل أن كل هذا ليس أكثر من مجرد سلسلة من المصادفات. ولو لم يكن مينان مهووساً إلى هذا الحد بقصصه، لاستطاع ربما أن يدرك إمكانية تورط شركة إيكونيون للسياحة بحادثة الليلة الماضية. الآن، تشكلت في ذهني نظرية جديدة على النحو التالي: تتعرض خبيرة شركة تأمين أجنبية في مدينة لا تألفها للسرقة، والهدف من وراء ذلك إخافتها وإبعادها عن النبش عميقاً للتأكد من إمكانية أن يكون الحريق مفتعلاً، ودفعها لكي تضع سلامتها على حساب خسائر شركتها المحتملة وتعود إلى بلادها من دون تأخير. وبالرغم من أنني ما زلت لا أعرف سبب امتلاك مينان سيارة مرسيدس جديدة، فقد بت الآن على قناعة تامة بأن مينان نفسه لا يد له في أية خطة من هذا النوع.

فكرت في ما قاله عن شمس. فحتى أحمد إفلاكي، وهو من أتباع المولوية أيضاً، كتب عنه الكثير من القصص التي تثير العجب. أيمكن أن يكون شمس رجلاً قاسياً إلى هذا الحد؟ أظن أنه ليس من الممكن أن نعرف الحقيقة فعلاً. فروايات الكاتب ليست مبنية على تجاربه الخاصة، بل على روايات غير مباشرة. ومن الطبيعي أن تكون كتاباته متأثرة أيضاً بمشاعره غير الحيادية حيال الموضوع. من المستحيل فعلاً التفريق بين الأحداث الحقيقية وتلك التي من نسج الخيال.

لقد لعب شمس دوراً شديد الأهمية في حياة المولوي، لذا لم يسعني إلا أن أستغرب من عدم دفنهما في الضريح نفسه. شعرت أنه قد تم طرد هذا الدرويش، بالرغم من قربه الشديد من رومي - أكثر من عائلته - من قِبَل شخص يريد الادعاء بأن لا وجود له على الإطلاق. والأهم من ذلك، أن القبة الخضراء التي تزين ضريح رومي بدت موقرة ومحترمة كما لو أنها عمل فني متقن، في حين أن الضريح المتواضع الذي ووري فيه شمس بدا مدفوناً ومنسياً بين أبنية الحي الأشد ارتفاعاً وتفاهة. لماذا فعلوا هذا به؟ ترى، هل تورط بارتكاب عمل مشين في الأيام الأخيرة من حياته؟ هل ألحق الأذى بأحد أفراد عائلة رومي؟ راودتني أسئلة كثيرة حول الرجل؛ أكثرها أهمية هو سبب وفاته في المقام الأول. ترى، كيف انتهت حياة ذلك الشخص الغامض؟ شعرت بالانزعاج وأنا أتذكر أن هذه هي المرة الثانية التي أطرح فيها هذا السؤال على نفسي، في حين أن الحصول على الجواب سهل جداً؛ إذ يمكنني تشغيل جهاز الكمبيوتر، والسماح لمحرك البحث غوغل بتقديم الجواب بلمح البصر، ولكنني لم أستطع أن أستجمع قوتي الآن للقيام بذلك. نظرت إلى الساعة ووجدتها تشير إلى السادسة وثلاث وعشرين دقيقة. ألقيت نظرة خاطفة على سريري المرتب على عجل. وبالرغم من أنني أدركت أنني بحاجة إلى نيل قسط من النوم، إلاّ أنني لم أشعر بالرغبة بالاستلقاء، وشعرت بألم في رأسي ورقبتي، وبأن عيني تحرقانني. فكرت في أن حماماً ساخناً سيفيدني. لم أجد حوض الاستحمام راقياً جداً، ولكنه سيفي بالغرض. فتحت صنبور الماء الساخن والبارد، وبعد أن عدلت درجة الحرارة، تركت الماء يتدفق من الصنبور ليملأ الحوض. وبينما كنت أخلع سروالي، لاحظت وجود كدمة على فخذي اليسرى قرب عظم الورك. وحين لمستها، شعرت بألم حاد يخترق جسدي كالسكين. التفت بلطف، ونظرت إلى ظهري في المرآة، فرأيت بعض الخدوش، ولكن لا شيء خطير. ولو سقطت سقطة أشد لآذيت رأسي، ولتعرّضت لارتجاج في المخ. التفت

ونظرت إلى بطني، وخطر ببالي أنني كدت أتعرض لخطر فقدان الجنين، ولكنني لم أشعر بأي ألم أو نزيف. وضعت يدي على بطني، فلم أشعر بأية حركة أو أي إحساس يدل على وجود حياة، ولكنني أدركت أن الجنين موجود. وللمرة الأولى، تساءلت: كيف سيبدو شكله عندما يولد؟ أدركت أن هذا الطفل سيولد ليصبح شخصاً طيباً، وأننا سنربيه تربية حسنة، وسنجعله من أفضل الناس على هذه الأرض البائسة. ولكن، كيف يمكنني أن أتحلى بكل هذه الثقة؟ من المحتمل أن يصبح من أولئك الناس الأنانيين الذين تمقتهم أمي أشد المقت، أو أن يتحول إلى شخص متكبر أو عنيد لا يحتمل سماع آراء الآخرين، أو أن يظن أنه مركز الكون. ما الذي أفكر فيه؟ إن معظم الأمهات الحوامل لا يتساءلن في هذه المرحلة إلاّ عن جنس المولود... ولكن هذا التفكير هو ما جعلني ابنة أمي بلا شك.

إذاً، هل هو صبي أم فتاة؟ هل سيشبهني أنا أم سيشبه نايغل؟ هل سيكون داكن البشرة، وهذا ما ستسر له أمي بالطبع؟ أم سيكون فاتح البشرة مثلي؟ من يدري؟ راحت تلك الأسئلة تدور في ذهني، ولكن لأجيب عنها، توجب عليّ أولاً أن أقرر الاحتفاظ به إلى موعد الولادة. ولكنني تذكرت أن هذا ليس قراري وحدي، وأنه يجب عليّ أن أدع نايغل يقول كلمته في الموضوع. ومع ذلك، عندما فكرت ملياً أدركت أنه سبق له أن اتخذ قراره. فقد قال إنه لا يريده، ووافقته على رأيه كالبلهاء أو يمكن القول إنني احتفظت برأيي لنفسي؛ والسبب في هذا يرجع إلى أنني لم أكوّن رأياً خاصاً بي بعد لأنني اضطررت لتأجيل التفكير بهذه المسألة في الوقت الحاضر. وأدركت أن ما يجب عليّ أن أركز عليه بالفعل حالياً هو كتابة تقريري لتتسنى لي مغادرة قونية والعودة إلى دياري.

أصبح الحوض نصف ممتلئ، فمددت يدي للتأكد من درجة حرارة المياه، ووجدتها مناسبة تماماً؛ فهي ليست باردة ولا ساخنة. جلست فيه، ثم تمددت على طوله مستمتعة بالماء الدافئ. تدفق شعور من الراحة من قمة رأسي إلى أخمص قدمي. تذكرت كيف اعتدت أن أدخل حوض الاستحمام مع أمي وأنا صغيرة. فقد كان لدينا حوض استحمام ضخم يتسع لثلاثة أشخاص صممه جدي قبل وقت طويل من اختراع الجاكوزي. اعتادت أمي أن تضع فيه كل شيء بدءاً من الخزامى وبراعم الليمون وأوراق الغار وحتى الأعشاب وأوراق الأشجار والجذور التي تجمعها من الخارج، ثم تطفئ الأضواء، وتشعل الشموع والبخور محولة حمامنا إلى غرفة للطقوس القبلية القديمة. لطالما ضحكت هي نفسها من جهودها المتواضعة. ذات مرة،

أخذت تشرح لي قائلة: "إن المياه تساعدنا على الاسترخاء؛ لأن الحياة كلها تنبثق منها. فبفضل المياه نستطيع أن نعود إلى أصلنا وإلى أحضان أمهاتنا. وهذا طقس احتفالي بهذه العودة". كنت أراقب شعر أمي الأشقر الطويل وهو يطفو على سطح الماء بإعجاب واحترام عظيم وكأنني أشاهد حورية من الحوريات. حتى لو ابتعدت عن أمي آلاف الكيلومترات كحالي الآن، يمنحني مجرد التفكير بها شعوراً بالأمان والسلام والرضا؛ وكأنني طفلة نائمة في حضن أمها. شعرت بالماء الدافئ يمتص كل آلامي وأوجاعي، كما شعرت باسترخاء وتخدر ممتع. أخذت أردد ذهنياً نغمات مقطوعة موسيقية لعازف جاز أمريكي تدعى: "الرحلة الأولى لرياح الجبال إلى الحديقة". تتحدث الأغنية بلسان الرياح عن زيارتها لإحدى الحدائق للمرة الأولى بأشجارها وأزهارها وأعشابها. أغمضت عيني، وتخيلت نفسي أطفو مع تلك الرياح، وشعرت أنني أمتطي أجنحتها الشفافة، وكأنني حبة طلع تنجرف بين الأشجار. فمررت بين أوراق السرو والصنوبر والجوز ذات درجات اللون الأخضر المتنوعة، وشعرت بنسيم رطب ودافئ يداعب وجهي. وعندما اقتربت من الأرض، وجدت مفاجأة مبهجة بانتظاري. فقد ظهرت أمام عيني زهور أقحوان وبنفسج صفراء وزهرية وأرجوانية وحمراء وبيضاء؛ كلها رقيقة جداً وجمالها يأخذ بالألباب. عندئذ، لاحظت سلحفاة تشق طريقها ببطء عبر العشب النضر. وعندما اقتربت منها، لاحظت صورة أقحوانة على الجانب الأيمن من قوقعتها، ورمز السلام على الجانب الأيسر، فاكتشفت أن تلك السلحفاة هي كورنيليوس التي أهدتها جدتي لأمي عندما بلغت الثامنة من عمرها لتلعب بها، فرسمت أمي رمز السلام على قوقعتها عندما عادت من رحلتها إلى الشرق حيث قابلت والدي، بينما رسمت أنا زهرة الأقحوان على جانبها الأيمن قبل أن يهجرنا والدي بوقت قصير. ولكن، ألم تمت تلك السلحفاة؟ ألم تدفنها أمي تحت الشجرة الضخمة في حديقتنا؟ انحنيت لأربت على القوقعة القاسية لهذه السلحفاة العجوز التي نعتبرها من أكبر أفراد عائلتنا سناً، فأخرجت رأسها الغريب لتلقي عليّ التحية وكأنها شعرت بيدي. وفي الوقت نفسه، رن صوت مألوف في أذني مردداً ترنيمة أطفال تذكرتها من زمن بعيد.

هم همهم هناك درويش
فتح الدرويش مأوى للدراويش
تنانيره الواسعة تتبعثر منها الأسرار
ولكن، لا أحد يعرف عنها شيئاً

هم همهم هناك درويش
رأسه يرقى إلى السماء العالية
ولحيته تلامس الأرض من تحته
ومن شفتيه تتناثر الأسرار
ولكن، لا أحد يستطيع أن يسمعها.

إنها أغنية الأطفال التي اعتاد والدي أن يغنيها لي وأنا طفلة لأنام. قالت لي والدتي إنني لم أنسها، وظللت أترنم بها لألعابي لأجعلها تنام، حتى وصلت إلى المدرسة الإعدادية. ولكن، من الذي يغنيها الآن؟ التفت لأنظر نحو الصوت، فالتقت عينان زرقاوان كالسماء الصافية عينيّ. ورأيت شعراً أشقر متموجاً يلمع في ضوء شمس الصباح.

همست قائلة: "صني! أهذا أنت حقاً؟".

قال لي من دون أن يرمش بعينيه: "هذا أنا. هل تظنين أنني نسيت أمرك؟".

لم يسعني إلا أن ألاحظ التأنيب اللطيف في نبرة صوته. رمقتني عيناه الزرقاوان بنظرة لسان حالها يقول إنني ربما نسيته، ولكن ذكراي لم تفارق خياله قط. شعرت بغصة في حنجرتي، وامتلأت عيناي بالدموع، فألقيت ذراعي حوله وعانقته.

"صني! اشتقت إليك كثيراً".

أجابني وهو يضمني بحنان: "وأنا أيضاً".

لم يعد صديقي الخيالي مجرد طيف بل أصبح شخصاً حقيقياً له صوت وجسم حقيقيان.

قلت له عندما ابتعدنا عن بعضنا: "لم تتغير قط. ما زلت طفلاً جميلاً".

"أما أنت فقد تغيرت". وراح يتأملني من الأعلى إلى الأسفل، وتعبير وجهه متجهم، ثم قال: "إنك تشبهين أمك الآن. كنت تعجبينني أكثر من قبل".

فأدركت الآن أنني كبرت وأصبحت شابة بينما ظل صني، صديقي الأول وكاتم أسراري، كما كان في الماضي.

"ما الذي تفعله هنا؟".

"إنني بانتظارك".

"بانتظاري أنا؟ لماذا؟".

"لأنك طلبت مني هذا. ألا تتذكرين ذلك؟ كنا نلعب هناك قرب البركة...".

نظرت إلى المكان الذي أشار إليه صني. إنها حديقتنا! رأيت فيها بركة محاطة بالحجارة، وتنمو زهور زنبق بيضاء وصفراء على حافتها، وتسبح فيها

سمكة برتقالية صغيرة بين أعشاب البحر الخضراء. لطالما شكّلت تلك الحديقة ملعبنا السري، حيث اعتادت جوقة من الضفادع أن تردد كل مساء أغنياتها الصغيرة حالما يحل الظلام.

تابع صني قائلاً: "لقد استدعاك أبوك فتوجب عليك الذهاب، ولكنك قلت لي قبل أن تغادري: إياك أن تتحرك من هنا، سأعود في الحال. وهكذا، فأنا أنتظرك منذ ذلك اليوم".

شعرت بخزي شديد، فمددت يدي، وأمسكت بيدي صديقي الصغير، وقلت له بصوت مثقل بالندم: "إنني آسفة جداً يا صني. فقد نسيت أمرك".

ارتسمت على وجهه ابتسامة متسامحة وقال: "ليست غلطتك. فهذا يحدث لجميع الكبار. عندما يكبر الناس، فإنهم يفقدون الثقة بإحساسهم ومشاعرهم ويتوقفون عن تصديق أي شيء لا يلمسونه ويسمعونه ويشمونه ويتذوقونه، ويفقدون قدرتهم على التخيل، ويظنون أن العجائب لا يمكن أن تحدث بعد الآن. وأنت لست مختلفة عنهم".

لفتت انتباهي بلاغة كلامه، فقلت: "أين سمعت هذا الكلام؟".

توقعت منه أن يقول إنه قرأ هذا الكلام في الكتب التي أعطيته إياها، ولكن ابتسامة ارتسمت على وجهه وهو يقول لي بدلاً من ذلك: "من أحد أصدقائي، وهو كبير مثلك. إنه يسلي وحدتي في أثناء انتظاري لك".

"كبير! أتقصد أنه راشد؟".

"نعم، إنه كبير وراشد، ولكنه لم يفقد قدرته على التخيل قطّ".

بدأت كل مظاهر الغيرة تتحرك في داخلي فسألته: "من هو هذا الصديق!".

فقال لي بكل ثقة: "إنك تعرفينه من قبل. إن أردت التحدث إليه، فبإمكانك القيام بذلك".

وقبل أن ينتظر جواباً مني، أمسك بيدي وجرني وراءه نحو البيت. ترى، إلى من أراد أن يأخذني؟ أمي أم أبي؟ إن كان هذا صحيحاً، فلِمَ لم يخبرني إذاً؟

همس لي قائلاً: "إن اسم ذلك الرجل مرتبط بالشمس بالضبط كاسمي أنا؛ صني (أي مشمس)". شرع صني يلعب معي لعبة اعتدنا أن نلعبها قبل وقت طويل؛ حيث يفكر أحدنا باسم شخص ما نعرفه، ويحاول الآخر أن يخمن الاسم، بينما يعطيه الطرف الآخر تلميحات بين الحين والآخر. ترى، من هو الشخص الذي نعرفه واسمه مرتبط بالشمس؟ أهو أحد الأشخاص الذين اعتادوا العمل هنا في أثناء طفولتي؟ دعوني أفكر... هناك إيمل يوكيت وربما الحدائقي أليك العجوز.

فقلت له وأنا عاجزة عن حل اللغز: "إنني بحاجة لتلميح آخر. أهو شخص يعيش هنا في بيتنا؟".

التوت شفتاه في ابتسامة صغيرة، بينما راحت عيناه الزرقاوان تلمعان بسبب السر الذي يخفيه، وقال: "إنه هنا الآن".

"أين كان يعيش من قبل؟".

"لم يقل ذلك، ولكنه يعرفني ويعرفك حق المعرفة".

رجل نعرفه كلانا! إن هذا مثير للاهتمام. قد يعرفني أنا، ولكن من أين له أن يعرف صديقي الخيالي؟ لم أجد هذا الكلام منطقياً.

"أهو من أفراد عائلتي؟".

"كلا، ولكنه يعرف عائلتك حق المعرفة".

رفع إصبعه ببطء في الهواء وقال: "يجب أن أحذرك. لم يعد يحق لك سوى بسؤال واحد".

"ماذا تقصد؟".

فسألني وهو يبدو خائب الأمل: "هل نسيت؟ يحق لك بخمسة أسئلة فقط في هذه اللعبة".

نعم، كان على حق. وتذكرت أنني أنا التي وضعت هذه القاعدة في المقام الأول.

كذبت عليه لئلا أخيب أمله وقلت: "بالطبع لم أنس. حسناً، السؤال الأخير؛ قلت لي إنه يعرفنا، ولكن هل اعتاد أن يلعب معنا؟".

أخفض بصره لئلا يفضح وجهه الجواب، وقال: "نعم، ولكن مع كل واحد منا على حدة".

"ماذا تعني بكل واحد على حدة؟".

"لم يلعب معنا كلينا في الوقت نفسه، ولكنه لعب معك ولعب معي".

"أتقصد أننا نحن الثلاثة لم نلعب معاً قط؟".

فأومأ برأسه المكسو بالشعر المجعد.

لم يشكل أي من الأسئلة التي طرحتها عليه أية مساعدة لي. فلم أستطع أن أتصور وجه ذلك الشخص، ولم يخطر أي اسم ببالي. وبينما نحن نمر عبر ممرات البيت الضيقة، أدركت أنني خسرت اللعبة.

فقلت وأنا أهز كتفي: "حسناً، إنني أستسلم. أخبرني من هو".

تألق وجهه بسعادة وقال: "لن أخبرك. يجب أن تريه بعينيك".

اكتشفت أنّه من العبث الاستمرار بالالحاح عليه. إذ إن هناك قاعدة أخرى تقضي بأن اللاعب لا يتوجب عليه أن يقول شيئاً للاعب الخاسر. وهكذا،

بات يحق لصني أن يخبرني أو يريني ما يريده أو ألاّ يفعل ذلك أبداً.
واصلنا المشي إلى أن وصلنا إلى مكان فيه بابان مقابلان لبعضهما في أحد الممرات؛ أحدهما إلى اليمين ويؤدي إلى غرفة نومي، والثاني إلى اليسار ويؤدي إلى الوكر الذي اعتاد والدي وشاه نسيم أن يعتكفا فيه معاً. ظننت أننا سندخل غرفتي، ولكنه فاجأني بفتح الباب المؤدي إلى غرفة والدي بدلاً من ذلك. وبعد أن كان الضوء خافتاً في الممر، تدفق ضوء الشمس عبر الباب المفتوح وبهر بصري رغم أن صني لم يتأثر به. ميزت شخصاً جالساً على إحدى الوسائد أمام رفوف الكتب متربعاً؛ في مكان جلوس شاه نسيم المعهود، ولكنني لم أستطع أن أتبين ملامح وجهه بشكل واضح لأن عيني لم تعتادا على الضوء بعد. جذبني صني من يدي وأخذني لأواجه الشخص الجالس.
قال صني موجهاً كلامه إلى الرجل: "لقد أحضرت لك كارين". كانت كلماته بغاية البساطة، ولكن نبرة صوته دلت على وجود مشاعر لم ألاحظها لديه من قبل. تابع قائلاً: "الآن، يمكننا جميعاً أن نلعب معاً".
بحلول الوقت الذي أنهى فيه صني جملته، اعتادت عيناي الضوء، فرأيت الشعر الأسود المتموج والعينين الكحيلتين واللحية السوداء والملابس السوداء والرجل الجالس أمامي بوضوح تام. فقد جلس أمامي على وسادة شاه نسيم شمس التبريزي بشحمه ولحمه.
قال لي وهناك نظرة عابثة في عينيه السوداوين: "مرحباً يا كيميا. إذاً، ألم تستطيعي أن تخمني من أنا؟".
تمتمت بفزع قائلة: "أنت! ماذا تفعل هنا؟".
ابتسم لي وهو يربت على لحيته وقال: "هل نسيت؟ أنت من استدعيتني".
ففقدت صبري وقلت له بحدة: "كلا. أنا لم أستدعك قط".
وعندما التفت نحو صني ووجّه إليه كلامه، لم يحمل وجهه أياً من مشاعر الغضب أو الإهانة.
"ما الذي تقوله كيميا يا صني؟ ألم تستدعني؟".
لم أدع صني يجيب، بل قلت: ""إياك أن تورطه في هذا. إنه لا يشبهك في شيء".
أبعد يده اليمنى عن لحيته وقطّب حاجبيه الكثين، وسألني وقد بدأ يستشيط غضباً: "إذاً، أخبريني، كيف أنا بالضبط؟".
أجبته مدافعة عن نفسي: "إنك تعرف ما أقصده. ما الذي فعله ذلك اللص كي يستحق الموت؟".

اختفت الحدة من عينيه وحل محلها شعور بالحزن.
"كالعادة، أنت لا تفهمين شيئاً. فهناك ستارة تحجب الحقيقة عن عينيك".
ضقت ذرعاً بمزاحه. إذ كلما طرحت عليه سؤالاً، لم يجب عنه بشكل مباشر. فإما أنه كان يجدني غير مستعدة لسماع الحقيقة، أو يعتبرني مجرد امرأة فاشلة لا تستطيع أن تدرك ما تراه حولها.
"كلا، إنني أؤكد لك أنني أفهم كل شيء. لقد قتلتَ ذلك الرجل هكذا بدم بارد".
نظر إلى الفضاء وكأنه لا يتحدث إليّ بل إلى مخلوق خفي قائلاً: "الله هو الذي يخلق الناس وهو الذي يسلبهم حياتهم. إنه يحب العدالة، والحكم حكمه هو".
"كلا، أنت من أصدرت الحكم وأنت من نفذته. هذا ليس حكم الله".
لم يشعر بالإهانة ممّا قلته، أو يظهر شعوراً بالذنب أو الخزي.
وقال وهو ينسحب إلى أعماقه وكأنه يصلي: "الله هو الأصل، وهو خالق كل شيء وعالم الغيب. ولو لم يكن هناك خير في موت ذلك اللص، لما سمح الله بحدوث ذلك".
"إنني أعرف أن الرب إله التسامح وليس إله العقوبة. لطالما تعلمنا أنه يحب الخير".
حدقت عيناه السوداوان العاجزتان مرة أخرى إلى عيني وقال: "... إن الله يعاقب كما يرحم ويغفر. لا يمكن لأحد أن ينزل عقوبة أشد من عقوبته عندما يتطلب الأمر ذلك".
"هل تحاول إخافتي؟".
"لن أخيف أبداً شخصاً بحاجة إليّ...".
فقاطعته قائلة: "للمرة المائة أكرر لك أنني لست بحاجة إلى مساعدتك. كف عن قول هذا".
"لو كان هذا صحيحاً، فلماذا استدعيتنا إذاً".
"ماذا تقصد باستعمالك صيغة الجمع هنا؟".
ارتسمت ابتسامة طفولية على وجهه وقال: "أنت مخطئة. لست وحدي هنا. فهناك صني". والتفت إلى صديقي الخيالي وقال: "أليس هذا صحيحاً؟".
نظرت إلى صني وتسمرت في مكاني من شدّة الدهشة. فقد رأيت لون جلده يتحول إلى لون داكن وخصلات شعره المتموجة تصبح فاحمة كريش الغربان وعينيه الزرقاوين تصبحان بلون العنب الأسود.
قال صني وتعبير وجهه كتعبير وجه شمس الحقود: "نعم، أنت استدعيتنا".

"كلا، لم أفعل". وخرجت الكلمات من فمي مكتومة. وبدأت أشعرت بالغثيان وأنا أجهد نفسي لأتكلم، وقلت: "لا أعرف ما حدث، ولكنني لم...".
شعرت بأنني أكاد أختنق وجسدي مغمور بالماء. حاولت أن أرفع رأسي، ولكنني انزلقت وغصت إلى الأسفل مرة أخرى. وأخيراً، تمكنت من القبض على جانبي حوض الاستحمام فسحبت نفسي وخرجت من الماء. أخذت أسعل بشدة حتى تقيأت، ثم سعلت أكثر قبل أن أبصق الماء الذي ابتلعته. نهضت من الحوض وجلست، ثم حاولت التقيؤ لعدة دقائق إلى أن تعافيت. وعندما رأيت وجهي الشاحب كالأشباح في المرآة، استطعت بالكاد أن أمنع نفسي من الضحك لغبائي. فقد أوشكت أن أسجل رقماً قياسياً بين الضحايا الأكثر حماقة في العالم بالكشف عن براعتي في الغرق بحوض الاستحمام.

تنفيذ الشريعة الإسلاميّة
بعد أن قدمنا إفادتنا المكتوبة في المخفر، أشار المحقق راغب إلى مغلف أصفر على الطاولة وذكّر زينب قائلاً: "توجد في هذا المغلف ثلاثمائة جنيه استرليني وثمانمائة وعشرون ليرة تركية. دعي السيدة غرينوود تعدها ثم توقع وصل الاستلام".
أجابت زينب وهي تسحب المغلف قائلة: "بالطبع يا سيدي. هل ستغادر؟".
نظر المحقق إلى مرؤوسته، وكأنه يطلب تعاطفها، ثم قال: "ينبغي أن أنال قسطاً من النوم يا زينب. فأنا خائر القوى". ثم التفت إليّ وابتسم قائلاً: "لقد اعتدت أن أعمل بشكل متواصل لمدة ثلاثة أيام من دون أي كلل أو ملل. والآن، لا أستطيع أن أعمل لأربع وعشرين ساعة متواصلة. لا بد أنني أتقدم في السن". ثم شد قامته، وقال: "على أية حال، ستهتم بك المفتشة زينب. أما أنا، فسأعود مساء اليوم. أراكم جميعاً لاحقاً".
وبينما جر المحقق راغب جسده الضخم عبر الباب، فتحت زينب المغلف وتفقدت محتوياته ثم سلمتني إياه.
"تفضلي يا سيدة غرينوود. عدي النقود من فضلك". بدت زينب أكثر جمالاً من الليلة الماضية. فلا بد أنها ذهبت إلى بيتها، وغيرت ملابسها قبل أن تعود إلى المخفر. فقد رأيتها الآن مرتدية كنزة ليلكية اللون تحت سترتها الجلدية السوداء وسروالها الجينز الأزرق، ومنتعلةً حذاء مسطح الكعب، ولم يظهر أي دليل على التعب على وجهها. نظرت إليّ عيناها البنيتان الواسعتان بحكمة من تحت حاجبيها الرقيقين، ودلت حركاتها البسيطة على ثقتها بنفسها. وبينما كنت آخذ المغلف، تابعت كلامها بإعجاب قائلة: "لاحظت وجود خاتم أيضاً. إنه خاتم جميل. هل اشتريته من هنا أم من لندن؟".
عندما ذكرت زينب موضوع الخاتم، التقت عينا مينان عيني. فكرت في سرّي أنه سيبدأ الآن بسرد قصة من قصصه الغامضة الغريبة، ولكنه أشاح ببصره عني بعد أن قرأ أفكاري في عيني. بدا على زينب أنها شعرت بشيء ما، ولكن قبل أن تتسنى لها الفرصة لفهم ما يجري، أجبتها قائلة: "إنّه من هنا في قونية. من أحد متاجر التذكارات قرب ضريح رومي".
لم يقنعها كلامي على ما يبدو، وقالت: "حقاً؟ إنه يبدو أكثر تميزاً من ذلك؛ وكأن من صنعه بذل جهداً كبيراً لإتقانه".
نظرت إلى داخل المغلف، فوجدت الخاتم الفضي مدفوناً ببراءة بين الأوراق

النقدية التركية والإنكليزية المهترئة. خشيت أن ينزف الخاتم أو أن يسيل طلاؤه مجدداً أمام زينب، لذا طويت المغلف بسرعة ودسسته في جيبي.
علقت زينب بأدب قائلة: "لم تعدي النقود".
"إنني على يقين من أنها موجودة كلها. فأنا أثق بالشرطة".
ارتسمت ابتسامة جميلة على وجهها النحيل، وقالت: "شكراً لك. لا يسعني قول الشيء نفسه عن مواطنينا، لذا...".
بدا على مينان أنه يحاول أن يصرف عن نفسه الإنهاك الذي أصابه من الليلة الماضية؛ فتململ على كرسيه وقال: "لا تقولي هذا يا مفتشة زينب. إن هذا ليس صحيحاً. فقوات الشرطة عزيزة جداً علينا".
لم تقتنع زينب بهذا الكلام، ولكنها في الوقت نفسه لم تعترض، بل قالت: "آمل أن يظل شعوركم هكذا دائماً".
حتى لو بدت عينا مينان المرهقتان غير مقنعتين، إلاّ أنه حاول أن يتحلى بالثقة بالنفس.
أصر وهو يرفع صوته قائلاً: "بالطبع سنظل كذلك". لا بد أنه ظن أن الصوت الأعلى مقنع أكثر، لذا أضاف قائلاً: "إن الشرطة إلى جانبنا دائماً بإذن الله".
شكرته زينب ثم التفتت إليّ وقالت: "هلا توقعين على هذه من فضلك. يجب علينا أن نوثق أن أشياءك قد عادت إليك".
تنهدت وسألتها: "ماذا عن جواز سفري؟ هل هناك إمكانية بأن يظهر؟ أم ينبغي عليّ أن أبدأ بإجراءات الحصول على جواز سفر آخر".
فقالت وهي تُعيد شعرها الداكن إلى الوراء: "لسوء الحظ، لم نعثر عليه بعد يا سيدة غرينوود. لم نجده في بيت الضحية. فقد أجريت ذلك البحث بنفسي ولم أجده هناك. قد يكون بحوزة القتلة".
تدخل مينان قائلاً: "لماذا قد يحتفظ القاتل به؟". بدا عليه أنه تعافى من الذهول الناجم عن قلة النوم، ثم أضاف: "أليس من الحكمة أكثر أن يتخلص منه؟ أي أن يتخلص من الدليل الذي يثبت تورطه بالجريمة؟".
بدا سؤاله منطقياً إلى حدٍّ كبير. بدأت ألاحظ أن وكيلنا هذا كان يأتي بين الحين والآخر بأفكار تثبت أنه ليس غبياً بقدر ما يوحي به مظهره في بعض الأحيان.
وافقت زينب زميلي الرأي محدقة إليه بعينيها الجميلتين قائلة: "أنت على حق. إن الاحتفاظ بجواز السفر يشكل مخاطرة بالطبع، ولكننا لا نعرف بالضبط هوية القتلة، لذا من الصعب أن نعرف بالضبط ما الذي يحفز

أفعالهم".
كررت زينب استخدام كلمة "القتلة" مرة أخرى. ترى، هل كانت هذه الشرطية تعرف معلومة ما وتخفيها عنا؟
"لقد لاحظت يا مفتشة زينب، أنك ذكرت مرتين أن الفاعل قد يكون أكثر من شخص واحد. إذاً، لا بد أن لديك معلومات عنهم إن لم يخب ظني".
رمقتني بنظرة تآمرية وقالت: "لدينا سبب يدفعنا للاعتقاد أن جريمة قتل كامل الأعسر هي الحادثة الأخيرة في سلسلة من الجرائم".
ماذا؟ إذاً، ليس شمس التبريزي هو القاتل؟ ألم يقطع سبعمائة سنة عبر الزمن ليساعدني؟ لم أود أن أفقد متعة اللحظة، فالتفت إلى وكيلنا، ولكنني أخطأت التقدير. فبدلاً من أن ينكس رأسه بخيبة أمل، واصل مينان الحديث وقال: "إذاً، هناك مشتبه بهم". ولمعت عيناه الخضراوان؛ بالضبط كما حدث صباح اليوم عندما كشف لي أن شمس التبريزي هو القاتل، ثم قال: "هل تلاحقونهم؟".
رفعت المفتشة زينب يدها اليمنى بلطف، وقالت لتذكرنا بأنه لا يجب علينا أن نتجاوز حدودنا: "لست مخولة بأن أذكر هذه المعلومات. ومع ذلك، هناك أشياء مثيرة للاهتمام حدثت في هذه المدينة على مدى الأشهر الستة الماضية. فعلى بعد كيلومترين من طريق قونية-أفيون، تم العثور على رجل وزوجته يعملان بالنصب والدعارة ميتين في مقلع حجارة. وقد قتلهما المجرمون رجماً بالحجارة حتى الموت، ثم تركوهما هناك وحولهما الحجارة الملطخة بدمائهما؛ وكأنهم يريدون أن يؤكدوا على فعلتهم".
أضاء وجه مينان. فقد أخذ على الأرجح يتوصل إلى شتى الاستنتاجات حول شمس، ويتخيل ربما أنه أنشأ عصابته الخاصة ليرتكب جرائمه المتسلسلة.
قال مينان بلهجة العارف: "هذا رجم. إنها عقوبة الرجم حتى الموت".
"هل وقعت جرائم قتل أخرى؟". توجب عليّ أن أتدخل قبل أن ينحرف مينان بالموضوع عن مساره، ثم قلت: "أعني جرائم ذات مدلولات دينية؟".
"حسناً، هناك من أشعل حريقاً في إحدى الحانات، فأصيب ثلاثة أشخاص، أحدهم إصابته خطيرة".
شحب وجه مينان لدى سماعه ذلك. وبينما كنت أتمنى في سرّي لو لم أحضره معي، قالت زينب: "هناك بعض الحوادث الأخرى المشابهة لذلك. لذا، قد تكون جريمة قتل كامل الأعسر من صنع جماعة متطرفة".
لم أجد أي منطق يدفع الجماعات المتطرفة لملاحقة أحد نشالي الحقائب، فسألت زينب: "لماذا قد تفعل ذلك؟ أي أذى تسبب به كامل لها؟".

"لا بد أن أفراد تلك الجماعة يرون أنفسهم منفذين للشريعة. على الأقل، هذا ما يمكن معرفته من خلال الأعمال التي قاموا بها في الآونة الأخيرة. يبدو أنهم يعاقبون أولئك الذين ينحرفون عن الطريق السليم وفقاً لمبادئهم الدينية".

أضاف مينان قائلاً: "ليحذروا الآخرين". بدأ زميلي يدلي بملاحظاته الخاصة وهو غير قادر على التزام الصمت في موضوع يهمه إلى هذا الحدّ، فأضاف قائلاً: "وليحموا الأبرياء أيضاً".

تابعت زينب قائلة: "إنهم يستهدفون المجرمين المشهورين في المجتمع لكي ينشروا الخبر بين الناس، ويتركوا انطباعاً قوياً لدى العامة؛ ولهذا السبب على الأرجح اختاروا "كامل" الأعسر".

وجدت ذلك خياراً غريباً، فسألتها: "هل كامل الأعسر سيئ السمعة إلى هذا الحدّ؟".

"ليس كنشال حقائب". اتكأت زينب على مرفقيها وانحنت إلى الأمام، فتساقط شعرها على وجهها ولكنها تجاهلته هذه المرة، وقالت: "صحيح أن الأعسر اشتهر كنشال موهوب جداً؛ ليس فقط لأنه أعسر، ولكن لأن يده اليسرى شديدة الصغر، وهذا ما سهل على القتلة حشرها داخل فمه بعد قطعها، ولكن السمعة السيئة التي اكتسبها كامل ليست لها علاقة بالنشل. فقونية تعرف أن "كامل" مجرم سفاح قتل أمه وأخويه".

قال مينان داعماً كلامها: "نعم... هذا صحيح. أتذكر ذلك الآن. فقد نشرت الصحف أخباراً عن تلك الجريمة لعدة أيام. هل ذلك الوحش هو كامل الأعسر؟ قيل إنه قتل أمه وأخويه بالساطور".

قالت زينب: "ثم أشعل حريقاً ليغطي آثار الجريمة. لقد قرأت أرشيف مقالات الصحف. قيل فيها إنه بكى بحرقة شديدة في الجنازة، وكاد أن يمزق نفسه من شدة الحزن، وعانى من وقت عصيب حتى هدأ روعه. فاتضح في ما بعد أنه تظاهر بالحزن ليصرف الانتباه عن نفسه".

رنت كلمات شمس في أذني مرة أخرى، وهو يقول: "هل لديك أية فكرة أي نوع من الأشخاص كان ذلك النشال؟". فأجبته بصمت قائلة: مع ذلك، لا أحد يستحق أن يقتل من دون محاكمة.

"ولكن، يبدو من كلامك أنه تم القبض عليه؟".

"بالطبع، تم ذلك بعد أقل من أسبوع على ارتكابه الجريمة؛ بعد أن توضح أنه القاتل. فاعتقل من قبل زملائنا الضباط، وتمت إدانته في المحكمة، وحكم عليه بالسجن مدى الحياة".

أصابتني الحيرة الشديدة، فنظرت إلى زينب ومينان الواحد تلو الآخر.
"إذاً، كيف خرج؟".
قالت زينب بصوت يدل على الإحباط: "تم إطلاق سراحه بعد أن حصل على عفو عام".
بدأ مينان يتعرق مرة أخرى، فأخرج منديله من جيبه وقال: "إن معظم أولئك السجناء الذين ينالون العفو يخرجون ليرتكبوا المزيد من الجرائم، ثم يعودون إلى السجن مرة أخرى".
فأعلنت زينب قائلة: "ولكن، هذه المرة كانت مختلفة. فكامل لم يرتكب المزيد من الجرائم. على الأقل، لا نعرف شيئاً عن أية جريمة ارتكبها".
جفف مينان جبينه، وقال: "لا تفهميني خطأ يا سيدة غرينوود، ولكن الحظ يلعب دوراً هنا. إذ مرت سنوات قبل أن يقرر الرجل أن يتابع جرائمه مرة أخرى. فكنت أنت أولى ضحاياه".
"ربما ليس هذا محض صدفة. ماذا إن تعمد كامل الأعسر أن يستهدفني أنا بشكل خاص؟". نظر كل منهما إليّ محاولين أن يتتبعا تسلسل أفكاري. فتابعت قائلة: "هل كان لدى كامل عمل ثابت؟ أعني لصالح من كان يعمل؟".
"حسناً... انتظرا قليلاً. دعاني ألقي نظرة على ملفه".
نهضت زينب وسحبت أحد الملفات الحمراء والزرقاء من على الرف خلفها ثم عاودت الجلوس خلف مكتبها مرة أخرى، وفتحت الغلاف، وراحت تقلب في الأوراق.
قالت من دون أن ترفع نظرها عن الملف: "لقد عمل سائقاً، ولكنه لم يعد مباشرة إلى قونية بعد أن تم إطلاق سراحه. فقد عمل هنا طوال السنة الماضية فقط. وقبل ذلك، عمل في أنقرة لعامين. لا نعرف ما هي المهنة التي زاولها هناك. فقد اتخذ لنفسه اسماً مستعاراً هو سليمان، كما أطلق لحيته وشاربه وصبغ شعره".
"بالطبع فعل ذلك. وأراهن أنه صبغ حاجبيه أيضاً. فكيف يمكنه الحصول على عمل إن ميز أحد شخصيته؟".
"على أية حال، لقد تمكن من ضبط أموره، واشترى حافلة صغيرة بمال حصل عليه من بيع قطعة أرض ورثها عن أمه، وهذا ما يدعو للسخرية. وبدأ يقود الحافلة على أحد خطوط المواصلات في قونية".
صاح مينان: "ماذا؟ هل تعنين أنه اعتاد أن يقل تلاميذ المدارس؟".
"كلا، بل السياح. فقد كان يأخذهم في جولات داخل قونية وحولها".

سألتها بانفعال: "حقاً؟! هل تعرفين لصالح أية شركة كان يعمل؟".
لاحظت زينب تغيير نبرة صوتي، فرفعت نظرها عن الملف، ورمقتني بنظرة فضول وكأنها تريد أن تعرف أهمية هذا السؤال.
"إن سبب حضوري إلى قونية في المقام الأول هو التحقيق في نشوب حريق في أحد الفنادق".
وضح لها مينان قائلاً: "إنه حريق فندق ياقوت. لقي شخصان حتفهما في ذلك الحريق".
جمعت زينب شعرها خلف رأسها، وانحنت وقالت: "هذا ما سمعته. كنت في إسطنبول عندما اندلع الحريق، ولكنهم تحدثوا عنه في الأخبار وقالوا إنه كان نتيجة حادث".
وعندما لاحظت تعبير وجهي الدال على الريبة، سألتني بفضول: "أليس كذلك؟ أم إنكم تظنون أنه حريق مفتعل؟".
قلت لها: "لسنا واثقين من ذلك". ولكن نبرة صوتي دلت على أنني أظن العكس، فتابعت قائلة: "إن لم يتضح أنه مفتعل، فسيتم تعويض مالكي الفندق بمبلغ قدره ثلاثة ملايين جنيه استرليني تدفعه شركتنا في لندن، وهنا تكمن المشكلة".
قالت زينب وهي تصفر: "ثلاثة ملايين جنيه استرليني! هذا مبلغ ضخم!". وأخذت ترفرف بعينيها وهي تقوم ببعض الحساب الذهني.
"حسناً، إن شركة إيكونيون للسياحة - وهي الشركة التي تملك فندق ياقوت - تريد أن تفتتح فنادق أخرى، وتخطط لتجديد بعض البيوت الأثرية لتجهيزها لاستقبال السياح الأجانب".
تفحصتنا زينب بنظرة خالية من التعبير وهي لا تزال مستندة على كرسيها، وقالت: "يبدو هذا مشروعاً مرضياً بما فيه الكفاية بالنسبة إليّ". بالرغم من أن تعبير وجهها لم يبد موحياً بالاستحسان، ثم قالت: "على الأقل، سينجم شيء جيد عن ذلك".
سألت بصراحة: "نعم. ولكن، هل تستحقّ التعويض؟ فإن ثبت أن الحريق عمل تخريبي، أصبح الحادث على قدر من الأهمية بالنسبة إليكم أيضاً بسبب الفاجعتين اللتين وقعتا".
سألتني بتحفظ قائلة: "ماذا يقول تقرير فوج الإطفاء؟".
"يقول إنه حادث".
"وماذا عن النائب العام؟".
"إنه يتفق معهم. وهكذا، فالدليل غير القطعي هو الذي يحكم هنا".

هزت كتفيها، وقالت: "إنني آسفة، ولكن في هذه الحالة لا سبب يدفعنا لنعتقد أنه أي شيء غير ذلك. ولهذا، فالمسألة ليست ضمن نطاق تخصصنا".
فأصررت بتفاؤل قائلة: "ماذا إن عثرت على دليل أو شاهد أو تلميح ما؟".
ضحكت بلطف وقالت: "عندئذ، سنتحدث مرة أخرى. ومع ذلك، من غير الصواب أن نقول في الوقت الحاضر إن مالكي الفندق سلطوا "كامل" الأعسر عليك لمجرد أنك تجرين تحقيقاً معهم".
أمسكت عن الكلام وكأنها توقفت عند أحد التفاصيل، ثم مدت يدها وأخذت قلماً وقالت: "في كل الأحوال، ما اسم تلك الشركة؟ فسوف أبحث في الموضوع".
قلت لها وأنا ألفظ كل مقطع بكل وضوح: "شركة إيكونيون للسياحة، واسم مالكها ضياء كويومكوزاد".
وبينما كانت تدوِّن الاسم بسرعة، لم يستطع مينان أن يقاوم التدخل فعلق قائلاً: "لا أعرف إن كان السيد كويومكوزاد مذنباً بأي عمل، ولكن هناك شاباً آخر اسمه سيرهاد غوكوز. إن شخصية ذلك الشاب غامضة، هذا إن وجدت أنه يتمتع بشخصية أصلاً".
فنظرت زينب إلى زميلي، وقالت وهي تبتسم: "حسناً، سأبحث في أمر ذلك المدعو سيرهاد غوكوز أيضاً".

"ليس حل لغز هذه الجريمة مهمتنا..."
لم نخرج من مقر الشرطة إلا بعد حلول الظهر. فشعرت بوهج الشمس الحاد أشد مما كان عليه في اليوم الماضي. لم أستطع حتى أن أتخيل ما سيبدو عليه الحال في شهور الصيف. فقد أصبح الجو شديد الحرارة منذ الآن. وبينما كنت أخلع سترتي وأحملها بيدي، شعرت بالحنين لأمطار لندن وسمائها الشاحبة. وفجأة، خطر ببالي أن أتصل بسايمون. فقد تذكرت أن خروجي من هذه البلاد مرهون بحل مسألة جواز سفري المفقود.
أعلن مينان فيما كنت أخرج الهاتف من حقيبتي قائلاً: "إن بيت قدير يقع في الشارع المجاور. يمكننا أن نذهب إلى هناك مشياً على الأقدام إن أحببت".
قلت: "حسناً، لنقم بذلك". وشعرت أن بعض الحركة سيفيدنا.
وبينما نحن نمشي، بحثت عن رقم سايمون في الهاتف، ثم ضغطت على زر الاتصال. سألني مينان بلهفة: "ما رأيك بما قالته لنا المفتشة زينب؟ أقصد ذلك الحديث المتعلق بالمتطرفين".
لا بد أنه لم يستطع أن يكبح فضوله؛ إذ لم يسمح لي حتى بالتحدث عبر الهاتف، ولكنني لم أفقد الأمل، بل وضعت السماعة على أذني، ولم يكن الهاتف قد بدأ بالرنين بعد.
قلت موجهة كلامي لمينان: "إنه معقول. ومع ذلك، إن سلمنا جدلاً بوجود جماعة من المتطرفين كتلك، فما الذي قد يدفعها لمعاقبة كامل الأعسر؟".
قال وهو يتجنب حفرة على الطريق: "لم يعد كامل يرتكب الجرائم بعد خروجه من السجن. فقد أصبح مواطناً مسؤولاً وعاملاً".
واصل هاتف سايمون الرنين.
فأجبته بسرعة قائلة: "ألم تسمع ما قالته زينب؟ إنه مجرم معروف في قونية. فحتى أنت سمعت عنه".
"كيف يمكن ألاّ أسمع عنه. فقد قتل ذلك الرجل أمه، ولكنني مع ذلك أستغرب أن تتبع هذه المجموعة من المتطرفين طريقه".
"حسناً، ليست مهمتنا أن نحل لغز هذه الجريمة. فلنلتزم بتحقيقنا الخاص".
وقبل أن أنهي جملتي، رد سايمون على الهاتف.
فقال: "مرحباً يا كارين... آسف، ولكن ما الذي قلته؟".
أشرت إلى مينان ليمنحني دقيقة قبل أن أرد على مديري، "مرحباً، يا سايمون. كلا، لم أكن أتحدث إليك. كيف حالك؟".

"إنني بخير. السؤال الحقيقي هو كيف حالك أنت؟ هل تشعرين أنك أفضل حالاً؟".
"نعم، ولكنني ما زلت أشعر ببعض الدوار، غير أن حالتي ليست سيئة جداً. تمكنت الشرطة بالفعل من استعادة حقيبتي، ولكن جواز سفري لا يزال مفقوداً لسوء الحظ".
"لا تقلقي. فقد اتصلت بالسفارة وقالوا لي إنهم سيصدرون لك جواز سفر جديداً من دون أي معوقات".
"شكراً لك، هذا عظيم. ولكن، ينبغي أن يتم إرساله إليّ. فأنا بحاجة إليه لكي أعود إلى لندن".
سألني ببرودة قائلاً: "تعودين! هل تعنين أنك أنهيت عملك؟".
"حسناً، ليس بعد، ولكنني أظن أنك لا تريدني أن أمضي بقية حياتي هنا، أليس كذلك؟".
استرخى سايمون، وأطلق ضحكة مرتفعة، وقال: "بالطبع لا. كيف أترك موظفة ذكية ومخلصة ومجتهدة مثلك هناك؟ ولكنني ظننتك تعنين أنك تريدين العودة على الفور".
"عار عليك يا سايمون. منذ متى تعرفني؟ أتظن أنني قد أعود إلى دياري من دون أن أنهي واجباتي؟".
"ليس هذا ما عنيته. تحدثت عن العودة إلى الديار ففوجئت بكلامك ليس إلا. على أية حال، كيف تمضي التحقيقات؟ هل حدث أي تقدم يذكر؟".
بدأت أشرح له وأنا أحرص على الالتزام بالمشي في الجانب الظليل من الطريق: "تحدثت البارحة إلى مالك شركة إيكونيون للسياحة الشاب الطموح السيد كويومكوزاد. وبعد ذلك، استجوبت شاهدين، هما سيرهاد ونزيهة، إنهما لا يزالان يعملان لصالح السيد كويومكوزاد، لذا أظن أنهما يحاولان أن يحمياه. فقد شعرت أنهما يخفيان شيئاً عنّي رغم أنني لست واثقة من ذلك كل الثقة. والآن، أنا في طريقي لمقابلة رجل اسمه قدير غيميليك تواجد في الفندق في أثناء اندلاع الحريق، ولكن المهم في الموضوع أنه ليس على علاقة جيدة بمديره. ويصادف كذلك أنه صديق مينان من أيام الطفولة. إننا نأمل أن نحصل على معلومات مفيدة منه. سأعلمك بما يجري في المقابلة في وقت لاحق".
عندما أنهيت كلامي، شكرني سايمون، وأنهى المكالمة.
شعرت بعيني مينان المستطلعتين تحدقان إليّ وأنا أضع الهاتف في حقيبتي.
"هل هذا سايمون؟".

"نعم".
أتى جوابي مقتضباً. إذ لم تكن لديّ النية بأن أسرد له تفاصيل المكالمة، وأردته أن يفهم هذه النقطة. لا بد أن أسلوبي قد أحدث تأثيره لأنه لم يذكر اسم سايمون مرة أخرى. تابعنا سيرنا بصمت لبعض الوقت قبل أن يبدأ بالتفكير في أحد الأمور الأخرى التي تشغل باله. فقال: "أتساءل إن كان ينبغي علينا أن نذكر أمر شمس للمفتشة زينب؟".
كما توقعت بالضبط؛ لا تزال أفكاره تحوم حول ذلك الدرويش ذي الملابس السوداء.
"ما الذي يمكننا قوله؟ في الواقع، إن شمس التبريزي هو من ارتكب كل تلك الجرائم، ولكن لا يمكنكم الإمساك به لأنه ميت منذ سبعة قرون، وهذا سيجعلكم بكل تأكيد تنهون تحقيقاتكم... أهذا ما تريد قوله؟".
"ولكنه بالفعل...".
"كلا، إنه لم يفعل شيئاً بالفعل يا سيد فيدان. هذه مجرد خرافات. إن الشيء الحقيقي الوحيد هو الأحداث التي نعيشها الآن. فقد احترق فندق ياقوت بأكمله، كما تعرض كامل الأعسر للقتل، هذا ما حدث بالفعل. انس أمر شمس التبريزي وحاول أن تتحلى بالمنطق من فضلك".
لم يعترض على كلامي بل قام بمجرد مواصلة المشي بصمت.
سألته مغيرة الموضوع: "هل يعيش قدير وحده؟ هل هناك من يرعاه أو يعتني به أو شيء من هذا القبيل؟".
فقال مستعيداً حيويته من جديد: "بالطبع، إن زوجته نعمت تعتني به. يا لها من امرأة طيبة! ولديهما ابن سيتزوج عما قريب، اسمه زعيم، وهو بسن ابنتنا هوليا".
وجدت الفرصة سانحة لأطرح عليه سؤالاً يحيرني، فقلت: "ما المشكلة بينك وبين سيرهاد؟". لا بد أن سؤالي قد أصاب وتراً حساساً لديه لأنه أجفل بعض الشيء، فتابعت قائلة: "يبدو لي أنك لا تطيقه".
أثار ذكر اسم سيرهاد بعد اسم ابنته مباشرة شكوكه، فرمقني بنظرة جانبيّة متسائلاً إن كنت أعرف شيئاً عن الموضوع، ولكنني تظاهرت بالجهل.
"كدت أن تضربه البارحة لو أنني سمحت لك بذلك".
احمر وجه مينان، وأجاب بعنف قائلاً: "كنت سأفعل ذلك بكل تأكيد. اعذريني يا سيدة غرينوود، ولكن ذلك الشاب تافه وكلب. لا أفهم لماذا قد يقدم رجل مثل ضياء على توظيف شاب على شاكلته".
قلت: "حتى الكلاب يمكن الاستفادة منها في بعض الأحيان. فإن أردت أن

تخيف شخصاً ما، فقد يفيدك وجود وحش يكشر عن أنيابه إلى جانبك".
قال لي وهو يبدو أنه لا يشاركني وجهات نظري: "أدرك أنك لا تزالين حذرة من ضياء، ولكنني أؤكد لك أن والده رجل صالح فعلاً. سترين ذلك بنفسك عندما تقابلينه. ولا يمكن أن يكون ابنه رجلاً شريراً".
قلت وأنا أخطو على الرصيف الضيق في الشارع المليء بالمتاجر: "سنرى، ولكن تابع كلامك. اشرح لي سبب استياء سيرهاد إلى هذا الحدّ؟".
أطلق مينان تنهيدة غضب وقال: "لقد حاول ذلك الشاب أن يغوي ابنتي هوليا، وهي في السنة الأولى من دراستها في المرحلة الثانوية، أي إنها لا تزال فتاة في ريعان الصبا وسريعة التأثر بما حولها. اعتاد سيرهاد أن يحوم ويتبختر حول بيتنا".
هز مينان رأسه وكأنه يشتم نفسه، وقال: "الغلطة غلطتي. إذ إن هوليا تعمل معي في أثناء الصيف، وقد أرسلتها ذات يوم إلى مكتب ضياء لتوقع بعض الأوراق، وهناك قابلت سيرهاد. تبعها على الفور، وبأفخر سيارات الشركة، لذا من الطبيعي أن يثير إعجاب الفتاة. لطالما تعاملنا بلين وتساهل شديدين مع هوليا. فقد سبق لنا أن فقدنا طفلين في سن الرضاعة، لذا أظن أننا أفسدناها بالتدليل بعض الشيء، فأصبحت تسير وفق هواها، ولكنني تدخلت هذه المرة وبينت لها مدى حقارة سيرهاد وخسته، ولكنها بالطبع لم تصدقني، فدبرت لها طريقة لتتأكد من سفالته بأم عينيها".
بدا مينان معكر المزاج وكأنه يعيش الأحداث نفسها في مخيلته مرة أخرى. أُعجبت بهذا الرجل الممتلئ وأنا أراه للمرة الأولى يلعب دور الأب المتسلط.
"كيف تمكنت من ذلك؟ هل لاحقته؟".
لمعت عيناه بمكر وقال: "بل فعلت ما هو أفضل من ذلك. فقد جعلت ابنتي تتحدث إلى أحد أصدقاء سيرهاد".
"صديقه! أتعني ذلك الرجل الأصلع الذي جلب سيرهاد ونزيهة إلى الفندق؟ ذلك الذي يرتدي زوجاً من القفازات؟".
توقف مينان عن المشي وقال: "كلا، يا سيدة غرينوود". توقفت أنا أيضاً، ولكنه لم يتمكن من الشرح بصورة وافية، فقال: "الآن، عندما أقول أحد أصدقائه..." واحمر وجهه وهو يتابع: "فإنني أعني صديقته... تعرفين، إحدى أولئك النساء".
"الساقطات؟".
انتشر اللون الأحمر في وجهه حتى وصل إلى ياقته البيضاء ذات ربطة العنق الكحلية التي تكاد تخنقه، فأيقنت أن كل جسده أصبح أحمر كالدم.

قال وهو يبتلع ريقه بصعوبة: "نعم، إحدى أولئك النساء اللواتي تتحدثين عنهنّ".
انفجرت ضاحكة رغماً عني، ثم أضفت لكي لا يظن أنني أسخر منه قائلة: "إذاً، لدى سيرهاد ميل لأولئك النساء، أليس كذلك؟".
استأنفنا مشينا مرة أخرى، وراح مينان يحط من قدر الشاب قائلاً: "من بين أشياء أخرى كاحتساء الشراب والقمار والعبث مع أولئك النساء ذوات السمعة السيئة... ولكن، رغم أن صديقته السيدة ديلبر امرأة ذات معايير أخلاقية منخفضة، إلاّ أنها في الواقع امرأة ذات قلب من ذهب. فعندما شرحت لها ورطتي، أبدت أساها حيال ذلك. وهل تعرفين ما قالته؟ قالت إن هذا رهيب، وإن ذلك التافه سوف يشوه سمعة عائلتي بأكملها وليس سمعة ابنتي وحدها، ثم طلبت مني أن أدبر لقاء بينهما لتخبرها بنفسها بعض الأشياء عن ذلك الشاب".
"ماذا؟". سألته لكي أتأكد من أنني لم أسئ فهمه: "هل أخذت ابنتك لتتحدث إلى تلك المرأة الساقطة؟!".
ارتبك وهو يظن أنني أتهمه وقال: "لم يكن لديّ خيار آخر".
لم ألمه بالطبع، بل على العكس من ذلك، تأثرت بسلوكه وأوشكت أن أعبر له عن إعجابي بتصرفه، غير أنه تابع كلامه قائلاً: "ومع ذلك، لم أصطحبها إلى بيتها. إذ إنني أرفض أن آخذ ابنتي إلى مكان من ذلك النوع. وبدلاً من ذلك، التقينا في محل للمعجنات حيث باشرت السيدة ديلبر بتعداد أفعال سيرهاد المشينة الواحد تلو الآخر. فأخبرتها أنه سلبها مالها وأنه يدخن الحشيش ويثمل ويسبب الفضائح في حيهم، مما أجبر عائلته على الانتقال من البيت أربع مرات خلال سنة واحدة. وعندما سمعت ابنتي المسكينة الحقيقة، انهارت أعصابها ولم تعد تستطيع التحمل فهرعت خارجة من المحل. وظلت لأيام ترفض الخروج من غرفتها؛ رغم أنها في نهاية المطاف تخطت أزمتها والحمد لله. ولكن، كيف تخلصت من ذلك التافه!؟ بفضل فطنة زوجتي سميرة ودهائها. فقد قالت لي: لقد أفسدنا هذه الفتاة بالدلال، وهذا ما جعلها تتعلق بحياة الرقي والثراء وتهوى السيارات الفخمة. ولهذا، بدلاً من أن ندعها تعجب بالشبان بسبب سياراتهم، لِمَ لا نشتري لأنفسنا بكل بساطة سيارة جديدة فخمة؟ وكانت على حق. فرغم أن السيارات في الواقع من هوايات الفتيان، إلاّ أن مشيئة الله قضت أن تصبح ابنتنا أيضاً مهتمة بالسيارات. فعندما بلغت الخامسة من عمرها، تسلقت المقعد، وجلست خلف مقود السيارة الأولى التي اشتريتها. ومع

ذلك، باتت تعشق السيارات الفخمة والمبهرجة. ولكن، من أين لنا بذاك المبلغ الضخم لشراء سيارة فخمة؟".
فأكملت أخيراً بنفسي الكلمات التي انتظرت سماعها لعصور: "في نهاية المطاف، اشتريت سيارة المرسيدس. ولكن، لا بد أنها كلفتك مبلغاً طائلاً".
تذمر مينان قائلاً: "كلفتني مبلغاً طائلاً جداً يا سيدة غرينوود. من المستحيل الحصول على مبلغ كهذا مما أجنيه من عملي وحده. لذا، اشتريناها بنقود حصلنا عليها بعد بيع قطعة أرض تركها لنا والد زوجتي الراحل رحمة الله عليه". لمع وجه مينان المتعرق وقال بامتنان: "بالطبع، ساعدنا في ذلك شقيقا زوجتي التافهان".
بدا تعبير وجهه مبهجاً جداً لدرجة أنني لم أستطع أن أمنع نفسي من طرح السؤال: "لماذا تقول إنهما تافهان؟ يبدو لي أنهما أسديا إليك صنيعاً".
قال لي بعد أن استعاد مزاجه الصافي: "نعم، لقد أسديا إلينا صنيعاً حتى لو حدث ذلك من دون أن يقصدا ذلك. القصة على الشكل التالي يا سيدة غرينوود: إن زوجتي من منطقة ميرسين، وهي سيدة حاذقة ومغامرة وسهلة المعشر. بيني وبينك، هي التي دفعتني لمزاولة هذا العمل بدلاً من أن أصبح إمام مسجد، لذا أخذت برأيها، وليسامحني الله. والآن، أين كنّا؟ حسناً، عندما توفي والدها، أصر شقيقا زوجتي على الاستيلاء على بساتين البرتقال الموجودة في قريتهما، بينما تبقت لزوجتي حصة لا تتعدى مستنقعاً قاحلاً قرب البحر. ولكننا وافقنا لكي نحافظ على السلام في العائلة. وعلى أية حال، أنا لا أحب الاستيلاء على أموال النساء. إن الموت سنة الحياة والميراث حق شرعي، ولكن يجب على الإنسان أن يكسب رزقه، والدي هو من علمني هذا. لذا، لأختصر الموضوع، تخلينا عن حقوقنا. ولا بد أن القيام بهذا أرضى عنا الخالق عز وجل لأنه منحنا عجيبة".
ظننت أن مينان سيسهب الآن في شرح بعض الأفكار الصوفية لي، ولكنه أدهشني عندما قال بدلاً من ذلك: "لقد أرسل لي بعض الروس لمساعدتي. نعم، هذا صحيح. فقد اتصلت بي شركة سياحة روسية وعرضت علينا أن نشتري قطعة الأرض تلك التي لا تساوي شيئاً. ولكن الحقيقة ظهرت لاحقاً، وهي أن الروس أرادوا أن يبنوا قرية سياحية ضخمة في تلك المنطقة. وهكذا، تضاعفت قيمة الأرض أضعافاً عدة. بالطبع، بدأ الندم ينهش شقيقي زوجتي، ولكنهما برهنا أنهما رجلان صالحان ولم يثيرا خلافاً حول الموضوع. وهكذا، أنفقنا نصف ثمن الأرض لشراء بيت جديد، وما تبقى دفعناه ثمناً لسيارة المرسيدس لكي تسر ابنتنا ولا تعجب ببعض التافهين من أمثال

سيرهاد".

بعد أن أنهى مينان خطبته الساخرة، عاود مسح جبينه. وفجأة، أصبح في نظري شخصاً مختلفاً كلياً، وكأنه أحد أقاربي أو أصدقائي الموثوقين. لا بد أنه شعر بتحديقي إليه لأنه رفع نظره، والتقت عيناه عيني. ابتسمت له بحرارة، فاحمر وجهه قبل أن يشيح بوجهه مرة أخرى، ويشير إلى بيت مكون من طابق واحد وحديقة في زاوية الشارع المقابل لنا.

قال مينان: "حسناً يا سيدة غرينوود. هذا هو بيت السيد قدير".

"شاهدت رجلاً يرتدي زي مخلوق فضائي"
على عكس الحرارة في الخارج، وجدنا بيت قدير بارداً ورطباً. كان بيتاً صغيراً ومتواضعاً ولكنه شديد النظافة. رحب بنا أهل البيت، وأدخلونا غرفة طويلة وضيقة لها نوافذ على كلا الجانبين تجعلها تبدو أشبه بعربة قطار. تحت النوافذ، وضعت أريكة باهتة اللون وكراس. وفي وسط الغرفة، وضع تلفزيون ذو شاشة عريضة مغطى بقطعة قماش مخرّمة؛ بالرغم من أنني لم أستطع أن أحدّد إن كان الهدف من ذلك عرض قطعة القماش الجميلة أو لفت النظر للتلفزيون. وبعد ذلك، لاحظت وجود قطع قماش مخرّمة مشابهة للأولى مفروشة على الكراسي، فأدركت أن السيدة غيميليك أرادت بذلك أن تعرض مهاراتها بالأعمال اليدوية. أما السيدة نعمت، فقد وجدتها سيدة لطيفة ذات شعر مصبوغ بالحناء ومفرود على كتفيها العريضتين والمستقيمتين، وترتدي ثوباً مصنوعاً من القطن، وتتمتع بعينين عسليتين تلمعان في وجهها المستدير، وبشفتين ممتلئتين دائمتي الابتسام. لا بد لي أن أعترف أنني وجدت مزاج نعمت المرح غريباً للوهلة الأولى. فبعد أن نجا زوجها بأعجوبة من حريق خطير وظل يعاني من آثار الصدمة، بدا مزاجها البهيج في غير محله. ولكن، عندما رأيت زوجها أدركت أنني أخطأت الفهم. فقد بدا سليماً ومعافى؛ لدرجة أنني ظننته شخصاً آخر عندما رأيته للوهلة الأولى. وتأكدت فقط بشكل قطعي أن الرجل الممتلئ ذا الشعر المجعد هو نفسه شاهدنا قدير عندما مدّ مينان ذراعيه وصاح قائلاً: "مرحباً... مرحباً... يا صديقي العزيز قديرا!". وفي لحظة واحدة، أحاط قدير مينان بذراعيه الثخينتين.
أبقيت نظري مركزاً على قدير وأنا أجلس على أحد الكراسي الذي قدموه لي، ولكن الرجل لم يظهر ما يدل على أي سلوك غريب، بل أخذ يمازح مينان، ثم التفت إليّ وقال: "كيف حالك يا سيدة غرينوود؟ هل تستمتعين بوقتك في قونية؟".
"نعم، إنني أستمتع كثيراً، فهي مدينة جميلة".
"ينبغي أن تطلبي من مينان أن يأخذك في جولة في الأنحاء". ثم التفت إلى صديقه مرة أخرى وسأله قائلاً: "هل اصطحبتها في زيارة إلى الضريح؟".
علقت نعمت قبل أن تتسنى لمينان فرصة الإجابة عن السؤال قائلة: "يجب عليه أن يأخذ الإذن من زوجته أولاً". وراحت نعمت تشرح لي من دون أي تحفظ وكأننا صديقتان قديمتان منذ سنوات، فقالت: "إن صديقنا مينان

خاضع لهيمنة زوجته بعض الشيء يا سيدة غرينوود، فهو لا يستطيع حتى أن يرمش بعينيه من دون إذنها".

تذمر مينان بالرغم من أنه لم يبدُ مستاء من كلامها، وقال: "لماذا تقولين هذا يا نعمت؟ ما الخطأ في أن يراعي الرجل شعور زوجته المسكينة بين الحين والآخر؟".

"لا خطأ في هذا في معظم الأحيان، ولكن في حالتك أنت يبدو أن زوجتك هي التي تحكم سيطرتها على البيت يا مينان". وواصلت توبيخها له قائلة: "حتى إنك لم تعد تزورنا".

ابتسم زميلي ابتسامة عريضة وقال: "نحن هنا الآن، أليس كذلك؟".

"نعم، هذا بفضل السيدة غرينوود، ولكن لولا وجودها لما حضرت".

تظاهر مينان بأنه يأخذ موقفاً منها، وقال: "تحلي بالإنصاف يا نعمت. فقد ذهبت إلى المستشفى، أليس كذلك؟".

تذمرت وعيناها العسليتان مفتوحتان على وسعهما قائلة: "لقد أوشك صديق طفولتك أن يلاقي حتفه وأنت لم تزعج نفسك بالزيارة. أقسم يا سيد فيدان إنني كدت أن أقسم ألاّ أدخل بيتكم مرة أخرى. نعم، لقد حضرت في زيارة سريعة، ثم لم نعد نرى وجهك مرة أخرى".

رمق قدير زوجته بنظرة حادة، ووبخها قائلاً: "لا بأس يا نعمت. دعي الرجل وشأنه".

ولكنها لم تتراجع، بل واصلت كلامها قائلة: "حباً بالله يا قدير. ما الذي قلته؟". ووجهت عينيها اللامعتين نحوي وقالت: "إنهما هكذا دائماً. فإن قلت شيئاً لأحدهما، بدأ الآخر بالدفاع عنه على الفور".

لو أن الكلام صدر من شخص مختلف لربما كنت سأنأى بنفسي عن الموضوع، ولكن المرأة أخذت تتصرف معي بحرية وودية فلم أستطع أن أمنع نفسي من التدخل.

"أظن أن هذا يعني أنهما صديقان حميمان".

"بالطبع، إنهما صديقان حميمان جداً، وهذا جيد، ولكن زوجة مينان تعتبر نفسها سيدة مجتمع راقٍ ولا تجدنا مساوين لها، لذا لم تدخل بيتنا حتى الآن".

لا بد أنني ضغطت على عصب حساس من دون أن أدري.

فقد سألها مينان بلهجة دفاعية قائلاً: "لماذا تقولين هذا يا نعمت؟ إن سميرة تحبكما وتقدركما".

"بالطبع، إنها تحبنا كثيراً لدرجة أنها لم تكلف نفسها عناء حضور حفل

خطوبة ابننا". وبالرغم من أنها تحدثت بنبرة ساخرة إلا أن الشعور بالألم بدا واضحاً على ملامح وجهها المستدير.
"ولكننا شرحنا لكما ما حدث. فقد تعرض شقيق زوجتي لحادث، فذهبت سميرة إلى قريتها واصطحبت هوليا معها، أتتذكرين هذا؟".
لم يبد على نعمت أنها سترضى بسهولة، ولكن "قدير" حذرها بصرامة قائلاً: "هذا ليس تصرفاً لطيفاً يا نعمت أمام السيدة غرينوود. أتظنين فعلاً أن هذا هو الوقت المناسب؟".
لم أشعر بالبهجة للتواجد في غمرة هذا الجدال، غير أنني قلت له: "لا تقلق بشأني". وحالما خرجت الكلمات من فمي حتى ندمت عليها لأن نعمت اكتسبت منها بعض الشجاعة وبدت الآن على وشك أن تنقض على مينان المسكين. لحسن الحظ، أخطأت في تقديري، فقد قالت لي محاولة أن تسيطر على مزاجها المتكدر: "إنني آسفة لأنني أزعجتك بهذا الحديث يا سيدة غرينوود. لا تأبهي لأمري. فمينان أقرب إلينا من شقيقيّ. كما أنني أحب سميرة وكذلك هوليا التي أعتبرها بمثابة ابنة لي، ولكنني بين الحين والآخر أفقد السيطرة على نفسي بهذا الشكل عندما أحاول أن أجري محادثة". ونهضت عن كرسيها وقالت: "لديكم عمل تناقشونه، لذا سأذهب إلى المطبخ".
عبس قدير عندما غادرت زوجته وتنورتها القطنية تصدر صوت حفيف لدى احتكاكها بركبتيها، ثم التفت إلى صديقه وقال: "آمل أنها لم تزعجك، ولكنك تدرك أن نعمت حساسة بعض الشيء".
لم يشعر مينان بالإهانة حقاً، بل فقط بعدم الراحة لأنني سمعت هذا الحديث.
"لا تكن سخيفاً. إن نعمت امرأة طيبة في صميمها وجوهرة حقيقية". ونظر إليّ بعينيه الخضراوين وقال: "إنها ربما عصبية المزاج بعض الشيء، ولكنها امرأة صالحة بمعنى الكلمة".
ابتسمت وأنا أنظر إليها في أثناء مغادرتها الغرفة، وأضفت قائلة: "نعم، لقد ارتحت لها كثيراً عندما رأيتها. تبدو مخلصة جداً".
تلاشى إحراج قدير في الحال، وراح يربت على ركبة صديقه بلطف.
"إذاً، ما أخبار ابنتك الآن؟".
"هوليا؟ إنها بخير. إنها تحضر لامتحانات الجامعة. ستبدأ رحلتها الدراسية عما قريب بإذن الله". ألقى نظرة خاطفة باتجاهي ولاحظ أنني لم أبتسم، فأدرك أن الوقت قد حان لمناقشة موضوعنا، لذا قال وهو يستند على

كرسيه: "حسناً يا قدير. أظن أنك تعرف لماذا أتينا إلى هنا. إن السيدة غرينوود لديها بعض الأسئلة التي تودّ طرحها عليك بشأن الحريق".
ارتسمت نظرة قلق على ملامح قدير الهادئة، وانعقد حاجباه السميكان، فقلت له بصوت ناعم وإيقاعي: "إن لم يشكل هذا أي إزعاج لك، فأنا أود أن أسمع ما لديك من معلومات عن قصة الحريق يا سيد غيميليك".
أشاح قدير بوجهه. وبعد أن عض على شفته السفلى لبضع ثوانٍ، التفت إليّ وقد استعاد رباطة جأشه.
وقال رغم ظهور بعض القلق على وجهه: "ليس هناك أي إزعاج. لم قد يسبب لي الأمر أي إزعاج؟ ومع ذلك، من الصعب عليّ أن أسرد القصة كلها من البداية وحتى النهاية. من الأفضل أن تطرحي عليّ الأسئلة، وسأبذل قصارى جهدي للإجابة عنها".
"بكل تأكيد. سنقوم بما هو أسهل بالنسبة إليك". وبالرغم من ذلك، لاحظت التغيير في نبرة صوت قدير، لذا لم أخرج جهاز التسجيل من حقيبتي خشية أن أجازف برفضه تسجيل صوته. وأدركت أنه سيتوجب عليّ أن أكتفي بتدوين المعلومات التي سأحصل عليها من الذاكرة في وقت لاحق.
طرحت عليه سؤالاً في لب الموضوع قائلة: "يوم الحادث، أعني يوم الثلاثاء الذي وقع فيه الحريق، ما كان سبب تواجدك في الفندق؟".
"من أجل العمل". وبدأت يداه ترتعشان، فضمّهما في حضنه ليمنع ارتجافهما ربما". ثم قال: "اعتدنا أن نقوم بأعمال التنظيف في الطوابق السفلية".
"من تقصد بقولك هذا؟".
"أنا ومسعود وحسين رحمة الله عليهما وكذلك نزيهة".
"هل اعتدتم الذهاب إلى هناك كل يوم؟".
"بل ستة أيام في الأسبوع، أي عندما يفتح الفندق. لم نكن نعمل أيام الأحد، ولكن في أثناء أعمال الترميم بتنا نعمل ثلاثة أيام فقط، وهي أيام الاثنين والأربعاء والجمعة".
ذكرته وأنا أتساءل إن كنت قد أخطأت السمع: "ولكنك هذه المرة تواجدت في الفندق يوم الثلاثاء".
"يوم الاثنين أقمنا حفلة خطوبة ابني زعيم". وأطرق قليلاً، ثم قال: "في ذلك اليوم أتى كل طاقم الموظفين لحضور الحفل، مسعود وحسين ونزيهة، وبرفقتهم عائلاتهم". وأشار إلى التلفزيون، ثم قال: "لقد صورنا الحفلة بالفيديو. يبدو الجميع في الفيلم المصور وهم يضحكون ويرقصون ويمضون وقتاً رائعاً. يزعجني كثيراً أن أراه الآن. أتمنى لو أننا لم نجرِ الحفلة في

ذلك اليوم".

سأل مينان وهو يرى صديقه يتلوى من فرط الحزن: "لماذا يا قدير؟ لماذا أنت مستاء إلى هذا الحد؟ لست أفهم".

"ما الذي لا تفهمه يا مينان؟ لو أننا ذهبنا إلى العمل يوم الاثنين، لما حدث ما حدث ولبقي مسعود وحسين على قيد الحياة".

وضع مينان يده على كتف صديقه، وربت عليها ليخفف عنه.

"لا تلم نفسك. إنها مشيئة الله. لا يستطيع أحد أن يغير القدر".

تمتم قدير بندم قائلاً: "هذا ما أقوله، ولكننا كذبنا، فأتى الحريق بمثابة عقوبة إلهية لنا".

"أي كذب؟ لست من النوع الذي يكذب يا قدير".

"ليتني أبقيت فمي مغلقاً ولم أتفوه بحرف يا مينان، ولكنني لم أفعل ذلك. أنت تعرف ابن أخي "فائز"، صحيح؟ حسناً، إنه يعمل في قاعة للأفراح في وسط المدينة. لا أحد يحتفل بمثل هذه المناسبات يوم الاثنين مطلقاً، لذا قال لنا إننا إن أقمنا حفل الخطوبة هناك يوم الاثنين فسوف يطلب مديره نصف السعر فقط. ولهذا السبب، أقمنا الحفلة في ذلك اليوم".

"أحسنت صنعاً. ما المشكلة في ما فعلته إذاً؟".

مثلي تماماً، لم يجد مينان أي خطأ في ما حدث.

قال قدير: "ولكنني لم أخبر سيرهاد، فهو المسؤول عن أعمال الترميم. فقد فكرت في سري: ما الفرق إن ذهبنا الاثنين أو الثلاثاء؟ على أية حال، لن نقوم بأي أعمال تنظيف لأن عمال الطلاء سيحضرون يوم الأربعاء، لذا سنعمل على تغطية الأغراض وحسب. في الواقع، لقد اتصل بي سيرهاد ليسألني إن كنا سنذهب إلى العمل يوم الاثنين أم لا، فكذبت وقلت له إننا سنذهب. إن اتصال سيرهاد بي بحد ذاته إشارة من الله لكي أغير رأيي بينما لا يزال لديّ متسع من الوقت، ولكنني لم أغير رأيي. فقد استولى عليّ الطمع ودفعني للكذب، ولهذا أنزل بي الخالق هذه العقوبة".

بدأ مينان يصاب بالانزعاج من حديث صديقه المليء بالندم غير المبرر.

فقال: "إنك لا تفكر جيّداً يا قدير. حسناً، من الخطأ أن تكذب، ولكنك لست من أضرم النيران، ليس هذا فقط، بل إنك خاطرت بحياتك لكي تحاول إنقاذ حياة كلّ من مسعود وحسين ونجحت في إخراج نزيهة. إنك تعاقب نفسك من دون سبب، ولكن اللوم لا يقع عليك. فقد وقع الحادث قضاء وقدراً. ما الذي يسعك أن تفعله غير ذلك؟".

وبينما حاول مينان التخفيف عن صديقه، أخذت أفكاري تحوم حول شيء آخر.
فقلت لقدير وأنا أنظر إلى وجهه الحائر: "منذ متى وأنت تعمل في هذا الفندق يا سيد غيميليك؟".
أجابني بإذعان قائلاً: "في الشهر المقبل يكون قد مضى على عملي هناك ثلاث سنوات. ولكن، بعد الحريق تم فصلي من العمل لأن الشركة تعاني من صعوبات مالية، حتى إنهم لم يدفعوا لي تعويضاً".
إذاً، فشركة إيكونيون للسياحة تمر بضائقة مالية! حفظت هذه المعلومة الهامة في ذهني قبل أن أنتقل للسؤال التالي.
"هل اعتاد سيرهاد تولي المسؤولية كلما قمتم بأعمال الترميم؟".
لم يجب على الفور، وإنما بعد أن فكر قليلاً. هز رأسه الكبير، وقال: "كلا، بل المدير عرفان أو مساعده أورهان".
"أين كانا في ذلك الوقت؟".
"لقد أرسلهما السيد كويومكوزاد في إجازة، وكلف سيرهاد بالإشراف على العمل".
نظرت إلى مينان ورأيت سحب الشك تتجمع في عينيه يصاحبها الشعور بالإحراج لأنه لم يسمع بأي من هذه المعلومات أو يذكرها في تقريره. ولكن الوقت لم يكن مناسباً لإلقاء اللوم عليه ونحن نعثر على هذا الجزء المهم لحلّ الأحجية.
سألته قائلة: "هل تواجد أشخاص آخرون في الفندق في أثناء الإصلاحات؟ أعني لو أن فريقك ذهب يوم الاثنين، هل كان سيتواجد أحد هناك يوم الثلاثاء؟".
قال بقلق شديد والأسى يعتصره: "كلا على الإطلاق. يتواجد هناك سيرهاد وصديقه كافيت ورجالهما، فهم المسؤولون عن أمن الفندق، ولكنهم يجلسون في الردهة، أي ما كان أحد منهم ليموت". وانهمرت الدموع من عينيه وهو يقول: "إن ما حدث لمسعود وحسين غلطتي أنا".
قلت له محاولة أن أهدئ من روعه: "كلا، ليست لك أي علاقة بذلك. في الواقع، إن اشتعل الحريق بالطريقة التي نظن أنه اشتعل بها، فستتأكد بنفسك أن اللوم يقع بأكمله على شخص آخر".
وفجأة، حل محل الحزن الذي كان بادياً على وجهه تعبير موح بالشك، وقال: "ماذا؟ هل تظنين أن أحداً ما أضرم النار متعمداً؟".
توجهت عينا مينان نحوي، وكذلك عينا قدير، وكان لا يزال يتعرق بغزارة

بالرغم من برودة جو الغرفة.
قلت بهدوء: "إننا نحقق في الموضوع. وبفضل مساعدتك، نأمل أن نكشف الحقيقة بوقت أسرع بكثير، ولكن لا تزال هناك مشكلة صغيرة. يدعي السيد كويومكوزاد أنك قلت إن كائنات فضائية هي التي أشعلت الحريق. هل قلت شيئاً من هذا القبيل؟".
نظر إلى مينان طلباً لدعمه، ثم أدرك أنه لن يحصل على أية مساعدة منه فشرح لي بخجل قائلاً: "رأيت رجلاً يرتدي ملابس شبيهة بملابس الكائنات الفضائية. فقد بدت ملابسه لامعة كصفائح القصدير".
"هل ألقيت نظرة على وجهه؟ كيف بدا شكله؟".
حالما تأكد من أنني لا أسخر منه، انتابته طاقة فجائية، وقال بثقة: "كان يضع غطاء واقياً لرأسه ووجهه، لذا لم أتمكن من تحديد شكل وجهه".
"متى رأيته؟".
"بعد أن حملت نزيهة إلى الخارج، أي عندما دخلت للمرة الثانية...".
قاطعته خوفاً من أن يفوتني شيء ما: "أتقصد بعد أن تركت نزيهة مع سيرهاد؟".
"نعم، بعد أن تركتها...".
"حسناً، هل فوجئ سيرهاد برؤيتك؟".
جعد جبينه مرة أخرى محاولاً أن يتذكر، ثم قال: "أظن ذلك. فقد قال شيئاً مثل: ما الذي تفعله هنا بالله عليك؟ ولكن حالتي لم تسمح لي بالانتباه له. فقد كان مسعود وحسين لا يزالان في الأسفل".
"وعندئذ، عاودت النزول إلى الأسفل؟".
"هذا صحيح. فقد توجب عليّ أن أنقذ "مسعود" و"حسين". وجدت المكان يلتهب بالحرارة وأخذ الدخان يحرق عيني. وعندما وصلت إلى أسفل الدرج، صادفت الرجل الذي يرتدي ملابس الكائنات الفضائية. فقد خرج من بين الدخان، وعندما رآني أجفل وبدأ يتراجع إلى الوراء. بصراحة، أصابني رعب شديد منه فبدأت أتراجع بدوري. وعندئذ، ضربني أحد ما على رأسي من الخلف".
بدأت الصورة في ذهني تتبلور أكثر فأكثر، فسألته: "هل كان هناك شخص آخر؟".
"نعم. كان يرتدي الملابس نفسها. فقد رأيتهما معاً مرة أخرى وأنا أستعيد وعيي، ولكنهما قبضا على يدي وقدمي وحاولا أن يبعداني عن المكان".
سأل مينان معبراً عن أفكاره بصوت مرتفع: "ألا يمكن يا قدير، أن يكون

الرجلان اللذان رأيتهما من فوج الإطفاء؟ إن ملابس روّاد الفضاء التي تتحدث عنها تشبه تلك التي يرتديها رجال الإطفاء".
فسأله قدير بدوره وهو يبدو واثقاً من نفسه للغاية: "أي سبب قد يدفع رجال الإطفاء لضربي على رأسي؟".
"حسناً، لقد ابتلعت الكثير من الدخان، وقلت بنفسك إنك أصبت بالفزع. إذاً، ربما خيل إليك أنهما فعلا ذلك".
قال قدير وقد بدأ يشعر بالانزعاج: "كلا، إنني لا أختلق هذا الكلام. فقد رأيت ذلك الرجل هناك بأم عيني. ولم يكن هناك أي إطفائيين في أي مكان في الجوار. ولو أنهما لم يضرباني على رأسي، لتمكنت من إنقاذ مسعود وحسين". لا بد أنه استشاط غضباً من صديقه بالفعل لأنه التفت إليّ وهو يؤكد قائلاً: "إنني واثق مما أقوله يا سيدة غرينوود. رأيت رجلين هناك، وأحدهما ضربني على رأسي".
قلت له بصوت ثابت وواثق: "إنني أصدقك، وكذلك مينان. إن السبب الذي يدفعنا لطرح كل هذه الأسئلة عليك هو أن نحرص على ألاّ نخطئ بأي تفصيل أو نغفل عنه".
"لا يوجد أي تفصيل غير دقيق في أي شيء مما قلته. وليشهد الله عليّ أنني لم أكذب ولو كذبة صغيرة. وعلى أية حال، بعد هذا الحريق لن أكذب مطلقاً طالما أنا على قيد الحياة".
نظر مينان إلى صديقه بكآبة وهو يفكر في أنه لم يتماثل للشفاء جيداً بعد.
"لم نشك مطلقاً في أنك كاذب يا قدير. فنحن واثقان من صدقك، ولكنك في المستشفى قلت إن كائنات فضائية هي التي أضرمت النار".
تدخلت نعمت قائلة: "وما الخطأ إن قال ذلك؟". كانت نعمت واقفة قرب الباب وبحوزتها طبقان مليئان بالكعك والبسكويت. متى دخلت يا ترى؟ أظن أن أحداً منا لم يلاحظ ذلك بسبب احتدام المناقشة. قالت نعمت: "ألم تخبر الأطباء بذلك يا قدير؟ ألم تقل لهم إن رجلاً لديه هوائيات على رأسه دخل غرفة الغسيل وسحب كل المقابس؟".
وبعد أن رمقها بنظرة إحباط، اعترف قائلاً: "نعم، هذا ما قلته. إن تعرضت لضربة على رأسك مثل الضربة التي تلقيتها فلن تقولي إنك رأيت كائنات فضائية بل ستقسمين إنك رأيت الشيطان نفسه. أيتها المرأة الغريبة! ألم يقل الأطباء إن الحظ قد حالفني لأنني نجوت من الموت؟ لقد تعرض رأسي لضربة قوية، لذا فالكثير من الهذيان متوقع".

لم أستطع أن أمنع نفسي من أن أنفجر ضاحكة، فأصابت العدوى جميع من في الغرفة، وحتى إن "قدير" انضم إلينا ضاحكاً.
استعاد مينان اتزانه بسرعة وقال: "والآن، يا قدير، فكر في الأمر مرة أخرى. ألا تتذكر أنك قلت إن عارضة قد سقطت على رأسك؟".
اعترض قدير بصخب قائلاً: "كلا، لم تسقط أية عارضة على رأسي. لماذا لا تريد أن تفهمني يا مينان؟ أؤكد لك أن شخصاً ما قد ضربني. إنني أتذكر كل شيء حدث بوضوح الشمس حتى اللحظة التي أغمي عليّ فيها. اتفقنا؟".
وبخت نعمت زوجها قائلة: "لماذا تصرخ يا رجل!؟". ووضعت الطبقين على طاولة القهوة ومدت إصبعها إلى زوجها، وقالت له: "عار عليك أن تصرخ في وجهي ضيفيك".
ولكن "قدير" بدا مستاء بقدر استياء زوجته، فرد عليها بصوت مرتفع: "أنا لا أصرخ! ما الذي تفعلينه هنا على أية حال؟ ألا ترين أننا لا نزال نتحدث؟ اذهبي وتفقدي الشاي. هلا تفعلين".
مع ذلك، لم تغادر نعمت على الفور، بل ظلت واقفة وهي تنظر إلى زوجها شزراً، ثم هزت كتفيها وغادرت ربما بسبب وجودنا.
وقالت وهي في طريقها إلى المطبخ: "سأتفقد الشاي، ولكن يجب عليك أن تتعلم بعض السلوكيات المهذبة".
بدا قدير محرجاً من سلوكه، ولكن بدلاً من أن يوجه كلامه لمينان الذي صرخ في وجهه، نظر إليّ وقال بصوت أجش: "إنني آسف يا سيدة غرينوود، ولكنني على يقين تام مما أقوله. فقد كنت بكامل قواي العقلية عندما رأيت ذلك الرجل ذا الزي الغريب. وأنا واثق من أن أحداً ما قد ضربني، أتدركين هذا؟".
وجدت الفرصة مؤاتية لكي أشاطرهما أفكاري، فقلت لقدير: "إذاً، لنقل إنك رأيت بالفعل رجلاً يرتدي ملابس غريبة، ثم ضربك أحدهم على رأسك فأغمي عليك، وعندما استفقت وجدت رجلين يرتديان الملابس نفسها يحملانك إلى الخارج".
قال وهو يومئ برأسه موافقاً: "نعم. هذا بالضبط ما حدث".
"مدهش! إذاً، يمكننا أن نقول ما يلي: الرجل الأول الذي رأيته مرتدياً ملابس واقية من النار هو الرجل الذي أشعل الحريق".
استطعت أن أراه وهو يحاول أن يخمن إلى أين أريد أن أصل بهذا الكلام.

"لم يتوقع أن يراك هناك لأنه من المفترض أن تتم أعمال التنظيف في اليوم الذي مضى، أي يوم الاثنين. لهذا السبب، أصابه الخوف وتراجع إلى الخلف. في تلك الأثناء، لاحظ صديقه وجودك، فأتى من خلفك وضربك على رأسك، ففقدت وعيك، ولكنك استعدت رشدك خلال لحظات، ورأيت رجلين يرتديان ملابس غريبة يحاولان أن يخرجاك من هناك. من الطبيعي أن تظن أنهما الشخصان اللذان رأيتهما من قبل، في حين أن رجال الإطفاء هم من حضروا هذه المرة لإنقاذك. فأخرجك اثنان منهم وأخذاك إلى المستشفى".
أرجع قدير رأسه إلى الوراء وأمعن التفكير بكلامي ملياً، ثم تمتم قائلاً: "ولكن الرجل الأول الذي رأيته حقيقي، وكذلك الرجل الذي ضربني".
تحداه مينان قائلاً: "وماذا عن الرجلين اللذين رأيتهما في ما بعد؟ أليسا حقيقيين أيضاً؟". لا بد أن مينان لم يصبح جاهزاً بعد للاعتراف بأنّ الحريق قد يكون بفعل فاعل.
صمت قدير وهو مرتبك، ثم قال: "من المؤكد أنني رأيتهما أيضاً، ولكن ذلك حدث بعد أن تعرضت للضرب على رأسي. ولهذا السبب، لست متأكداً من أقوالي. فذاكرتي عن الرجلين اللذين رأيتهما أوّلاً أوضح".
أخيراً، حصلت على كل ما أردته من قدير. وبدا لي أن كل القطع قد وضعت في مكانها الصحيح. ومع ذلك، ظلت هناك بعض الحلقات المفقودة، فأردت أن أملأها قبل أن أغادر.
"هل رآك أحد؟ هل رأى أحد ما فريق التنظيف وهو يدخل الفندق؟ هل صادفت سيرهاد أو كافيت؟".
"كلا، لم يحدث هذا. فقد دخلنا من باب الخدمة في الخلف. ولم أدع أحداً يدخل الردهة لكي لا يلاحظ سيرهاد وجودنا لأننا كذبنا عليه".
شعر مينان بالارتباك أيضاً، ولكنه لم يقل شيئاً. لا بد أنه لم يصبح مستعداً لمواجهة الحقيقة بعد. قاطعت نعمت الصمت الذي خيم على الغرفة عندما دخلت وبحوزتها إبريق الشاي.
قالت وهي تنظر بشكل مباشر إلى عيني زوجها: "هل ستقولون لي إنكم لم تنتهوا من الكلام بعد؟ كف عن هذا الصياح يا قدير، أم إنك تريد أن تترك ضيفينا يموتان جوعاً؟".

"كل من يدخل من هنا نصفين،
يجد نفسه كاملاً"
بعد أن أمضت السيارة ساعات تحت أشعة الشمس بانتظارنا، وجدناها ملتهبة بالحرارة من الداخل، ورائحة المعدن الحار الثقيلة والبلاستيك تعبق في الجو. كدت أغرق بالعرق إلى أن شغّل مينان مكيف الهواء. ولكن، حالما تدفق الهواء البارد وبدأ يدور في السيارة، لم يعد هناك أثر للحرارة الخانقة والرائحة التي كادت أن تصيبني بالغثيان.
"هلا أوصلك إلى الفندق يا سيدة غرينوود. الساعة تشير إلى الواحدة الآن. ولا تزال أمامنا ساعتان قبل موعدنا مع عزت أفندي، لذا قد تودين أن تنالي قسطاً من الراحة".
لم تكن فكرة سيئة. وبالرغم من أنني لم أنم للحظة واحدة في الليلة الماضية، إلا أنني لم أشعر بأي ذرة من التعب، كما أنني لم أشعر كذلك بالرغبة بالذهاب إلى مكتب مينان، ففكرت في أن أفضل شيء يمكنني فعله في هذا الوقت الضائع هو الذهاب لزيارة ضريح شيخ والدي القديم ورفيق شمس الروحي، رومي، وذلك بناء على نصيحة قدير. ولكنني لم أرغب بمعاودة فتح موضوع شمس أمام مينان خشية أن يتطوع للذهاب معي، فأخفيت عنه نيتي زيارة ضريح رومي وتظاهرت أنني سآخذ بنصيحته.
فقلت: "أظن أنك محق".
وافقني مينان الرأي وقال: "ستشعرين بتحسن بعد ذلك. في الواقع، أنا أيضاً أود أن أغمض عيني لنصف ساعة أو نحو ذلك. ولكن، من أين لي بوقت الفراغ؟ فلدي الكثير من العمل لأقوم به، وزبائن لأقابلهم، وبوليصات لأوقعها، ومصارف لأزورها... وكل هذا في غضون ساعتين".
"لا يجب أن تجبر نفسك على الذهاب معي إلى شركة إيكونيون للسياحة. فأنا سأجري حديثاً وجيزاً مع عزت أفندي. واللقاء لا علاقة له بالعمل".
شعرت بالأسى لحاله، ولم أشأ أن أعرضه لضغط لا داعي له. وبالإضافة إلى ذلك، لم أشعر بالرغبة في مناقشة أمر والدي مع عزت أفندي أمام مينان على أية حال.
تلاشى الإرهاق من عينيه الخضراوين اللتين كانتا تتفحصانني في المرآة، وقال لي بحماسة: "إن لم يكن لديك أي مانع، فأنا أود أن أذهب فعلاً. فعزت أفندي رجل حكيم لا يحظى المرء بامتياز التحدث إليه كل يوم".
أيقنت أنه من المستحيل التخلص منه، فقلت: "بكل تأكيد، لا مانع لديّ".

"هل أحضر لأقلك من أمام الفندق قرابة الثالثة؟".

"من الأفضل أن تتصل بي أولاً. لا أريد أن أدعك تنتظر وقتاً طويلاً أمام الفندق". وقد أردت بهذا في الواقع أن أتخذ جانب الحيطة والحذر لأبقي رحلتي إلى الضريح سراً عنه. ومع ذلك، عانيت من المشكلة نفسها عند مدخل الفندق، لأنني أجبرت نفسي على الدخول عندما أصر مينان المؤدب على مرافقتي إلى الردهة. ولحسن الحظ، لم أجد موظف الاستقبال المتطفل قرب طاولة الاستقبال.

سألت الفتاة التي وجدتها مكانه: "هل هناك رسائل لي؟". بالطبع لم تكن هناك رسائل. التفت ونظرت إلى الباب، وتأكدت أن سيارة مينان قد اختفت، فشعرت بالراحة، وبدأت أعود أدراجي في ذلك الاتجاه، ولكنني أصبت بالغثيان فجأة. لا بد أن الجنين أراد تحذيري من نسياني أمره. وضعت يدي على فمي، وبالكاد استطعت أن أصل إلى الحمام عندما شعرت أنني على وشك التقيؤ. وبعد أن تقيأت، شعرت ببعض التحسن. فغسلت فمي، وبللت صدغيّ ومؤخر عنقي ببعض الماء. تساءلت: إلى متى سأظل أعاني من غثيان الصباح؟ ومع أنني أدركت أنه لن يستمر طوال الشهور التسعة بالطبع، إلا أنني لم أكن واثقة من موعد انتهائه. ومع ذلك، إن قررت التخلص من الحمل، فسيزول غثيان الصباح معه. توجب عليّ أن أكف عن التفكير في موضوع الحمل. فقد كانت لديّ مهمة يجب عليّ إنجازها الآن. نظرت إلى المرآة فوجدت وجهي شاحباً وعيني متعبتين، ولكنّ ذلك التعب لم يكن شيئاً تعجز بعض مساحيق التجميل عن إصلاحه. فتحت حقيبتي، وأوشكت أن أخرج أحمر شفاهي عندما لاحظت وجود المغلف الذي أعطتني إياه المفتشة زينب. كنت قد نسيت أمره كلياً حتى هذه اللحظة. بحثت عن الخاتم الغريب ووجدته لا يزال مخفياً بين الأوراق النقدية. أخرجته ورفعته إلى الضوء متأملة جماله مرة أخرى. كانت النقوش الدقيقة على الخاتم الفضي تظهر براعة فنية كبيرة، كما أنّ العمق في حجر العقيق البني المحمر يأخذ بالألباب. أيقنت أنه ليس مجرد خاتم رخيص. وضعته تحت ماء الصنبور وفركته بأصابعي بقوة على أمل أن أزيل أي أثر للطلاء عنه؛ فلم تتلطخ المغسلة البيضاء بأي قطرة تنزل منه. فكرت في أن أعاود وضعه في إصبعي، ولكن، ماذا إن نزف مرة أخرى؟ في نهاية المطاف، لم أستطع أن أكبح نفسي فدسسته في إصبعي لأجربه مجدداً، فناسبني قياسه بشكل مثالي. وضعت طبقة رقيقة من أحمر الشفاه، ثم عاودت إغلاق حقيبتي، وخرجت من الفندق.

بينما كنت أمر بين مسجد السلطان سليم وأحد المتنزهات الصغيرة، وصلت إلى الباب الخارجي لمدخل الضريح المقنطر، فوجدت مجموعة من السياح المسنين، أي عشرة أشخاص تقريباً، يقفون على شكل طابور صغير عند طاولة بيع التذاكر. وعندما اقتربت أكثر، سمعتهم يتحدثون اللغة الإنكليزية بلكنة بريطانية. كانت مرشدتهم السياحية امرأة ذات شعر أبيض قصير وأنيق، وعينين زرقاوين برّاقتين وبشرة مسمرة من الشمس. لم تكن تبدو تركية.

ناداها رجل أصلع مفعم بالحيوية مؤكداً ظني: "مرحباً، يا أنجيلينا". أمسك الرجل بيده كل أنواع الأوراق النقدية التركية الملونة على شكل مروحة، وراح يلوح بها في الهواء، وقال: "أيًّا من هذه الأوراق الجميلة سنعطي موظف قطع التذاكر؟".

ضحكت أنجيلينا وهي تأخذ الورقة النقدية المناسبة من يد الرجل وترفعها ليراها الجميع قائلة: "هذه هي المناسبة، الورقة الحمراء".

هذه المرة، أشارت امرأة سمينة ذات شعر رمادي مقصوص قصيراً وخداها متوهجان من شدّة الحرارة إلى ملصق على الجدار وسألت قائلة: "أنجيلينا، ما المكتوب هناك؟ نعم، هناك، على ذلك الملصق الذي يحمل صورة رومي؟".

التفتت أنجيلينا من دون أن تشعر أن المرأة تفرض نفسها عليها وحدقت إلى الملصق، فالتفت لأنظر إليه معها. بدا الرجل الظاهر في الصورة مختلفاً عن رومي الذي رأيته مع شمس في حلمي. فقد أظهرته تلك الصورة التقليدية كرجل كبير في السن يجلس متصالب الساقين، ويداه متشابكتان على حضنه، وهو منطوٍ على نفسه من شدة الضعف، وعيناه نصف مغمضتين. بجانب صورة رومي، خطت سطور فوق بعضها على شكل قصيدة؛ بالرغم من أن الكلمات نفسها بدت أشبه بالحِكم. بدأت أنجيلينا تترجم من دون توقف قائلة:

إما أن تبدو على حقيقتك
أو أن تكون كما تبدو
كن كالشمس في تعاطفها ورحمتها
كن كالليل في ستره عيوب الآخرين
كن كالجدول في كرمه ونفعه
كن كالبحر في تسامحه
كن كالموت في حدته وغضبه

فإما أن تبدو على حقيقتك
أو أن تكون كما تبدو
من الواضح أنها كانت مطّلعة على القصيدة، وإلا لما تمكنت من ترجمتها بهذه السرعة والدقة. عندما انتهت أنجيلينا من الترجمة، ابتسمت وقالت: "هل تتذكرون؟ لقد قرأنا هذه القصيدة لرومي من قبل".
أومأ أفراد المجموعة برؤوسهم موافقين. وأشار أحدهم - وهو رجل أنيق الملبس ذو لحية قصيرة مشذبة ويحمل عكازاً مزخرفاً - بإصبعه النحيلة إلى القصيدة وسأل قائلاً: "أهذه القصيدة بالتركية أم بالفارسية؟".
شرحت له أنجيلينا بصبر مدرسة متعاطفة: "بالتركية. فالأبجدية الفارسية تبدو مختلفة بشكل ملحوظ عن اللاتينية التي تعرفونها. ومع ذلك، فالنص الأصلي باللغة الفارسية، فهي اللغة التي اعتاد رومي أن يكتب الشعر بها".
شعرت بالتأثر لمدى معرفة تلك المرأة باللغة التركية؛ فهي تعرفها بما يكفي لكي تترجمها. فتساءلت إن كانت قد تعلمت اللغة الفارسية أيضاً. ولم أستطع أن أمنع نفسي من التأثر باهتمام هؤلاء السياح الغربيين برومي. لم أتوقع أن يمتد مجال تأثيره إلى ما وراء الصوفيين المسلمين أو ربما الهيبيين أو الأنماط الشبيهة بأمي في شبابها. أما هؤلاء السياح، فقد كانوا مجموعة من البريطانيين من الطبقة الوسطى المستقرة.
حرصت أنجيلينا على أن يشتري الرجل القصير السمين ذو الشعر الأحمر الذي يقف في آخر الصف تذكرته، ثم أخذت تنظر حولها محاولة عدهم ذهنياً وكأنها دجاجة تخشى أن يتوه أحد فراخها بعيداً عنها.
"هل أنتم مستعدون؟ هل حصل الجميع على تذاكرهم؟".
رفع أفراد المجموعة الإنكليز المسنون تذاكرهم في الهواء وكأنهم تلاميذ مدرسة. وبعد أن شعرت أنجيلينا بالرضا عن الوضع، أشارت باتجاه الباب الدوار.
"الآن سنعبر هذه البوابة للوصول إلى الحديقة، ولكن أولاً سأعطيكم بعض المعلومات. هذه البوابة تسمى بوابة الدراويش". وأشارت إلى البوابة قائلة: "وهي تشكل المدخل الرئيس. تم منحها هذا الاسم لأنها المكان الذي اعتاد الدراويش في الماضي أن يدخلوا منه. هناك ثلاثة أبواب أخرى، أحدها باب السيد؛ وقد أطلق عليه هذا الاسم نسبة لذرية رومي. إذ بعد أن دفن رومي هنا، اشترت عائلته كل المساكن في هذه المنطقة، وهذه البوابة تطل على المكان الذي أنشئت فيه تلك البيوت. هناك بوابة أخرى هي بوابة السفهاء، وهي مخصصة لأولئك الدراويش الذين يضلون الطريق ولا يبذلون

جهداً للتغيير إلى الأفضل. فإن تقرر نفيهم من جماعة الدراويش، خرجوا عبر هذا الباب تحت جنح الظلام بعد الانتهاء من صلاة العشاء لكي لا يراهم أحد. أما بالنسبة إلى باب الصامتين، فهو يؤدي إلى مقبرة الصالحين الثلاثة التي زرناها صباح اليوم. في الطريقة المولوية، تسمى المقابر بمكان الصامتين، وهذا يفسر اسم الباب".

على ما يبدو، لم تكن أنجيلينا ذات مستوى ثقافي مدهش وحسب، ولكنها كانت أيضاً غافلة عن حرارة شمس الأناضول المحرقة. وبينما كنت أشتري تذكرتي، خطرت ببالي فكرة انتهازية. فقد قررت أن ألحق بهم لأستفيد من ثروتها المعرفية الغزيرة.

بحلول الوقت الذي سلمني فيه موظف شاب ذو شارب رفيع تذكرتي، وجدت أفراد المجموعة يتخذون مواقعهم حول نافورة الوضوء التاريخية في الحديقة. بدت الحديقة، ذات الأساسات الرخامية البيضاء والأضرحة المنثورة عشوائياً في مجموعات من قبرين أو ثلاثة، مكتظة بالزوار. ميزت إلى جانب مجموعة السياح الإنكليز التي وقف أفرادها بصبر بانتظار سماع تعقيب من أنجيلينا مجموعتي سياح أخريين؛ إحداهما ألمانية والأخرى يابانية، بالإضافة إلى مجموعة من الزوار الأتراك الذين راحوا يمشون بشكل متعرج في مجموعات صغيرة مكونة من ثلاثة أشخاص أو أربعة. وجدت أن ازدحام الحديقة بهذا الشكل يخدم غرضي، فاختبأت خلف الرجل القصير ذي الشعر الأحمر، وأصغيت لشرح أنجيلينا.

"الآن، تخيلوا أنكم ترون حديقة ورود بدلاً من حجرة الدفن الضخمة هذه". فالتفتت كل الرؤوس بذلك الاتجاه. تابعت أنجيلينا قائلة: "تنمو من حولنا ورود بألوان الأحمر والزهري والأصفر والأبيض تبهر الأبصار. تنشّقوا عبير الزهور الذي ينجرف مع النسيم العليل".

صدرت همهمة رهبة من المحتشدين وكأن بوسعهم أن يشموا الرائحة ويروا الألوان بالفعل، فشعرت أنجيلينا بالرضا من سائر أفراد المجموعة.

"قبل بضع مئات من السنين، كانت حديقة الورود في قصر السلاجقة تقع هنا. وعندما أغمض والد رومي سلطان العلماء بهاء الدين البلخي عينيه للمرة الأخيرة، دفن في هذا المكان. وبعد موته بوقت قصير، سعى تلاميذه ومريدوه للتحدث إلى رومي، فقالوا له: إننا نتمنى أن نبني ضريحاً فوق مدفن سلطان العلماء المبجل. طالبين بذلك الإذن منه، ولكن بعد أن شكرهم رومي، قال لهم: يا أصدقائي، هل يمكن أن يوجد ضريح أعظم من قبة السماء الواسعة؟ وعندما سمع أصدقاؤه هذا الكلام، تراجعوا عن طلبهم.

ومع ذلك، عندما توفي محمد جلال الدين رومي بعد عدة سنوات في عام 1273، وافق ابنه سلطان على بناء ضريح لوالده. وهكذا، بني هذا الضريح الأخضر الجميل بأعمدته الثخينة كقوائم الفيلة. صممه المعماري ميمار بيدريتن من تبريز. وبعد ذلك، تم دفن كل أقارب رومي ومشايخه وأتباعه هنا".

وبينما كنا نقترب من الباب الخارجي للقبة الخضراء، أصبح حشد الناس أشد كثافة. فقد طلب المشرفون من الزوار أن ينتعلوا الحذاء المصنوع من النايلون الرقيق الذي تم تزويدهم به فوق أحذيتهم؛ الأمر الذي ما استغرق بعض الوقت، وأدى إلى حدوث بعض الازدحام عند الباب. تلكأت قليلاً خلف الحشد. وعندما تمكنت أخيراً من الوصول إلى الداخل، شممت رائحة أقمشة قديمة وتراب وخشب، وسمعت صوت ناي صادراً من مكان ما في عمق الضريح. وكانت الجدران المضاءة بإضاءة صفراء خافتة تمنحها لمعان الذهب تعرض أمثلة مختارة للخط العربي والفارسي كتلك النماذج التي اعتاد والدي أن يعمل عليها في الماضي. حشدت أنجيلينا أفراد مجموعتها أمام أحد الأبواب الفضية، فاتجهت إلى مكان وقوفهم بصمت.

هذا المكان هو قبلة العشاق

كل من يدخل من هنا نصفين، يجد نفسه كاملاً

بدأت أنجيلينا تترجم ما كُتِب على الباب لكي يفهم الجميع.

فقالت بصوت مرتفع بما فيه الكفاية ليسمع جميع من حولها: "تعود هذه الكلمات إلى مسجد الملا. وقد تم نقش هذه الكلمات ذات الجمال الذي لا يضاهى والمكانة العالية في القلوب - نظراً لإتقان شكلها وعمق معانيها - بقلم الخطاط الشهير يساريزاد مصطفى عزت أفندي".

سأل الرجل ذو اللحية المشذّبة والعكاز قائلاً: "ما الذي يعنيه أن يدخل الشخص إلى هناك نصفين فيجد نفسه كاملاً؟ أعني، هل هذا المكان مسحور؟ هل يمكن لهذا المكان أن يخلصنا من عيوبنا؟".

ضحكت أنجيلينا من دون أي أثر للشعور بالتفوق. استطعت أن أميز تعبير وجهها جيداً، فلطالما رأيته على وجه والدي وشاه نسيم ورومي وشمس وقرأت المعنى نفسه فيه. فقد تحلى هؤلاء الناس جميعاً بالسلوك الصبور والهادئ نفسه لدرجة أنه مهما كان السؤال سخيفاً، فإنهم يشعرون أن من واجبهم أن يقدموا لسائله جواباً جاداً.

قالت أنجيلينا محاولة أن تخلّص الرجل من ارتباكه: "بداية، دعوني أوضح لكم شيئاً. عندما قال عالم الدين في مسجد الملا: "من يدخل" فهو لم

يقصد بذلك الزوار القادمين إلى هذه الحجرة، بل تحدث عن أولئك القادمين من الجماعة، أي العشاق الذين يبحثون عن الحقيقة. إن هذا لا يعني أنكم عندما تدخلون إلى هنا للمرة الأولى فسيفعل معكم الأموات الراقدون في هذه الحجرة المعجزات، وسيهمسون بالأسرار العظيمة في آذانكم أو يحولونكم إلى كائنات متنورة الواحد تلو الآخر. فالوصول إلى مرحلة التنور الفكري والروحي ليس بهذه السهولة. إذ يجب على الإنسان أولاً أن يخضع لمرحلة من المعاناة، وأن يتحمل حصته من المحن، ويتحول إلى ساعٍ إلى الحقيقة لا يتزعزع سعيه".

أسرار عظيمة وحقيقة! لقد استخدمت أنجيلينا لغة استخدمها قبلها والدي وشاه نسيم، ثم شمس ورومي في أحلامي، ولكنني لم أستطع - بالضبط كالرجل المسن ذي اللحية - أن أجبر عقلي على استيعابها وتقبلها.

عندما لم يعد هناك المزيد من الأسئلة، خطت أنجيلينا إلى الحجرة الداخلية عبر الباب الفضي، فتبعتها خلف أصدقائها الفضوليين. في الداخل، لم يعد الضوء الذهبي يتسرب إلا قليلاً، وأصبح لونه أغمق وأكثر قرباً من اللون العسلي. وعندما تأقلمت عيناي مع الظلام أخيراً واستطعت أن أرى صفوف الشواهد المزينة بقماش الساتان على كلا الجانبين، تذكرت أن والدي قد اصطحبني إلى هنا وأنا صغيرة. في ذلك الوقت، أصابني الرعب من منظر القبور. ولكن هذه الغرفة المضاءة بنور خافت لم تدخل إلى نفسي أدنى شعور بالخوف الآن؛ بالرغم من امتلائها بقرابة مائة شاهدة قبر معممة، بل أضفت عليّ إحساساً بالولوج إلى عالم من عوالم الخيال، وإلى أبهى قاعات تلك القصور الشرقية التي وصفها لي والدي في قصصه؛ فتذكرت الثريات المتدلية من السقف، والشمعدانات بجانب الشواهد، والزخارف الحمراء والبنية والصفراء على الأعمدة الثخينة التي تدعم الضريح، والزهور المطرزة على أقمشة الساتان التي تغطي الشواهد، والكتابة الرائعة التي تكمل هذا الجو الرائع بآيات من القرآن وبقصائد لم أعد أفهمها... لم يتغير هذا الجو الغامض الموحي بالرهبة خلال عقود؛ منذ أن أتيت إلى هذا المكان للمرة الأولى مع والدي. فأيقنت أنه سيبقى هكذا طوال الزمان، وهذا ما أكدت عليه الأبيات التي تلتها أنجيلينا على مسامعنا في تلك اللحظة.

تعال إليّ أياً كنت

مؤمناً كنت أم كافراً أم عابداً للنار أم وثنياً

لا يهم ذلك. تعال إليّ من جديد

حتى لو أقسمت ألف قسم
أو حنثت بقسمك ألف مرة
ليست قافلتنا قافلة يأس
تعال أياً كنت، تعال معي

إنّ أبيات الشعر هذه لا تنسى. كم مرة سمعتها من والدي... كم مرة نويت أن أحفظها عن ظهر قلب... ظللت حتى هذه اللحظة أشعر بالتأثر لدى سماعها. ومع ذلك، لا بد أن السيدة الممتلئة ذات الشعر القصير، التي بدت آثار الحرارة واضحة على وجنتيها بالرغم من برودة جو الغرفة لم تشاركني مشاعري لأنها سألت بوقاحة قائلة: "لست مسرورة من كلمة كافر. من هو الكافر؟ المسيحي أم اليهودي أم الملحد؟ هناك شيء ما في هذه القصيدة يحط من قدر الوثنيين والكفار، وهذا ليس أمراً لطيفاً على الإطلاق. أين المكان الذي يريدنا أن نذهب إليه؟ إلى معتقدات رومي؟ ماذا إن ذهبت إليه من دون أن أؤمن بمعتقداته؟ إن حاولت أن أذهب إليه من دون أن أغير معتقداتي، فهل سأظل موضع ترحيب في ذلك المكان المليء بالتسامح؟".

حافظت أنجيلينا على رباطة جأشها، ورفعت رأسها وأجابت قائلة: "لم تستوقفني المعاني التي استوقفتك، ولكنك محقة. فقد يعني رومي بكلمة كافر الناس الذين لا يؤمنون بمعتقداته، ولكنه يدعو أولئك الناس إلى مائدته من دون أن يتعامل معهم بتفضل أو تفوق. يمكنك أن تلاحظي هنا في هذه الكلمات عدم وجود أي فرض لمعتقداته على الآخرين أو إصرار على تقبل أفكاره. يقول رومي: إن ديني هو دين الحب. فالحب هو القاسم المشترك الذي يجمع بين الناس قاطبة بغض النظر عن أديانهم".

لم تنقشع سحب الشك السوداء القاتمة من عيني المرأة الممتلئة، ولكن أنجيلينا لم تشعر بأي حاجة إلى الشرح أكثر من ذلك، بل توجهت نحو مؤخر الغرفة وتبعناها. وعندما وصلت إلى الزاوية اليمنى، توقفت والتفتت لتواجهنا، وأشارت إلى شاهدتين من الشواهد المعممة المغطاة بالساتان المطرز.

"هاتان الشاهدتان هما للمولوي جلال الدين رومي وابنه سلطان".

سلطان! إنه الابن البكر الخنوع الذي ارتجف بخجل وكأنه فتاة عذراء أمام شمس. تساءلت عن مكان قبر الابن الآخر علاء الدين الشاب المتهور الذي لم يفارق كيميا.

"بنيت هذه الشواهد من الرخام بأمر من الخليفة العثماني سليمان القانوني

عام 1565".
بعد ذلك، أشارت أنجيلينا إلى واحدة من بين عدة شواهد خشبية متقنة الصنع خلفها، وقالت: "وفي هذا القبر، دفن والد المولوي سلطان العلماء بهاء الدين البلخي القونوي". أضفى الضوء الذهبي المنعكس في عينيها الزرقاوين غموضاً مثيراً على وجهها. تابعت قائلة: "بني الضريح الخشبي في الأصل لجلال الدين رومي نفسه. ويقال إنهم أحضروا رومي عندما مات ليتم دفنه مع والده".
ظننت أن المجموعة ستعترض على هذه الخرافة، ولكنني أخطأت في ظني. ومع ذلك، فقد طرحت السيدة الممتلئة التي بدت غير راضية بالجواب عن سؤالها السابق سؤالاً آخر.
فقالت: "لماذا لم يوضع قبر شمس التبريزي بجانب قبر رومي؟ إن أجمل قصائد رومي مهداة له بشكل خاص، فكيف يدفن أهم شخص في حياة رومي في ضريح آخر؟".
بدت السيدة العجوز مولعة بالمعارضة، فبدأت تنال إعجابي أكثر فأكثر، وسررت لأنها عبّرت بكلماتها الخاصة عن الأسئلة التي ظلت تطاردني منذ بعض الوقت. لذا، أرهفت سمعي باهتمام زائد لأصغي إلى ما ستقوله أنجيلينا عن الموضوع، ولكن قائدة المجموعة لوحت بيدها فجأة إلى الجانب الآخر من الغرفة حيث توجد كتب معروضة وكأنها لم تسمع السؤال، وقالت: "إنني واثقة من أن بعضكم يودون أن يروا صناديق العرض. لننتقل إلى تلك المنطقة حيث يمكننا أن نتحدث بحرية أكبر".
اعتبرت نفسي الآن فرداً من أفراد المجموعة، لذا لم تعد لديّ أي تحفظات حيال الانضمام إليهم للنظر إلى صناديق العرض التي افترضت أنها المكان الذي تحفظ فيه مقالات شخصية تخص المولوي وأحباءه. جمعتنا أنجيلينا في زاوية منعزلة أمام صندوق عرض يحوي مخطوطاً لأحد كتب رومي وبدأت تجيب عن سؤال تلك السيدة المحببة.
"هناك حقيقة معروفة تقول إنّ شعب قونية لم يكن يحب شمس التبريزي". وبينما كانت تقول هذا، التقت عيناها عينيّ، فاستطعت أن أشعر بها وهي تتساءل عن هويتي؛ أنا المرأة الغريبة التي تبدي اهتماماً شديداً بكل كلمة تقولها. أصابني الذعر ظناً مني أنها ستطردني، ولكنها بدلاً من ذلك عاودت النظر إلى السيدة الممتلئة وواصلت الشرح قائلة: "كيف يمكنهم أن يحبوه؟ فهو مجرد رجل مجنون قادم من تبريز، ظهر فجأة ذات يوم، وسرق عالمهم العظيم وشيخهم الموقر. قبل أن يقابل شمس، كان جلال

الدين رومي صوفياً يحتل مكانة رفيعة في مجتمعه. فقد اعتاد أن يؤدي طقوس الصلاة ويصوم ويعظ في المسجد ويعلم في المدرسة... ولكن، عندما التقى شمس، التفت لقراءة الشعر، والتفكير بمسائل لم يكن سكان المدينة مستعدين لسماعها. وإن لم يكن ذلك كافياً، فقد رفع رومي شمس التبريزي إلى مقام عالٍ، وراح يمجد فضائله أمام كل من يصغي إليه، وفي كل فرصة متاحة. هناك قصة متعلقة بذلك تشرح ما جرى بشكل مثالي. هل يتذكر الجميع مدرسة الكاراتي؟ تلك التي مررنا بها عندما غادرنا الفندق؟ حسناً، ذات ليلة، أقام الرجل الذي أمر ببنائها، وهو الوزير السلجوقي جلال الدين كاراتي، وليمة كبرى في مسكنه، ودعا إليها العلماء والفنانين والسياسيين والوجهاء من بين مدعوين آخرين. قبل رومي الدعوة، واصطحب شمس معه. وفي الداخل، سادت جلبة كبيرة حول رومي فافترق عن توأم روحه، وأعطي مقعداً عند رأس المائدة. أما بالنسبة إلى شمس، فقد قام بمجرد الجلوس بتواضع كبير قرب الباب؛ حيث توضع الأحذية. وبعد وقت قصير، تطرق أحدهم إلى موضوع يتحدث عن مكان الشرف الذي يجلس فيه المرء إلى المائدة. فأدلى كل شخص بدلوه في الموضوع، وعندما حان دور رومي قال: بالنسبة إلى العلماء، إن مكان الشرف في وسط المائدة. وبالنسبة إلى المتنورين، المكان في أي زاوية قديمة في البيت. وبالنسبة إلى الصوفيين، فذاك المكان يقع إلى جانب الغرف. ولكن، بالنسبة إلى مجموعة المحبين، فمكان الشرف إلى جانب صديقهم المخلص. ثم نهض رومي، وذهب ليجلس بجوار شمس عند الباب".

بينما كنت أصغي لأنجيلينا، لم أستطع إلا أن أصدق أن الحكاية مبنية على قصة حقيقية. فقد بدا رومي الذي رأيته في أحلامي يملك الشجاعة الكافية للقيام بفعل مماثل.

"إذاً، ما الذي قاله بقية الحاضرين حول هذا؟".

أتى هذا السؤال من الرجل ذي الشعر الأحمر الذي بدا مستغرقاً في القصة كلياً.

"لم يقولوا شيئاً في وجهه، ولكنهم منذ ذلك اليوم فصاعداً أضمروا لشمس نية سيئة، وبدأوا يغذون عداوتهم له. فتم اتهام ذلك الدرويش الرحالة بشتى التهم. فقد قال البعض إنه سيئ الأخلاق، وأكد آخرون أنه جاسوس منغولي، وهناك من ادعى أنه مشعوذ. وهكذا، جزم الكثير من الناس أنه ينبغي طرد ذلك المجنون المتسربل بالسواد من المدينة وحاولوا إخافته، ومنهم من تحدث بصراحة عن قتله. ولم تمض سنة ونصف السنة على

حضوره إلى هنا للمرة الأولى لرؤية رومي حتى وصلت التهديدات ضده إلى حدّ دفعه إلى مغادرة قونية بصمت ذات ليلة بعد أن أدرك فداحة الموقف؛ من دون أن يتفوه بكلمة وداع".

"أتقولين إنه هرب؟".

كان الرجل ذو الشعر الأحمر مجدداً من طرح هذا السؤال. فلا بد أنه عانى من صعوبة في تقبل فكرة هروب رجل أسطوري ودرويش قوي مثل شمس. لأتوخى الصراحة، تملكني الشعور نفسه. فشمس الذي أعرفه ما كان ليشعر بالذعر من أي تهديدات تافهة من ذلك القبيل.

قالت أنجيلينا بشكل ملتبس: "ربما أراد بهذا أن يحمي رومي. من المستحيل أن يعرف أحد الحقيقة. ولكن، إن كان هناك ما نعرفه بشكل مؤكد، فهو أن رومي عندما سمع برحيل توأم روحه جن جنونه، وامتنع عن تناول الطعام والشراب، وجافاه النوم، وبدأ يهيم على وجهه في الأرض بحثاً عنه؛ ولكنه لم يستطع العثور عليه. وعندما رأى أتباع رومي الذين سرهم التخلص من شمس أن شيخهم لم يعد يبدي لهم أي اهتمام، ندموا على فعلتهم أشد الندم، وأتوا إلى رومي، وقالوا له: لم نعرف حقيقة شمس كما عرفتها، ولم نجعله يشعر بالترحاب كما جعلته أنت يشعر، وارتكبنا خطأ. من فضلك، سامحنا يا سيدنا. فاقتنع رومي بصدقهم وإخلاصهم وسامحهم. ومرّ أكثر من سنة، لم يتم خلالها العثور على شمس في أي مكان. وأخيراً، سمع رومي خبراً ساراً. فقد عرف أن شمس في دمشق. وهكذا، أعد قافلة، وطلب من ابنه البكر سلطان أن ينطلق بها. وبعد رحلة طويلة وشاقة، وصل سلطان إلى دمشق؛ حيث عثر على شمس وحدثه حديثاً عذباً إلى أن شفي قلبه الجريح، واقتنع الدرويش الرحالة، الذي لم يمكث في أي مكان لوقت طويل، بالعودة إلى قونية.

بعودة شمس، استعاد رومي سعادته التي فقدها من جديد. وبدأ ينتج الشعر بحماسة متقدة كل يوم كعندليب يصدح بالأناشيد لزهور الربيع. وفي الوقت نفسه، حكّم رومي عقله، وأدرك أن عليه أن يتخذ إجراءات لمنع انتشار الثرثرة في المدينة. وفكر في أن حضور شمس وذهابه من بيته لن يعتبرا غريبين جداً إن جمعت بينهما علاقة عائلية. لذا، عرض ابنته بالتبني كيميا على رفيق روحه ليتزوجها".

قاطعتها السيدة الممتلئة مرة أخرى وتساءلت قائلة: "إن لم يخب ظني، قلت من قبل إن شمس كان في العقد السادس من عمره. إذاً، كم كان عمر تلك الفتاة المدعوة كيميا؟".

قالت أنجيلينا بارتباك: "لست واثقة. لا يمكن أن تكون كبيرة".
فتدخلت وكأن الموضوع يخصني قائلة: "لم تكن أكبر من ثماني عشرة سنة".
التفت الجميع نحوي، وراحوا يحدقون إليّ بقلق من دون التفوه بكلمة واحدة. لم أستطع أن أفهم سبب قلقهم في حين أن كل ما فعلته هو أنني قدمت لهم معلومة إضافية.
أشارت أنجيلينا إلى بطني، وقالت بتوتر: "انظري إلى قميصك! أظن أنك تنزفين".
نظرت إلى قميصي برعب، ورأيته مغطى بالدم كما حدث في مكتب ضياء، ثم حولت بصري إلى يدي وإصبعي التي وضعت فيها الخاتم. وبكل تأكيد، وجدت خاتم شمس ينزف مرة أخرى.

"من يعبث معك يَمُت، يا سيدة غرينوود"
خرجت من الضريح مسرعة، وتوجهت عائدة إلى الفندق. وحالما وصلت إلى هناك، خلعت قميصي، ونزعت الخاتم، ودخلت الحمام لأخلص نفسي من أي أثر له. وبينما كنت أجفف شعري، اتصل بي مينان ليقول إنه غادر المكتب وسيصل إلى الفندق في غضون عشر دقائق. ففكرت في أن التوقيت مناسب، وأنه سيتسنى لي ارتداء ملابسي في تلك الأثناء. وحتى لو تأخرت قليلاً، فلن تكون نهاية العالم. وفي نهاية المطاف، التقينا في الوقت المحدد. وكانت الساعة تشير إلى الثالثة تماماً عندما ركن مينان السيارة أمام شركة إيكونيون للسياحة.
وبينما نحن نقرع جرس مكتب ضياء، تملكني بعض الارتباك حيال لقاء صديق والدي القديم. ومع ذلك، حالما دخلنا خاب أملنا لدى رؤيتنا ضياء وحده في مكتبه من دون وجود عزت أفندي. دعانا للجلوس ثم شرح لنا باضطراب: "إن والدي ليس بصحة جيدة. فقد ارتفع ضغط دمه". لم يبدُ عليه الاستياء حيال مرض أبيه بل الغضب فقط.
تمتمت قائلة: "آه! آمل ألاّ يكون الأمر خطيراً". وبالرغم من ذلك، لم يسعني إلا أن أفكر في أن هناك ما هو أكثر من ذلك.
"كلا، إنّ سبب ذلك هو التقدم في السن. ففي كل يوم، تظهر قصة مختلفة".
تمتم مينان بخيبة أمل قائلاً: "يا الله! ماذا جرى لعزت أفندي؟ لقد اعتاد أن يتمتع بالنشاط أكثر من الشبان. ما خطبه الآن؟".
قال ضياء محاولاً أن يغير الموضوع: "لا شيء يستدعي القلق. لا يزال يود مقابلتكما، ولكنه قال إنه ينبغي عليكما الذهاب إلى مأوى الدراويش".
في الواقع، وجدت ذلك أفضل لأنني لم أشعر بالراحة حيال التحدث عن والدي أمام ضياء. ليتني أستطيع العثور على طريقة للتخلص من مينان أيضاً؛ ولكن ذلك أصعب بعض الشيء. فقد أعلن زميلي بكل حماسة قائلاً: "بالطبع. يمكنني أن أصطحب السيدة غرينوود إلى هناك".
"هل والدك في المأوى الآن؟". فإن كان الرجل المسكين ينتظرنا، يتوجّب علينا أن ننطلق لمقابلته على الفور.
"كلا، إنه يستريح في البيت. قال لي إنه سيتوجه إلى المأوى بعد أن يبرد الطقس بعض الشيء. سيصل إلى هناك بحلول الساعة الخامسة حسبما أعتقد". بدا مسروراً لأنني لم أنزعج من تغيير الموعد، وقال: "إذاً، أعتذر

بشأن هذا يا سيدة غرينوود، ولكن هذا خارج عن إرادتي".

"لا بأس بذلك. في الواقع، أنا أفضل هذا الموعد أكثر. إذ صار بإمكاني التحدث إلى سيرهاد وكافيت في هذه الأثناء".

ازدادت حدة الارتباك الذي بدا على ملامح وجهه، وقال: "لماذا؟ حول ماذا؟".

طرح ضياء السؤال عليّ بالرغم من أنه نظر نحو مينان وكأنه ينشد مساعدته. فالتزمت الصمت متسائلة عما سيقوله مينان، ولكنه لم يحرك ساكناً. فعلى ما يبدو، بدأ أخيراً يدرك حقيقة الموقف. كنت محقة في الوثوق به فتنفست الصعداء.

قلت له بعدم مبالاة: "لا شيء مهم إلى هذا الحد. يجب عليّ أن أدون تقريري بمنتهى الدقة، ولكن لا تزال هناك بعض الأسئلة في ما يتعلق بالحريق، والتي لم تتم الإجابة عنها بعد. لذا، أريد الحصول على بعض المساعدة من سيرهاد وكافيت".

سألني بقلق متجدد قائلاً: "أية أسئلة؟ ربما يمكنني أن أساعدك".

رمقته بنظرة امتنان، وقلت: "شكراً لك. ولكنني هذه المرة لست بحاجة إلى مساعدتك بل إلى مساعدة رَجُليك. فأنا أريد إفادات مستقلة منهما قبل أن أكمل كتابة تقريري".

قال: "حسناً، فهمت. إنني أحاول مساعدتك وحسب".

"أعرف ذلك. إنك تساعدني بالفعل. شكراً لك".

وبالرغم من أن ضياء ظل يبدو مشوشاً بشكل ملحوظ، إلا أنه تظاهر بأنه اقتنع بحجتي، واتصل بسكرتيرته.

"مرحباً يا غولشن. أيمكنك أن ترسلي سيرهاد وكافيت إلى مكتبي؟ ماذا؟ كلا، لا تدعيهما يذهبان إلى أي مكان. اطلبي منهما الحضور إلى هنا في الحال. آه، انتظري لحظة". وقال لنا بلهجة اعتذارية: "نسيت أن أسألكما عمّا تودان شربه".

كنا قد تناولنا الكثير من الطعام والشراب في بيت قدير، لذا شعرت أنني غير راغبة بإدخال أي شيء آخر في فمي.

فقلت: "لا أريد شيئاً، شكراً لك".

وقال مينان: "وأنا أيضاً". وبدت حاله أسوأ من حالتي بكثير. فقد ظهر بطنه المنتفخ بوضوح من تحت سترته. لا بد أن ضياء قد أدرك مشكلتنا لأنه لم يلح علينا أكثر من ذلك، وقال لسكرتيرته: "ربما لاحقاً". وأنهى المكالمة، وبدا التردد واضحاً في عينيه.

"حسناً، إن كان حضوري يسبب مشكلة يا سيدة غرينوود، فأنا مستعد لمغادرة الغرفة".

على العكس من ذلك، أردت أن يبقى ضياء في المكتب في أثناء تحقيقي مع الرجلين. إذ توقعت أن تشكل رؤية الوجوه الثلاثة في آن معاً، وتقدير ردود أفعالهم خلال الاستجواب عاملين مفيدين لي. في بعض الأحيان، يمكن للحقيقة الخفية خلف الكلمات أن تُفتضح بسهولة من خلال إيماءة صغيرة أو لمحة وجيزة.

"شكراً جزيلاً لك على هذا العرض، ولكن لا يجب عليك الخروج. فهذا مجرد إجراء شكلي، كما قلت لك".

راح يتفحصني بعينيه محاولاً أن يفهم إن كنت أتعامل معه ببساطة، أم إن كانت لديّ دوافع خفية.

تابعت كلامي قائلة: "هذا هو الجزء البغيض من عملي. إذ إنني غالباً ما أجد شرح الزبائن غير كافٍ، وأشعر بالريبة حيال الجميع؛ حتى أولئك الذين يتحلون بالاستقامة والنزاهة، وهذا ما يضطرني أحياناً للتصرف بفضول ولإهانة أحدهم؛ سواء أحصل ذلك بقصد أم بغير قصد".

فاعترض ضياء على كلامي على الفور، وقال: "لا تكوني سخيفة يا سيدة غرينوود. كل مهنة لها التزاماتها. وأنت تحاولين تنفيذ مهمتك ليس إلا. صدقيني، إنّ اهتمامك بكل التفاصيل يزيد من ثقتي كزبون بمصداقية شركتكم".

لاحظت أنه بدأ يسترخي. فقد استند إلى الخلف على كرسيه الفخم، ونظر إلى ابن بلده، وقال له: "هل أكلت القطة لسانك اليوم يا مينان؟". شعرت بومضة تحقير واستهزاء في عينيه. وأضاف قائلاً: "يبدو أنك لم تنم جيداً البارحة. ما الأمر؟ هل شغلت زوجتك كل وقتك؟".

لم يكن مزاج مينان يسمح له بتبادل الدعابات، فأجاب بفتور قائلاً: "كلا، ولكننا قمنا ببحث بعض الأمور مع الشرطة إلى ساعات الصباح الأولى".

توقعت أن يتفاجأ ضياء لدى سماعه هذا الكلام، ولكن هذا لم يحدث.

فقد سأل بلا مبالاة قائلاً: "الشرطة! ماذا حدث؟ آمل ألاّ يكون هناك خطب".

"لقد تعرضت السيدة غرينوود للسرقة".

لم يظهر وجهه أي رد فعل بل رمش بعينيه، وقال: "ماذا؟ متى؟ لماذا لم نسمع بهذا؟".

أطلق ضياء سلسلة من الأسئلة من دون أن ينتظر أية إجابة.

فشرح مينان قائلاً: "في الليلة الماضية، في المكان الذي التقى فيه شمس التبريزي المولوي جلال الدين رومي".

والآن، عبّرت ملامح وجهه عن الدهشة الحقيقية، فسأل مينان: "وما علاقة هذا بحادثة السرقة؟".

أدار مينان كرسيه ليواجه ضياء، وقال له بصوت تمتزج فيه الحيرة بضخامة المعنى كما فعل صباح ذلك اليوم عندما تحدث عن شمس: "لست أدري يا ضياء. ولكن، منذ أن وصلت السيدة غرينوود إلى هنا، بدأت تتعرّض لمواقف تتعلق بشمس".

ها قد عاد الآن إلى نظرياته الخرافية من جديد!

توجب عليّ أن أتدخل قائلة: "هذا نوع من المبالغة. لقد صادف وجودي في المكان الذي يدعى مرج البحرين عندما سرقت حقيبتي، وهذا كل ما في الأمر".

اكتسبت ملامح ضياء طابع التعاطف المزيف، وقال: "يا للأسف!".

"لا بأس. لحسن الحظ، عثرت عليها الشرطة، فلم أفقد شيئاً سوى جواز سفري فقط. وقد تم العثور على الرجل الذي سرقها".

صرّح مينان قائلاً: "نعم، بعد أن قتل، وقطعت يده التي استخدمها في السرقة ثم أقحمت داخل فمه".

وبالرغم من أن هذه الحادثة ربما كانت سترعب أي شخص آخر، إلا أنها بالكاد أحدثت أي تأثير على ضياء.

فقد قال بهدوء: "لا تقل هذا... إذاً، من هو هذا اللص؟ ومن الذي قتله؟".

أجاب مينان على سؤاله بسؤال آخر قائلاً: "ألم تسمع بما حصل!؟ لقد انتشر الخبر في أرجاء قونية كافة".

هز ضياء كتفيه بعجز شخص فاته حدث غير مهم، وقال: "كلا، لم أسمع به. فقد ذهبت في جولة مع مجموعة من السياح اليابانيين".

أفضى له مينان وهو ينظر إلى عينيه مباشرة: "إن اسمه كامل تينيك، وهو معروف باسم كامل الأعسر".

لم تظهر ملامح ضياء أي تعبير يدل على أنه ميز الاسم، ولا حتى حركة واحدة، وكأنه يسمعه للمرة الأولى.

"حسناً، هل ينبغي عليّ أن أعرف هذا المدعو "كامل" الأعسر؟".

"أتتذكر تلك الجرائم المروعة التي ارتكبت قبل بضع سنوات؟ لقد ذبح أحدهم أمه وشقيقيه".

هز ضياء كتفيه بعجز مجدداً، وقال: "كلا، لم أسمع بها. لا بد أنها وقعت خلال سفري خارج البلاد لأدرس في أمريكا".

"حسناً إذاً، دعني أشرح لك القصة. إن "كامل" الأعسر هو من ارتكب تلك الجرائم. وهو نفسه من سرق حقيبة السيدة غرينوود بالأمس؛ وهذه مصادفة غريبة".

سأل ضياء وهو يبدو مجفلاً: "ثم تعرض هو نفسه للقتل!؟". ظننت لوهلة أن تعبيره صادق ثم بدأ يضحك وقال: "الآن، لقد أخفتني بالفعل. لِمَ لا تقول إن من يعبث مع السيدة غرينوود يكون مصيره الموت؟". والتفت إلى صديقه بسرور مصطنع وقال: "انتظر... هل تقول إن شمس هو من عاقب هذا المجرم سارق الحقائب؟".

لكنني لم أضحك وكذلك مينان. قلت له محاولة أن أحبطه لتغيير مزاجه المبتهج: "كان كامل الأعسر يعمل سائق حافلة في رحلات صغيرة، ويتعامل مع الشركات السياحية".

تلاشت ابتسامة ضياء في الحال، وقال لي وكأنه شعر بالإهانة: "آمل أنك لا تتهمينني يا سيدة غرينوود. نحن لا نتورط بأعمال غير قانونية".

لا بد أنني أثرت غضبه، وهذا ما أردت حدوثه بالضبط، فقلت له محاولة أن أبين حقيقة الموقف: "لماذا تظن ذلك؟ خطر ببالي فقط أن الرجل ربما عمل لديكم في فترة من الفترات".

في تلك اللحظة بالذات، سمعنا صوت طرق على الباب ثم دخل سيرهاد وكافيت.

قال ضياء: "تفضلا، أيها الشابان". ولكنهما دخلا قبل أن يقول ذلك، فأضاف قائلاً: "إن السيدة غرينوود تريد التحدث إليكما. تفضلا واجلسا هنا".

قطبا جبينيهما عندما لاحظا وجودنا، ثم تقدما نحونا بتثاقل وهما يجران أقدامهما جراً.

قال سيرهاد بصوت فاتر: "مساء الخير". أما بالنسبة إلى كافيت، فقد اكتفى بالإيماء برأسه مرة واحدة. رأيته مرتدياً زوجاً من القفازات الجلدية بنية اللون هذه المرة أيضاً.

نهضت ومددت يدي قائلة: "مرحباً يا سيرهاد. كيف حالك منذ أن قابلتك أمس؟".

لم يستطع أن يدرك سبب تصرفي الودود معه، ولكنه لم يتردد بمصافحتي.

"إنني بخير، شكراً لك يا سيدة غرينوود".

"لم نكمل حديثنا بالأمس، لذا فكرت في أنه ينبغي علينا أن ننهيه لكي

نقفل هذه المسألة برمتها".
رمقتني عيناه عديمتا الأهداب بنظرة استخفاف، وقال: "بكل تأكيد. دعيني أوّلاً أعتذر عما بدر مني بالأمس. أظن أن الحرارة قد أثرت على مزاجي".
قلت: "لا بأس بذلك". ثم التفت إلى كافيت، ولم نكن قد تعرفنا على بعضنا بشكل ملائم بعد، فقلت له معرفة عن نفسي: "أنا كارين".
حدق إلى يدي التي مددتها لمصافحته وقد بدا عليه الشعور بالفزع، وهو يتساءل عن السبب الذي يجعله مجبراً على مصافحة هذه اليد. أوشكت أن أسحب يدي، ولكنه عندئذ أمسك بها بفتور من دون أن ينزع قفازه. لم أترك يده على الفور، بل أحكمت قبضتي عليها بكل قوتي. فقد توقعت أن تتغير تعابير وجهه دلالة على الشعور بالألم بسبب جرح أو حرق في يده ناجم عن الحريق، ولكن لسوء الحظ لم يظهر أي دليل يثبت شكوكي.
قال وهو يسحب يده بسرعة: "وأنا كافيت. سررت بمقابلتك". وتوجه على الفور إلى كرسي أصفر فاقع بعيد عنا خوفاً من أن يضطر لمصافحة أحد آخر. وكان سيرهاد قد جلس على الكرسي الرمادي المعدني بجانبي.
استهل ضياء الحديث، وكان من الواضح أن قضية السارق الذي قتل في الليلة الفائتة لم تغب عن ذهنه، فقد قال: "حسناً يا سيرهاد، أتعرف شخصاً يدعى "كامل"...". وسكت ثم التفت إلى مينان وسأله: "ما هي شهرته؟".
"تينيك. كامل تينيك".
"هذا صحيح. هل يوجد شخص ما بهذا الاسم بين سائقي حافلاتنا على الرحلات المنتظمة؟".
رمش سيرهاد بعينيه بتوتر، وقال: "لست أدري يا سيد كويومكوزاد. يجب علينا أن نسأل المحاسبين، فهم من يعدون إيصالات الدفع، لذا سوف يتمكنون من معرفة اسمه بسرعة إن كان يعمل لدينا". وألقى نظرة خاطفة نحوي، ثم التفت إلى مديره مرة أخرى وقال: "لماذا؟ ماذا حدث؟".
"من الواضح أن الرجل قد تعرض للقتل. إن الخبر منتشر في أرجاء قونية كافة. لم نسمع بالحادثة لأننا كنا في كاتالهويوك كما تعرف".
"أهي جريمة شرف أو شيء من هذا القبيل؟".
قال ضياء وهو غير راغب بأن يطيل الحديث أكثر من ذلك: "هذا غير واضح. ولكنه سيتضح عما قريب حسبما أظن. لنواصل عملنا". وأومأ برأسه باتجاه الرجلين وقال: "ها هما يا سيدة غرينوود. اطرحي عليهما أسئلتك".
استجبت لنبرة التحدي في صوته بابتسامة مهذبة، وقلت: "شكراً لك يا سيد

كويومكوزاد". ثم نظرت إلى سيرهاد وكافيت الذي يجلس مقابلي، وقلت لهما: "لا بد أنكما تعرفان الموضوع من قبل؛ إنّه موضوع حريق فندق ياقوت".

قاطعني كافيت قائلاً: "ولكنني لم أكن موجوداً في الفندق وقت اندلاع الحريق، لذا لا أعرف أي شيء عن الموضوع".

فالتفت إلى مينان وتظاهرت بالدهشة قائلة: "ما هذا؟". ورمقته بنظرة قاسية لسان حالها يحذره من التجرؤ على العبث بمسار الحديث، ثم أكملت كلامي قائلة: "ألم يقل قدير غيميليك إنه رأى كافيت في موقع الحريق؟".

فقاطعني سيرهاد قائلاً: "إن "قدير" مجنون. لقد فقد ذلك الرجل المسكين صوابه بسبب الحريق. هل ستعتمدين على كلام رجل مجنون؟".

ولكن مينان رد عليه بسرعة وقال: "ولكنه أحسن حالاً الآن". تمكنت من ملاحظة السعادة التي ظهرت في عينيه بسبب ما يعاني منه غريمه سيرهاد، وأضاف قائلاً: "فقد بدا في كامل اتزانه عندما رأيناه".

ظهرت لمحة رعب على وجوه الرجال الثلاثة، ولكن المدير هو من تحدث أولاً وقال: "هل أنت واثق من هذا يا مينان؟". ولم يغب التوتر في صوته عن ملاحظتي. أضاف ضياء قائلاً: "لا تسئ فهمي. فنحن جميعاً نتمنى أن يتحسن قدير، ولكن الأطباء قالوا إنه فقد عقله تماماً".

أعلن مينان الذي أدرك أنه حصرهم في زاوية ضيقة وهو يشعر أنه ليس بحاجة إلى أن يخفي سروره: "حسناً، أظن أنه وجده مرة أخرى يا ضياء. إنني لا أمزح. فقدير يبدو الآن أكثر ذكاء مما كان عليه من قبل، وسترى ذلك بنفسك. قبل الحريق، اعتادت زوجته نعمت أن تسكته. والآن، وجد لسانه مرة أخرى. إن المرأة المسكينة بالكاد تستطيع أن تتفوه بكلمة قبل أن يتوقع زوجها ما تريد قوله ويتفوه بملاحظة بارعة ما".

عارضه كافيت قائلاً: "إذاً، وماذا إن فعل ذلك؟ هذا لا يغير حقيقة أنني لم أكن موجوداً ساعة اندلاع الحريق. وإن أصر على الادعاء بأنه رآني، فأنا أؤكد لك إذاً أن هذا الرجل لا يزال مخبولاً".

بدأت أمارس عليه بعض الألاعيب والخدع قائلة: "ولكنه قدم لنا تفاصيل. فقد قال لي إنه رآك في الردهة". وأومأت نحو سيرهاد قائلة: "بل إنه رآكما كليكما هناك. وكان سيرهاد يرتدي ملابسه النهارية العادية، ولكنك كنت مرتدياً طقماً غريباً فضي اللون".

بدأ كافيت ينكمش على كرسيه وكأنه مجرم ضبط متلبساً، ولكن سيرهاد لم

يسمح له بالانكماش أكثر من ذلك فقاطعني قائلاً: "هذا مستحيل. لم يدخل قدير ومجموعته الردهة قط. فأنا لم أر أحداً منهم إلى أن وقع الحريق".
قال ضياء معززاً روايتهما: "هذا صحيح. فقد كان من المفترض بفريق قدير أن يعمل يوم الاثنين، ولكن بسبب حفل خطبة ابنه حضر الجميع إلى العمل يوم الثلاثاء بدلاً من ذلك من دون أن يعلموا أحداً بالأمر. تسللوا إلى الداخل لكي لا يلاحظ أحد وجودهم. وهكذا، من المستحيل أن يدخل قدير الردهة خشية أن يضبطه كافيت".
قال سيرهاد في هجوم مضاد: "في الواقع، إن المأساة برمتها غلطة قدير. فلو قام بعمله في اليوم الذي يفترض أن يقوم به فيه، لما تعرض أحد للأذى".
قام زميلي بعرض فطنته مجدداً مخالفاً كل توقعاتي. فقد قال مينان بتصميم ضابط شرطة يحقق مع مشتبه فيه بجريمة قتل وهو على قناعة تامة بأنه مذنب بالجريمة: "يبدو لي من كلامك أنك كنت تعرف أن الحريق سيندلع يوم الثلاثاء".
أصيب سيرهاد بالارتباك، وتملكه القلق من أن يكون أمره قد افتضح، فبدأ يقول متلعثماً: "ماذا؟ ماذا تقول؟ كيف لي أن أعرف اليوم الذي سيندلع فيه الحريق؟".
وحين أوشك أن يفتضح المسألة برمتها تدخل ضياء ليسيطر على الوضع، فقال: "لا تكن سخيفاً. ليس هذا ما يعنيه مينان، ولكن "قدير" لم يرتكب أي خطأ أيضاً. لماذا قد يتعمد أن يعرض حياة أصدقائه للخطر؟ لقد وقع هذا الحريق قضاءً وقدراً ليس إلا".
أخذت أتفحصهم جميعاً بصمت، وأدرس الكلمات التي اختاروها، وأتأمل تعابير وجوههم، ولغة أجسادهم، وانفعالاتهم التي شكّلت مزيجاً من الانفعال والخوف. فأكد كل شيء على السيناريو الذي راح يدور في ذهني. ومع ذلك، أيقنت أن كل هذه الاستنتاجات ومن بينها شهادة قدير غير كافية، لذا توجب عليّ أن آتي بشيء أكثر ثباتاً، أو بشاهد يعتمد عليه ولا يشكك الأطباء بسلامة قدراته العقلية. وعدا عن ذلك، لن يفيدني أيّ شيء آخر. لهذا السبب، توجب عليّ أن أتراجع، وأعود إلى لعب دوري الأساسي كوكيلة شركة تأمين غير ماهرة، وليست - بالرغم من كل غرورها - أكثر من مجرد سيدة غبية قادمة من الخارج.
قلت معززة كلام المدير: "إن السيد كويومكوزاد محق. هذا الحريق قضاء وقدر. ولا ينبغي علينا أن نُحمِّل "قدير" المسؤولية. يجب عليّ أن أعترف أن ما قاله لم يبد منطقياً لي أيضاً". استطعت أن أرى بطرف عيني مينان

وهو يحدق إليّ مندهشاً، فأضفت قائلة: "صحيح أن زوجته لم تستطع أن ترد على ملاحظاته الذكية، ولكنني لاحظت أيضاً أنه كان يكرر كلامه، ويعاني من صعوبة في لفظ حرفي السين والراء؛ وهذه إشارة أكيدة إلى تعرضه لإصابة بالرأس".

أخيراً، قال لي مينان بعد أن أدرك هدفي من الكلام: "رائع! إنك شديدة الملاحظة يا سيدة غرينوود. لم يخطر هذا ببالي حتى الآن. أنت محقة. فقد بدا كلامه مختلطاً بعض الشيء".

أدركت أن إنهاء التحقيق بشكل فوري سيثير شكوكهم مرة أخرى، لذا التفت إلى كافيت وقلت له: "من فضلك، لا تسئ فهمي. ولكن، لديّ سؤال واحد أخير أطرحه عليك".

"اسألي ما تشائين. ولكن، دعيني أوضح لك مرة أخرى مسبقاً أنني لم أكن موجوداً في موقع الحريق".

استعاد كافيت شجاعته، وراح يتصرف بأسلوب يدل على الاستياء لأنه مضطر للإجابة عن سؤال آخر. لم أقصد إثارة جدل، ولكن كافيت المغفل هو من تسبب بذلك لنفسه.

فقلت له بلطف وأنا أميل برأسي جانباً: "إنني أصدقك. ولكنني سأدون شهادة قدير في تقريري، وكذلك شهادتك، ولهذا السبب أسألك".

فقال لي مؤكداً: "طالما أن تقريرك يذكر أنني لم أكن موجوداً هناك".

لم يستطع ضياء أن يتحمل المزيد من كلامه، فوبخه قائلاً: "ما سبب ترددك يا كافيت؟ أجب عن السؤال وحسب".

احمر وجه كافيت حتى بلغ الاحمرار رأسه الأصلع؛ ليس من الإحراج فقط، ولكن من الواضح أنه أصيب بالخوف من مديره.

فقال: "إنني آسف يا سيد كويومكوزاد. أعني، إنني...".

"حسناً يا كافيت. دعنا لا نطيل هذا الحديث أكثر من ذلك. لتجب عن سؤال السيدة غرينوود".

خيم صمت عميق على الغرفة التي يترأسها ضياء بسلطة مطلقة أمام لوحة بيرسيوس الفسيفسائية. ولم يعد رجل الأعمال الشاب المحترم الذي عرفناه من قبل موجوداً الآن، فقد حل محله طاغية جعل حارسي الأمن يرتجفان من شدة الخوف. إذاً، لقد ظهر وجه ضياء الآخر، أي الوجه الحقيقي الذي حاول أن يخفيه عنا.

كسرت جدار الصمت، وقلت بخجل وارتباك: "ينبغي عليّ أن أعتذر منكم جميعاً. لم أتعمد أن أجعل الأمور تصل إلى هذا الحدّ. فأنا أحاول فقط أن

أكتب تقريري".
لم يدعني ضياء أكمل كلامي وقال: "من فضلك يا سيدة غرينوود، لا يجب عليك أن تبرري تصرفاتك". وحدق إلى موظفيه بعينين تقدحان شرراً، ثم قال: "إن صديقنا كافيت غبي بعض الشيء. وقد يتطلب منك الأمر بعض الوقت لتتمكني من جعله يفهم الكلام. من فضلك اطرحي ما تشائين من الأسئلة، ومن واجبنا أن نجيب عليها. وسوف نفعل هذا بكل سرور. لا ينبغي أن يخامرك أدنى شك حيالنا".
قلت: "لا يخامرني أي شك". والتفت إلى كافيت الذي ظل وجهه محمراً بكامله وقلت: "كل ما أريد معرفته هو مكان تواجدك في أثناء وقوع الحريق؟ أجب عن سؤالي وسننتهي من الأمر برمته".
تململ كافيت بتوتر على مقعده، فتوقعت منه أن يبدأ بالنحيب مرة أخرى مثيراً غضب ضياء أكثر من ذي قبل، ولكنه بدلاً من ذلك أجاب عن سؤالي، وراح يلفظ كل حرف بوضوح تام قائلاً: "ذهبت مع السيد كويومكوزاد إلى سيلي في كنيسة سانتا إيليني. فالتقط السيد كويومكوزاد بعض الصور، بينما حملت له ذلك الشيء ذا القوائم الثلاث...".
قال ضياء بصوت مدوٍ شبه مازح: "يا لك من مضحك! إنه المنصب الثلاثي يا عزيزي كافيت. إنك تستطيع أن تسمي كل نوع من أنواع المنظفات، وتميز كل أنواع الصابون برائحتها؛ زيت الزيتون والغار والخزامى. ومع ذلك، تظل عاجزاً عن تعلم كلمتي منصب ثلاثي!".
عندئذ، انفجرنا جميعاً ضاحكين. وحتى إن ضياء نفسه ضحك من كلماته، وتابع قائلاً: "هذا صحيح. لقد ذهب كافيت معي إلى سيلي، فالتقطنا بعض الصور من أجل النشرة السياحية الجديدة. إن سيلي موقع في غاية الروعة، فهي مدينة استوطنها البشر طوال السنوات ستة الآلاف الماضية. خلال الفترة المسيحية، أصبحت مركزاً دينياً. وبعد ذلك، أتى الأتراك وعاشوا فيها جنباً إلى جنب مع الإغريق. لا تزال توجد فيها كنيسة سانت إيليني التي أمرت ببنائها والدة الإمبراطور البيزنطي قسطنطين، واسمها هيلين. إن توفر لديك متسع من الوقت، فأنا على استعداد لاصطحابك لزيارتها".
"بالطبع، لِمَ لا؟". ووجدت في كلامه فرصة مؤاتية لتغيير الموضوع، فقلت متظاهرة بالاهتمام: "إذاً، أنت تلتقط الصور، أليس كذلك؟".
بدا ضياء محرجاً، وهذا ما وجدته مثيراً للاهتمام. فقد اكتشفت أن وكيل شركة السياحة الذي يريد أن يسلب شركة التأمين مالها يطمح أيضاً لأن يصبح فناناً.

"إنها مجرد هواية ليس إلا".
صاح كافيت محاولاً تملق مديره: "مجرد هواية؟! إن السيد كويومكوزاد مصور موهوب جداً. ذات مرة، حضر شاب من إسطنبول، وهو مجرد أحمق يدعي أنه مصور فوتوغرافي مشهور، ولكنني وجدته مثيراً للاشمئزاز ورائحته مقززة كأولئك الهيبيين الذين لا يستحمون سوى مرة في الشهر. على أية حال، عمل هنا لأسبوعين وكلفنا ثروة ثم انصرف. وعندما ألقينا نظرة على الصور التي التقطها، وجدناها لا تقارن بالصور التي التقطها السيد ضياء. وفي النهاية، استخدمنا صور السيد ضياء للنشرة والملصقات بدلاً من تلك الصور".
نظرت إلى ضياء بإعجاب، وقلت: "أتمنى أن ألقي نظرة على صورك أيضاً إن كان لدينا متسع من الوقت".
"بالطبع يا سيدة غرينوود. هذا من دواعي سروري". وتحول مرة أخرى إلى شخصية رجل الأعمال الشاب المؤدب والمجامل.
نلت كفايتي من التحدث مع الرجال الثلاثة، فنظرت إلى كل منهم بدوره، وقلت: "شكراً لكم جميعاً. هذا كل شيء. سامحوني لأنني أخذت من وقتكم".
شعر كل من ضياء وكافيت بالرضا، فابتسما وتفوها ببعض عبارات المجاملة على شاكلة: كلا، الشكر لك. ولكن، بالرغم من أن سيرهاد ظل يصغي ملتزماً الصمت منذ البداية، فقد استمرت عيناه الزرقاوان عديمتا الأهداب بالرفرفة بشك وريبة.

"أعظم الحروب هي حرب الإنسان ضد رغباته"
بحلول الوقت الذي وصلنا فيه إلى الأبواب المزدوجة لمأوى المولوية، خفت حرارة النهار الخانقة، وهبت نسمات عليلة عطرة في الأنحاء. وفي اللحظة التي دخلت فيها الحديقة الواسعة، أدركت أنه البيت نفسه الذي اصطحبني إليه والدي في زيارتي الأولى إلى قونية. فقد رأيت شواهد القبور المعممة المزدانة بنقوش الخط العربي، وأشجار السرو الباسقة على جانبي الممر الحجري، والحديقة الواسعة التي تتوسطها بركة مياه، والبيت القرميدي ذا الطابقين. وجدتها كلها هنا. إذاً، لقد عثرت على البيت أخيراً. تنشقت رائحة الورود الحمراء التي عبقت في أرجاء الحديقة كافة.
سمعت من بين الورود صوتاً ناعماً لشخص مسن يقول: "مرحباً، إنني هنا". وعندما التفت إلى الجهة التي صدر منها الصوت، لمحت عزت أفندي للمرة الأولى وهو جالس وحده على أحد الكراسي الصغيرة المحيطة بطاولة خشبية عند قاعدة الجدار. بدا شديد النحول والوهن في قميصه عديم الياقة وبذلته البسيطة الداكنة. وجدت عينيه الواسعتين البنيتين الفاتحتين أكثر ملامح وجهه النحيل تميزاً. نظر إليّ بحماسة، وببريق طفولي، وبراءة خالصة. صاح مينان وكأنه صادف مفاجأة سارة قائلاً: "أهذا أنت يا عزت أفندي؟ آسف، لم نرك".
توجه مينان إلى هناك مباشرة، وانحنى وقبل يد عزت أفندي بكل احترام. وقبل أن يتمكن مينان من النهوض، وضع الرجل المسن شفتيه أيضاً على يد ابن بلده. شهدت هذا الطقس قبل سنوات عدة، لذا لم يفاجئني بالرغم من أنني لم أمنع نفسي من التساؤل بفضول عن سبب قيام الناس به.
اقتربت من الرجل المسن، وقلت: "مرحباً، كيف حالك؟".
نظر إليّ من الأعلى إلى الأسفل بألفة، وكأنه يعرفني معرفة وثيقة، وقال: "بويراز! إن بويراز هو من منحك ما يراه الناظر إلى وجهك".
"نعم. يُقال لي إن عيني تشبهان عيني أبي".
هزّ رأسه بلطف دليلاً على أنني أسأت تفسير كلامه، ثم قال: "ليس عينيك يا ابنتي، بل هذه الكآبة والنور الشاحب الذي يشع من وجهك".
لم يتهمني أحد بالكآبة من قبل، ولكن لا بد أنني بدوت كذلك بسبب قلة النوم.
"إن معظم الناس يقولون إنني أشبه أمي أكثر مما أشبه أبي...".

فقاطعني بأدب وقال: "كانت والدتك تتمتع بوجه جميل كوجهك، وشعر أشقر محمر، وعينين خضراوين، وجبهة عريضة، وشفتين لا تخشيان التفوه بأي كلام يخطر ببالها...". هذا لا يصدق! لقد تذكر أمي وكأنه رآها بالأمس فقط. وبينما كان يتكلم، فكّرت كم كنت سأحب هذا الرجل العجوز لو كنت أقيم إلى جانبه. تابع كلامه قائلاً: "ولكنني لا أتحدث عن الجمال الظاهر بل عن الروح الخفية؛ فهي ما أشير إليه. إنها الروح التي لا يمكن إدراكها بالحواس". وبعد ذلك التزم الصمت، وارتسمت نظرة غريبة في عينيه اللتين لم ينل الزمن منهما بعد، ثم قال: "ربما تظنين أنني أتفوه بالترهات، ولكن صدقيني، فقد ورثت تلك الروح التي تشع في وجهك من بويراز".

وفجأة، مدّ يده اليمنى وقال: "أهلاً بك!".

أجفلت كثيراً لدرجة أنني لم أعرف كيف أتصرف؛ فهل أقبل اليد الممدودة أم أكتفي بمصافحتها؟ في الواقع، لم أشعر بالراحة من فكرة تقبيل الأيدي، لذا اكتفيت بالمصافحة. فلم يبدُ مستاء من ذلك.

"تفضلي يا ابنتي. اجلسي هنا قبالتي. دعي نورك يشع عليّ لأتغلب على الشوق الذي أشعر به نحو بويراز ولو لوقت قصير".

لم أكن واثقة من أن والدي يستحق كلمات الإطراء هذه، ولكنني لم أرغب بأن أقول هذا الكلام لهذا الرجل بالغ الفصاحة الذي أراد أن يبحث عن والدي في ملامح وجهي. فما الذي كنت سأقوله؟ آسفة، ولكن صديقك الذي تضعه في مثل هذا المقام الرفيع في الواقع رجل أناني، وعديم المسؤولية لدرجة دفعته إلى هجر ابنته الصغيرة؟ جلست في مكاني إلى جوار الطاولة ملتزمة الصمت. التفت الرجل المسن إلى مينان الذي جلس بلا مراعاة للرسميات على الكرسي إلى يساره.

"أود أن أقدم لكما شيئاً تشربانه، ولكن الطباخ لم يصل بعد. إن قلت إنك ستعد القهوة...".

قال مينان متأهباً للعمل: "بالطبع سأفعل ذلك. ما رأيك يا سيدة غرينوود؟".

"شكراً لك. لا أريد شيئاً".

قال عزت أفندي: "وأنا أيضاً. فهي ترفع معدل نبضات قلبي، كما أن طعم المحادثة أفضل بكثير من دون قهوة". والتفت إليّ، وتعبير وجهه يدل على الحنين، ثم تابع قائلاً: "كان والدك هكذا؛ يأكل قليلاً ويشرب قليلاً ويتحدث قليلاً... ولكنه لطالما أحب الإصغاء للأحاديث، وإمضاء الوقت في القراءة والتفكير. فقد اهتم بتغذية روحه أكثر من جسده، واعتاد أن يقول إن

جسد الإنسان يستهلك، ولكن روحه تنمو".
بدأت عينا مينان المتعبتان تعودان إلى الحياة من جديد، فتمتم بقلق: "قال لي ضياء إن صحتك متدهورة. آمل ألاّ يكون الأمر خطيراً".
اكفهرت ملامح عزت أفندي لدى ذكر اسم ضياء للحظة، قبل أن يجيب بشكل مرتجل قائلاً: "لا تصدق كل ما تسمعه يا بني. انتبه لمن يقول الكلمات بدلاً من الكلمات نفسها".
من الواضح أن عزت أفندي لم يكن متيماً بابنه أيضاً.
علّقت على كلامه؛ محاولة أن أكتشف طبيعة العلاقة بينهما: "بمناسبة الحديث عن الآباء والأبناء، أظن أن ضياء لا يشبهك كثيراً، أليس كذلك؟ أعني أنه لا يشبهك بشخصيته".
أخذ نفساً عميقاً وقال: "يمكن للمرء أن يمنح طفله جسده، ولكنه لا يستطيع أن يفرض عليه قلبه أو روحه. كل شخص يعيش حياته الخاصة، ويختار طريقه الخاص في الحياة. وعلى أية حال، الجسر الذي يؤدي بالشخص إلى نفسه دقيق وضيق، ولا يسمح سوى لذلك الشخص وحده بالمرور. وليست هذه الرحلة امتيازاً للعلاقات الأسرية. لسوء الحظ، بالنسبة إلى بعض الناس، قد تصادفهم عقبات هائلة لا يقوون على تذليلها، فهي أشبه بحلقات سلسلة ثقيلة تقيد الإنسان إلى الأرض وتمنعه من التحرك بحرية".
تدخل مينان قائلاً: "إن كلامك يذكرني بقصة ذلك الدرويش عند الكعبة؛ تلك القصة التي رويتها لنا يا عزت أفندي، عن الرجل الذي أراد لابنه أن يموت".
نظر عزّت بعينيه الطفوليتين إلى مينان بذكاء، وحذّره قائلاً: "إن ذاكرتك ليست دقيقة يا صديقي. فالقصة ليست على النحو الذي ذكرته".
قال مينان بمزاج مرح: "أظن أنني نسيتها. فلتقصّها علينا مرة أخرى يا عزت أفندي. إنني واثق من أن السيدة غرينوود ستستمتع بها أيضاً".
لو كان القرار عائداً إليّ، لآثرت أن أواصل الحديث عن والدي، ولكن زميلي بدا متلهفاً جداً؛ حيث إنه لم يسعني في النهاية إلا أن أقول: "نعم، لقد أثرت فضولي الآن".
قال عزت أفندي: "حسناً إذاً. كيف يمكنني أن أرفض؟ ذات مرة، عاش رجل في بغداد وهو يلزم بيته، ولا يختلط بالناس، ويحظى بصحة جيدة وثروة وزواج سعيد. لم تكن له سوى أمنية الوحيدة، وهي أن ينجب طفلاً، ولكن ذلك الطفل لم يأتِ. فاستشار الأطباء، ووصل به الأمر إلى حد

زيارة الأطباء المشعوذين، وقدم الكثير من العهود والنذور. ومع ذلك، لم تحمل زوجة الرجل المسكين. وعندما فقد الأمل، صادف درويشاً رحالة في أسواق بغداد المسقوفة".

عندما ذكر عزت أفندي كلمتي درويش رحالة، قاطعته وسألته قائلة: "مثل شمس التبريزي؟".

لم يبدُ مستاء من مقاطعتي له على الإطلاق. بل على العكس من ذلك، ضحك وقال: "إذاً، أرى أنك تعرفين بعض المعلومات عن شمس. نعم، كان درويشاً رحالة مثل شمس رحمه الله. والآن، لنعد إلى قصتنا: سأل الدرويش ذو الملابس الرثة الرجل قائلاً: يا من تلقيت كرم الله، هلا تملأ بطن هذا الدرويش الفقير الجائع.

قَبِل الرجل الطلب من دون أي تردد قائلاً: بالطبع. أخبرني، ماذا تريد أن تأكل؟

رمق الدرويش الرجل بنظرة امتنان وقال: حساء قوائم الخروف مع قطعة من الخبز الجاف. فهذه وليمة حقيقية بالنسبة إليّ.

جلسا معاً في دكان يبيع الحساء. وبعد رشفتين من الحساء وقضمة واحدة من الخبز الجاف، دفع الدرويش طبقه، وبدأ يتفحص بنظره الرجل السخي الذي أكرمه بهذا الطعام الشهي. وعندما رأى تجاعيد التعاسة وأخاديد الأسى على وجهه، سأله قائلاً: لماذا تتلهف إلى هذا الحدّ إلى إنجاب طفل؟

أصابت الصدمة الرجل لأن الدرويش عرف مشكلته من دون أن يخبره عنها، ولكنه شرح له بحرارة قائلاً: الحمد لله. فصحتي جيدة، ولديّ ممتلكات وثروة وزوجة أحبها، ولكنني محروم من السعادة. فحياتي فارغة كسماء بلا نجوم، وربيع يمضي من دون شمس، وحديقة بلا زهور. إن ما ينقصني هو الذرية فقط لأنني حصلت على كل ما أريده عدا ذلك.

نظر الدرويش المتجول بإمعان إلى عيني الرجل وراح يوضح له قائلاً: ليس الطفل هو من تبحث عنه بل المعنى. ما الذي يجعلك واثقاً كل الثقة من أنك ستسعد في حياتك إن أنجبت طفلاً؟

ولكن، كيف للرجل المسكين أن يعرف الفرق بين الحالتين؟ فقال للدرويش: إنني واثق جداً مما أريده. فإن أنجبت طفلاً، امتلأ الفراغ في حياتي وتمتعت بالسعادة.

همس الدرويش قائلاً: حسناً إذاً، سأخبرك بعلاج لمرضك. تألقت عينا الرجل المسكين، وأصغى بكل اهتمام إلى الكلمات التي خرجت من فم الدرويش الذي قال: عندما تستيقظ غداً صباحاً، استحم ونظف نفسك بعناية. وعندما

تخرج من البيت، التزم الصدق والأمانة في كل تعاملاتك. فلا تتفوه بكذبة واحدة، ولا توجه كلمة قاسية لأي شخص، ولا تلجأ إلى المكر والخداع، ولا تأكل أو تشرب أي شيء محرم، واطرد الشر من قلبك، وقدم العون للفقراء، ولا تكن مرائياً بأعمالك، وعندما تعود إلى البيت في المساء، اسجد بكل طهرك وقلبك وإيمانك السليم وابدأ بالصلاة لله، وقل له: يا خالق السموات والأرض، يا رحمن يا رحيم، يا من أنعمت عليّ بنعم لا أحصيها، مهِّد لي طريق بوابة الحقيقة. فأنت تعلم أن طريق الحقيقة لعبادك يختلف بين واحد وآخر. يجب عليّ لأجدك أن أتخلص من لهفتي للذرية. فهبني طفلا ًولا تحرمني هذه النعمة. تابع دعاءك إلى أن يحل وقت صلاة الفجر. وعندما تنتهي من أداء الصلاة، استدع زوجتك إليك. وبعد تسعة أشهر وعشرة أيام، سترزق بابن.

خر الرجل المسكين راكعاً عند قدمي الدرويش، وقال: إن تحقق ما تقوله، يمكنك أن تطلب مني أي شيء تتمناه.

أمسك الدرويش بيدي الرجل ورفعه عن الأرض، وقال له بترفع وأنفة: إن أعمالنا الصالحة وأعمالنا السيئة لا يمكن أن ترد. فنحن نمنح أنفسنا مكافآتنا وعقوباتنا على أفعالنا.

لم يفهم الرجل المسكين كلمة واحدة مما قاله الدرويش، ولكنه كان على استعداد للتمسك بأي أمل في إنجاب طفل. وفي صباح اليوم التالي، نفّذ كل إرشادات الدرويش حرفياً. فاغتسل وتطهر وخرج إلى الشارع بكل نقائه. ولم يكسر قلب أحد أو يظلم مخلوقاً، ولم يكذب أو يلحق الألم بإنسان. وعندما عاد إلى البيت، سجد على الأرض تائباً، وصلى طلباً للمغفرة حتى الصباح، وتوسل للخالق أن يهبه طفلاً. وبعد أن انتهى من أداء صلاة الفجر، ذهب إلى زوجته. وبعد مرور وقت قصير، أدرك أن ما أخبره به الدرويش قد تحقق. فقد أخبرته زوجته أنها حامل. ابتهج الرجل بهجة عارمة، وبحث في طول البلاد وعرضها عن الدرويش ليكافئه، ولكنه لم يجده في أي مكان. ومرت الأشهر التسعة والأيام العشرة، وأنجبت الزوجة طفلاً صغيراً. فاحتضن الرجل الصبي، وقبله وشمه، ومنح زوجته هدايا من المجوهرات والذهب. وأصبح يعود إلى بيته باكراً كل يوم ليرى ابنه ويمنحه حبه ويلعب مع ذلك المخلوق الصغير الذي لا فكرة لديه عن العالم. غمر السرور قلب ذلك الرجل، ولكنْ في الوقت نفسه، تملكه فضول قاتل حول كيفية تمكن الدرويش من تحقيق هذا الأمر. وتساءل عن كيفية تمكن الدرويش بملابسه الرثة، وشعره المتشابك، ولحيته أن يفعل ما عجز عنه

الأطباء والمشعوذون. وبمرور الأيام، ظل هذا السؤال الملح يطارده. وعندما عجز عن إيجاد جواب له، استشار رجالاً حكماء، ووصل إلى حدّ زيارة بعض علماء الدين، وقرأ الكثير من الكتب المجلدة المخطوطة باليد. ومع ذلك، لم يجد للأسف أي جواب. وبينما ظلت أسئلته بلا أي جواب، ازداد فضوله أكثر فأكثر إلى أن اتخذ شكلاً معقداً وكأنّه سر عظيم. وأصبح هدف حياته متعلقاً باكتشاف ذلك السر. ولم يعد ينجز أي عمل، أو يمضي أي وقت مع زوجته الجميلة أو مع طفله الذي يعشقه. وبدلاً من ذلك، راح يتجول في شوارع المدينة وهو شبه مخبول.

وفي تلك الليلة، سمع صوت الدرويش في نومه يقول له: إن ما تبحث عنه ليس سري أنا، ولكنه حب الله. ولكي تصل إلى حب الله، يجب عليك أن تتخلى عن حب الدنيا. نهض الرجل من سريره ليرى إن كان هناك أحد في الغرفة، ولكنه لم ير أحداً. فظل ساهراً طوال الليل وهو يفكر ملياً بكلمات الدرويش. وعندما بزغ ضوء النهار، اتخذ قراره، فأيقظ زوجته وشرح لها ما حدث له، ثم قال بعزم وتصميم: يجب عليّ أن أعثر على ذلك الدرويش، فهو وحده من يستطيع أن يشرح لي ما حدث.

وقال متجاهلاً توسل المرأة المسكينة، وتفجعها، ونحيبها وشدها شعرها: هذا قدري، ولا بد لي من أن أخضع له. وترك لزوجته كل ممتلكاته وثروته، وقال لها: إن لم أعد، فهناك مال كافٍ من أجلك ومن أجل الطفل. يمكنك أن تنفقيه عليكما. وكان ذلك آخر عهدهما به.

استمرت المرأة بتربية طفلها بمفردها. وحل يوم أتى فيه الطفل ووقف أمام أمه، ولكنه في الواقع لم يعد طفلاً صغيراً، بل صار غلاماً قوياً سليم البنية ومدركاً تماماً لواقعه ومحيطه، وسألها: ماذا حل بوالدي؟ إن كان ميتاً، فأخبريني عن مكان قبره. وإن كان حياً، فاسمحي لي بأن أذهب وأحضره.

لم ترغب الأم بأن تسرد القصة لابنها، ولكنه أصر على معرفة الحقيقة لدرجة أن المرأة المسكينة اضطرت في النهاية لأن تشرح له كل تفاصيلها. حاول الفتى أن يجد معنى لما قالته أمه له، ولكنه قال: كلا، لا بد أن الأمر ينطوي على سرٍّ أكبر مما ذكرت. يجب عليّ أن أذهب وأعثر على أبي.

توسلت المرأة إلى ابنها كما فعلت مع زوجها من قبل، وقالت له وهي تذرف الدموع: لم يعد لديّ أحد سواك في هذه الدنيا. ماذا سأفعل إن تركتني هنا وحدي؟

ولكن الشاب تشبث برأيه. وقبل أن يمضي أسبوع، انطلق في رحلته، وأخذ

يهيم على وجهه في المدن والنزل والمدارس الدينية وبيوت إيواء الدراويش وهو يسأل عن أبيه. وفي النهاية، قادته الأخبار التي سمعها من هنا وهناك إلى مكة. فنزل في مسجد صغير هناك، وبادر بالسؤال عن أبيه. عرف الشيخ على الفور الشخص الذي تحدث عنه الفتى، وقال له بكياسة: ستجده عند الكعبة. فكما تدور الأرض حول الشمس، فإن والدك يطوف حول الكعبة ليلاً ونهاراً.

أسرع الشاب إلى الكعبة، ونادى باسم والده بين حشود المسلمين المجتمعين. فأشار الناس إلى الرجل في الحال. نظر الشاب إلى حيث أشاروا، ورأى رجلاً بملابس رثة، شعره أشعث، ولحيته متشابكة يطوف حول الكعبة بخطوات قصيرة ويداه مرفوعتان إلى السماء وهو يتمتم بدعاء بصوت خافت. اقترب الفتى من أبيه بارتباك وهو يخشى أن يلمسه، وقال بخجل: أبي؟

لم يسمع الرجل العجوز ما قاله الشاب، لذا رفع هذا الأخير صوته وقال: أبي.

ولكن الرجل ظل هائماً في عالم آخر ولم يسمع صوت ابنه، لذا صاح الشاب عالياً هذه المرة وقال: أبي!

عندها، توقف الرجل، ورمش بعينيه نحو الشاب الذي حجب بجسمه ضوء الشمس عن عينيه. وعندما ميز الرجل ابنه، ارتجف في حرارة الصيف وكأن رياحاً شتوية باردة هبت عليه. وانهمرت الدموع من عينيه وهو يرفع نظره إلى السماء ويبتهل قائلاً: يا الله! لا أستطيع أن أشارك حبك بحب شخص آخر. فإما أن تأخذ حياتي أو حياته.

فغر الصبي فمه، وهو عاجز عن فهم ما يجري، ثم شعر بأنفاسه تسحب منه مرة واحدة، وخيم الظلام على عينيه وخر على الأرض ميتاً".

شعرت بشعر رأسي ينتصب وأنا أصغي إلى قصة عزت أفندي. فقد وجدت كلامه ممقوتاً، ولكن لا بد أنه لم يشاركني أحاسيسي لأنه ابتسم لمينان وشرح له قائلاً: "لم يطلب الرجل من الله كما تلاحظان أن يأخذ حياة ابنه. بل على العكس من ذلك، لقد طلب منه أولاً أن يأخذ حياته هو، ولكن الله آثر أن يأخذ حياة ابنه بدلاً من حياته".

لم أعد أستطيع أن أتحمل المزيد من هذا الكلام، فقلت بعصبية: "هل سر الرجل مما حدث؟ كيف يمكن لوالد أن يتمنى موت ابنه الذي لم يرتكب ذنباً سوى أنه حاول العثور عليه؟".

حافظ عزت أفندي على هدوئه، وقال: "إنك تقفين في الجانب الآخر من الستارة يا ابنتي. فعندما تنظرين من هناك، يبدو لك أن الرجل قد تصرّف

بقلة ضمير. ولكن، لو نظرت من هذا الجانب من الستارة، لرأيت قصة عميقة عن الحكمة الغامضة".

قلت له بصوت مرتفع: "أية حكمة؟ إنني آسفة، ولكنني لا أرى أية حكمة غامضة هنا. فهذه جريمة بكل بساطة ووضوح".

أراد مينان الذي أصغى بخشية إلى الوتيرة المتصاعدة لنقاشنا أن يتدخل، فقال: "ولكن، يا سيدة غرينوود...". فرفع عزت أفندي يده اليمنى بلطف ليقاطعه.

وقال: "انتظر لحظة يا ولدي. دع كيميا تعبّر عن رأيها. وإلاّ كيف سنتوصل إلى فهم بعضنا بشكل أفضل؟".

ها نحن ذا إذاً! لقد أصبحت كيميا.

"لا أفهم كيف يشكل وجود ذلك الابن عقبة في درب أبيه". ثار غضبي لدرجة أنني عجزت عن السيطرة على صوتي، وتابعت قائلة: "ليس هذا فقط، ولكنني أعرف أن الله لا يظلم الأبرياء بل يرعاهم".

أخذ عزت أفندي يتفحصني بابتسامة اعتداد بالنفس، وقال بصوت عذب: "هدّئي من روعك يا ابنتي، وحرري عقلك من الغضب. فالغضب لا يفيدك بل يعمي بصيرتك". والتزم الصمت، وراح يتأملني للحظات وكأنه يحاول أن يكتشفني، ثم سألني قائلاً: "ما الذي يغضبك إلى هذا الحدّ؟".

ترى، هل كان هذا الرجل يعرف أن والدي قد هجرنا؟ أهذا هو ما حاول التلميح إليه، أي إن غضبي ناجم فقط عن مغادرة والدي؟ هل حاول أن يحصرني في زاوية ضيقة؟ ولكن، كلا، هذا ليس صحيحاً. فقد استطعت أن أعرف من ملامح وجهه أن نيته سليمة.

قلت أول شيء خطر ببالي، وهو: "لست غاضبة، ولكنني أريد فقط أن أعرف إن كنتما فعلاً تجدان تمني المرء موتَ ولده تصرفاً مقبولاً أم لا؟".

اكفهرت ملامحه من الخزي، وكأنه هو من ارتكب هذا الفعل الشنيع، وقال: "ليس الأمر هكذا. من الخطأ أن يتمنى المرء موت أي كائن حي. إذ يحق للجميع أن يتابعوا حياتهم بطريقة طبيعية. هذه ليست قصة تتحدث عن كيفية انتهاء حياة الإنسان بل عن كيفية عيشها".

عندما لاحظ عزت أفندي علامات الاستفهام الكثيرة التي ظهرت في عيني، واصل شرحه بحماسة أشد اتقاداً، وقال: "هناك قول مأثور يقول إنه يجب على المرء أن يعيش تجربة الموت قبل موته".

فهم من تعبير وجهي أنني سمعت هذا القول من قبل.

"غالباً ما اقتبس بويراز تلك الكلمات، لذا من المؤكد أنك سمعت بها من

قبل. هذا هو كل ما يتوق أحباب الله المخلصون لفعله خلال حياتهم. ويتلخص المعنى على النحو التالي: أن يتخلى الإنسان عن كل شيء يتعلق بهويته الشخصية وكل شيء يربطه بهذا العالم ليتوصل إلى حالة الموت الروحي، ولكن الأمر ليس متعلقاً بالممتلكات والمال والحب والسعادة التي يجب أن يتخلى عنها. فهناك أشياء على القدر نفسه من الأهمية، وهي جوع الإنسان وعذابه وحزنه ومعاناته. هناك قصة أخرى تعبر عن هذه الرسالة بصورة أوضح.

كان هناك رجل دين يتحدث مع ضيف في خيمته عندما دخل عليهما أحد الخدم. صاح الخادم وهو يصفع ركبتيه بيديه وقال: حلت كارثة يا سيدي. فقد خسرت أربعين رأساً من إبلك في الفيضان.

لم تهتز شعرة واحدة من السيد، بل أخفض ذقنه نحو قلبه، ووضع يده على صدره، وقال: الحمد لله. ثم التفت إلى ضيفه، وواصل حديثه، وكأن شيئاً لم يكن. بعض مضي وقت قصير، دخل خادم آخر الخيمة، وأعلن بسعادة قائلاً: أخبار سارة يا سيدي! لقد ولدت أربعون من ماعزاتِك، وأربعون من شياهك.

مرة أخرى، لم تهتز شعرة واحدة من الرجل، بل أخفض ذقنه نحو قلبه، ووضع يده على صدره، وقال: الحمد لله.

اعترت الدهشة الضيف، فقال برهبة: أيها السيد، قبل قليل تلقيت خبراً عن كارثة حلت بك فلم تهتز لذلك الخبر، بل حمدت الله وواصلت حديثك. وبعد ذلك بوقت قصير، تلقيت خبراً ساراً، ولكنك لم تكترث، وحمدت الله مرة أخرى. هلا تشرح لي سبب تصرفك هذا؟

أضاء وجه السيد كشمس الصباح وقال: عندما وصل الخبر السيئ، نظرت بخشية نحو قلبي لأرى إن حل فيه أي حزن أو ظلام، ولكنني لم أجد فيه شيئاً من هذا القبيل. فشكرت الله وحمدته. وعندما وصل الخبر السار، أصبت بالخوف مرة أخرى ونظرت إلى قلبي لأرى إن حل فيه أي تباه أو غرور، ولكنني لم أجد أي شيء من ذلك، فحمدت الله وشكرته مرة أخرى. إن الإبل والماعز والممتلكات والأموال تذهب وتأتي يا صديقي العزيز. ولكن، إن أظلم قلب الإنسان أو امتلأ غروراً - حتى لو قليلاً فقط - فالعودة به إلى حالته الأصلية تكاد تكون ضرباً من المستحيل.

إن كلمات السيد تلقي الضوء على معنى القول المأثور بشكل رائع. إذ إن هذا العالم مؤقت وفانٍ. أما العالم الحقيقي، فهو هناك في الجانب الآخر من الستارة. وعندما أقول كلمة ستارة، فأنا لا أتحدث عن ستارة سميكة

أو ثقيلة، بل عن جدار شفاف أرق من قشرة البصل، وأخف من جناح فراشة، وأضعف من شبكة العنكبوت. ومع ذلك، فأولئك الذين أعمتهم ألوان العالم الفاني لا يمكنهم أن يروا تلك الستارة الغامضة ولا الحقيقة المطلقة الكامنة خلفها".

بالرغم من أنني وجدت قصته وكلماته مؤثرة، إلا أن أياً منها لم يكن يبرر تمني والد موت ابنه.

رددت عليه قائلة: "إن أولئك الذين يستطيعون أن يروا تلك الستارة المحيرة يصبحون أكثر إنسانية إن أظهروا بعض الرحمة للضعفاء المساكين؛ كذلك الشاب الذي لم يستطع أن يراها. فهناك شر أكثر من كافٍ يسبب البؤس للناس على هذا الجانب من الستارة".

قال عزت أفندي بصوت مترنم: "لديك ضمير حي، كما أن ميلك الطبيعي للشعور بالأسى حيال الناس صفة إيجابية. فالرحمة من بين صفات الله عز وجل العديدة، ولكنك في الوقت نفسه عنيدة جداً كوالدك. ومع ذلك، لم يكن بويراز سريع الغضب مثلك، فطالما عرف كيف يسيطر على مزاجه أكثر من أي واحد منا".

تذكرت نظرة والدي المحبة، وجبهته التي لم تعرف معنى العبوس في حياته، وشعرت بغصة في حنجرتي، وبعيني تمتلئان بالدموع.

قلت له محاولة أن أكبت الحنين الذي بدأ يسيطر على روحي: "إنني لا أتذكر والدي بوضوح كبير، فقد كنت صغيرة جداً عندما تركنا".

لم أكن واثقة من سبب اعترافي بذلك. فقد أردت ربما أن أؤكد على أوجه الشبه بيني وبين الشاب الذي ذكره في القصة، أو أردته أن يتحلى بحساسية أكبر حيال التحدث عن والدي أمامي. لسوء الحظ، لم يُحدِث ما قلته أي تأثير عليه. أما مينان الذي كان يضع يديه على الطاولة أمامه فقد ضمهما فجأة على حضنه، وراح يتفحصهما ليتجنب النظر إلى عيني. وهكذا، فحتى مينان شعر بآلام قلبي، ولكن الرجل المسن ظل يبتسم ببراءة طفل صغير، فتابع كلامه وابتسامته تظهر طقم أسنانه الناعم: "وأنا أيضاً كنت صغيراً عندما قابلته. فقد كان أول شخص ألقى عليّ التحية على درجات مأوى الدراويش هذا".

أصابني الارتباك. فقد بدا عزت أفندي في أواسط العقد السابع من عمره بالرغم من أن والدي لم يكن يتجاوز الستين. فوضح لي وكأنه قرأ أفكاري، وقال:

"إن بويراز يصغرني في السن، ولكن تفكيره كان أكثر تطوراً، وأفقه أشد

اتساعاً، وقلبه أكبر". وأشار إلى المأوى خلفه وقال: "لقد رسخ والدك انتماءه لهذا المكان، وبات يشكل قطعة منه؛ كأشجار السرو والزهور الحمراء وهذه الشرفة والبركة الحجرية. أتعرفين كيف وصل والدك إلى هنا؟".

كررت بجفاء ما قالته لي أمي في الليلة الماضية: "لقد تركه أحدهم في سلة أمام الباب".

فأكد لي قائلاً: "نعم، هذا صحيح".

"إنهم لا يعرفون من الذي تركه هنا، أليس كذلك؟".

شع ضوء غامض من عينيه وهو يهمس قائلاً: "إنها الرياح. الرياح هي التي تركت والدك هنا. حملت الرياح الشمالية بويراز إلى هذا المأوى".

تحدث عزت أفندي عن والدي بوقار شديد.

وفجأة، اكتسبت ملامحه تعبيراً جاداً، وأشار إلى المبنى الواقع خلفنا مباشرة مرة أخرى، وقال: "لقد نشأ والدك في هذا المكان يا ابنتي. وأصبح بمثابة شقيق لي. فقد كبر معي هنا في هذا المأوى وعاش هنا".

أضفت قائلة: "ثم هجر المكان".

خفت النور في عينيه، فواصلت الكلام بعد أن سررت لأنني أحدثت تأثيراً عليه أخيراً، فقلت: "من أجل فتاة إنكليزية، وفي سبيل حب ينتمي للعالم الدنيوي لا أكثر ولا أقل".

نكّس الرجل رأسه، وكرر ما قلته: "نعم، حب ينتمي للعالم الدنيوي". راح يحدق إلى الزهور، وتاه في التفكير بعمق شديد لدرجة أنني ومينان لم نتحل بالشجاعة لكي نكسر جدار الصمت. وأخيراً، رفع نظره وحدق إلى شيء إلى اليمين وبدأ يتكلم.

فقال: "وقفت ووالدك تحت تلك الشجرة هناك في ليلة من ليالي الربيع؛ كهذه الليلة. وفي ذلك اليوم، تحدث بويراز إلى حكمت أفندي، وطلب من الشيخ مباركته زواجه من أمك. كانت تلك ثاني زيارة لأمك إلى قونية بعد مرور ثلاثة أشهر بالضبط على زيارتها الأولى. شاهدت أمك بويراز وهو يدور في ردائه الأبيض سعياً وراء الحقيقة في الرقصة الدائرية. فلامست الرياح التي هبت بسبب دورانه قلبها وحملتها إليه. وفي الرحلة الثانية، صممت ألاّ تغادر من دونه مرة أخرى. فقد وقعت في حب بويراز كما وقع هو أيضاً في حبها. ومن ناحية أخرى، ظل طريق بويراز مختلفاً عن طريق أمك، وكذلك تربيته وسلوكه ومزاجه، ولكن حقيقة حبهما الدنيوي العابر طغت على كل شيء آخر".

أزعجتني إشارة الرجل المسن إلى حب والدي ووالدتي بأنه حب عابر.

وبالرغم من اهتمامي بما أراد قوله، قاطعته وسألته قائلة: "كيف تعرف أنه عابر؟ لست أدري ما يشعر به أبي، ولكن أمي لا تزال مغرمة به".
"إن ما تشعر به مجرد حنين. فالحب الذي نشعر به تجاه الناس يموت عندما تفترق أجسادنا. ومن أجل حب لا يموت، يجب على الإنسان أن يحب كياناً لا يموت؛ كياناً لا يمكنه أن يمتلكه أو يفهمه أو يكتفي منه أو يكون معه، ولا يمكنه كذلك أن يهجره".
وجدت وجهة نظره الدينية جديدة عليّ، ولكنني لم أستطع مقاومة مجادلته فيها بالرغم من ذلك، إلا أن مينان - الذي أُخذ بكلمات الرجل - قاطعني وهو يعلن بنشوة قائلاً: "تعني حبنا لله، أليس كذلك؟".
أكد الرجل المسن كلام مينان من دون أن يُبدي أيّ مشاعر: "نعم، حبنا لله. لقد خلط والدك بين حبه لله وحبه لواحدة من عبيد الله. ولهذا السبب ربما ذهب إلى حكمت أفندي طالباً مباركة ذلك الشيخ لزواجه. حاول أن يعبر عن شعوره، فقال كلاماً مثل: إن قلبي وروحي حائران، ولكنني أعتقد أن رغبة قلبي هي رغبة روحي. من فضلك، أصلح حالي يا سيدي. ولكن حكمت أفندي قرر أنه يجب على بويراز أن يخطط لطريقه الخاص لبعض الوقت، لذا سمح له بالسفر إلى لندن.
شعرت من كلام عزت أفندي أنه ليس موافقاً على قرار شيخه.
"هل تعتقد أنه أخطأ عندما تغاضى عن تلك الرحلة؟".
قال بعد أن صحا من تأملاته: "كيف ذلك؟ هل تقولين إن قراره خطأ؟ كلا، لا سمح الله. ليس من حقي أن أقول هذا. لا يمكن لأحد أن يتدخل بين المعلم وتلميذه. يقول المولوي إن المعلم هو بوابة التلميذ للوصول إلى الحقيقة. لا بد أن حكمت أفندي احتفظ بأسبابه الخاصة لنفسه. فقد بدا والدك أقل ثقة من أستاذه".
علقت قائلة: "كيف تعرف ذلك؟ هل يمكن لأحد أن يتبع امرأة أجنبية إلى بلاد لا يعرف عنها شيئاً ما لم يكن واثقاً مما يفعله؟".
قال وهو يرمش بعينيه بتمهل: "سيفعل ذلك يا ابنتي، لأن الحب الذي يشعر به الإنسان تجاه الأشخاص ليس إلا شكلاً من أشكال حب الله، وهذا الشكل من الحب قوي جداً، فهو يدفع الإنسان لارتكاب حماقات كثيرة. وهذا ما حدث لأبيك. ولكن، لا تظني أن هذا تفسيري الشخصي. فبويراز عبّر لي عن ذلك بنفسه تحت تلك الشجرة ذاتها. فقد قال لي بندم: إنني حائر وقلبي مرتبك وكذلك روحي. ما الذي أفعله، يا عزت؟ هل أتخلى عن جماعتي وشيخي من أجل رغباتي؟ هل أنسى الحب الإلهي

من أجل حب امرأة؟
في الواقع، بدا والدك واقعاً في حيرة شديدة لدرجة أنه جعلني أتفوه بكلام لا أؤمن به. فقد قلت له: لا تفكر هكذا. ولكنني في الواقع أردته أن يفكر بتلك الطريقة. قلت: إنك تخطو خطواتك الأولى لتنال حب الله، لذا تعلم أولاً أن تحب البشر. فلكي تصل إلى الحب اللانهائي، ستعيش حباً فانياً. كيف يمكنك أن تعرف الحب إن لم تجربه في حياتك؟".
نظر عزت أفندي إليّ بتعاطف، وتابع قائلاً: "أجابني والدك: هل تظن أنني لم أفكر في ذلك؟ وأنني لم أطرح على نفسي الأسئلة؟ إنني أجد نفسي الآن - بينما يفصلني يومان فقط عن موعد سفري إلى لندن - ممزقاً من فرط الشك. ولكنني أحب سوزان من أعماقي. في بعض الأحيان، يخطر ببالي ما قلته لي، أي إن الله يحضرني للحب اللانهائي. ومع ذلك، فالمولوي يقول: دمر نقطة الماء التي بداخلك ليصبح هناك بحر. وهذا يجعلني أفكر في سرّي: أليس البحر أيضاً مكوناً من نقاط من الماء؟ ألا يمكننا أن نصل إلى الحب الإلهي من خلال شخص؟ وعندئذ أدرك أن كل هذا المنطق الذي أفكر فيه ليس إلا نوعاً من العجز؛ عجز درويش يسيطر عليه شغف صغير في قلبه بينما يحترق برغبة حب الحقيقة".
تابع عزت قائلاً: "أثرت فيّ كلماته عميقاً. فأمسكت كتفيه وقلت له: لا تسمح للظلام أن يخيم على روحك. إن رحلتك مستمرة. ولن ينتهي الأمل لأن بحثك لم ينته بعد. إن الطريق نفسه وسيلة للوصول إلى النهاية. وطالما يستمر طريقك قدماً، سيظل هناك أمل.
حينها، قال والدك بابتسامة حلوة مرة: إنك صديق مخلص، ولكن كلماتك لا تعكس الحقيقة. لا يشكل أيّ طريق حلاً، بل فقط الطريق الذي يؤدي بنا إلى الحقيقة. ومن المشكوك فيه أن يؤدي طريقي إلى لندن إلى هناك، ولكنني أدرك حق الإدراك أنني لا أستطيع أن أمنع نفسي من الانطلاق في تلك الرحلة. إن أعظم الحروب هي حرب الإنسان ضد رغباته. لا أحب أن أقول هذا، ولكنني فشلت في أول جولة لي في ذلك الصراع.
فقلت له محاولاً أن أعزز من روحه المعنوية: ولكن المعركة مستمرة ولن تنتهي أبداً.
لا بد أن ما قلته له قد نجح في إقناعه؛ لأن وجهه تألق بالأمل للمرة الأولى منذ مدة وقال: حسناً، لا بد أنك محق. فحتى لو خسرت جولتي الأولى، فالمعركة مستمرة. وبعد يومين، انطلق بويراز إلى لندن مع والدتك. ولم أره ثانية قط".

أصبح صوت عزت أفندي أجش ودمعت عيناه. وعندما نفدت منه الكلمات، توليت الكلام نيابة عنه قائلة: "لقد واصل والدي معركته خلال تلك الأيام التي لم تره فيها، ولم يعلن أي هدنة. وبعد اثنين وعشرين عاماً، هجر زوجته وطفلته البالغة اثني عشر عاماً من دون أي تفسير، وانطلق في رحلة بحث عن الحقيقة بصحبة شيخ باكستاني".

بدا الشعور بالانهزام واضحاً في عيني عزت أفندي البنيتين الفاتحتين، وقال: "لا بد أن هذا مريع بالنسبة إليك. لهذا السبب يقال إنه يجب على الدرويش أن يعيش في عزلة. فقوة الدرويش تكمن في محنته، لذا يجب عليه أن يتحمل تلك المحنة وحده. وخلافاً لذلك، فأولئك المقربون منه سوف يتوجب عليهم أن يشاطروه العبء. وليست هذه قوة لهم بل معاناة لا قدرة لهم على احتمالها".

لم أستطع أن أفهم ما إذا كان يتهم والدي بعدم اختياره الطريق الصحيح - أي طريق العزلة - أو بالتعاطف الزائد معنا نحن المقربين منه. وفي كلتا الحالتين، أثار كلامه غضبي. وبينما كنت على وشك أن أرد عليه رن هاتفي، فرأيت رقماً لا أعرفه. رددت على المكالمة.

"نعم؟".

قال صوت امرأة: "مرحباً يا سيدة غرينوود. المفتشة زينب تتحدث إليك".

تحول غضبي إلى انفعال على الفور. فلا بد أن شيئاً مهماً قد حدث.

قلت متلعثمة: "آه، آسفة". لم يكن من اللائق أن أتحدث إليها أمام عزت أفندي ومينان، لذا قلت لها: "هل يمكنك أن تنتظري قليلاً؟".

نظرت إلى عزت أفندي، وقلت: "أرجو المعذرة، ولكن يجب عليّ أن أتلقى هذه المكالمة".

فقال لي بأدب: "بالطبع يا ابنتي".

نهضت عن الكرسي، ومررت عبر شجيرات الورد، ثم قلت بنفاد صبر: "تفضلي أيتها المفتشة زينب. إنني أصغي إليك".

"يجب علينا أن نتحدث. هل يمكنك أن تتكرمي بالحضور إلى مخفر الشرطة؟".

"الآن؟".

صمتت قليلاً ثم قالت: "نعم لسوء الحظ. يجب عليك الحضور حالاً. فقد طرأت بعض التطورات. وهناك بضعة أسئلة يجب أن أطرحها عليك".

سألتها قائلة على أمل أن أفهم منها شيئاً: "حول ماذا؟".

"سيرهاد غوكوز".

"لا تقولي هذا! هل اكتشفتم شيئاً؟".
لم تبدُ مسرورة من سؤالي بل قلقة، وقالت: "إن حضرت إلى هنا، فسوف نتمكن من التحدث بحرية أكبر".
قلت: "بالطبع. سأحضر حالاً".
أنهيت المكالمة، وعدت إلى عزت ومينان، وشرحت للرجلين قائلة: "إنني آسفة. هناك حالة طارئة ويجب عليّ أن أذهب". والتفت إلى مينان، فرأيت عينيه الحائرتين مثبتتين عليّ. فقلت: "يمكنك أن تبقى هنا إن شئت. دعنا لا نترك عزت أفندي وحده".
ترى، ما الذي سيقوله مينان الآن؟ لا بد أنه تلهف لكي يعرف ما دار في المكالمة الهاتفية. ومن ناحية أخرى، لم يكن يريد أن يفوت هذه الفرصة النادرة للتحدث إلى عزت أفندي. وفي النهاية، تغلب عليه فضوله، فقال بشغف طفل صغير لا يريد أن يبقى بعيداً عن اللعبة: "كلا، إنني أفضل أن أذهب معك. فعزت أفندي ليس غريباً وسوف يسامحنا". وحبس أنفاسه، وكأن هناك كلاماً على طرف لسانه يريد قوله، ثم نظر إلى عيني بجرأة وقال: "ولكن، ينبغي علينا أن نسأله عن الخاتم قبل أن نغادر".
كان الفضول يتملكني بقدر مينان حيال سبب نزف الخاتم، ولكنني أدركت أن المكان والزمان غير مناسبين للسؤال. وقبل أن تتسنى لي فرصة قول ذلك، قاطعني الرجل المسن قائلاً: "أي خاتم؟".
لاحظ مينان استيائي، ولكنه لم يود أن يترك الأمر للصدفة، فقال بلا تفكير: "إنه خاتم مرصع بحجر ينزف، أعطاه رجل مسن للسيدة غرينوود أمام ضريح شمس التبريزي".
قلت له متملّصة من الموضوع وأنا أدرك أنه من الوقاحة أن أواصل التزام الصمت والتكتم: "أظن أنه رجل مصاب بانفصام في الشخصية أو مجرد متسول. لا نعرف بشكل مؤكد إن كان الخاتم ينزف فعلاً، فهو على الأرجح مجرد خاتم رخيص...".
لم تحدث كلماتي أي تأثير عليه، فسألني قائلاً: "هل الخاتم معك الآن؟".
كان الخاتم في حقيبتي. فقد وضعته في كيس بعد أن نزف في الضريح، لذا أخرجته الآن وقدمته لعزت أفندي الذي أمسكه وقربه من عينيه، وتمتم قائلاً: "إنه جميل، ولكنني لا أستطيع أن أراه جيّداً هكذا. انتظري. دعيني أضع نظارتي". وأخرج نظارته المتواضعة ذات الإطار السلكي من جيب سترته، ووضعها على حافة أنفه، وأخذ يتفحص الخاتم، ثم قال: "إنه عمل حرفي بالغ الدقة. أهذا حجر توباز أم عقيق؟ نعم، إنه عقيق أحمر".

ثمّ رفع ذقنه ونظر إلينا، وقال: "كيف بدا شكل ذلك الرجل المسن الذي أعطاك الخاتم؟".

"بدا شكله مميزاً جداً؛ فقد كان طويل القامة، وذا شعر كثيف ولحية سوداء طويلة، ويرتدي ملابس سوداء...".

أضاف مينان بحماسة ظناً منه أنني أغفلت تفصيلاً حاسماً: "وبدا محاطاً بالغموض. فقد ظهر فجأة من مكان مجهول للحظة واحدة ثم اختفى".

أومأ عزت أفندي وكأنه توصل إلى استنتاج ما.

"هناك كتاب عن شمس التبريزي بعنوان مقالات. في ذلك الكتاب، يتحدث المؤلف عن خاتم مرصع بحجر ينزف".

أصابتني عدوى حماسة مينان وعزت أفندي الآن، فقلت: "وماذا يقول عنه أيضاً؟".

"لا أتذكر بالضبط يا ابنتي. فقد مر وقت طويل على قراءتي إياه".

أعلن مينان بتفاؤله المعهود قائلاً: "سنعثر على الكتاب يا سيدة غرينوود. لديّ أصدقاء يبيعون كتباً مستعملة في السوق ويمكنهم أن يساعدونا".

قال عزت أفندي: "وأنا سأبحث في مكتبتي الليلة. لا بد من وجود نسخة منه في مكان ما. فقد أثار الخاتم فضولي أيضاً. سأقرأ عنه مرة أخرى لأعرف قصة هذا الخاتم".

قلت وأنا أمد يدي لأصافح الرجل المسن: "شكراً لك على كل شيء. لقد استمتعت بالتحدث إليك".

نهض عزت أفندي، وأمسك بيدي بين راحتي يديه، وقال: "ينبغي أن أشكرك أنا يا ابنتي، فقد سررت بمقابلتك كثيراً؛ إذ أعدت إليّ ذكرياتي عن بويراز. باركك الله". ظل عزت أفندي يمسك بيدي وهو يقول بتقطيبة ساخرة: "ولكن، لا يمكنك أن تغادري صفر اليدين. إذ ينبغي على المسنين دائماً أن يقدموا هدية لضيوفهم الشباب قبل أن يغادروا".

ظننته سيعطيني شيئاً ملموساً. ولكنه بدلاً من ذلك، أهداني قصيدة تلاها على مسمَعي بصوت جهوري قائلاً:

سأقول لك كلمات من دون لسان أو شفتين
سأقول لك أسراراً مخفية عن أذني الإنسان
إنها كلمات لك أنت
سأقولها بين الجميع
بالرغم من أن أحداً لن يسمعها سواك
ولن يفهمها أحد سواك

عندما انتهى عزت أفندي من تلاوة القصيدة، اكتسبت عيناه نظرة عابثة، وشرح لي قائلاً: "هذا شعر رومي. لنر إن كنت ستصغين لكلمات هذا الرجل الجليل".

"الحدس سبب كافٍ لفتح تحقيق"
بينما كنا نتقدم من مكتب المفتشة زينب، صادفنا المحقق "راغب" وجهاً لوجه، وهو يقف إلى جانب شرطيين يرتديان ملابس مدنية ويبدوان ضخمي الجثة مثله تماماً.
"أنت هنا يا سيدة غرينوود. تفضلي بالدخول، إن زينب بانتظارك". وبدا صوته موحياً بأنه نفض عنه كسله الصباحي، ولكن عينيه الخرزيتين ظلتا تبدوان متورمتين من كثرة النوم، ممّا جعل حجمهما يزداد صغراً. انحنى نحوي وهمس لي بتآمر قائلاً: "أخبريها كل ما تعرفينه. فأنا أعتقد أننا سنصل إلى قرار هذه القضية".
وقبل أن تتسنى لي الفرصة لكي أسأله عما يعنيه بكلامه، انطلق مبتعداً والشرطيان الآخران في أعقابه. دخلنا غرفة المكتب على أمل أن تتمكن المفتشة زينب من إلقاء بعض الضوء على المسألة، فوجدناها خلف مكتبها. كانت قد خلعت سترتها، فأصبح من الممكن رؤية قراب مسدسها الفارغ تحت كم قميصها الليلكي الأيسر. وبينما كانت تجمع شعرها البني عن كتفيها وتربطه على شكل ذيل حصان خلف رأسها، ابتسمت بحرارة تحية لنا بالرغم من أن آثار الإرهاق بدأت تتسلل إلى وجهها، فصافحناها بأدب.
قالت: "آسفة لأنني أحضرتكما إلى هنا بهذه العجلة". ثم أضافت بلا أية مراوغة: "ما الذي تعرفانه عن سيرهاد غوكوز؟ لقد قلتما إنه يعمل لصالح شركة إيكونيون للسياحة، أليس كذلك؟".
"نعم، هذا صحيح. فقد كان مسؤولاً عن الحراسة في فندق ياقوت قبل أن يتعرض للحريق".
تحمس مينان كثيراً عندما سمع اسم سيرهاد، وتدخّل قائلاً: "في الواقع، إنه أشبه بحاجب في الشركة، فهو يقود السيارات، ويشرف على البناء، ويؤدي أي عمل يطلب منه. إن صاحب الشركة السيد كويومكوزاد يضع ثقته به".
شدت زينب ظهرها والتفتت إلى زميلي وقالت: "أظن أنك قلت سابقاً إن سيرهاد شخصية... ما هي الكلمة التي استعملتها؟ غامضة؟ لماذا قلت هذا عنه؟ هلا توضح لي قصدك".
حرّك زميلي قدميه تحت كرسيه بانزعاج، وتجعد جبينه وكأنه وجد مجرد ذكر اسم سيرهاد مثيراً للاشمئزاز، ثم قال: "لأنه هكذا". ثم تابع قائلاً: "لأنه... حسناً... لأن سيرهاد مثال عن الوضاعة والدناءة. فهو يعاشر فتيات الليل ويأكل أموالهن... أعني، إنّه باختصار سيئ الأخلاق".

مع ذلك، لم يشكل ما قاله عن سيرهاد أي تهمة في حقه، لذا بسّطت زينب سؤالها لتسهل الأمور عليه.
"كم مضى عليه وهو يعمل في شركة إيكونيون للسياحة؟".
"خمس سنوات. وعلى أية حال، إنه ليس من قونية. ليس واضحاً حتى من أين أتى ذلك المحتال. يقول إنه من أنطاليا، ولكنها كذبة. ليست لديّ فكرة من أين انتشله ضياء، ولكنني أعرف أنه منذ البداية لم يسبب لنا سوى المتاعب".
بدأ مينان يحيد عن الموضوع مجدداً، ولم يسع زينب إلا أن تلاحظ ذلك.
"يبدو أن هناك مشكلة شخصية بينك وبينه".
أحمد الله لأنّه تمتع بالذكاء الكافي لكي ينظر إليّ قبل أن يجيب. وحالما لاحظ نظرة الانزعاج التي بدت على وجهي، أدرك أنه عليه أن يحكم عقله وألاّ يتطرق إلى موضوع ابنته.
فقال: "أي أذى حقيقي يمكن لذلك الشاب أن يلحقه بي؟".
"منذ متى وأنت تعرفه؟".
"أنا؟ منذ سنتين، أي منذ أن أصبحت شركة إيكونيون زبونة عندنا. اعتدت أن أراه كلما ذهبت إلى هناك. إن علاقتنا مبنية على أساس العمل ولا شيء آخر".
"حسناً. هل لديك معلومات عن تورطه بأي نشاط غير مشروع؟ أعني كعنف العصابات والابتزاز والسرقة؟".
عبس مينان، وقال بتردد: "كلا، لم أسمع شيئاً من هذا القبيل، والله على ما أقول شهيد".
عندما أدركت زينب أن مينان لا يملك معلومات شافية يقدمها لها، بدأت تصاب بالملل.
لذا، تحدّثت لأنعش الحوار قائلة: "ماذا عن صديقه كافيت؟ لا أتذكر شهرته. إنه شاب غريب الأطوار، فهو مهووس بالنظافة. لو رأيته لخامرتك الشكوك حياله أيضاً. إن كلاً من سيرهاد وكافيت ينطبق عليه وصف المجرم".
سألتني بنبرة ساخرة: "وما هو وصف المجرم بالضبط؟".
"أقصد السلوك الغريب، والإيماءات التهديدية المبالغ بها، والمشية المختالة، واللغة البذيئة...".
ضحكت وقالت: "لا أعرف كيف هو الحال في المكان الذي أتيت منه، ولكن، إن أطلقت وصف المجرم على كل رجل تنطبق عليه هذه الصفات

هنا في هذه البلاد، لأصبح نصف رجالنا خلف القضبان".
قلت: "الرجال متشابهون في أنحاء العالم كافة، ولكن كافيت وسيرهاد بالفعل من النموذج الذي يثير الشكوك، كما أنهما مقربان من السيد كويومكوزاد".
"أليس هذا طبيعياً؟ فهم يعملون معاً".
ترى، هل أرادت أن تصل إلى التفاصيل، أم إنها لم تأبه لآرائنا وحسب؟ وجدت موقفها مُحبطاً للمعنويات، ولكنني واصلت كلامي وأنا أهز رأسي بعناد.
"كلا، ليس الأمر هكذا. يبدو لي أنهم جميعاً يسعون لفعل شيء ما معاً".
أضفى عليها كلامي بعض الانتعاش، فقالت: "مثل ماذا؟".
"حسب تقديري، يطلب منهما السيد كويومكوزاد القيام بالأعمال القذرة نيابة عنه. كنا نجلس معهم قبل ساعتين فقط. ليتك رأيت كيف يتفاعلون مع بعضهم... إن سلوك ضياء يبدو أشبه بسلوك زعيم من زعماء المافيا وليس مدير شركة".
قال مينان داعماً كلامي: "نعم، بالضبط كزعيم مافيا".
قالت وهي لا تزال تبدو غير مقتنعة: "تبدوان واثقين جداً من نفسيكما. هل أنتما واثقان من أنه ليس هناك ما تخفيانه عني؟".
اعترفت لها وأنا أشعر بالهزيمة: "كلا، إنه مجرد حدس باطني؛ ولكنك تدركين بقدر ما أدرك أنا أن الحدس سبب كافٍ لفتح تحقيق. وإن واصلنا ملاحقة هذا الخيط، فسيؤدي بنا في نهاية المطاف إلى دليل أو شهادة ما".
"إن واصلنا؟ ماذا تقصدين بالتحدث بصيغة الجمع هنا؟".
فسألتها بعدم مبالاة قائلة: "لِمَ لا؟ يبدو أنّ كل هذه الجرائم التي نتحدث عنها متشابكة مع بعضها؛ بما في ذلك حريق فندق ياقوت الذي أحقق فيه. أليس الحريق وجريمة قتل كامل الأعسر الغريبة جنايتين؟". حاولت أن أوضح لها أكثر: "لقد أودت إحداهما بحياة عاملين، والأخرى بحياة لص؛ ممّا يجعل الضحايا ثلاثة رجال".
قالت مشددة على كلامها وكأنها تستشهد بقانون ذي أهمية كبرى: "ليسوا كلهم ضحايا يا سيدة غرينوود. فجرائم القتل تشمل فقط ضحايا القتل؛ أي أولئك الذين تعرضوا لإطلاق النار، أو القتل باستخدام السكين أو السم، أو الضرب حتى الموت، أو الخنق، أو الرمي من مكان عالٍ، أو القتل بوسائل لا يمكنك أن تتخيليها...".
أصغيت للمفتشة زينب وهي تعبر لنا بكل وضوح عن رفضها التعاون معنا، وبدأت أتحرر من الوهم تدريجياً. ترى، هل أخطأت الظن بشأنها؟

هل هي مجرد مفتشة شرطة طموح ومغرورة؟
واصلت محاضرتها قائلة: "إن كامل الأعسر ضحية جريمة قتل، ولكننا غير واثقين من ضحيّتي حريق الفندق. إذ يقول تقرير فوج الإطفاء إن الحريق كان نتيجة حادث، وإن حكم المدعي العام ليس قطعياً. أيمكن أن يكون الحريق مفتعلاً بالرغم من ذلك؟ أظن ذلك. فقد يكون هناك ما أغفلته الشرطة أو فوج الإطفاء أو المدعي العام... كل تحقيق يتضمن بعض الحدس. إنك محققة حيال هذا. وقد تكونين محققة أيضاً في ظنك أن سيرهاد من أضرم الحريق. ولكن، في الوقت الحاضر، ليس في يدنا شيء ندعم به هذه الادعاءات. فمن دون وجود دليل أو شاهد، لا يمكننا القيام بأي شيء، وهذا ما قلته لك صباح اليوم".
قاطعها زميلي قائلاً: "ولكن، هناك شاهد. إنه قدير غيميليك".
نظرت زينب إليه بشك، وقالت: "من هو قدير غيميليك؟".
تابع مينان قائلاً: "إنه رئيس فريق التنظيف المكون من أربعة أشخاص. لقد تواجد في الفندق في أثناء اندلاع الحريق. كان من المفترض به وبفريقه أن يلتحقوا بعملهم يوم الاثنين، ولكن "قدير" أقام حفل خطبة ابنه في ذلك اليوم، لذا ذهبوا يوم الثلاثاء بدلاً من ذلك".
لم تفهم زينب مغزى كلامه، فقالت: "أي فرق يشكله اليوم الذي ذهبوا فيه؟".
بدا على مينان أنه يعاني من صعوبة في التعبير عن فكرته، لذا توليت الشرح نيابة عنه، فقلت: "لم يُعلِم قدير سيرهاد بحفل خطبة ابنه، ولم يبلغه بالتغيير في خططهم في العمل. ولو ذهب الفريق للعمل يوم الاثنين كما يفترض، لما تعرض أحد للأذى. لهذا السبب، اختار ضياء ورجلاه يوم الثلاثاء تحديداً ليضرموا النار في الفندق؛ ظناً منهم أن أحداً لن يكون موجوداً هناك".
قالت زينب وهي تزم شفتيها: "هذا مجرد تخمين. ألا يمكن أن يكون اندلاع الحريق يوم الثلاثاء مجرد صدفة؟".
"حسناً، ولكن تعرض قدير للضرب على رأسه ليس صدفة".
شعرت مرة أخرى بالتأثر لاختيار مينان التوقيت المثالي.
واصل كلامه قائلاً: "هذا صحيح يا حضرة المفتشة. فقد رأى قدير شخصاً ما بينما كان يحاول أن ينقذ صديقيه. وفي اللحظة نفسها، أتى شخص آخر من خلفه، وضربه على رأسه".
وبالرغم من أن زينب حافظت على هدوئها إلا أنني استطعت أن ألاحظ

أن سير الأحداث بدأ أخيراً يحدث تأثيره عليها.
"إذاً، من الذي رآه قدير؟".
"لم يستطع أن يميز الرجل. فقد كان مغطى بالكامل بإحدى تلك البذلات الفضية المقاومة للنار التي يرتديها رجال الإطفاء".
"إذاً، لم يتم التعرف على هوية الرجل قط". واكتسبت ملامحها مجدداً تعبيراً من التسامح والاعتداد بالنفس.
أجبتها متخلية عن صبري: "كيف يمكنه ذلك؟ فقد كان الرجل مغطى بأكمله. وقع انفجار ضخم في القبو، وشبت النيران في المواد المخفّفة للطلاء. عثر قدير على زميلته مغمياً عليها، وحملها على ظهره إلى الردهة في الطابق العلوي، فوجد سيرهاد في الردهة. شعر سيرهاد بالصدمة لدى رؤيته "قدير" ونزيهة لأنه ظن أن الفندق فارغ. ولا بد أن كافيت بقي في الطابق السفلي بعد أن أشعل الحريق".
"كيف تعرفين أن كافيت هو من أشعل الحريق؟".
"إن كافيت مهووس بالنظافة، حيث إن إمكانية تلطخ وجهه أو يديه بأي سخام قد تفقده صوابه. لا يمكن لأحد آخر أن يزعج نفسه بتغطية جسمه إلى هذا الحد باستعمال تلك البذلة المقاومة للنيران".
"حسناً، أكملي".
"أصيب سيرهاد بالذعر عندما صعد قدير حاملاً نزيهة إلى الردهة، وخشي أن يكتشف قدير أنهم أضرموا الحريق بأنفسهم، لذا تبعه إلى الأسفل. وفي تلك اللحظة، رأى قدير كافيت، ولم يستطع أن يميزه بسبب البذلة المقاومة للنار. رآه كافيت بالطبع. وفي تلك اللحظة، تسلل سيرهاد من خلفه وضربه على رأسه بشيء قاس ففقد وعيه. وعندئذ، خلع كافيت البذلة المقاومة للنار وهرب من الفندق".
"وماذا بعد؟ هل قام بمجرد ترك قدير هناك؟".
بدأت زينب أخيراً تفهم قصدي.
"هذا صحيح. فبدلاً من أن يخرجه، اكتفى بإبلاغ فوج الإطفاء، وانتظر منهم أن يتولوا المسؤولية. وربما تمنى أن يلقى قدير حتفه في الحريق لأنه لم يكن واثقاً تماماً من أنه لم يتعرف عليه، ولكن الحظ حالف "قدير". إذ قبل أن تصل إليه ألسنة اللهب، حضر رجال الإطفاء، وأنقذوا حياته".
"إذاً، أليس هذا ما ذكره قدير في إفادته؟".
"بالطبع هذا ما ذكره. ولكن المدعي العام لم يقبل بها على أساس عدم الكفاءة العقلية".

"ماذا؟ ألم يكن قدير غيميليك بكامل قواه العقلية؟".
"كان يعاني من الصدمة في اليوم الذي قدم فيه إفادته، ولكنه الآن يتذكر كل شيء بكل وضوح".
"إذاً، لا أحد غيركما يأخذ كلامه على محمل الجد".
"لسوء الحظ".
وضعت زينب إصبعها على شفتها، وفكّرت للحظة.
"إذاً، لقد خشي ضياء ورجلاه أن تصل هذه المعلومات إليك، لذا أطلقوا يد كامل الأعسر لأنهم...".
فأكملت الجملة لأساعدها على التوصل إلى الاستنتاج: "لأنهم أرادوا أن يخيفوني ويدفعوني إلى إكمال تقريري بسرعة قدر المستطاع. إذ كلما أسرعت في مغادرة قونية، بقيت جاهلة بالتفاصيل التي تكشف الحقيقة".
ضمت يديها على المكتب أمامها وقالت: "حسناً، إن هذا بالتأكيد تخمين بالغ الذكاء، ولكنه معتمد على الحدس لا غير. وما لم تتوصلي إلى شيء ملموس أكثر، فإنني مضطرة للقول إنه سيظل مجرد تخمين".
شعرت بالأمل الذي تسلل إليّ يتلاشى فجأة كما ظهر.
"ربما إن فتشتم بيت كل من سيرهاد وكافيت فستتوصلون إلى دليل ملموس؛ كالعثور على البذلة المقاومة للنار على سبيل المثال".
تفحصت زينب وجهي من دون أن تخفي انزعاجها، وقالت: "لا تقلقي. سنقوم بذلك أيضاً إن دعت الحاجة".
كنت آمل أن يعني كلامها أنها بالفعل تفكر في الأمر. فتحديتها قائلة: "لماذا استدعيتنا إلى هنا فعلاً؟".
"لأسألكما عن سيرهاد".
"لماذا؟ هل اكتشفتم أي علاقة بين سيرهاد وكامل الأعسر؟".
انحنت إلى الأمام متكئة على مرفقيها وهي تضحك، وأمسكت برأسها بين يديها وكأنه بات شديد الثقل على عنقها.
"أرى أننا قد تبادلنا الأدوار يا سيدة غرينوود. فقد أصبحت أنت التي تستجوبينني وليس العكس".
"إنني أحاول فقط أن أقوم بشيء مفيد".
أخذت نفساً عميقاً، واستندت إلى الخلف ثانية، وقالت: "نعم، لقد حصلنا على دليل مؤكد يربط بين سيرهاد وكامل".
زمجر مينان قائلاً: "ذلك الكاذب الحقير! قبل ساعتين فقط، ادعى أنه لا يعرف "كامل" الأعسر".

وفجأة، أصبحت زينب كلها آذان صاغية، وسألت باهتمام: "أقال إنه لا يعرفه؟".
استولى الشك على مينان، فحوَّل عينيه الخضراوين نحوي وكأنه يطلب مني أن أصادق على صحة كلامه.
فأكدت لزينب قائلة: "لقد قال لي إنه لا يعرفه ولم يسمع باسمه في حياته".
تمتمت زينب بصوت منخفض قائلة: "هذا عظيم. ربما يمكننا أن نحاصره بهذه الطريقة".
سألتها وأنا غير قادرة على السيطرة على فضولي: "إذاً، هل كانا صديقين؟".
وفجأة، أصبح أسلوبها بارداً وكأننا قد وصلنا إلى مكتبها للتو، وقالت بفتور: "من؟".
وجدت أسلوبها مزعجاً للغاية، فقلت لها بصوت إيقاعي: "سيرهاد وكامل".
"لسنا واثقين بعد. فنحن نبحث في الأمر".
"ألا ينبغي لنا أن نتعاون معاً؟ كنت آمل أن نتوصل إلى تسوية، وليس إلى هذا الطريق المسدود. أخبرناك كل ما نعرفه. ألا يمكنك أن تردي لنا الصنيع؟ عندئذ يمكننا ربما أن نساعدك".
"ستعيقين التحقيق وحسب يا سيدة غرينوود". وبذلك حسمت الموضوع. وعندما لاحظت النظرة العدوانية في عينيّ أضافت قائلة: "من فضلك، لا تنظري إليّ بهذه الطريقة. قومي بعملك وحسب ودعيني أقوم بعملي".
"ولكن لدينا مصالح مشتركة...".
فقالت وهي تهز رأسها: "كلا، ليست لدينا مصالح مشتركة. أنت مهتمة بتوفير مبلغ ثلاثة ملايين جنيه استرليني على شركتك. أما نحن، فمهتمون بتحقيق العدالة".
"ماذا؟ هذا غير...".
حذرتني قائلة: "من فضلك، لا تقاطعيني. قد تظنين أنك تعملين بحماسة أكثر منا لأنك مدفوعة بالمال وتنوين الحصول على ربح مباشر من هذه المهمة، وأنني مجرد موظفة مدنية لا أتحلى بالتصميم الكافي لأبحث في المسألة، ولكنك مخطئة. فأنا لم يغمض لي جفن منذ أربع وعشرين ساعة ولا زلت أبذل جهدي لحل هذه القضية. سنواصل التحقيق حتى النهاية، سواء أأجرت شركة التأمين التي تعملين فيها تحقيقها أم لا. نحن لا نحقق بجريمة قتل كامل الأعسر وحسب، بل أيضاً بجريمة قتل الزوج والزوجة اللذين ذبحهما أولئك المتعصبون الزائفون. وإن اتضح أن افتراضاتك صحيحة،

فسنعثر على قتلة ذينك الموظفين المسكينين اللذين قضيا حتفهما في الحريق. ولكن، ليس من واجبي أن أنقذ الشركة وأحول دون دفعها مبلغ التأمين من أجلك يا سيدة غرينوود. لذا، لا تقولي لي إن اهتماماتنا مشتركة، فهي ليست كذلك".

أصابتني الصدمة من كلامها، وشعرت أنني تعرضت للظلم والإجحاف. ومع ذلك، لم أعرف كيف أعبر عن صدمتي بالكلمات. وبدا أنّ مينان يعاني من حالة أسوأ من حالتي بكثير. فقد رأيته يدفن يديه بين ركبتيه وهو مسمّرٌ في مكانه ووجهه أحمر كالدم.

تمكنت أخيراً من القول: "إنني مصدومة. لم أكن أستحق منك هذا. فأنت تعاملينني وكأنني مجرمة".

تابعت بهدوء قائلة: "لقد ارتكبت خطأ مرة أخرى يا سيدة غرينوود. فأنا لا أعامل أي شخص بريء كما لو أنه مجرم مطلقاً. وأنت لست مجرمة. ولكن ما يجب أن تفهميه هو ما يلي: لست أنت من تترأسين أو تقودين هذا التحقيق. وإن أردت أن تساعدينا، يجب عليك أن تخبرينا بكل ما تعرفينه كما فعلت الآن، وهذه أكبر خدمة يمكنك تقديمها لنا".

سألتها بعبث قائلة: "هل يشكل ذلك بالفعل أية أهمية؟".

فقالت وهي تبتسم ببرود وكأنها لم توبخني قبل قليل: "بالطبع، إنه يشكل أهمية كبيرة. فقد زودتنا بمعلومات أساسية جداً، فصارت لدينا الآن معلومات أكثر لنحقق فيها مع سيرهاد وكافيت".

"ماذا؟ أتعنين أنكم ستضعون كافيت وسيرهاد في الحجز؟".

"ما الذي تظنين أن المحقق "راغب" يفعله في هذه اللحظة؟".

اعترتني ومينان الدهشة للحظة قبل أن نستوعب الفكرة ونستعيد صفاء مزاجينا.

"إذاً، سوف تفتشون بيتيهما على حدٍّ سواء، أليس كذلك؟".

فقالت زينب بابتسامة غامضة: "سنفتشهما. وبينما نحن نفتش، سنحاول العثور على بذلة رجل إطفاء".

"لأننا فقدنا شمسنا"
بدأ ظلام الليل يهبط على المدينة بصمت، وشقت سيارة مينان المرسيدس السوداء طريقها عبر شوارع قونية المضاءة. لم أعد أجلس على المقعد الخلفي بل على المقعد الأمامي؛ وكأنّ مينان أحد أصدقائي. وعلى كلا الجانبين، توهج الضوء من المحلات التجارية، وتدفقت حشود المارة بجانبنا مالئة الأرصفة، وحاملة رزماً صغيرة، وآثار عناء النهار ظاهرة على وجوه الجميع إلى جانب شعورهم بالراحة لأنهم في طريقهم إلى بيوتهم.
شعرت أنني مرهقة مثلهم؛ فقد أنهكني الحرمان من النوم. ومع هبوط الظلام، أصبح من المستحيل بالنسبة إليّ أن أقاوم النعاس الذي راح يداعب جفوني. أدركت أن حال مينان ليست أحسن من حالي. إذ بعد أن غادرنا مخفر الشرطة، أمضينا بعض الوقت ونحن نناقش سلوك المفتشة زينب المفاجئ. فاعتذر مينان المسكين نيابة عنها بخجله المعهود؛ بالرغم من أنني أكدت له أنه ليست هناك ضرورة لاعتذاره. ومع أنني وجدت صعوبة في الاعتراف بذلك خلال مناقشتنا، إلا أنني وجدت المفتشة زينب محقة. إذ لا يخفى على أحد أن الشرطة لا تحب أن يتدخل أحد في تحقيقاتها؛ ولا سيما شخص لديه مصلحة مالية في القضية مثلي. ومع ذلك، تحلت المفتشة زينب بصبر كبير غير معتاد من الشرطة. إذ لم تظهر شرطة لندن جزءاً بسيطاً من التفهم الذي أظهرته هي خلال تحقيق أجريته مؤخراً عندما تعرضت بعض لوحات بيكاسو للسرقة. ومع ذلك، لم يسعني أن أنكر أن سلوكها قد أزعجني بعض الشيء لأنني لسبب ما شعرت بالودّ تجاهها.
قبل العودة إلى الفندق، توقفنا لزيارة صديق من أصدقاء مينان يبيع كتباً مستعملة لنحاول العثور على نسخة من كتاب "مقالات". وبالرغم من أنه لم يجد نسخة منه في متجره إلا أنه اتصل ببائع كتب آخر. وفي غضون عشر دقائق، أصبح الكتاب بين أيدينا. وعندما عدت إلى السيارة، فتحت الغلاف على الفور ونظرت إلى محتوياته. ولسوء الحظ، لم أجد أي ذكر لأي خاتم من أي نوع في عناوين الفصول؛ ممّا أجبرني على التنقيب في كامل الكتاب. لم أعد أقوى على السيطرة على نفاد صبري، فوضعت الكتاب في حقيبتي، وقررت الانتظار إلى حين العودة إلى الفندق. وفي نهاية المطاف، استولى نعاس لطيف وحلو عليّ؛ كذلك الظلام الذي خيم على المدينة، وتركني في حالة لا تسمح لي بالتفكير في الخاتم ولا بالكتاب الذي يخفي سره. وبالرغم من أنني أدركت أنه من غير اللائق أن أنام في سيارة مينان،

إلاّ أنني لم أستطع أن أمنع نفسي من إغماض عينيّ.
وعندما أوشكت أن أغفو، سمعت صوت نغمة الهاتف المحمول التي تشير إلى وصول رسالة نصية فصحوت على الفور. ورغم معرفتي أن إمكانية كونها من تلك الإعلانات المزعجة كبيرة، إلا أنها على الأقل ساعدتني على أن أصحو من غفوتي. ولكنني اكتشفت أنني مخطئة. فقد وجدت الرسالة من نايغل. إذاً، لقد لجأ الآن لإرسال الرسائل النصية! تذكرت أننا لم نتحدث طيلة اليوم، وأنه هو من كان يتصل بي طوال فترة مكوثي في قونية. ابتسمت ابتسامة خاطفة نحو مينان الذي راح يراقبني من زاوية عينه، ثم قرأت الرسالة، فشعرت بالقشعريرة لدى رؤيتي الكلمات الأولى.
ها قد أتت شمسي وقمري.
لم يكن ذكر اسم شمس من قبل شخص من أهالي قونية يشكل مفاجأة كبيرة لي، ولكنني أصبت بدهشة عارمة حين استعمله رجل من لندن لم يسمع على حدّ علمي باسم ذلك الدرويش الرحالة من قبل. لا بد أن مينان قد لاحظ التغيير في ملامح وجهي لأنه سألني بقلق: "هل هناك خطب ما؟".
فقلت له مستعيدة هدوئي: "كلا. إنه مجرد صديق من لندن يلقي عليّ التحية".
أعدت النظر إلى الهاتف.
ها قد أتت شمسي وقمري
وأتت عيني وأذني
وأتى جسدي الفضي
وأتى منجمي الذهبي
وأتت نشوة عقلي
وأتى رفيق دربي
وأتى قاطع عهودي
وأتى نور عيني
كل ما تمنيته
كل ما تمنيته أتى إلي
انتهت القصيدة هنا، ولكن رسالة نايغل استمرت، فقد ختمها قائلاً:
"هكذا استدعى رومي شمس إليه. إذاً، يا حبيبتي كارين، متى ستعودين إليّ؟".
شعرت بنفسي أصحو كلياً الآن. فلم يتبقَ شيء من ذلك النعاس الذي أثقل

جفوني أو الدوار الذي انتابني من أحداث الأيام الماضية. من كان سيظن أن صديقي الجراح سيتحول إلى رجل رومانسي إلى هذا الحدّ؟ قد يكون بعد المسافة بيننا هو ما أظهر هذه الصفة الكامنة فيه.

عدت إلى بداية الرسالة، وركّزت على البيت الأول الذي يقول: ها قد أتت شمسي وقمري. لم أستطع أن أقرر إن كانت كلمة شمس هنا تعني الشمس نفسها، أم إنها كناية استخدمها الشاعر العظيم. فكّرت في أن زميلي التركي يملك الإجابة بلا شك، ولكنه آخر شخص أردت أن أناقش معه مسألة شمس الآن. وبينما كانت هذه الأفكار تدور ببالي، انعطفت سيارتنا إلى شارع أعرض وأكثر هدوءاً، فيه جدار يمتد على جانبه الأيسر. وبعد مسافة قصيرة، لفتت انتباهي بوابة من الحديد المطاوع تؤدي إلى مقبرة ضخمة، توجد فيها شواهد قبور معممة.

عندما لاحظ مينان اهتمامي بالمقبرة شرح قائلاً: "إنها مقبرة الصالحين الثلاثة، وهي مقبرة شديدة القدم".

"هل تعرف القصة الكامنة وراء ذلك الاسم؟".

"بالطبع. إنها مقبرة أثرية تعود قصة تسميتها إلى سبعمائة سنة. يقال إن ثلاثة شبان شدوا الرحال كل المسافة من خراسان إلى قونية ليقابلوا رومي. فقد كان الشبان متيمين جداً بالمولوي، ولكن لسوء الحظ، اكتشفوا لدى وصولهم أنه فارق الحياة مؤخراً. وعندما أدركوا أنهم لن يقابلوه، أحبوه بشغف أكبر بكثير من ذي قبل، وتمنوا الموت لأنفسهم أيضاً، وتوسلوا أن يتم دفنهم بجواره، فتحققت أمنيتهم. إذ توفي الشبان الثلاثة في الحال وتم دفنهم في المقبرة هناك. ومنذ ذلك الوقت وصاعداً، أطلق عليها اسم مقبرة الصالحين الثلاثة".

وعندما التفت إلى الخلف، وجدت أننا وصلنا إلى بعض الأبنية الكبيرة المضاءة.

"أين نحن الآن؟".

فقال وهو يضحك: "إنك لا تميزينها، أليس كذلك؟ إنه ضريح المولوي. لقد أحضرتك من طريق مختلف. إن فندقك يقع هناك".

عندما وصلنا، أصبحت واثقة من أنه لن يتمكن من الاسترسال بالموضوع، لذا استغللت الفرصة لأسأله قائلة: "ما الذي يعنيه اسم شمس؟ على حد علمي فالاسم ليس تركياً".

قال وهو يبقي نظره مركزاً على الطريق: "هذا صحيح، فهو اسم عربي يعني باللغة الإنكليزية sun".

شمس! وفجأة، خطر ببالي اسم صديقي صني من أيام الطفولة، وتخيلت شعره الأشقر البراق وعينيه الزرقاوين بلون السماء؛ الصديق الخيالي لفتاة عاشت وهي تتوق لضوء الشمس خلال أيام لندن الشتوية الباردة والكئيبة.

قال وهو يدوس على المكابح: "إن هذا يوضح لك كم كان شمس رجلاً عظيماً يا سيدة غرينوود. إن أولئك الذين يحصلون على بركاته أناس مباركون من الله".

أشار مغزى هذا الكلام من وجهة نظره إلى أنني واحدة من أولئك المباركين سواء أأدركت ذلك أم لا. ولكن، لم يكن لديّ الوقت الكافي أو الطاقة التي تسمح لي بمجادلته.

قلت له لأنهي الموضوع: "أظن ذلك. دعنا ننال قسطاً كبيراً من الراحة الليلة، وغداً صباحاً سنرى ما سيطرأ في تحقيقات المفتشة زينب. هلا نتقابل أمام الفندق في تمام العاشرة صباحاً".

"هذا يبدو جيداً. وإن سمعت شيئاً في هذه الأثناء، فسوف أعلمك؟".

"شكراً لك. تصبح على خير".

"تصبحين على خير...".

وقبل أن أترجل من السيارة قلت: "أعرف أننا لم نلتق، ولكن بلِّغ زوجتك وابنتك تحياتي".

ارتسمت ابتسامة دافئة على وجهه وقال: "شكراً لك. بكل سرور. إنك مدعوة لتناول العشاء لدينا ذات يوم في القريب العاجل. فزوجتي سميرة طباخة ماهرة".

"سنرى. دعنا ننتهي من أعمالنا أولاً، وربما سنتفق على موعد عندئذ".

هبت رياح مسائية باردة على وجهي وأنا أترجل من السيارة. فقد انحسرت حرارة النهار متيحة المجال لبرودة الليل الجافة والمنعشة، وجعلتني أرتجف من شدّة البرد؛ بالإضافة إلى تعبي وإرهاقي. دخلت الفندق بسرعة، ووجدت موظف الاستقبال مناوباً من جديد. سألني سؤاله المعتاد وأنا أمر قربه: "مساء الخير يا سيدة غرينوود، كيف أمضيت يومك؟".

قلت: "بشكل مدهش". ثم أضفت من دون أن أتيح له الفرصة بأن يفتح فمه مجدداً قائلة: "وسيصبح أفضل إن أرسلت إلى غرفتي طبق سلطة ولبناً رائباً وخبزاً. وإن كان لديكم عصير برتقال طازج، فسوف أتناول كوباً كبيراً منه. شكراً لك".

أمليت عليه طلباتي بسرعة كبيرة، لذا لم يتمكن من الاعتراض بالقول إن هذا ليس واجبه.

"كما تشائين يا سيدة غرينوود. سأتصل بالمطعم على الفور وسأعلمهم بطلباتك".
شعرت بلهفة موظف الاستقبال لمعرفة ما قمت به منذ حوادث الليلة الماضية، ولكنني شكرته وتوجهت إلى غرفتي وتركته من دون أن أشبع فضوله.
أمام المصعد، رأيت زوجين شابين معهما طفل رضيع، فتراجعت إلى الوراء عندما انفتح الباب تاركة المصعد لهما.
قالت الأم الشابة بترحاب: "تفضلي، هناك متسع لنا جميعاً".
"لا أريد أن أتطفل...".
فأصر الزوج الذي يحمل الطفل: "إنك لا تتطفلين... تفضلي".
قلت وأنا أدخل المصعد: "شكراً لكما".
سألتني المرأة قائلة: "أي طابق؟".
"الأول".
فقالت وهي تضغط على الزر: "ونحن أيضاً".
استطعت من مكان وقوفي أن أرى وجه الطفل. كان وجهه مستديراً كالقمر، وحاجباه جميلين، وأهدابه طويلة وسوداء. سألت: "أهي فتاة؟ إنها جميلة".
ضحك الأب الشاب وقال بكل فخر: "كلا، إنه صبي".
"ما اسمه؟".
"جلال الدين".
وشرحت الأم الشابة قائلة: "تيمناً باسم رومي".
بدَوَا مسرورين من اهتمامي بطفلهما. واستدار الرجل لكي أتمكن من رؤية وجه الطفل بشكل جيد، وراح ينظر إلى ابنه بإعجاب ويتمتم قائلاً: "إن له اسماً أوسط أيضاً".
تساءلت في سرّي إن كان الاسم شمس.
فقال الأب الشاب: "إنه علي، أطلقناه عليه تيمناً باسم صهر النبي صلى الله عليه وسلم".
"كم عمره؟".
"سيبلغ من العمر ثمانية أشهر في غضون يومين".
"حسناً، أتمنى له حياة رائعة".
قالت الأم الشابة: "شكراً لك. هل لديك واحد؟".
لم أعرف ما الذي ينبغي أن أقوله لها. فظننت أنني لم أفهم قصدها.

قالت: "أعني طفلاً".
"ليس بعد".
لا بد أن صوتي بدا حزيناً لأنها حاولت أن تخفف عني قائلة: "لا تقلقي، ستنجبين أطفالاً. فأنت لا تزالين شابة".
في ظل ظروف أخرى، كنت سأنزعج من تعليق من هذا النوع؛ ولا سيما من امرأة غريبة، ولكنني شعرت أن نوايا الشابة حسنة جداً، لذلك تقبّلتها بطيب خاطر. لا بد أنني بدأت أكتسب بعض صفات الأتراك بعد مرور ثلاثة أيام على إقامتي في هذا البلد.
قلت: "شكراً".
وبينما راح الشابان يلاعبان طفلهما، حاولت أن أتخيل ما سيبدو عليه طفلي عندما يبلغ من العمر ثمانية أشهر. تخيّلت عينيه وحاجبيه ويديه وقدميه، ولكنني عجزت عن التوصل إلى أي شيء. فكرت في سرّي: كم يبدو أمراً غريباً أن الطفل ينمو في أحشائي دقيقة تلو أخرى، ولكنني مع ذلك عاجزة عن استحضار أي صورة لما سيبدو عليه شكله في المستقبل. وصلنا إلى الطابق الأوّل وترجلنا من المصعد معاً. وكانت غرفتي قبل غرفتهما، فقلت: "تصبحان على خير". وتقدمت نحو باب غرفتي. وبينما كنت أضع المفتاح في القفل، اجتاحتني موجة من الاستياء شبيهة بتلك التي شعرت بها في أول يوم لي في قونية، كما شعرت بالوحشة العميقة والهجران. حالما دخلت غرفتي، طلبت رقم نايغل، فأجاب عند الرنة الثانية وقال لي بعطف: "كارين! يا لها من مفاجأة جميلة!".
"مرحباً، يا نايغل. كيف كان يومك؟".
"حافلاً، إن كان لا بد أن تعرفي، ولكنه أصبح أفضل بكثير الآن بعد أن اتصلت. ماذا عنك؟".
بعث صوته القوة في داخلي، فقلت: "أنا أيضاً أفضل حالاً، شكراً لك".
"يبدو عليك التعب بعض الشيء".
شعرت أنني أريد أن أقول له: ماذا تتوقع؟ إن شمس الذي ذكرته في قصيدتك يسكن أحلامي ويرفض أن يتركني بسلام. وهناك أشياء أكثر رعباً تواجهني في الحياة الواقعية. فقد هاجمني لص تعرض للقتل في ما بعد، وداهمت الشرطة الفندق الذي أقيم فيه واستجوبتني من بين كل الناس. وبعد ذلك، أحضر زميلي كتاباً عمره سبعمائة سنة، وراح يزعجني بنظريات المؤامرة الغامضة. وتمكنت أخيراً من التخلص منه ودخول الحمام لأحصل على بعض السلام، ثم غفوت وكدت أغرق في حلم آخر. ولكن الأمر لم

ينته عند هذا الحد. فهناك المزيد من الزيارات لمخفر الشرطة والمقابلات المحطمة للأعصاب. وفي الوقت نفسه، تمكنت في خضم كل تلك المغامرات من تدبّر أمر زيارة ضريح رومي. فكانت تلك الزيارة ستشكل أهم ما حدث في يومي لولا أنها انتهت بشكل مفاجئ عندما بدأ الخاتم الذي أعطاني إياه شمس التبريزي ينزف للمرة الثانية. قابلت صديق والدي من أيام الطفولة، فأخبرني أشياء عنه لم أسمع بها من قبل؛ فصدمتني وأحزنتني وأغضبتني؛ بالرغم من أن الرجل المسن لم يبد مهتماً ولو قليلاً. أجريت محادثة مغيظة مع إحدى مفتشات الشرطة... وقبل وقت قصير، تمنت لي أم شابة أن أنجب طفلاً؛ غير مدركة أنني أحمل طفلاً في أحشائي، وجعلت مشاعري تعيش حالة اضطراب وهياج. يا عزيزي نايغل، هذه هي الأسباب التي جعلتني منهكة ومستنزفة القوى.

ولكنني لم أقل أياً من هذا الكلام، بل قمت بمجرد محاولة ضعيفة لكي أبدو أكثر حيوية، فشرحت له قائلة: "وأنا أيضاً أمضيت يوماً حافلاً".

لم يقتنع نايغل بكلامي وقال: "كارين، إنك بخير، أليس كذلك؟ أعني، هل تعانين من مشاكل بحملك؟ هل تشعرين بدوار أو غثيان...؟".

شكل أي اهتمام من قِبَله بالطفل من وجهة نظري ميزة إضافية، فقررت أن آخذ منه كل ما يمكنني الحصول عليه.

"عانيت من الشعور بالغثيان صباح اليوم، وشعرت بالدوار؛ حتى إنني كدت أسقط على الأرض".

"عديني بأن تأخذي الأمور ببساطة. سنتولى حل الموضوع حالما تعودين. وعندئذ، ستتخلصين من كل تلك الأعراض".

لم أعرف ما يجب أن أقوله. وعندما طال صمتي، سألني قائلاً: "هل أنت معي؟".

"نعم، أنا معك".

"إذاً، لماذا لا تجيبين؟".

شعرت أنني معقودة اللسان.

"هل أنت بخير يا كارين؟".

"إنني بخير، ولكنني أفكر وحسب في الرسالة التي أرسلتها لي".

"إنها قصيدة جميلة، أليست كذلك؟ لقد كانت صداقتهما مميّزة، وهذا مدهش".

"إن القصيدة التي قرأتها موجهة له".

"هل كانت علاقتهما قوية إلى هذه الدرجة؟".

أجبت: "كانت علاقتهما غريبة، وكأن أحدهما يسعى إلى معرفة الخالق والتقرّب منه من خلال مخلوقاته... هذا أشبه بسر...".
سألني وهو حائر: "أي سر؟".
"سر يدل على معنى الحياة بين الخالق والناس...".
أدركت أنني لا أجيد الشرح؛ ربما لأنني أنا أيضاً لم أفهم طبيعة العلاقة بين شمس والمولوي. فلطالما تحدث شمس عن البحث عن الحقيقة، أي ما دعاه والدي حب الله، وأشار إليه عزت أفندي بقوله إنه سر؛ بالرغم من أنني لم أفهم أياً من التفسيرين فهماً جيداً.
قلت له مغيرة الموضوع: "إذاً، هل ستصطحب أمي لتناول العشاء؟".
"نعم، لقد تحدثنا عبر الهاتف صباح اليوم، ولم تبدُ بحالة سيئة. فقد أخبرتني أنها متوجهة للمشاركة في احتجاجات السلام في الساحة العامة. وقالت لي إنه بوسعي أن أقلّها مساء اليوم من مخفر الشرطة إن تم اعتقالها".
قلت له وأنا أشعر بالقلق: "إنها متهورة. آمل فعلاً ألاّ تسبب المتاعب لنفسها".
"ستكون على ما يرام يا حبيبتي. فقد سبق لها أن شاركت في احتجاجات لا حصر لها. هل سبق أن رأيت الشرطة تعتقلها من قبل؟".
كان محقاً في كلامه بالطبع. إذ إنني لم أعرف طوال حياتي امرأة أخرى تتصرف بسرعة وذكاء مثل أمي. فقد شاركت في احتجاجات تطالب بحقوق المرأة، وبالتسامح مع المسلمين، وحماية الغابات المطرية، وبالرفق بالحيوان... وبالرغم من أنها شاركت في كل احتجاج يمكن للمرء تخيله، إلاّ أنها لم تتعرض للاحتجاز قط؛ إلا مرة واحدة على حدّ علمي. وقد حدث ذلك قبل ثلاثين عاماً بتهمة تدخين الحشيش بعد أن انتهى الاحتجاج. ولكن، لا يمكن للمرء أن يظل واثقاً من نتائج أفعالها، فهي لم تعد شابة بعد الآن.
توسلت إليه قائلة: "من فضلك، اعتنِ بها يا نايغل. فقد أصبحت شديدة الحساسية منذ أن توفي ماثيو. إنني أخشى أن ترتكب عملاً غبياً أو أن تعرض نفسها للأذى".
قال لي بصوت عميق ومطمئن: "لا تقلقي يا حبي. عندما تعودين إلى لندن، سوف أسلمك سوزان بالحالة المرحة نفسها التي تركتها بها. بالمناسبة، متى ستعودين؟".
قلت له محاولة تجنب الموضوع: "قريباً كما آمل". ولكن ذلك لم ينجح. فقد ألح نايغل ليعرف الموعد.

"قريباً! كم يوماً ستغيبين؟".
قدرت إلحاحه. ولكن، كيف لي أن أتوجه عائدة إلى لندن وأنا لا أملك جواز سفر؟
"لست أدري. ربما ثلاثة أيام؛ حسب الظروف".
"حسب الظروف؟".
"حسناً، ثلاثة أيام. وإن أنهيت عملي هنا سريعاً، فسوف أحاول العودة في وقت مُبكِّر".
"وإن لم تتمكني من إنهاء العمل؟".
قلت وأنا أضحك متجنبة الموضوع: "عندئذ، ستأتي أنت إلى هنا، وسنبحث معاً في هذا السر الكبير الذي يجمع بين رومي وشمس".
لحسن الحظ، أعجبته الدعابة، فأخذ يضحك بدوره وقال: "حسناً، ينبغي علينا بكل تأكيد أن نزور قونية معاً ذات يوم. فأنا مهتم جداً برومي وشمس وسرهما الكبير والمكان الذي عاشا فيه...". وصمت عن الكلام قليلاً ثم قال: "وبما أنك نصف تركية ووالدك من هناك أيضاً، فمن المثير للاهتمام أن نستكشف المدينة معاً".
لم أعرف كيف يمكن أن أشعر إن حضر نايغل إلى هنا فعلاً، ولكنني تهورت بالكلام من دون أن ألقي بالاً لما سينتهي إليه الأمر.
"عظيم. تعال إلى هنا إذاً. ويمكننا أن نعود معاً".
فقال وهو يستعيد نبرته الجادة من جديد: "يؤسفني القول إن هذا غير وارد. فأنا مشغول جداً هذا الأسبوع. لديّ إجازة غداً فقط، ثم بعدها سأنتقل من جراحة إلى أخرى. ولكن، مهما حدث، فلا تتأخري، اتفقنا؟ قلت إنك ستغيبين ثلاثة أيام...".
"حسناً يا حبي، أعدك بذلك. سأعود إلى لندن في غضون ثلاثة أيام".

"جمالها هو ما جعلهما يهذيان"
حالما أنهيت المكالمة مع نايغل، فتحت كتاب شمس، وبدأت أبحث عن قصة الخاتم. ليس من السهل العثور على حكاية واحدة في كتاب مكون من خمسمائة صفحة، ولكن الحظ حالفني. فقد عثرت على قصة الخاتم وأنا أقلب الصفحات؛ في الصفحة الرابعة والأربعين. شرحت القصة على الشكل التالي:
ذات يوم، قال الشيخ للدرويش: "لقد منعتك هاليفي من أداء الرقصة الدائرية". فشكل هذا الحرمان غصة في قلب الدرويش وجعله يسقط طريح الفراش. فحص الطبيب نبض الدرويش، وحاول أن يشخص سبب مرضه، ولكنه وجد حالته مختلفة عن أي مرض آخر رآه في حياته. جرّب علاجات متنوعة، ولكن أياً منها لم يساعد الدرويش. وذات يوم، توفي الدرويش، ولكن الطبيب لم يتخل عن محاولة العثور على السبب الكامن وراء المرض الذي لم يتمكن من علاجه. لذا، نبش الجثة، ونقلها إلى المستشفى. وهناك شق صدره، ونزع قلبه، ورأى فيه عقدة قست وتحولت إلى حجر كالعقيق. احتفظ الطبيب بالحجر لسنوات، ولكنه عانى ذات مرة من أزمة مادية فاضطر لبيعه. وبعد أن انتقل الحجر من يد إلى يد، وصل إلى يد هاليفي التي حولته إلى خاتم. وذات يوم، بينما كانت تشاهد الرقصة الدائرية، نظرت إلى يدها ولاحظت أن ثوبها مغطى بالدم فتفحّصت نفسها ولكنها لم تجد أي دليل على وجود جروح أو كدمات. وعندئذ، نزعت الخاتم من إصبعها فتحول الحجر إلى دم متدفق.
انتهت القصة عند هذا الحد، ولكن فحواها لم يفعل شيئاً سوى إثارة أعصابي.
فتمتمت برعب قائلة: "ماذا؟ هل أخذ ذلك الحجر من قلب إنسان؟".
نهضت من مكاني، وذهبت لأحضر حقيبتي. استغرقت لحظة لأستجمع شجاعتي، وفي النهاية، فتحت الحقيبة، وأخرجت الخاتم. تفحصت الحجر بعناية. ولو أنه لم ينزف مرتين أمام عيني، لما صدقت وجود أي علاقة بينه وبين الخاتم الذي أتى ذكره في الكتاب. إذاً، من قلب من أتى هذا الحجر؟ أهو قلب شمس؟ لماذا قد تتشكّل عقدة في قلبه؟ كان رجلاً طاهراً من بين الصوفيين، فكيف يمكن لأحد أن يمنعه من تأدية الرقص الدائري؟
سمعت صوت طرق على الباب وكأن الجواب قد وصل، فقفزت مجفلة.
صاح صوت الطارق قائلاً: "خدمة الغرف!".

أين ذهب عقلي؟ هل وصلت بي السخافة إلى حدّ يجعلني أنسى أنني طلبت طعاماً؟ استعدت هدوئي، وفتحت الباب، ثم وقعت الوصل وأخذت الصينية من النادل من دون أن أسمح له بالدخول. فوجدت كل ما طلبته موجوداً: السلطة واللبن الرائب وعصير البرتقال، ولكن شهيتي اختفت الآن بسبب انشغالي بهواجسي حول شمس. كيف وصلت الأمور إلى هذه الدرجة من الخطورة بلا مبرر؟ فهو مجرد خاتم. ما الذي دفعني لمناقشة أمره مع مينان وعزت أفندي؟ وبالإضافة إلى ذلك، أخذت الآن أقرأ الكتاب الذي نصحاني بقراءته. يجب عليّ أن أستعيد توازن عقلي. لذا، أعدت وضع الخاتم في حقيبتي، وأخذت الكتاب عن الطاولة، ودسسته داخل أحد الأدراج، وهكذا انتهى كل شيء. ثم جلست لأتناول وجبتي بالرغم من شهيتي المفقودة، وقضيت عليها حتى آخر لقمة.

بعد أن تناولت طعامي، جلست مغالبة النعاس. ولم أعد أملك الطاقة لكي أكتب رسالة لسايمون، لذا اخترت الطريق الأقصر، واتصلت به هاتفياً. ومن المثير للاستغراب أنني وجدت هاتفه مقفلاً؛ إذ لم يحدث ذلك من قبل. فأنا لم أعهد سايمون إلا رجلاً مهووساً بالعمل كلياً. ولكن، لم يعد بإمكاني فعل شيء الآن. وهكذا، توجب عليّ أن أعاود محاولة التواصل معه في الصباح.

نهضت ودخلت الحمام، فغسلت وجهي ببعض الماء، ونظفت أسناني بسرعة وأنا متلهفة لكي آوي إلى الفراش. أطفأت الضوء، ولكن الغرفة لم تصبح مظلمة كما توقعت. وعندما نظرت حولي، لاحظت ضوءاً يلمع على صفحة المرآة. لم يكن ضوءاً ساطعاً جداً، بل وميضاً أصفر متواصلاً. نظرت حولي وفكّرت في أنه لا يمكن أن يكون قادماً من الخارج. ترى، هل تركت أحد المصابيح مشتعلاً؟

وعندما التفت إلى الوراء، وجدت نفسي أمام نافذة خشبية توجد على حافتها شمعة مشتعلة، وضوؤها المرتعش يتدفق إلى الخارج. ها قد عدت إلى الحديقة من جديد؛ أمام البيت الطيني ذي الطابقين والبركة المرصوفة بالخزف وأشجار السرو الباسقة والغرفة الساطعة... في مكان ما قربي، شعرت بأحدهم يأخذ نفساً. التفت ونظرت عن كثب. كلا، لم أخطئ الظن. فقد استطعت أن أشعر بقلب ينبض بالبهجة والخوف. وبدا هذا أشبه بتكرار حلم عشته من قبل مرة أخرى.

ولكنني وجدت شيئاً مختلفاً الآن، وأخذ جسدي يرتجف بفعل الشعور الذي سيطر عليّ، ورحت أبحث باهتياج عن الشخص الموجود هنا. فقد استطعت

أن أشعر بأنفاسه وأسمع همسه في أذني. نظرت إلى شجرة الجوز الضخمة خلفي. كانت أغصانها ثخينة ومتشابكة، وأوراقها عريضة وكثيفة، وظلها عميقاً لدرجة أنها حجبت عني ضوء القمر. لم أستطع أن أرى ما يوجد تحت الشجرة، ولكنني عرفت ما كنت أبحث عنه هناك في الظلام. شعرت بروحي مكسورة وجريحة كطفل مثبط الهمة، ونسيت كل شيء أعرفه وأعتبره ثابتاً، وتحولت إلى كتلة نارية تتأجج بالحقد والكراهية.

رمشت بعيني محاولة عبثاً أن أتبين الأشكال الغامضة التي أبحث عنها، ولكن ذلك الظل الكثيف لم يسمح لي بذلك. لم أعد قادرة على السيطرة على نفسي، فانجرت قدماي تلقائيًا إلى ظل شجرة الجوز. وعندما أصابت أوراقها وجهي رأيتهما؛ رأيت شابين متعانقين كجسد واحد وعقل واحد وقلب واحد. أوقف الإحراج الذي شعرت به خطواتي، فتوقفت للحظة وراقبت المشهد من بعيد، ورأيت ما يحدث في الظلام. لم يسمح لهما وضعهما برؤيتي، وكذلك ضوء القمر الخافت وشجرة الجوز التي حجبتني عنهما، ولكن الطبيعة السرية لهذا اللقاء وهذه العلاقة المحرمة والحب الممنوع منحتهما جمالاً غريباً ومغرياً لمن يراهما. وعندما تخليت عن كل مشاعر الغيرة والبؤس والخديعة، بدا الشابان بالنسبة لي كياناً طبيعياً واحداً. وقال صوت في داخلي: اخرج من هنا! ادع أنك لم ترهما. تظاهر أن شيئاً لم يكن. إنهما لا يزالان شابين، وجمالهما يجعلهما يهذيان، والنار في قلبيهما تسكرهما. دعهما وشأنهما، دع خطيئتهما تنزل بهما عقابهما، وليكن الندم جزاءهما. اتركهما، ودع ضميريهما يحطمان حبهما الملعون إلى أشلاء.

بدأ غضبي المتنامي يهدأ، وكراهيتي تضعف. وبالرغم من أن استيائي لم يتلاشَ كلياً، إلاّ أن التعاطف طغى عليه، فكدت أهم بالمغادرة، ولكن ذلك القمر وتلك السماء لم يسمحا لي بأن أفعل ما هو لائق. فقد شع في الحال ضوء قاس ومبهر وشق طريقه عبر الأشجار، وسطع على الشابين المختبئين تحت شجرة الجوز الثخينة. وعندما ألقى القمر أشعته عليهما تحولا إلى كيان فضي واحد، وبدَوَا كأفعى تتلوى أمام عيني. تسمرت في مكاني للحظة، ورأيتهما ينزلقان على الأرض كانزلاق الثعبان. وفجأة، ثار مزاجي الذي هدأ لتوه كالبركان، وتفجرت غيرتي كالبحر الهائج، وتلاشى تعاطفي، وتحول غضبي إلى سخط هائلٍ لا يدع أي مجال للرحمة. رأيت جسد الفتاة يتحرك تحت ضوء القمر، ثم سكن عندما حبست أنفاسها. ظلت ساكنة للحظة وهي تصغي إلى سكون الليل كحيوان فزع. وبالرغم من التزامي الصمت، فقد أحست بوجودي هناك بعد أن شعرت بأنفاس

غضبي المتلاحقة، فأبعدت الشاب عنها، وعندها تحوّلت الأفعى إلى جسدين بشريين مرة أخرى.
قالت الفتاة بفزع: "أشعر بوجود شخص ما هنا. ثمة من يراقبنا في الظلام".
نهض الفتى بوقاحة، وتهور وهو يشدها لتنهض معه. وفي ضوء القمر، بدا أشبه بحيوان بري يتحدى العالم. فخطر ببالي أن أهاجمه هنا؛ في المكان نفسه الذي ارتكب فيه خطيئته. ولكن، ماذا لو سمعنا أحد من داخل البيت؟ غيرت رأيي وتراجعت إلى الوراء. رمش الشاب بعينيه وراح يحدق حوله في الظلام، ولكن وقوفه في النور الساطع منعه من رؤيتي.
قال محاولاً أن يهدئ من روع الفتاة: "كلا، لا تقلقي. لا يوجد أحد هنا".
"يوجد أحد هنا. إنني واثقة من هذا".
قال الشاب: "هل ستغادرين؟ هل ستتركينني وحدي هنا؟".
توجست الفتاة من البقاء وقالت بانفعال: "يجب عليّ أن أذهب. إن عاد ولم يجدني، فسيصب جام غضبه عليّ".
أصبح الشاب مقتنعاً الآن أن حبيبته ستغادر، ولكنه لم يمنع نفسه من أن يسألها قائلاً: "متى سنرى بعضنا مجدداً؟".
استجمعت الفتاة هدوءها مجدداً وقالت وهي لاهثة: "لست أدري. يجب عليّ أن أعود إلى البيت في الحال".
وعندما أنهت جملتها، قررت أن أصل إلى البيت قبلها، فالتفت وشققت طريقي بخطوات واسعة نحو الغرفة التي نظرت من نافذتها قبل وقت قصير.
وجدت الغرفة مضاءة بنور خافت ذي وهج أحمر؛ وهو وهج آخر شمعة تكاد تنطفئ. بدا الضوء منذراً بالشؤم، يكتب بلهيبه المرتعش حكم القدر المحتوم على جدار الغرفة الطيني. عندما خطوت إلى الداخل، تنامى ظلي الأسود كغضبي المتأجج إلى أن طغى على الغرفة بأكملها. استكنت في ظلام غضبي، وانتظرت بصمت. لم يمض وقت طويل حتى وصلت الفتاة؛ بعد أن أعادت ترتيب هندامها كما كان عندما نهضت صباح اليوم من السرير الذي أوت إليه إلى جواري. في البداية، لم تلاحظ وجودي وهي تحاول أن تلتقط أنفاسها وتهدئ ضربات قلبها المتسارعة في صدرها. دخلت الغرفة، ووقفت قبالة المرآة، وحاولت أن ترتب شعرها الأشعث الذي بدا كراية تمرد تعلن عن حبها المحرم.
"أين كنت؟".
دوى صوتي في أرجاء الغرفة ذات السقف المرتفع، وتردد صداه كتحذير

يتكرر: "أين كنت؟".
التفتت حولها وحدقت في الظلام. ومع ذلك، لم تستطع أن تراني، ولكنها فهمت نواياي على الفور، فحاولت الهرب من الباب، ولكنني منعتها. لذا، أسرعت نحو النافذة، ولكنني منعتها مجدداً، فارتعشت كغصن شجرة صفصاف بين ذراعي.
"ألم أطلب منك ألاّ تريه بعد الآن؟".
فانفرجت شفتاها الحمراوان قليلاً وقالت: "لم أر أحداً، بل ذهبت إلى المرحاض".
قلت وأنا أحاول أن أسحب المصحف عن الرف أمام النافذة وأقرّبه منها: "أقسمي على هذا، والله على ما تقولين شهيد".
قاومتني مرتعبة وقالت: "دعني". وصاحت وهي تلتفت وراءها: "اتركني وشأني".
ظلت تصرخ على تلك الحال حتى كدنا نوقظ أهل البيت كلهم. حاولت أن أغطي فمها بيدي، فأرجعت رأسها إلى الوراء وصاحت: "ساعدوني! ليساعدني أحدكم. سيقتلني!".
لم أستطع أن أغطي فمها، فأحطت عنقها بيدي.
همست قائلاً: "اصمتي، توقفي عن الصراخ".
رفضت أن تصغي إليّ. فقد أرادت أن يحضر الجميع إلى الغرفة لكي تتمكن من الهرب، ولكنني لم أدعها تحقق مرادها. جررتها إلى وسط الغرفة، وسقطت وإياها على إحدى الوسائد، واشتدت قبضة يدي حول عنقها.
"اصمتي حباً بالله".
لم تصغ إليّ، بل ظلت تقاومني لتبعد نفسها عني. وفي غمرة غضبي، هززت عنقها فسمعت صوت شيء ينكسر؛ كذلك الصوت الذي يسمع عندما تقطف زهرة قبل أوانها. تردد صوت صرختها في أنحاء الغرفة كصدى صوت قطرة ماء تحرّرت من غيمتها ثم ضربت الأرض. خيم على الغرفة صمت مطبق، فرأيت في عينيها الشبيهتين بعيني الغزال انعكاس صورتي وأنا أبكي؛ رأيت الرداء الأسود واللحية السوداء والعينين السوداوين والدرويش ذا القلب الأسود في الظلام. وفي تلك اللحظة، انفتح الباب وظهر أمامه شاب وقف بلا حراك. بدا وجهه الذاهل محترقاً في ضوء الشمعة المرتعشة في الداخل، ثم أتت كلماته وهو يقول: "لقد قتلتها... قتلتها! قتلتها وقتلت الجنين في رحمها!".
حولت نظري إلى ذلك الجسد الرقيق؛ جسد الفتاة الشابة الراقدة بلا حياة

في حضني؛ وكأنها مستغرقة في النوم. وسمعت صوت بكاء طفل يتردد صداه في الغرفة؛ بين السقف العالي والأرض الحجرية، والجدران الطينية والباب الخشبي، ليتسلل بهدوء إلى جحيم روحي. إنه صوت طفل لا يجد لنفسه عزاء، ولا يعرف شيئاً عن الصمت، ويتوق لأم فقدها إلى الأبد؛ صوت شجاع كالحياة وقديم كالأمل.

"الحياة تعامل النساء بقسوة يا كارين"
استيقظت على صوت بكاء طفل. وعندما فتحت عيني، وجدت نفسي على سريري في غرفة الفندق. وكان آخر ما تذكرته هو الضوء الذي رأيته في المرآة، ولكنني لم أستطع أن أتذكر متى استغرقت في النوم، أو متى استلقيت على السرير. ومع ذلك، استطعت أن أتذكر كل تفصيل من تفاصيل الحلم. تذكرت عنق الفتاة النحيل وهو ينكسر كساق وردة بين تينك اليدين القويتين... هل كانتا يديّ أنا؟ كلا، بل إنهما يدا شمس وليستا يديّ. ولكن، هل قتل شمس كيميا فعلاً؟ ربما حرم شمس من تأدية الرقصة الدائرية لأنه قتل تلك الفتاة. فإن كانت تلك الرقصة ترمز إلى الارتقاء، فقد ظل شمس حبيساً بسبب الجرم العظيم الذي اقترفته يداه، وهذا ما يفسر حاجته للمساعدة؛ بالرغم من أنه لم يفسر سبب طلبه المساعدة مني أنا بالذات. لا بد أنه اختارني بسبب اسمي، أو لأن والدي كان درويشاً مثله، أو لسبب آخر لا أستطيع سبر أغواره. ولكن، كيف يسعني أن أساعده؟ لم أكن أعرف شيئاً عن الصوفية، حتى إنّ أمي كانت تعرف عنها أكثر مني. بدأ الطفل يبكي من جديد، فانتصب شعر رأسي من شدة الفزع، ونهضت وأشعلت الأضواء خشية أن أكون عالقة في حلمي. التفت لأنظر إلى المرآة، وارتحت عندما رأيت انعكاس صورتي، ولكن الطفل واصل البكاء. وقفت في وسط الغرفة، وأصغيت محاولة أن أكتشف مصدر الصوت. وفجأة، خطر ببالي أن ذلك الصوت صوت جلال الدين؛ طفل الشابين اللذين يقيمان في الغرفة المجاورة. كيف يمكن ألاّ يكون قد أيقظهما؟ لا بد أن نومهما أثقل من نومي. وبينما كنت أفكر في ما إذا كان ينبغي عليّ أن أوقظهما، بدأ هاتفي يرن. ومما يثير الاستغراب أن الطفل توقف عن البكاء في تلك اللحظة. استعدت صفاء ذهني، ورددت على المكالمة، ففوجئت لدى سماعي صوت أمي الغاضب.
"هل ستنجبين الطفل، يا كارين؟".
ها نحن ذا! لقد عرفت أمي أنني حامل.
سألتها ببراءة قائلة: "أي طفل؟ عم تتحدّثين يا أمي؟".
"لديك الوقاحة الكافية لكي تكذبي عليّ، أليس كذلك؟ لو لم يزل لسان نايغل، لما عرفت على الإطلاق. إنكما تنويان التخلص منه من دون أن تخبراني، أليس كذلك؟".
حاولت أمي أن تصرخ، ولكنها لم تستطع؛ فقد بدا صوتها مبحوحاً. سألتها؛

ليس بهدف تغيير الموضوع فقط، ولكن لأن الفضول اعتراني أيضاً: "ماذا حل بصوتك؟ لماذا هو أجش؟ لم تصابي بالبرد، أليس كذلك؟".
وبختني قائلة: "لا تغيري الموضوع. لم أصب بالبرد، بل شاركت في مظاهرة احتجاج دعماً للسلام، وصحت ببعض العبارات. والآن، انسي أمر صوتي. متى كنت تنوين أن تفعلي هذا من دون علمي؟".
بالطبع، لقد خرجت في مظاهرة احتجاجية. حسناً، على الأقل، لقد نأت بنفسها عن المتاعب، وخرجت من المظاهرة بصوت مبحوح فقط. اكتشفت أن التملص من هذه المشكلة أمر أكثر صعوبة مما توقعت.
قلت لها مراوغة لأحاول تهدئتها: "هل تظنين أنني سأخوض هذه التجربة من دون إعلامك؟ لقد اكتشفنا أمر الحمل للتو فقط، أي قبل أن أسافر إلى هنا ببضعة أيام".
"كفي عن المراوغة. إنك تدركين تماماً أن توقيت اكتشافك للحمل لا يشكل أية أهمية. لماذا قد تحتاجين إلى رأي والدتك في أمر مهم كهذا؟ بماذا يهم رأي أمك في الأمر؟".
"من فضلك يا أمي، لا تقولي هذا. لم أود أن أزعجك".
"لم تودي إزعاجي؟ ما الذي قد يزعجني أكثر من سماع خبر حمل ابنتي من الرجل الذي تسبب بذلك".
لا بد أن الغضب قد أحكم قبضته عليها، وإلا ما كانت لتتحدث عن نايغل بهذه اللهجة.
"كنت سأخبرك حالما أعود من قونية. فأنا بحاجة إلى نصيحتك حيال هذا الأمر بكل تأكيد".
لم تبد أي دلالة على الهدوء، بل قالت: "لماذا تحتاجين إلى نصيحتي؟ فقد سبق لك أن قررت التخلص من الجنين، وانتهى الأمر".
"في الواقع، إن فكرت في الموضوع ملياً، فأنا لم أقرر شيئاً بعد".
"ألم تقرري؟".
"كلا. ذلك ما يريده نايغل، ولكنني لست واثقة مما أريده".
قالت بصوت بدأ يكتسب بعض النعومة: "لا تفعلي هذا بأي حال من الأحوال. تكادين تبلغين الخامسة والثلاثين من عمرك يا حبيبتي. إن هذه فرصتك الأخيرة ربما".
"أعرف هذا يا أمي. هل تظنين أن ما تقولينه لم يخطر على بالي؟".
"ربما خطر على بالك، ولكنك تدركين حتماً أنك ضعيفة أمام نايغل، فالشاب مختلف عن كل أصدقائك السابقين. أخشى أن تسمحي له بالتأثير عليك.

أصغي إليّ، سأتحدث معك بكل صراحة ووضوح: إياك أن تتخلصي من الجنين يا كارين. يجب أن تحتفظي به. فسيكون هذا الطفل مصدر سعادتك يا ابنتي!".

"حسناً، هناك أسباب كثيرة يمكنك إقناعي بها. ولكن، كيف يسعك أن تعرفي إن كان الطفل سيشكل مصدر سعادتي؟".

كررت أمي قائلة: "أعرف هذا يا كارين، بل أنا واثقة منه تماماً. إنني أبلغ الستين من عمري، وقد مررت بهذه التجربة من قبل. عرفت الكثير من الناس من مشارب الحياة كافة ؛ منهم الرجال ومنهم النساء، من أطباع وأنماط مختلفة، وعشت حياة طويلة يا عزيزتي، وعاشرت الكثير من الناس. وسامحيني على قولي هذا، فقد نلت حصتي من معرفة الرجال، اثنان منهم أحببتهما من كل قلبي، والدك ومات، ولا سيما والدك. والآن توفي مات، ومن يدري في أي بقاع الأرض يعيش والدك. إن ما أقصده الآن هو أنه عندما يحين الوقت، فإن أحباءنا يمضون في طريقهم".

ازدادت حالة صوتها سوءاً.

فسألتها مازحة لأحاول أن ألطف جو المحادثة: "ماذا؟ هل تخشين أن يتركك نايغل كما فعل غيره؟".

"آمل ألاّ يترك أياً منا. ولكن، من الأفضل أن نستعد للأسوأ".

بدت لهجتها موحية بالتشاؤم لدرجة أن الشكوك بدأت تساورني.

"ماذا تعنين بقولك إننا يجب أن نستعد للأسوأ يا أمي؟ هل تعرفين شيئاً لا أعرفه؟".

"لا تتفوهي بالسخافات. ليس هناك ما أعرفه، ولكنني أحاول فقط أن أذكرك بأنك يوماً ما قد تصادفين هذا الواقع. نعم، إن نايغل رجل طيب ويحبك. لقد أدركت هذا جيداً الليلة، ولكنه يتجنب تحمل المسؤولية. فالحياة بالنسبة إليه متعة ومرح. يقول إنه يريد أن يأكل ويشرب ويستمتع بحياته. ومن يمكنه أن يلومه؟ أليس هذا ما يريده الجميع؟ وبالمقابل، فالحضور إلى هذا العالم له ثمن، وهناك التزامات تترتب على الإنسان. فكل نفس نأخذه وكل رشفة ماء وكل قضمة خبز حق للجميع أيضاً. ويجب علينا أن نعطي كما نأخذ".

وجدت كلامها مجحفاً، فسارعت للفت نظرها إلى هذه الناحية وقلت: "لا تقولي هذا يا أمي. إن نايغل ينقذ حياة الناس كل يوم. وما يقدمه للبشرية أعظم بكثير مما أقدمه أنا أو أنت معاً".

لم تعرف ماذا يجب أن تقول، فتابعت أخيراً قائلة: "أنت محقة. فهو ينقذ

حياة أشخاص كثر فعلاً كل يوم، ولكن هذا عمله. لا تسيئي فهمي. فأنا لا أعتبره شخصاً عديم الأخلاق تدور حياته كلها حول الجشع وكسب المال، ولكن لماذا قد يمتنع رجل ينقذ حياة الناس كل يوم عن منح فرصة لطفله الذي من لحمه ودمه؟ ألأن هذا سيسبب له إزعاجاً؟ ألأنه لن يتمكن من الخروج في عطلات؟ إن نايغل معتاد على العيش من دون أي روابط تقيد حريته. طوال ثلاثة أعوام وأنتما تتواعدان وتخرجان معاً، ولكن كلاً منكما لا يزال يعيش في المكان نفسه. فأنت لم تنتقلي للعيش معه، ولم يؤْثر هو أن يعيش معك. ولكن، ماذا سيحدث عندما يبلغ الخمسين من عمره؟ ماذا إن وقع في غرام زميلة له تبلغ الثلاثين من عمرها وتركك ليذهب إليها؟".

"ماذا يسعني أن أفعل؟ سأواصل عيش حياتي وحسب".

"ليس هذا ما قصدته، بل أقصد أنك ستكونين قد بلغت الخامسة والأربعين؛ أي تجاوزت سنوات الإنجاب. ولكن، إن غير صديقك الوسيم المحترم رأيه، فسيظل لديه متسع من الوقت لينجب طفلاً من حبيبته الجديدة ذات الأعوام الثلاثين، أو أياً تكن من يختارها آنذاك. إن الحياة تعامل النساء بإجحاف يا كارين. يجب عليك أن تدركي هذه الحقيقة. ليست الحياة هي القاسية فقط، فالرجال قساة مثلها أيضاً. سأحكي لك قصة قريبة من سياق هذا الموضوع: هناك مكان يدعى كاتالهويوك يبعد ستين كيلومتراً عن قونية، ذهبت إليه مع والدك في زيارتي الثانية إلى تركيا. إنها مستعمرة يعود تاريخها إلى عشرة آلاف سنة. وتعتبر ربما أول مكان عاش فيه الناس حياة مستقرة. قبل عشرة آلاف سنة في كاتالهويوك، اعتادت النساء أن يسيطرن على كل مرافق الحياة. ولكن، ماذا حدث بعد ذلك؟ تغير الحال واستولى الرجال على كل شيء. لطالما جسدت النساء الحظ والوفرة والسعادة والخير والغموض، وهكذا هي الحياة. فعمل الرجال على تجريدنا من كل تلك الميزات على مدى السنوات عشرة الآلاف الأخيرة، ولكننا لا نزال نتمتّع بقدرة لا يستطيعون أن يسلبونا إياها مهما فعلوا، وهي إنجاب الأطفال، وامتياز جلب كائن بشري إلى هذا العالم؛ شرط ألاّ تكون ساعتنا البيولوجية قد توقفت. فإن تأخرنا، سلبتنا الحياة هذه الميزة. وحتى لو تمنيت إنجاب طفل عندئذ، فلن تتمكني من ذلك. أصغي إليّ يا كارين، أتمنى لك ولنايغل من كل قلبي أن تعيشا بسعادة حتى نهاية العمر. ولكن، ماذا إن لم يحصل هذا؟ ماذا إن أثبت توقعي المنذر بالشؤم أنه صحيح؟ ماذا إن انفصلت عن نايغل ووجدت أن الأوان قد فات على

إنجاب الأطفال؟".
لم أعرف ماذا أقول، فشجعها صمتي أكثر على المضي في حديثها.
"إن أردت أن تسترشدي برأيي في هذا الأمر، فيجب عليك أن تصغي إلى قلبك وليس إلى نايغل. من فضلك، لا تتسرعي يا كارين. انظري إليّ وحسب. إنني أتقدم في السن وكل من حولي يتخلون عني، ولكنني لا أعاني من مشكلة في ذلك، إذ لا تزالين موجودة من أجلي".
"وأنا لديّ أنت يا أمي".
فقالت لي بصوت عاطفي: "صحيح. ولكن الأمر ليس مماثلاً يا حبيبتي. فساعتي ستحين قبل ساعتك. ولن أبقى إلى جانبك إلى الأبد، وهذه حقيقة، وعندها ستبقين وحدك. قد يشاطرك نايغل أو أي رجل آخر غيره حياتك، ولكن إن أصبح لديك طفل... من فضلك يا كارين لا تفعلي هذا. احتفظي بهذا الطفل".
أخذت نفساً عميقاً وقلت: "حسناً يا أمي. سأفكّر في الموضوع".
"افعلي هذا. لا تلحقي الأذى بنفسك من أجل نايغل".
حاولت أن أضحك، ولكنني لم أستطع وقلت: "لا تقلقي يا أمي. لن أفعل هذا".
خيم الصمت علينا.
فقلت لأكسر جدار الصمت: "شكراً لك يا أمي. إنني أقدر بالفعل توجيهك لي".
قالت لي محاولة أن تضحك: "إذاً، القسوة تنجح في بعض الأحيان. آمل أن أكون قد نجحت في إقناع نايغل".
"من فضلك، لا تقولي لي إنك تشاجرت معه؟".
"انظري إلى نفسك كيف تدافعين فوراً عن حبيبك! ماذا يمكنني أن أقول لنايغل؟ لقد تصرف معي الرجل بمنتهى الأدب عندما دعاني إلى العشاء. وعندما تمكنت من فتح الموضوع معه، حاولت فقط أن أشرح له حسنات إنجاب الأطفال، فاكتفى بالاستماع إليّ ولم يقاطعني. ولم تنشب أي مشادة بيننا".
علقت وأنا واثقة مما حدث بينهما؛ من دون أن أكون موجودة: "لأنه لم يرد عليك. لا بد أنه أمضى وقتاً مريعاً طوال تلك الأمسية".
تمتمت من دون أدنى شعور بالندم: "إنه يستحق ذلك. آمل أن يكون كلامي قد أثر فيه وجعله يغير رأيه حول الموضوع".
"أنت عديمة الرحمة يا أمي".

"لست عديمة الرحمة، بل خبيرة وشجاعة بما يكفي لأدافع عن حياة حفيدي القادم".

فكّرت أن الشجاعة صفة يمكنني أن أصف بها والدي، الدرويش بويراز أفندي الذي تبع امرأة يحبها إلى بلد لا يعرفه.

فجأة، بدأت حديثاً آخر قائلة: "أمي، اليوم قابلت رجلاً كان صديقاً لوالدي، اسمه عزت أفندي. قال لي إنه يعرفك أيضاً".

"عزت؟ آه! إنه الجواهري. نعم، أتذكره. إنه ذلك الرجل النحيل عذب اللسان، ذو العينين العسليتين الجميلتين اللتين تنظران إلى جوهر الإنسان من الداخل. لقد جمعته بوالدك علاقة وثيقة؛ وكأنهما أخوان". صمتت قليلاً ثم تابعت: "هل ذكر والدك؟ متى كانت آخر مرة رآه فيها؟".

بدا من صوتها أن التفاؤل قد تسلل إلى قلبها بشكل غامض.

"تحدث عن والدي، ولكنه قال إنه لم يره منذ سنوات".

"هذا يفاجئني؛ فقد كانا مقربين جداً". وتلاشى التفاؤل من صوتها بسرعة كما ظهر وقالت: "ظننت أن والدك قد ذهب لزيارته. كان عزت رجلاً صالحاً، ولكنه في تلك الأيام اعترض على فكرة سفر والدك بصحبتي".

"نعم، لقد شعرت بذلك أيضاً".

أطلقت أمي ضحكة قصيرة وقالت: "ألا يزال يفكر بالطريقة نفسها؟".

"أظن ذلك. إنه لا يزال لا يدرك كيف تمكّن صديقه من التخلي عن حب الله من أجل حب امرأة".

كررت أمي كلامي بسخرية قائلة: "التخلي عن حب الله من أجل حب امرأة! ليس هذا ما حدث بالضبط. إذ لم يتخل والدك قط عن حب الله. ولم يكن الحب الذي شعر به تجاهي أكثر من جزء بسيط من حبه لله".

رنت كلمات عزت أفندي في أذني عندما قال: للوصول إلى الحب الأبدي، يجب على المرء أن يعيش الحب الفاني. ولكنني لم أكرر تلك الكلمات لأمي. وبدلاً من ذلك، اعترضت قائلة: "لا يمكنك أن تكوني واثقة من هذا".

"بل يمكنني ذلك في الواقع يا حبيبتي، لأن والدك هو من قال لي هذا بنفسه".

"هل قال لك إن حبك ليس مهماً، وإنه يستعد فقط لحبه الكبير لله؟".

ضحكت أمي بعذوبة وقالت: "ليس بالضبط، ولكنه قال شيئاً من هذا القبيل. بعد رومي، هناك شاعر شعبي أحبه والدك كثيراً. إنه ذلك الشاعر الأناضولي الصوفي يونس إمري. فلطالما ردد أحد أبياته الشعرية، وهو البيت الذي يقول فيه: حبنا للمخلوقات نابع من حبنا للخالق. وبعد أن كرر

والدك ذلك الاقتباس، أضاف قائلاً: وأنا أحبك بسبب حبي اللانهائي لله. ما يجب عليك أن تفهميه هو أن والدك الدرويش لم يتخل عن معتقداته من أجل حبي قط".

"ولكنه ترك شيخه وجماعته وسافر معك".

"لقد سافر معي لأنه لم يتحل في تلك الأيام بالقوة الكافية ليتغلب على رغباته. إن هذا هو تفسير والدك بالطبع. نعم، أحبني والدك وأحببته، ولكن حبّنا لم يعد كافياً، أو ربما خف لهيبه وانطفأت شعلته. وفي كلتا الحالتين، لم يعد مهتماً بالحب أو العائلة أو بحياته في لندن، وبدأ بالبحث عن شيء آخر، فحالفه الحظ، وعثر على توأم روحه شاه نسيم. نجحنا في الحياة معاً لبعض الوقت كما تعرفين، ولكنني لم أعد أقوى على احتمال تلك الحياة، فأصبح والدك مجبراً مرة أخرى على اتخاذ قرار مصيري، وكان ذاك القرار مختلفاً اختلافاً كلياً عن القرار الذي اتخذه في قونية. وفي نهاية المطاف، تخلى عن حبه الصغير وعاد إلى حبه الكبير".

قلت متعمدة: "ذهب مع شاه نسيم. أقصد أنه دار دورة كاملة، وانتهى به المطاف عائداً إلى الحياة التي تخلى عنها في قونية".

"في البداية، شكّل شاه نسيم الطريق الذي يؤدي إلى الله. ولكن، من المؤكد أن والدك نضج في ما بعد، لذا فهو على الأرجح لم يبقَ بحاجة إلى شاه نسيم لوقت طويل".

شعرت بالحيرة من كلامها. وبالرغم من ذلك، إن ما حيرني أكثر هو معرفة أمي الموسعة بهذه الأشياء.

"كيف تعرفين كل هذه المعلومات يا أمي؟".

"ما الذي تعنينه بذلك؟ لقد عشت مع صوفي لأكثر من ثلاث عشرة سنة. في الواقع، ينبغي عليك أنت أيضاً أن تعرفي الكثير عن هذه الأمور. فقد جرت مناقشات كثيرة عنها في حضورك".

"لست أدري. أظن أنني نسيت، ولكن من المؤكد أن الذكريات تعود إليّ هنا. فهناك أحلام تراودني عن بعضها".

قالت وهي تبدو قلقة: "هل تراودك أحلام؟ أي نوع من الأحلام؟".

خطر ببالي أن أخبرها عن كل شيء حدث معي منذ أن وصلت إلى قونية، وعن الخاتم الذي أعطاني إياه ذلك الرجل، وعن أحلامي، وعن شمس ورومي وكيميا وعلاء الدين... ربما إن أخبرتها فسأشعر بالراحة. ولكنني خشيت أن تُصاب المسكينة بالهلع إن أخبرتها أنني أعاني من الكوابيس أو أمشي في نومي. كلا، يتوجب عليّ أن أبقي فمي مغلقاً مع كل من أمي

ونايغل؛ إلى أن تنحل تلك الألغاز كلها.
"ليس الأمر بتلك الأهمية. فأنا أحلم بدراويش يؤدون رقصاً دائرياً، ومجموعات من الدراويش، وأشياء من هذا القبيل".
قالت لي بصوت أكثر هدوءاً: "يبدو لي أنها صدمة ثقافية. لا تدعي هذا يقلقك يا عزيزتي، وابتعدي عن عزت أفندي. إنه رجل صالح، هذا مؤكد، ولكن ما سيقوله لك لن يفعل شيئاً سوى إرباكك. إذاً، ستعودين في غضون ثلاثة أيام، أليس كذلك؟".
"هل قال لك نايغل هذا؟".
"نعم. عندما لا تخبرني ابنتي بما يدور في حياتها، يتوجب عليّ أن أعرف أخبارها من صديقها... حسناً، إنني أمزح. إنني مسرورة لأنك ستعودين. فأنا أفتقدك كثيراً منذ أن غادرت؛ وخاصة مع كل ما حدث. أصغي إليّ، حالما تعودين إلى هنا سنتناول الطعام معاً. لا أريد أن أسمع منك أية أعذار على شاكلة: يجب عليّ أن أقابل صديقي. يمكنه أن يأتي أيضاً إن أراد ذلك. سنتناول وجبة شهية معاً. سأعد لكما أحد تلك الأطباق اليابانية التي تحبانها".
"وحساء الميزو؟".
"بالطبع. فلن تكتمل الوجبة من دونه. وبعدها سأعد وجبة كرات الأرز اليابانية...".
"أي واحدة هي؟ أتعنين تلك التي حاولت أن أعدها فأخفقت؟".
ضحكت وقالت: "نعم، هي بعينها. سوف نتناول بعض الساكي الياباني معها، أقصد أنت ونايغل فقط".
"حسناً، طالما أنك تعدينني بألاّ تفتحي موضوع الأطفال معه مجدداً. دعيني أتولى تلك المسألة بنفسي".
استطعت أن ألاحظ أن كلامي لم يبهجها، ولكنها أدركت ألاّ خيار آخر لديها، فقالت بفتور: "كما تشائين يا كارين. فأنت تدركين أنني لطالما وثقت بك".

"الموت لا يعني الفناء"
ظل صوت أمي يرن في أذني وأنا أنهي المكالمة. فقد أصرت على تكرار عبارة: "إن الحياة تعامل النساء بقسوة يا كارين". من المثير للاستغراب أنني توصلت للاستنتاجات نفسها تقريباً قبل وقت طويل. فقد بدا المستقبل واضحاً أمامي كعين الشمس. ولكن، ماذا عن الضعف الذي أعاني منه تجاه نايغل لأسباب لا يمكنني أن أدركها؟ لقد أصابت أمي عين الصواب عندما قالت هذا أيضاً. فلطالما وجدت سعادة كبيرة معه عندما نمشي باسترخاء في الحديقة أو نصغي للموسيقى أو نخرج لتناول العشاء أو نطبخ معاً أو نلاطف بعضنا... ولم أكن أريد أن أخسر أياً من هذه الأشياء الممتعة.
كنت بين الحين والآخر أصادف زميلاته الطبيبات، بعضهن أجمل مني، وبعضهن أصغر سناً، وبعضهنّ الآخر أكثر ذكاء. لا يسعني أن أنكر أن الغيرة تملكتني حين رأيتهن. فقد اعتاد نايغل أن يمضي معظم أيامه معهن. لا بد أنني سأكذب على نفسي إن ظننت أن أياً منهن ليست منجذبة إليه. وبالمقابل، أدركت أن انجذابه إليهن يسهل حدوثه. وقد خطر ببالي أنني قد أبادر يوماً ما إلى ترك نايغل؛ فهذا احتمال وارد. فمشاعر الناس تتغير. جميعنا قادرون على الوقوع في حب شخص لا نتوقع الوقوع في حبه، ولكن ما يهم في الأمر هو أن نتمكن من النهوض على أقدامنا من جديد. إن النساء يتقدمن في السن، وهذا ما يجعل مسألة إنجاب الأولاد برمتها على الأرجح تلعب دوراً مهماً في حياتهن. لا بد أن هذا هو ما قصدته والدتي في حديثها. وبالرغم من أنها لم تعبر عن هذا بكلمات كثيرة، إلاّ أنها ربما كانت ستعاني من صعوبة أكبر في التأقلم مع هجران والدي لها لولا وجودي في حياتها. لا يمكن لحبيب واحد أن يشكل مصدر سعادتنا لفترات طويلة من الزمن؛ ما لم نتحدث بالطبع عن حب الدراويش؛ إذ إن نار الشغف تبقى متقدة فيهم لأنهم لا ينالون كفايتهم منها أبداً، فهم لا يصلون إلى الغرض من حبهم بأي معنى من المعاني، بل يستمرون بالسعي وراء هدفهم. وكلما اقتربوا منه، ازداد بعداً عنهم. ولكن هذا قد لا يكون صحيحاً على الإطلاق. وقد يكون هذان الرأيان مجرد مفهومين مختلفين للحب. فعندما يتعلق الأمر بالحب، فحالة الإشباع بالنسبة إليهم روحية بشكل كامل، ولكن هذا لا يجعلها بالضرورة أكثر تجرداً. وعندما أفكر في الطريقة التي تركنا بها والدي من دون أن يشعر بالحاجة إلى النظر إلى الوراء، أدرك أنه قد تأثر بالتأكيد بمشاعر قوية وحقيقية

جداً؛ فما عشقه هو الذات الإلهية. إن الجسد المادي هو ما يقع في الحب، لذا فالتضحية بالذات تنطوي أيضاً ضمن مسؤوليته. أتذكر أن والدي احتفل ذات مرة بذكرى وفاة رومي، فأصابني الارتباك لأنني لم أفهم ما الذي يجعل الموت مناسبة للاحتفال، فقال لي حينها: "بالنسبة إلينا، الموت لا يعني الفناء يا ابنتي".

وجدت صعوبة في استيعاب كلامه حينها. وتساءلت إن كنت فعلاً أريد أن أستوعبه، ولكن الوقت قد حان لذلك حسبما أعتقد. فهناك شعور غريب وغير مألوف بدأ يكتنفني منذ أن وصلت إلى قونية. ليس شعوراً سلبياً بالتحديد؛ إذ لم يعد الخوف يتملكني بالرغم من أحلامي وكوابيسي المتكررة. ومع ذلك، هناك مزيج من الانفعال والفضول يسيطر عليّ، ولولاه لا أظن أنني كنت سأبقى في قونية بعد كل ما مررت به. وبالإضافة إلى ذلك، أنا لم أستعد جواز سفري بعد.

نهضت ونظري مثبت بطريقة لاشعورية على السرير. وبالرغم من أنني غفوت لمدة قصيرة، إلا أن النوم أفادني كثيراً، فقد شعرت بالانتعاش. وفجأة، تدفقت تلك الرائحة الجميلة مرة أخرى، وتبعها نسيم عذب ومنعش. أردت أن أستنشق بعض الهواء المنعش، لذا خرجت إلى الشرفة، وأخذت نفساً عميقاً. تحول نظري إلى نافورة الوضوء حيث رأيت شمس واقفاً، فلم أجد أحداً هناك. وبدت الفسحة الصغيرة أمام المسجد مهجورة كلياً. ازدادت الرياح سرعة فأصاب الهواء البارد وجهي، فارتجفت ورفعت نظري إلى السماء متسائلة إن كانت ستمطر، ولكن السماء كانت خالية من السحب. وعلى العكس من ذلك، تلألأت مئات النجوم الكبيرة والصغيرة بنعومة في السماء الزرقاء الداكنة وكأنها عيون تحدق. وعندما عاودت النظر إلى المسجد مرة أخرى، رأيت شيئاً ظننته في البداية كلباً مشرداً مسكيناً ومنبوذاً يحاول اللجوء إلى ظل النافورة. وعندما أمعنت النظر أكثر، أدركت أنه صبي صغير. ما الذي يفعله في الشارع في هذا الوقت المتأخر من الليل؟ لا بد أنه لاحظني وأنا أراقبه لأنه تراجع مبتعداً عن الظل، ودخل دائرة الضوء المحيطة بالمسجد. وعندئذ ميزت الجبهة العريضة والشعر الأشقر المجعد، وشعرت بوخزة حزن. فقد أدركت أنه صديقي صني، ولكن صني لم يكن يعرف شيئاً عن قونية. ما الذي يفعله هنا؟ من الواضح أن عقلي بدأ يمارس الألاعيب معي بالرغم من أن الصبي بدا لي حقيقياً جداً لدرجة أنني لم أستطع أن أمنع نفسي من التلويح لصديقي الخيالي من أيام الطفولة.

أشار إليّ بدوره، فشعرت أنني حائرة. ففي اليوم الذي سبق هذا اليوم تعرضت لهجوم، وتحدثت المفتشة زينب عن عصابة من المتعصبين الذين يجوبون الشوارع ويقتلون الناس ليطبقوا أحكام الشريعة. ولهذا، أدركت أن مغادرة الفندق محض جنون. ولكن، من ناحية أخرى، ظل صني واقفاً بانتظاري. تذكرت ما قاله لي في حلمي: "طلبت مني ألاّ أتحرّك من مكاني لأنك ستعودين حالاً. وأنا بانتظارك منذ ذلك اليوم". مهما حدث، لم يطاوعني قلبي على ترك صديق طفولتي وحده هناك. لذا، أشرت إليه أن ينتظر، ثم دخلت غرفتي. من حسن حظي أنني ما زلت أتمتع بتعقّل كافٍ كي لا أخرج بملابس النوم. فارتديت كنزتي وسروالي وانتعلت حذائي وأسرعت خارجة من الغرفة. وبدلاً من أن أنتظر المصعد، نزلت على الدرج؛ كل درجتين معاً.

وحالما وصلت إلى الردهة، سررت حين وجدت موظف الاستقبال المتطفل مستغرقاً في النوم على مكتبه. حاولت ألاّ أحدث أي صوت وأنا أتسلل من المدخل الأمامي. ووجدت صني واقفاً أمام النافورة وحيداً حيث رأيت شمس من قبل. أضفى عليه الضوء الأصفر الخافت مظهراً دراماتيكياً وكأنه طفل مهجور ومتخلى عنه. أردت أن أتوجه إليه بسرعة وأعانقه بحنان. ولكن، بينما كنت أخطو إلى الشارع، وصلت سيارة جمع القمامة من دون سابق إنذار. تراجعت إلى الوراء مرتعبة، بينما مرت الشاحنة من أمامي محدثة صوت هدير مرتفعاً. وعندما أوشكت أن أجتاز الشارع مرة أخرى، لاحظت أن صني لم يعد هناك. نظرت حولي، ولكنني لم أره في أي مكان. توجهت إلى الرصيف الآخر على أمل أن أجده خلف النافورة، ولكنني لم أجده هناك أيضاً. بحثت عنه في أنحاء حديقة مسجد السلطان سليم، ولكنني وجدتها مهجورة، وبدت المنطقة بأسرها معزولة ولا أثر لمخلوق فيها. تساءلت إن كنت أتخيل أشياء غير موجودة. وفجأة، أدركت سخافة تفكيري الجنوني؛ أي أن أتخيل أنني رأيت صديقي الخيالي. يا لها من فكرة تناسب امرأة معتوهة مثلي! سررت لأن موظف الاستقبال لم يرني وأنا أخرج. فلو رآني، لظن أنني مجنونة. ذكرت نفسي أنه لا يزال بوسعه أن يظنّ بي ذلك، وأن هناك إمكانية بأن يلاحظني وأنا في طريق العودة. فكرت للحظة في عدم العودة على الإطلاق. ولكن، ماذا يسعني أن أفعل؟ هل أجلس على أحد الكراسي أمام المسجد طوال الليل؟ وماذا إن رآني؟ خطر ببالي أن أقول له إنني عجزت عن النوم فخرجت لأتمشى، ولكن رأيه لم يكن يهمني على أية حال. وبينما كنت أتوجه عائدة إلى الفندق، سمعت مرة أخرى

ترنيمة الأطفال التي اعتدت أن أسمعها في طفولتي. سمعت الموسيقى أولاً ثم الكلمات بوضوح.

هم همهم هناك درويش
فتح الدرويش مأوى للدراويش
تنانيره الواسعة تتبعثر منها الأسرار
ولكن، لا أحد يعرف عنها شيئاً
هم همهم هناك درويش
رأسه يرقى إلى السماء العالية
ولحيته تلامس الأرض من تحته
ومن شفتيه تتناثر الأسرار
ولكن، لا أحد يستطيع أن يسمعها.

تردد صدى الصوت بين جدران المسجد الأثري الحجرية. نظرت إلى الاتجاه الذي أتى منه الصوت، فرأيت صني واقفاً هناك في بقعة ظليلة على الرصيف المقابل لأحد القبور على بعد خمسين متراً إلى يساري. كيف حدث أنني لم ألاحظ وجود ذلك القبر من قبل؟ لا بأس بذلك، المهم أنني عثرت عليه. ناديته قائلة: "ابق مكانك يا صني، انتظرني". ولكنه تجاهلني، وراح يجري في الشارع، وكأنه نسي أنه أشار إليّ لأحضر لمقابلته. فكرت في أنه لا مجال للتوقف الآن، وواصلت الجري في أعقابه. حالما عبر صني الشارع، خفف سرعته، وبدأ يمشي ببطء على طول جدار قصير متجهاً نحو أحد الأبواب. وعندما تفحصت الباب عن قرب، رأيت أنه الباب الأزرق نفسه الذي ظهر على جدار غرفتي في الفندق. لم يكن هناك ما يدل على المكان الذي يؤدي إليه الباب، ولكن الغموض الذي اكتنفه لم يردع صني عن الدخول. فقد توقف للحظة لينظر إليّ، ثم دخل بدون سابق إنذار. أدركت أنه ليس من الحكمة أن أعبر ذلك الباب مرة أخرى؛ ولا سيما بعد ما حدث معي في المرة الماضية. ومع ذلك، لم يكن من الحكمة أن أطارد صديق طفولتي في المقام الأول في هذا الوقت المتأخر من الليل. توجب عليّ أن أذكر نفسي أنه بخلاف المرة الماضية التي التقينا فيها فهو لم يخذلني قط. وبالرغم من أنني تركته عند البركة من دون أن أبحث عنه طوال تلك السنوات، إلا أنه ليس من المنطقي أن أخسره مرة أخرى بعد أن عثرت عليه الآن.

تسللت عبر الباب خلف صني. وعندما خطوت أول خطوة، أصابتني الدهشة من شدة البرد، ولدى سماعي صوت العواء الذي بدا أشبه بصوت

رياح تشق إحدى الغابات. خطوت خطوة أخرى بسرعة، ووجدت نفسي داخل مقبرة المولوية التي تدعى مكان الصامتين.
بدا كل شيء في عالم الأموات محاطاً باللون الأزرق الثلجي نفسه؛ كالأشجار وشواهد القبور والزهور على القبور. جعلني هذا أرتجف. ما الذي دفع صني للدخول إلى هذه المقبرة؟ وجدت طريقاً طويلاً وضيقاً يمتد أمامي، وهناك قبور على كلا جانبيه. فانطلقت في طريقي وأنا أنظر حولي على أمل أن أرى صني، ولكنني لاحظت بدلاً من ذلك ثلاثة أشخاص إلى يساري. في البداية، ظننتهم جذوع أشجار نمت معاً، والتفت حول بعضها مشكلة كتلة كبيرة. ولكنني بعد ذلك لاحظت وجوههم والهدوء في عيونهم وأفواههم الصامتة... لا بد أنهم الإخوة الثلاثة الذين تحدث عنهم مينان، أولئك الذين حضروا ليروا رومي وعندما سمعوا بموته أرادوا أن يغمضوا عيونهم إلى الأبد في هذا المكان. إذاً، أنا موجودة في مقبرة الصالحين الثلاثة؛ تلك المقبرة التي سميت على اسم أولئك الأشقاء الثلاثة القادمين من خراسان. وعندما التفت لأنظر إلى القبور الأخرى، انكمشت من شدّة الرعب. فقد اكتشفت أن الأشكال السوداء التي ظننتها قبوراً هي في الواقع سكان القبور أنفسهم؛ منهم رجال كبار في السن وجوههم مليئة بالتجاعيد، ونساء في منتصف العمر، وفتيان صغار لا تزال حيويتهم المكبوتة ظاهرة، وفتيات دلالهن متجمد على وجوههن، ورضع ماتوا قبل أن يتعلموا الابتسام... استولى عليّ الرعب لدى رؤيتي هذه الأشكال، فأردت في تلك اللحظة أن أنسى كل ما يتعلق بصني وألوذ بالفرار، ولكنني لاحظت ذلك السلام العميق الذي ارتسم على وجوه الموتى، فبقيت واقفة في مكاني، وغمرني شعور ساحق بأنني نفضت عني استبداد الموت بالنظر إليهم. إذ لم أعد أنظر إلى الموت كما لو أنه فاجعة، ولكن كما لو أنه جزء من دورة الحياة؛ كالدورة التي تمر بها شجيرة الورد كل السنة، بدءاً من التبرعم ومروراً بالإزهار والذبول ووصولاً إلى تساقط الأوراق، ولكنها تزهر من جديد في العام القادم. وفي بيت الصمت هذا، شعرت أنني مجرد غصن من أغصان شجرة عائلة البشرية. وعندئذ، سمعت صوت همس وتمتمة كلمات غامضة. وسمع سكان المقبرة كلهم الصوت كما سمعته أنا. وفجأة، خفقت الرياح في المقبرة، وانغمس الليل الأزرق الثلجي في ظلام دامس، وأنّت الأشجار وكأن الرياح تعصف بها، واهتزت الأرض محدثة صوت تحطم، وانفتحت القبور الواحد تلو الآخر عندما بدأ الصامتون ينسحبون بلطف إلى أماكنهم؛ فقد أخافهم ذلك الهمس المريب. التفت لأرى المكان الذي صدر

منه الصوت فرأيت صني واقفاً خلفي وظهره نحوي. فقد توقف تحت شجرة ضخمة، وراح يمعن النظر نحو شاهدة قبر لم يعد النقش المكتوب عليها مقروءاً بفعل مضي مئات السنين عليها. ظل صني يهمس. ترى، هل يوجّه كلامه لشاهدة القبر؟ تقدمت منه بخطوات متئدة. وبينما كنت أفعل ذلك، بدأت شاهدة القبر تنكمش وجسم صني يكبر. سألته بصوت هادئ وجبان: "ما الذي تفعله يا صني؟".

هذه المرة لم يبتعد، بل التفت نحوي بهدوء. وفجأة، لم يعد صني بل صار شمس.

"تعالي إلى هنا يا كيميا. إنني بانتظارك".

ظل يتمتع بالوقاحة الكافية لكي يدعوني باسم كيميا.

وبخته قائلة: "إنك تزعج الموتى. لا ينبغي أن تتحدث في مكان الصمت".

قال لي بابتسامة تقدير: "أحسنت يا كيميا. إنك تتعلمين عاداتنا. ومع ذلك، لا يزال ينقصك الكثير لتتعلميه. ليس صوتي ما دفعهم للانسحاب، وإنّما الخوف الذي ملأ قلبك". ومد يده نحو القبر وقال: "لقد شعروا بالخزي من الخوف الذي تسبب به وجودهم لك، لذا عادوا إلى الأرض نفسها التي خلق منها آدم".

كلما قلت شيئاً، وجد له جواباً جاهزاً. لذا، بدلاً من أن أستمر بمجادلته أكثر من ذلك، سألته: "أين صني؟".

رمقني بنظرة كئيبة طويلة، وسألني بخيبة أمل قائلاً: "ما زلت غير قادرة على الفهم؛ أنا صني. إنني معك منذ ولادتك. والدك وأنت وأنا...".

سرت رعشة باردة في جسدي، وصحت قائلة: "هذه كذبة! أنت لست صني. لا يمكنك أبداً أن تكون صديقي. فصني لا يقدم على ارتكاب جريمة قتل".

رمقني بنظرة شخص مجروح الشعور، وقال: "كيف تعرفين أنني قتلت؟".

قلت له لأمنحه جرعة من الحقيقة: "رأيتك بأم عيني وأنت تدقّ عنق تلك الفتاة المسكينة وكأنه غصن شجرة".

وضع يده اليسرى على شاهدة القبر السوداء وأعلن قائلاً: "أنت تظنين أن كوابيسك حقيقة، ولكن الحقيقة هي الكابوس. لم أقتل كيميا، بل ما قتلها هو خطيئتها".

كيف تجرأ أن ينظر إلى عيني وينكر جريمته!

قلت له بقسوة: "هذا غريب! لم أسمع في حياتي بخطيئة تقتل صاحبها. كيف يحدث هذا؟".

بدأ يشرح لي بصبر قائلاً: "لقد ذهبت إلى حيث أمرتها ألاّ تذهب، وفعلت

ما أمرتها ألاّ تفعله، وقابلت شخصاً أمرتها ألاّ تقابله. كل ما فعلته هو أنني نظرت إلى عينيها باحتقار، وحدقت إلى وجهها بعيني اليائستين الحزينتين، ولكن الفتاة المسكينة أمسكت عنقها بيديها وسقطت على الأرض. لم أتمن الموت لكيميا، ولم أكن أريد أن أخسرها. لم أكن أريد لنورها أن ينطفئ، ولكن ذلك كله مقدر بيد الله".

لم أعد أقوى على احتمال كلامه فقلت: "إياك أن تجرؤ على قول هذا. فقد قتلت تلك الفتاة بيديك لأنك استسلمت لغضبك. والآن تطلب مساعدتي".

قال لي بنبرة حاسمة: "إنني لا أطلب مساعدتك. لِمَ أطلبها؟".

"لكي تريح ضميرك".

نظر إليّ بغرور وقال: "إن كان هناك ما يدعى بالضمير، فأنا ذلك الضمير من الرأس وحتى القدم. إن رجلاً مخلوقاً من ضمير ليس بحاجة إلى أن يريح ضميره".

"إن كان هذا صحيحاً، فلماذا أعطيتني الخاتم؟".

قال وهو يهز رأسه: "إنك لا تحاولين حتى أن تفهميني".

"إذاً، علِّمني. ما الذي يجب عليّ أن أعرفه؟".

أجاب بنبرة حاسمة: "الحقيقة".

رددت عليه بحدة قائلة: "إنك تواظب على القول إنه يجب عليّ معرفة الحقيقة. هيا، أخبرني إياها، دعني أعرفها. ما هي الحقيقة؟".

توقعت منه أن يستهل مجدداً حديثه المعتاد عن أن الحقيقة ليست سهلة، لكنّه قال وهو يبدو خائب الأمل: "كيف يسعني أن أشرح لك هذا عندما تستخدمين للفهم المنطق العقلاني وحده. لقد توج المنطق نفسه على عقلك ملكاً طاغية. مهما قلت لك، فإنك تخفقين في فهمه. ومهما قلت، فإنك تبحثين تحته عن معان خفية، ثم توجهين إليّ اللوم".

"ولكنني رأيت ما حدث بأم عيني".

"ما ترينه بعينيك ليس الحقيقة دائماً".

تجاهلني ورفع رأسه نحو ضريح رومي الذي بدا ممتداً كحجر يَشَبٍ ضخم خلف أسوار المقبرة المنخفضة.

"كان هذا المكان في الماضي حديقة ورود. ولو لم يصبح السيد مولانا، لما بقيت حديقة الورود هنا حتى هذه اللحظة، ولشيد أولئك الناس الجشعون أبنيتهم ذات الطوابق المتعددة مكانها قبل وقت طويل، ولرقد السيد بسلام في أحد هذه القبور القديمة التي يبلغ عمرها قروناً. أما في الوضع الحالي،

فلا يزال لمولانا تأثير على أبناء آدم وكأنه لم يمت قط. إن قصائده تدفئ الأرواح، وكلماته تلين القلوب القاسية، ونوره يضيء الطريق كنجم ساطع لأولئك الذين تاهوا في الظلام وهم في رحلة بحثهم عن الحقيقة. يقال عن رومي إنه كتب قصائد مؤثرة لامست قلوب الكثير من البشر. ومقارنة مع هذه الحقيقة، الشر والقسوة وحتى الجريمة تفقد كل معانيها".

راح يتأمل الضريح بفخر مهندس معماري ينظر إلى تحفته الفنية.

"كلا، إنها لا تفقد معانيها. فالشر يبقى شراً، والجريمة تبقى جريمة؛ حتى لو ارتكبت باسم الحب. لا يمكنك أن تحقق أهدافاً خيرة من خلال فعل الشر".

"من قال شيئاً عن ذلك؟ يكفينا أن نقدر قيمة الحياة التي نعيشها الآن".

"إن الشر ليس شرطاً أساسياً لتقدير حياة الإنسان مهما بدت تلك الحياة مهمة".

قال لي مؤكداً: "بل إنه كذلك. فعندما لا يكون هناك شر، لا يستطيع الإنسان أن يميز الخير. إننا نملك كلتا الصفتين داخلنا. لا يمكننا أن نحدد إن كان الخير هو المثمر أم الشر. ففي بعض الأحيان، قد نكسب من عمل شر واحد أكثر من آلاف أعمال الخير".

تراجعت خطوة إلى الوراء وأنا أنظر إليه وقد رسمت على وجهي ابتسامة ازدراء.

"إذاً، فالشر الذي ارتكبته، ارتكبته من أجل رومي، أليس كذلك؟".

نظر إليّ بشفقة وقال: "سواء أكان شراً أم خيراً، أياً يكن ما فعلته، فقد فعلته من أجل الحب وليس من أجل السيد".

"أليس الأمر مماثلاً؟".

"كلا. إن رحلة الحب تنطلق بشخص واحد. وعندما يعثر المرء على من يحبّه، يمشي الاثنان جنباً إلى جنب لبعض الوقت، ولكن في النهاية نصل إلى آخر الطريق وحدنا من جديد. فما يبدأ بنا، ينتهي بنا".

"ولكن رومي لم يشاطرك هذه الرؤية. فقد كتب لك الكثير من القصائد وهو في غاية البهجة والسرور. ما الذي قلته له بالضبط خلال تلك الأيام التي بقيتما فيها معتكفين وحدكما في الغرفة بعد المرة الأولى التي التقيتما فيها في المكان الذي يدعى مرج البحرين؟ ما الذي قلته له لتجعله يبدأ بكتابة القصائد الشعرية؟".

"لم أتفوه بحرف، بل جلست وإياه صامتين؛ فاكتشف سري بالرغم من صمتي، ووجد أن النار التي تحترق داخله تنعكس على مرآة روحي. لست

أنا من أدخلت السرور إلى قلبه، بل النار التي تأجج لهيبها داخله. ظن الجميع أنها تحترق بنوري أنا، ولكنهم ارتكبوا خطأ. فقد احترق رومي بنيران قلبه. أما أنا، فلم أفعل شيئاً سوى إذكاء تلك النيران".

استطعت أن أشعر برهبتي منه تتسرب مبتعدة وهو يشرح لي هذه الأشياء، وتطفو مع مشاعره التي لا حدّ لها، ولكنني عندئذ رأيت وجه كيميا، فاستجمعت كل غضبي لأحارب افتتاني بالرجل الغريب.

قاطعته وسألته قائلة: "بقتل كيميا؟! هل أذكيت تلك النار بسرقة حياة فتاة صغيرة؟".

بدت عيناه متلألئتين بالدموع، وظننت أنني رأيت لحيته ترتجف.

قال: "ليس بقتل كيميا، بل بقتلي نفسي".

حدقت إليه بعينين خاليتين من التعبير.

"هل قتلت نفسك؟".

وبينما كان على وشك أن يجيب عن سؤالي، حول نظره فجأة إلى الأعلى. فقد استولى شيء ما على انتباهه. تبعت نظرته محاولة أن أعرف ما يبهر بصره هكذا، فتدفق نور ساطع نحونا وكأن نجماً من السماء قد انفجر وهوى نحو الأرض. همس بإيجاز قائلاً: "عندما تشرق شمس العالم الدنيوي، تغيب شمس عالم الأرواح". وبدأت تحل محل السماء المظلمة سماء زرقاء يسطع فيها ضوء الشمس.

"عار الدرويش هزمته كراهيته"

طلع الصباح، فوجدت نفسي واقفة بين قبر حفر حديثاً لطفل توفي مؤخراً، وبين شاهدة قبر سوداء مهترئة عمرها ألف سنة. وبينما بدأ ضوء شمس الصباح يتسلل من بين الغيوم الأرجوانية، وقفت وأنا لا أزال أحاول أن أكتشف ما حدث معي. لم أتعرض لأذى، ولم يهاجمني أحد أو يسرق مني شيئاً هذه المرة. ولكن، ما الذي كنت أفعله هنا؟ أحقاً رأيت صني، وأجريت ذلك الحوار الغريب مع شمس؟ وماذا عن جثث الموتى الذين رأيتهم تحت الضوء الأزرق البارد الذي تسلل إلى السطح وقد غطاهم الطين كالأكفان؟ أعدت شريط الأحداث التي مرت بي إلى الوراء وأنا أشق طريقي عبر المقبرة بين أشجار السرو دائمة الخضرة، إلى أن اتضح لي الأمر في نهاية المطاف. فقد بدأت على الأرجح أمشي في نومي من جديد، وها قد عدت مجدداً للقيام بأمر لم أعد أقوم به منذ طفولتي. خطر ببالي أن الأوان قد آن لكي أقوم بزيارة لطبيبنا النفسي المحبوب أوليفر. لم تكن هذه أول مرة أسافر فيها إلى خارج البلاد للعمل. وهكذا، فقد عرضت عليّ رشىً وتعرضت للتهديد مراراً، ولكنني لم أمرّ من قبل بمثل هذه الأحداث الغريبة والمرعبة. إن استمر الوضع على هذا المنوال، فما الذي يجعلني أصر على الانتظار حتى كتابة تقريري؟ أصاب نايغل عين الصواب. أدركت أنه ينبغي عليّ أن أستقل أول طائرة عائدة إلى لندن. ما الذي تبقى هنا لأحاول اكتشافه؟ لم أكن محققة، ولم يكن لديّ فريق من الشرطة المسلحة تحت تصرفي كالمفتشة زينب. وليست مسؤوليتي أن ألقي الضوء على التناقضات الدقيقة في هذه القضية، أو أن أكتشف دليلاً يثبت تورط سيرهاد وكافيت. ومع ذلك، واصلت البحث وتنظيم الأدلة وأخذ إفادات الشهود وكتابة التقارير... لم أقلل من أهمية الاعتقالات التي خططت المفتشة زينب لها في الليلة الماضية. بل على العكس من ذلك، تملكني الفضول لمعرفة ما نجم عن ذلك؛ بالرغم من أنه لا يشكل سبباً كافياً لبقائي. لا بد من وجود سبب آخر سواء أكان اعتقاداً لا شعورياً بأنّ هذه المدينة تخفي سر اختفاء والدي، أو مجرد فضول تملكني حول الخاتم، أو حتى احتمال التوصل إلى الحقيقة المطلقة التي تحدث عنها شمس. ولكنني لم أكن مسلمة أو متصوفة تحاول أن تغسل يديها من العالم كما فعل والدي، أو حتى امرأة متدينة بالفعل. أما نايغل، فلطالما اعتبر نفسه بروتستانتياً بالرغم من أنه لم يبدِ الكثير من الاهتمام بموضوع الدين. فقد

امتلأت حياته اليومية بما يكفي من المشاغل لدرجة تمنعه من القلق حول الشؤون الدينية. ولكن، ماذا عني أنا؟ لم أكن واثقة فعلاً. فلو أن والدي ووالدتي لم يمضيا معظم وقتهما بمناقشة هذه المواضيع، لما أبديت أي اهتمام بها على الإطلاق. بصراحة، لم أبدِ أي اهتمام بها إلى أن وصلت إلى هنا. أم إنني كنت أخدع نفسي؟ ترى، هل يعقل أنني تأثرت بكل نقاشاتهما؟ ربما لم أزعج نفسي بالتفكير مليًّا في هذه المسألة حتى هذه اللحظة.

في كل الأحوال، يتوجب عليّ أن أتخلى عن كل هذا الآن. فالمشي في أثناء النوم هو ما أيقنت أنه ينبغي عليّ أن أسأل أمي عنه. تذكرت أنني قرأت في مكان ما أن من يمشون في نومهم لا يتذكرون شيئاً مما يحدث معهم في أثناء ذلك؛ في حين أنني استطعت أن أتذكر كل تفاصيل ما حدث معي طوال الليل بخلاف اللحظة الحقيقية التي استغرقت فيها في النوم، واللحظة التي عاودت فيها الاستيقاظ. ترى، إلى أي حدّ بوسعي أن أثق بذاكرتي حيال تلك التفاصيل؟

قرب بوابة المقبرة، رأيت قبراً ضخماً محاطاً بسياج حديدي لم يسعني إلا أن ألاحظه. سرت رعشة داخلي عندما قرأت ما كتب على الشاهدة: الفاتحة على أرواح الأشقاء الثلاثة الذين حضروا من خراسان ليقابلوا مولانا. في حلمي، رأيت أولئك الأشقاء بهيئة جسد واحد ضخم؛ وكأنهم ثلاث أشجار متعانقة. ولكن، هل يثبت هذا أن تجاربي الليلية حقيقية؟ لقد قص مينان القصة عليّ من قبل، وهذا كل ما حدث.

بدون سابق إنذار، وجدت نفسي أحدق إلى العينين الناعستين المندهشتين لأحد الحراس وهو يخرج من الكشك المجاور للبوابة. حثثت الخطى لئلا أعطيه الفرصة لكي يطرح عليّ أية أسئلة، وخلفت المقبرة الغريبة التي يتجاوز عمرها ألف سنة وراء ظهري.

لسوء الحظ، لم أنجح في التملص من موظف الاستقبال المتطفل الذي أخذ يحدق إليّ بشك وأنا أدخل الفندق. فقد قال لي بينما كنت أحاول أن أتجاهله وأسرع بالدخول: "صباح الخير يا سيدة غرينوود. إنك مبكرة جداً اليوم. لم أرك وأنت تغادرين".

"هذا لا يفاجئني. فقد رأيتك نائماً على مكتبك".

عبس بارتباك، وقال: "نائماً!".

قلت له من فوق كتفي وأنا أواصل المشي: "نعم، رأيتك نائماً ملء جفنيك. من الأفضل أن تحرص على ألاّ يضبطك مديرك وأنت نائم". لم أعاود النظر

إليه مجدداً، ولكنني أدركت أنه راح يراقبني من الخلف بملامح بائسة إلى أن أُغلق باب المصعد.
حالما عدت إلى غرفتي، استحممت، وغيرت ملابسي، واستلقيت على السرير لبعض الوقت إلى أن استغرقت في النوم. وعندما استيقظت، وجدت الساعة تكاد تشير إلى التاسعة. فكرت أنهم بدأوا بتقديم طعام الفطور في الطابق السفلي، ولكنني لم أشعر أنني جائعة على الإطلاق. فكّرت في أن أمي قد استيقظت على الأرجح بحلول هذا الوقت؛ إذ إنها معتادة على الاستيقاظ باكراً منذ عشر سنوات على الأقل. لذا، أخرجت هاتفي وطلبت رقمها. رن الهاتف بضع مرات، ولكن من دون أن تُجيب، فخطر ببالي أنها لم تستيقظ بعد على أية حال، ولكنني تركت الهاتف يرن إلى أن أجاب المجيب الآلي. كنت أكره ترك رسالة على المجيب الآلي، ولكن القلق بدأ يتملكني بشأنها. إذ لم يكن لديها هاتف محمول، وإن غادرت البيت، فلن يعود بوسعي أن أتصل بها طوال اليوم. لذا، قررت أن أترك لها رسالة على أمل أن تتصل بي حالما تعود إلى البيت.
قلت في الرسالة بإيجاز: "مرحباً يا أمي. أنا كارين. اتصلي بي عندما تعودين. أحبك".
أين يمكن أن تذهب في هذا الوقت المبكر من الصباح؟ خطر ببالي أنها ربما خرجت لتتفرج على الزهور في الحديقة. ومع ذلك، لم أستبعد أن تكون مستلقية على الإسفلت لتسد أحد الطرق دعماً لأحد مشاريع إنقاذ حيوانات الفقمة. من يدري؟ قد تذهب إلى أي مكان. طالما أن هناك قضية تدافع عنها، إذاً هناك سبب ومبرر للاحتجاج. لم تكن تلك المرأة تحب أن تهدأ مطلقاً. لطالما شعرت أنها مجبرة على التدخل، ولكن تدخلها هذا حرمني من الكثير من الراحة. استولى التوتر على أعصابي، فنهضت وبدأت أذرع الغرفة جيئة وذهاباً. لفت الكمبيوتر المحمول المفتوح على الطاولة انتباهي، وذكرني بأنني لم أتواصل مع سايمون في الليلة الماضية، ثم تذكرت أن الوقت لا يزال مبكراً جداً على الاتصال به الآن. لم يكن مديري قد وصل بعد إلى السن التي تجعله يكتفي بقدر قليل من النوم مثل أمي. شغلت الكمبيوتر المحمول، وكتبت بضعة سطور عن تقدمي في التحقيق كنت قد تكاسلت عن كتابتها في الليلة الماضية. وبعد ذلك، استفسرت عن جواز سفري وأرسلت الرسالة. وعندما أوشكت أن أطفئ الجهاز، خطر ببالي أن أبحث عما قاله شمس عن موت كيميا. لم أستطع أن أتذكر اسم الكتاب الذي ذكره مينان، لذا طبعت في محرك البحث اسم

رومي، وفتشت في المواقع الإنكليزية لأعثر عليه، فظهرت أسماء العديد من الكتب، ومن بينها اسم كتاب لأحمد إفلاكي ذكره لي مينان من قبل. حالفني الحظ في العثور على نسخة من النص بكامله، ولكن لا بد أنه كان يزيد عن ألف صفحة. فتحت أداة البحث، وطبعت اسم شمس في النافذة، ولكنني وجدت اسمه في أماكن كثيرة لا حصر لها، لذا ضيقت البحث إلى شمس وكيميا. فوجدت اسم كيميا المسكينة مذكوراً في النص كله ثلاث مرات فقط، ثم اتضح لي أن هذه المرات التي تم ذكر اسمها فيها كانت لإيضاح شيء ما عن شمس. في الأولى، ذكر الكاتب أن شمس ترك قونية بعد أن توفيت كيميا. وفي الثانية، تحدث الكتاب عن ظهور كيميا أمام شمس في صورة مجازية تستخدم إيضاحات مثيرة للاهتمام، ولكن ما أثار اهتمامي أكثر من كل شيء هو المرة الثالثة التي ذكر فيها اسم كيميا، فهو يقول:

كانت عروس شمس الدين كيميا هاتون فتاة جميلة وفاضلة. ذات يوم، خرجت نساء العائلة - بمن فيهن جدة سلطان - في جولة بين الكروم، وأخذن كيميا معهن، ولكن من دون إذن شمس. وعندما عاد شمس الدين إلى البيت ولم يجدها قيل له إنها خرجت لتتمشى في الكروم مع الجدة والنساء الأخريات؛ فثارت ثائرته. وحالما عادت كيميا إلى البيت، سقطت على الأرض متيبسة العنق، وظلت متصلبة كجذع شجرة مقطوعة وهي تبكي وتئن لثلاثة أيام، وبعد ذلك فارقت الحياة.

بدا أن هذا الكلام يؤكد ما قاله لي شمس. لذا، بدأت أتساءل إن كان ما حلمت به مختلفاً عن القصة الحقيقية. وفي النهاية، لم يشكل هذا أهمية كبيرة. إذ بالرغم من أن يدي شمس هما اللتان قتلتا كيميا في حلمي إلاّ أنّ رواية إفلاكي ذكرت أن غضبه هو الذي فعل ذلك. والنتيجة واحدة، وهي أن الرجل تسبب بموت زوجته لأنها لم تصغِ إليه، ولكن الأغرب من كل ذلك هو كيفية تمكن شخص فياض بالحب ومثال للتعاطف مثل مولانا من أن يمنح فتاة صغيرة لا تتجاوز الثامنة عشرة من عمرها لرجل في الستين من عمره لتكون زوجة له في المقام الأول، وكيفية تمكنه من أن يلتزم الصمت أمام جريمة قتل الفتاة. فلقد كانت صغيرة وضعيفة وعاجزة حتى عن حماية نفسها. تخيلت عنق كيميا النحيل وجسدها الغض ووجهها الشاحب. ورأيت في عيني الفتاة الجامدتين خزي الدرويش الذي هزمته كراهيته. بذلت قصارى جهدي لأكبح غضبي المتصاعد؛ محاولة أن أجد سبباً منطقياً لتصرفه، وأن أقنع نفسي بوجهة النظر السائدة في تلك الفترة من

الزمن، ولكن كلمات أمي لم تسمح لي بذلك. فقد قالت: لقد استولى الرجال على العالم. وبعد ذلك، لم يعد أحد يكترث أدنى اكتراث لدموع الفتيات الصغيرات اللواتي تم تقديمهن كزوجات لرجال ذوي ثروة في المجتمع، ولم يسألهن أحد عن آرائهن أو يحاول أن يعرف إذا كن يردن أن يعشن مع أولئك الرجال. تملكتني في تلك اللحظة مشاعر شبيهة بمشاعر والدتي. فشعرت أنني غاضبة وثائرة ومستعدة للقتال. لطالما تحليت بطبيعة أكثر موضوعية، لذا توجب عليّ أن أذكر نفسي بأن أبقى كذلك. فربما انطوت الأحداث على معانٍ خفية. ماذا إن أحبت كيميا شمس وأبدت رغبتها للاقتران به؟ ألا يمكن أن تكون هذه الفكرة معقولة؟ هذا احتمال وارد. فابنة سايمون ذات الأعوام الستة عشر جيني وقعت في غرام أستاذها الذي يكبرها بعدة عقود، ولكن الأمر ليس مماثلاً هنا؛ لأن كيميا التي رأيتها في أحلامي لم تظهر أدنى اهتمام بشمس. فقد لاحظت أن ابن رومي الأوسط علاء الدين هو من أثار إعجابها. إذاً، ما الدور الذي لعبه علاء الدين بالضبط في هذه القصة؟ وما الذي حل به في ما بعد؟ لم يبدُ ذلك الفتى من النوع الذي يتراجع بهدوء ويذعن لما يحدث أياً يكن. وبالإضافة إلى ذلك، فقد قال شمس إنه قتل نفسه. ترى، هل قصد الانتحار بالمعنى الحرفي؟ وجدت ذلك أمراً يصعب تصديقه، فهو لم يكن من ذلك النوع من الأشخاص، ناهيك عن أن الانتحار مخالف لمعتقداته الدينية؛ أي إن الله هو وحده من يستعيد روح الإنسان الذي خلقه. إذاً، كيف مات شمس؟ أيمكن أن تكون هناك علاقة بين موته والخاتم؟ هل كان الحجر البني الذي ينزف بالفعل عقدة من قلب الدرويش الغامض؟

قاطع رنين الهاتف تفكيري.

"مرحباً".

أجابني صوت امرأة يوحي بالتعب: "صباح الخير يا سيدة غرينوود". لم يكن صوت أمي، وميزته على أنه صوت المفتشة زينب.

"صباح الخير. نعم، كارين غرينوود تتحدث إليك".

"لديّ خبر سار لك".

ولكن، لا بد أن الخبر السار لم يكف لمحو نبرة الوهن من صوتها.

"ماذا؟ هل عثرتم على البذلة المقاومة للحريق؟".

شرحت لي وهي تتنهد: "كلا. ولكننا عثرنا على جواز سفرك. يمكنك أن تحضري لأخذه في أي وقت تشائين".

كان ينبغي أن أطير من الفرح لسماعي هذا الخبر، ولكنني شعرت أنني لا

أزال مهتمة بمعرفة مرتكبي حريق الفندق.
"ماذا عن البذلة؟".
تمتمت المفتشة ببطء: "أصغي إليّ يا سيدة غرينوود. لم أنم منذ يومين. وأمضيت الساعات العشر الأخيرة وأنا أجري تحقيقاً تلو الآخر من دون لحظة راحة. ويبدو لي أن ساعات أخرى ستمضي قبل أن أنال قسطاً من الراحة. لذا، من فضلك امتنعي عن طرح أية أسئلة عليّ عبر الهاتف. تعالي وخذي جواز سفرك. وإن لم تعثري عليّ فاقدة وعيي في زاوية ما من زوايا هذا المكتب، فسوف أجيب عن أسئلتك كلّها".

"لا يمكن أن يعيش والدي
إن عرف بموت شيخه"
بينما كنت أنتظر حضور مينان في مدخل الفندق، لاحظت أن شمس الصباح الساطعة قد احتجبت وراء طبقة من الغيوم السوداء، وهبت رياح قوية هاربة من أيام الشتاء الباردة من اتجاه ضريح رومي نحو أحياء قونية القديمة. زررت سترتي الجلدية. وبينما كنت أحاول أن أجمع خصلات شعري المتطايرة، توقفت سيارة مينان أمامي، وفتح باب مقعد الراكب، فجلست بجانبه.
"صباح الخير...".
أجاب بابتسامة ضعيفة: "صباح الخير يا سيدة غرينوود".
تأملته بطرف عيني، ووجدت أنه استبدل ملابسه الرمادية التي ارتداها طوال اليومين الماضيين ببذلة زرقاء داكنة؛ بالرغم من أن الإرهاق لم يبارح وجهه.
"أظن أنك لم تنم جيداً في الليلة الماضية".
"بل نمت في الواقع".
ومرر يده في شعره، وقال: "ولكن، قبل أن أنام استولى عليّ الفضول، فأخذت أقرأ في الكتاب الذي حدثتك عنه".
"كتاب مآثر العارفين بالله؟".
فتح عينيه على وسعهما من فرط الإعجاب، وقال: "يا لها من ذاكرة رائعة! لا أصدق أنك تذكرت اسمه".
"يبدو كتاباً مثيراً للاهتمام وليس من السهل نسيانه". اكتفيت بقول هذا غير راغبة بالكشف له أنني قرأت أجزاء منه صباح اليوم، وأضفت قائلة: "هل تعلمت شيئاً جديداً؟".
اعترف مينان وهو يناور بالسيارة: "في الواقع، تعلمت الكثير. يبدو لي أنك محقة في ما قلته. فالكتاب يمزج شيئاً من الخيال بالحقيقة".
بالرغم من أنني كنت مهتمة بمحتويات الكتاب أكثر من اهتمامي بما غير رأي زميلي، إلاّ أنني سررت لأنه بدأ أخيراً يتحدث بأسلوب منطقي، فحثثته على توضيح قصده قائلة: "مثل ماذا؟".
"فاجأتني بعض المواضيع بأنها سخيفة وصبيانية".
كررت كلامه وأنا مستمتعة الآن: "سخيفة! ألست أنت من ادعى البارحة فقط أن شمس هو القاتل بناء على ما ذكر في هذا الكتاب؟".

تابع الشرح بخجل متجنباً النظر إلى عيني: "حسناً، هناك جزء على سبيل المثال يتحدث عن أحد اللقاءات الخارقة بين شمس وكيميا بعد موتها. لم يقابلا بعضهما وحسب، بل تحدث معها وغازلها أيضاً. ليسامحني الله على تفوّهي بهذا الكلام".

من الواضح أن مينان قد اعتبر ذلك الكلام متضمّناً رسالة بالغة الجرأة. وتوجب عليّ أن أعترف بذلك بالرغم من أن الكلام لم يفاجئني. فالنزر اليسير الذي قرأته من الكتاب كان يتحدث عن شمس. وكانت الفصول مليئة بقصائد مدح لذلك الدرويش الرحالة. وبالنسبة لأشخاص مثل مينان، لا بد أن استعارات من ذلك النوع كانت مستهجنة. وبالإضافة إلى ذلك، صدرت ردود أفعال قوية جداً ضد علاقة شمس برومي.

"أظن أن شمس لا يشبه المسلم العادي، أليس كذلك؟".

رد بسرعة وكأن شيئاً ما حرق لسانه: "لا سمح الله! أنا لم أتفوه بأي شيء ضد شمس، ولكن ذلك الكاتب إفلاكي أسرف في كتابة المبالغات. لا بد من أن أعترف لك أن ما شرحته البارحة عن تورط شمس في جريمة قتل نوع من المبالغة. فإن صدقنا كل ما كتبه إفلاكي، لاعتبرنا شمس رجلاً ذا قلب قُدّ من صخر يدمر كل من يصادفه في طريقه".

دهشت مرة أخرى من شدة سذاجة مينان، فقلت له وأنا أبتسم: "لا تقلق. فأنا لا أبني آرائي حول الناس بناء على ما أقرأه فقط. لا أشك بأن شمس شخص مختلف كلياً عن الشخص المذكور في الكتاب".

أربكته النبرة الحاسمة التي تفوهت بها بذلك التعليق، فأدركت أنه راح يفكر متسائلاً عمّا إذا كنت أعرف عن الدرويش الرحالة أكثر مما أفصح به.

"ماذا عنك؟ هل سنحت لك فرصة لقراءة كتاب شمس؟ ما الذي يقوله الكتاب عن نزف الخاتم؟".

فقلت له لئلا أربكه أكثر: "لا يقول الكثير. هناك قصة عن درويش لم يسمح له بأداء الرقصة الدائرية، لذا تشكلت عقدة في قلبه ومات. ولكن ما أعنيه هو أنه لا وجود لأية علاقة بين هذا الكلام والخاتم".

تمتم بخيبة أمل قائلاً: "هل تظنين أن عزت أفندي قد أخطأ الظن بشأنه؟".

"لم يخطئ. فهناك ذكر لخاتم في القصة، ولكنه ليس الخاتم نفسه".

رمقني مينان بنظرة ريبة، وأوشك أن يتكلم ثانية، ولكنني قاطعته.

"هل يشرح ذلك الكتاب، أقصد كتاب مآثر العارفين بالله، يا سيد فيدان، كيف مات شمس؟".

"حسناً، إنه يتطرق إلى الموضوع بالفعل. دعيني أسترجع المعلومات. الآن، حدث أول لقاء في قونية بين شمس ورومي عام 1244".
قلت له وأنا أتنهد بضجر: "مرج البحرين؛ المكان الذي تعرضت فيه للهجوم، وهو المكان نفسه الذي تم العثور فيه على جثة كامل الأعسر".
التفت نحوي لينظر إليّ ويعرف إن كنت أسخر منه، ولكنه لاحظ أنني شديدة الجدية، فأومأ برأسه بلطف، وقال: "نعم، مرج البحرين. منذ اللحظة التي التقى فيها الرجلان العظيمان، لم يعد ثمة شيء يفرقهما".
لم يشكل ما قاله خبراً جديداً بالنسبة إليّ، فقد شرحت أنجيلينا ذلك كله في أثناء الجولة في الضريح.
فقلت متابعة الكلام من حيث توقف مينان: "أصيب أتباع رومي المخلصون بالغيرة، ووصل بهم الأمر إلى حد تهديد شمس. وذات ليلة، اختفى شمس".
صاح مينان قائلاً: "إنك تعرفين كل هذا مسبقاً!".
ركز نظره عليّ بدهشة، وفي ذلك الوقت ركضت امرأة إلى الشارع فجأة.
فصحت به محذرة: "انتبه!".
داس مينان على المكابح في الوقت المناسب. ولو تأخر لحظة واحدة، لكنا قد دهسنا المرأة المسكينة. أسرعت المرأة إلى الرصيف المقابل، بينما تابعنا طريقنا وتركناها وراءنا. تمتم مينان بانزعاج قائلاً: "من أين أتت؟ لم أرها".
"ربما يجب عليك أن تبقي نظرك مركزاً على الطريق".
"إنني... حسناً... لقد قلت إنك لا تعرفين شيئاً عن شمس. والآن...".
"إنك على حق. أعتذر عما بدر مني، فأنا أعرف القليل بالفعل. عندما اختفى شمس بلا عودة، انهار رومي. وبعد ذلك، أدرك الأتباع الغيورون خطأهم وندموا عليه أشد الندم. وفي تلك الأثناء، عرف رومي أن توأم روحه موجود في دمشق، فأرسل ابنه "سلطان" إلى هناك ليعيده إلى قونية. وعندئذ، زوج ابنته بالتبني كيميا لشمس لكي يخرس جميع الألسن التي تنطق بالإشاعات".
صاح مينان وهو لا يزال متفاجئاً من مدى معرفتي بالموضوع: "هكذا بالضبط! هذا هو ما حدث تماماً!".
قلت وأنا أتساءل عما سيكون عليه رد فعله على كلامي: "ومع ذلك، لم تتجاوز كيميا في ذلك الوقت الثامنة عشرة من عمرها بينما كان شمس في العقد السادس".
تململ مينان بقلق على مقعد السائق، وقال: "هذا ما يبدو لي. لقد كان شمس كبيراً في السن. ولكن، هكذا جرت العادة في تلك الأيام. فمن الفتاة

التي لن ترضى بالزواج من رجل نبيل مثل شمس؟ وأي عائلة لن تبتهج بمصاهرته لها؟".

سألته في محاولة لإخفاء امتعاضي: "هل هذا صحيح؟ إذاً، هل تقبل بأن تزوج ابنتك لرجل في الستين من عمره لو أنك عشت في ذلك الوقت من الماضي؟".

لم يتوقع مينان سؤالاً كهذا، لذا لم يعرف ما يجدر به قوله. ولكنه كرر قائلاً: "ليس الآن بالطبع". وقال وهو يحاول أن يبقي نظره مركزاً على الطريق: "لا أحد يقبل بمثل هذا الأمر الآن".

وارتسمت نظرة حيرة في عينيه، وقال بقناعة أكبر: "من المؤكد أنني - أنا على الأقل - لن أفعل هذا".

أدركت أنه لا طائل من إطالة النقاش أكثر من ذلك، فقلت: "إذاً، لنعد إلى حديثنا الأصلي. هذا كل ما أعرفه عن شمس. ولكن، ماذا حدث بعد أن تزوج كيميا؟ هل ترك الناس رومي وشأنه؟ وكيف سار أمر زواج شمس من كيميا؟".

بعد أن أصبح الموضوع سلساً وخالياً من العقبات، شق مينان طريقه فيه بلهفة ومن دون تردد.

"لسوء الحظ، اشتعلت الغيرة في قلوب أولئك الناس أنفسهم بعد وقت قصير من عودة شمس إلى قونية وبعد زواجه من كيميا؛ فنشروا إشاعات في أرجاء قونية كافة طاعنين بذينك الدرويشين البريئين بطرق تتحدى الخيال. وهذا أمر مؤسف. وأصبح ابن رومي علاء الدين فرداً في تلك العصابة من التحريضيين. يقول البعض إن علاء الدين كان واقعاً في غرام كيميا، بينما يقول البعض الآخر إنه شعر بالغيرة وحسب من علاقة شمس المقربة بأبيه وأخيه الأكبر سلطان".

تذكرت الحلم الذي رأيته في الليلة الماضية، وتعبير الألم الذي بدا على وجه علاء الدين عندما رأى حبيبته كيميا جثة هامدة، وحين صاح متألماً بأعلى صوته. بعد أن شاهد علاء الدين جريمة قتل حبيبته، أصبح عاجزاً عن فعل أي شيء. شعرت أنه يجب عليّ نوعاً ما أن أدافع عن الفتى.

"من الممكن أن يكون موت كيميا قد دفع بعلاء الدين إلى السير في هذا الاتجاه. ولو لم تمت كيميا لربما...".

"أنت محقة. فلولا موت كيميا المفاجئ وغير المتوقع، لما انضم علاء الدين لهذه المجموعة من الخونة، ولكنه كان فتى مضطرباً منذ البداية. إذ بينما أظهر مولانا وابنه سلطان أقصى درجات الاحترام لشمس، عامله علاء الدين

بمنتهى البرودة والفظاظة وظل يسير على هواه كعادته. ما يهم في الأمر هو أن تلك المجموعة من القتلة السبعة التي كان علاء الدين واحداً من أفرادها دقت على باب شمس في وقت متأخر من إحدى الليالي، واستدعته للخروج من البيت. وعندما خرج شمس من باب بيته وهو غير مدرك للفخ الذي نصب له، طعنه كل من الرجال السبعة بسكينه في صدره. يقال إن شمس أطلق صيحة قوية جعلت الرجال السبعة جميعاً يفقدون وعيهم ويخرون على الأرض. وعندما استعادوا وعيهم، لم يكن قد بقي من شمس سوى قطرة دم واحدة على الحجر".

"ماذا؟! أتعني أن الجثة قد اختفت؟".

"من دون أثر. لم تبق سوى قطرة واحدة من الدم ليس إلا".

أصابتني الحيرة من جديد، فقلت: "حسناً، ولكنني رأيت قبر شمس بنفسي".

فقال وهو يبتسم بأدب: "تحلي بالصبر يا سيدة غرينوود. سأشرح لك. بعد مرور أيام على موت شمس، ظهر ذلك الدرويش العظيم لسلطان في حلمه. فقال شمس لسلطان: يا بهاء الدين. إنني أشعر بالبرد. إنني في الماء. اعثر عليّ، يا بهاء الدين. إنني عالق في أعماق بئر، فأخرجني منها. استيقظ سلطان غارقاً في عرقه. ثم خرج وجمع ثلاثة من أصدقائه المقربين إليه من دون أن يهتم بأن الوقت متأخر، وذهب ليعثر على البئر التي ألقي فيها شمس. وعندما انتشل جثة شمس، راحت الدموع تنهمر من عينيه، ولكن الهاجس الذي ملأ قلبه تفوق على حزنه. فقال: لا يمكن أن يعيش والدي إن عرف بموت شيخه. سيسقط صريعاً في الحال. لذا، أقسم الأصدقاء الثلاثة على كتمان السر، وواروا جثة شمس الثرى إلى جانب قبر رجل صالح من أبناء مدينة سامراء. لم يفش أحد من الأصدقاء السر إلى أن استيقظ سلطان في ليلة أخرى وهو يصرخ والدموع تنهمر من عينيه. أراد أن يتكتم على السر، ولكن زوجته القلقة فاطمة ألحت عليه ولم تدعه وشأنه. وأخيراً، استسلم سلطان وأخبرها بما حدث لشمس ولكن بعد أن أقسمت على القرآن أن تحفظ السر. حفظت فاطمة السر لسنوات كما فعل الآخرون؛ إلى أن فارق مولانا المبجل وابنه سلطان الحياة. وبعد أن ماتا، أخبرت ابنها أولو عارف بما عرفته فنقل ابنها الخبر لإفلاكي وطلب منه أن يدونه في كتابه".

قلت له مبتسمة ليعرف أنني أنتقده: "ومع ذلك، أنت غاضب من إفلاكي. لو لم يدون ما حدث لشمس، لظلت نهايته سراً غامضاً".

فقال وقد عاد لاستخدام لهجته الدفاعية: "لست غاضباً، ولكنه أسرف بكتابة

المبالغات، هذا كل ما أقوله".
"إذاً، ما الذي حدث لعلاء الدين بعد ذلك؟".
"غادر قونية ومات بعد ذلك بالملاريا وهو في ريعان شبابه. ووفقاً لإفلاكي، لم يحضر أحد جنازته حتى رومي نفسه". ورمقني مينان بنظرة خجولة وهو يبدي رأيه قائلاً: "لماذا قد يحضرها؟ لماذا قد يكن أي احترام ولو قليل لذلك الابن الجامح الذي قتل الشيخ الذي يحترمه ويقدّره".
بدا مينان مقتنعاً بوجهة نظره بالرغم من قسوتها، ولكن ما حلمت به وما كتبه إفلاكي لم يبدُوَا متطابقين. إذا، وفقاً لإفلاكي، أو لحفيد رومي عارف الذي طلب منه أن يؤلف الكتاب، فعلاء الدين هو ابن رومي الحقود والغيور، في حين أن علاء الدين الذي حلمت به لم يكن سوى شاب يائس ملك الحب عقله وقلبه.

"ثائر كابن رومي الأوسط علاء الدين"

هبت رياح شديدة عصفت بشعرنا وملابسنا ونحن نترجل من السيارة، فأسرعنا بدخول حدائق مقر الشرطة، بينما نظر مينان إلى السماء وقال: "ها قد هبت بويراز؛ أي الرياح الشمالية الشرقية، وهذا يعني أنها ستمطر".

شكلت الحديقة مكاناً أكثر حماية؛ إذ لم يعد لقوة الرياح أي تأثير هنا. لاحظت وجود رجل ضخم الجثة يخرج من المدخل الرئيس، فحدقت إليه محاولة أن أميز ملامحه، ووجدت أنه المفتش راغب. راح المفتش يصيح بأوامره في جهاز اللاسلكي وهو لا يزال يبدو غاضباً ومنفعلاً ومتجهم الوجه. بدا شديد الانهماك بما يفعله لدرجة أنه لم يلاحظ وجودنا. لاحظت مجموعة مكونة من خمسة عشر رجلاً يحيط بهم رجال الشرطة يسيرون خلفه، ولكن تركيزي ظل مثبتاً على رجل مفتول العضلات ورياضي الجسم وطويل القامة، شعره يخالطه الشيب، ولديه شارب سميك، ويقف بين ضابطين في الصف الأمامي. وبالرغم من أن يديه كانتا مكبلتين بالأصفاد، ورغم أن رجال الشرطة أحكموا قبضتهم على ذراعيه، إلا أنه استطاع أن ينفخ صدره بغرور وكأنه يتحدى العالم.

صاح مينان وهو يقبض على ذراعي: "انظري يا سيدة غرينوود!".

نظرت إلى حيث أشار مينان، ورأيت سيرهاد وكافيت وكلاهما مطوقان بضباط الشرطة كالمشتبه بهم في المجموعة الأولى. تساءلت إن كانوا جميعاً جزءاً من العصابة نفسها، ثم التقت عيناي عيني سيرهاد الذي سرعان ما تغير تعبير وجهه من المفاجأة إلى الشك قبل أن يتحول إلى الكراهية. رآنا كافيت ولكنه لم يستطع أن يفهم حقيقة الوضع بسرعة. كاد أن يبتسم، ولكنه لاحظ عدوانية صديقه الواضحة فأصيب بالارتباك. أما بالنسبة لسيرهاد، فلا بد أنه أدرك كل شيء، فراح يحدق إلى عيني بعدائية متنامية وكأنه يريد أن يلعنني بإرادته المحضة. ولولا وجود رجال الشرطة، لربما هاجمنا، ولكن رجال الشرطة لم يسمحوا له حتى بالتخفيف من سرعته. فقد جرّوه معهم بسرعة وحشروه إلى جانب كافيت وأعضاء العصابة الآخرين داخل شاحنة مغلقة.

أعلن مينان بسعادة قائلاً: "أظن أن المجرمين باتوا رهن الاعتقال الآن. إن المفتشة زينب امرأة تفي بوعودها".

"لا تعلق آمالك على هذا كثيراً. فقد تحدثت إليها صباح اليوم وقالت إنهم لم يعثروا على أي دليل في بيوتهم".

حل تعبير مرتبك محل البهجة التي كانت بادية على وجهه، وقال: "إذاً، لماذا يعتقلون أولئك الرجال؟".
أجبته وأنا أحث الخطى من جديد: "لست أدري. إن تمكنا من العثور على المفتشة زينب، فسوف نعرف حقيقة ما يجري".
لم يكن ذلك صعباً. فقد وجدناها خلف مكتبها مرتدية الكنزة الليلكية وسروال الجينز نفسيهما، وهي تلقي التعليمات على ضابط شرطة يرتدي الزي الرسمي، وتبدو أشد إرهاقاً مني ومن مينان. وعندما رأتنا قرب الباب، ابتسمت لنا ابتسامة غامضة، وتوقفت عن الكلام لترشدنا إلى الكرسيين أمام مكتبها وهي تقول: "تفضلا واجلسا هنا. سأوافيكما على الفور". وبينما كنا نجلس على كرسيينا، تابعت زينب شرحها الوافي عن الوثائق التي يجب أخذها إلى مكتب المدعي العام.
رأيت كومة كبيرة من الأغراض على مكتبها، ولكنها بدت منسقة ومرتبة. فقد تم وضع جهاز الكمبيوتر إلى اليمين والأوراق كلها في أكوام أنيقة إلى اليسار، وأمامها إضمامة ورق فارغة محشورة بين حامل أقلام مكتظ بالأقلام وجهاز مسح يئز بشكل متواصل. أمام جهاز المسح رأيت صورة صغيرة محاطة بإطار بسيط لم ألاحظ وجودها في اليوم الماضي. أظهرت الصورة زينب واقفة بين رجلين. انحنيت لألقي نظرة فاحصة عليها، فوجدت أحد الرجلين يبلغ منتصف العمر وله وجه متعب ولطيف في آن معاً، ومن نوع الأشخاص الذين يستريح المرء لرؤيتهم على الفور. أما الآخر، فقد كان شاباً أصغر سناً ذا نظرة متمردة ومظهر ثائر كابن رومي الأوسط علاء الدين.
"هل تشعرين بالفضول حيال الصورة؟".
أجفلت وكأنني ضبطت متلبسة، وقلت: "إنني آسفة، ولكنها لفتت انتباهي".
قالت مبتسمة باسترخاء: "لا بأس يا سيدة غرينوود. إنها أمام عينيك، ومن الطبيعي أن تنظري إليها".
شجعني رد فعلها على سؤالها بشكل صريح: "أهما من أفراد عائلتك؟".
"كلا، إنهما في الواقع أقرب إليّ من أفراد العائلة".
نظرت إلى الصورة وقالت: "الرجل ذو الشعر الرمادي هو المحقق نوزت رئيسي في إسطنبول، والآخر ذو العينين المجنونتين هو علي، مفوض الشرطة علي".
بدت عيناها تائهتين في التفكير وهي تكرر اسم علي. من الواضح أن الشاب كان بالنسبة لها أكثر من مجرد زميل عمل.

"إن المحقق نوزت أفضل رجل قابلته في العالم".
بدأت المفتشة زينب تقدم بعض المعلومات عن حياتها الشخصية، فلم يسعني أن أفوت هذه الفرصة. لذا، ابتسمت وسألتها: "لماذا تقولين إنه أفضل رجل وليس أفضل شرطي؟".
"حسناً، إنه كذلك أيضاً. ولكنه رجل يحافظ على مبادئه؛ فهو يضع ضميره قبل مهنته، ويأمرنا بأن نكون بشراً ثم أفراد شرطة.
"وماذا عن الشاب؟".
تلاشى الإعياء من عينيها الكستنائيتين في لحظة، وقالت: "علي؟". استندت على كرسيها، ولمعت عيناها وهي تنظر بعيداً وكأنها تعيش حلم يقظة جميلاً. وقالت: "إن علي مجنون، ولكنه يتمتع بقلب من ذهب. أظن أن عمله كضابط شرطة أسوأ مهنة ممكنة بالنسبة له". وتوقفت قليلاً لتنظر إلينا مدركة أنها استطردت من دون أن تشعر، وقالت بعد أن عادت إلى كوكب الأرض: "ولكنني لا أقول إنه ليس ماهراً في مهنته".
أخذت نفساً عميقاً وانحنت إلى الأمام، ثم قالت: "حسناً، دعونا نعود إلى العمل". ثم سحبت مغلفاً من تحت كومة الوثائق إلى يسارها، وقالت: "ها هو جواز سفرك يا سيدة غرينوود. تفضلي".
سألتها وأنا آخذه منها: "أين عثرتم عليه؟".
"إنك تعرفين كامل الأعسر الذي هاجمك، أليس كذلك؟ حسناً، عثرنا عليه في بيت الرجال الذين قتلوه".
سألتها وأنا مندهشة: "إذاً، لقد ألقيتم القبض عليهم؟".
"نعم، غير أن اثنين منهم هربا. ولكن، لا بأس. فقد فككنا رباط العصابة، لذا أصبحت المسألة مسألة وقت الآن قبل أن نقبض عليهما أيضاً".
ابتلع مينان ريقه وسألها قائلاً: "من أي طائفة هم؟".
تجعدت جبهة زينب الملساء من التعجب، وقالت: "طائفة!؟".
تابع مينان بلهفة قائلاً: "لقد قلت بالأمس إن الرجال من المتعصبين. أتتذكرين هذا أيتها المفتشة زينب؟".
ابتسمت زينب ابتسامة عابثة وقالت: "حسناً، ليسوا كذلك. في الواقع، نحن نعرف هذا منذ بعض الوقت، ولكن لم يسعنا أن نبوح بشيء إلى أن تنتهي العملية".
سألتها: "إذاً، ما سبب الجريمة كلها؟ لماذا قتلوه؟".
بدأت تشرح قائلة: "إنها مجرد عملية تصفية حساب بينهم وبين عصابة أخرى". وفي تلك اللحظة، هبت الرياح من النافذة المفتوحة خلفنا. فلم تنه

زينب جملتها، بل قالت: "أرجو المعذرة. من الأفضل أن أغلق هذه النافذة".

نهضت عن كرسيها، ومشت ببطء إلى النافذة وأغلقتها بإحكام. وعندما التفتت نحونا، قالت وهي تعاود الجلوس على كرسيها: "هل عاد الشتاء أم ماذا؟". ثم تابعت حديثها من حيث أمسكت عن الكلام وكأنها لم تتوقف، وقالت: "صادفنا هذا النوع من عصابات المافيا عدة مرات من قبل، ولكن الجماعة التي واجهناها هذه المرة بدت أفضل ترتيباً، أو بشكل أدق تزعمها رجل ماهر عمل نقيباً في الجيش قبل أن يتم تسريحه تسريحاً غير مشرف. إن اسم ذلك الرجل هو يلماظ ديريسويلو، وهو معروف باسم يلماظ المعتوه".

"هل هذا المدعو يلماظ المعتوه رجل رمادي الشعر ذو شارب سميك؟ أعتقد أنني رأيته في الحديقة منذ قليل".

"إنه هو. فقد أخذه الرئيس راغب إلى مكتب المدعي العام. وعلى عكس ما يوحي به اسمه، إن يلماظ المعتوه شديد الذكاء والمكر. فقد عمل ضابطاً في الاستخبارات لسنوات قبل أن يتم القبض عليه في قضية فساد خلال العام الذي قضاه في الحرب جنوب شرق البلاد. وبعد أن تم طرده من الجيش، التف على مجموعة من رجال الشرطة المنحرفين، وشكل جماعة له في قونية. وعندما صادفت تلك العصابة عصابة أقدم منها، أحد أفرادها هو كامل الأعسر، خرجت الأمور عن السيطرة".

قلت لها مشيرة إلى تناقض ما قالته لنا الآن مع ما قالته بالأمس: "قلت لنا إن "كامل" ترك العمل".

"هذا ما كنا نعتقده حتى الليلة الماضية، ثم اتضح لنا أنه لم يتركه. فقد ظل متخفياً لوقت طويل بكل تأكيد، ولكنه استمر بأداء الأعمال للعصابة بين الحين والآخر. صحيح أنه اشترى حافلة صغيرة، ولكنه بات يستخدمها لكل من السياحة ونشاطات العصابة".

سألتها: "هذه العصابة التي تستمرين بالتحدث عنها، بأي نوع من الأعمال تورطت؟". وتساءلت إن كانت شركة إيكونيون للسياحة مجرد غطاء لأعمال العصابة.

"كل أنواع الجرائم؛ كجمع أموال الإتاوة من المطاعم والحانات وبيع المخدرات والدعارة... ولكن يلماظ المعتوه رفع سقف أطماعه إلى مستويات أعلى من ذلك، فبدأ يجمع الشيكات والسندات المزورة، ويبتز المال من رجال الأعمال الأثرياء، ويحاول أن يضع يده على ملكية حكومية بوسائل

غير قانونية. إن قونية مكان صغير، ولهذا تضاربت مصالح العصابتين، فهاجمت عصابة كامل الأعسر العصابة الأخرى لتردعها. وبدا ظاهريًّا أن يلماظ المعتوه قد تراجع لأنه لم يكن يريد المخاطرة بدخول الحرب معهم، ولكنه راح يضع الخطط سراً، فاستخدم خبرته السابقة في جمع المعلومات الاستخباراتية، وبدأ يصطاد أفراد العصابة المنافسة الواحد تلو الآخر. في البداية، أرسل من يرجم ذينك الزوجين اللذين يعملان بالدعارة بالحجارة حتى الموت. وكما شرحت لكما البارحة، أضفى رجاله على موقع الجريمة مظهر الرجم بالحجارة الذي ينفذه المسلمون. وبعد ذلك، عمل على إحراق حانة العصابة المنافسة وكتب آيات من القرآن على الجدار المقابل، وهذا يؤدي بنا إلى الوقت الحاضر. فكما فعل مع الآخرين، أشرف يلماظ على جريمة قتل كامل الأعسر سيئ السمعة، وجعلها تبدو كتطبيق حكم الشريعة الإسلامية بقطع يد السارق، ولكن الأعسر كان ميتاً أصلاً بحلول الوقت الذي قطعت فيه يده وحشرت في فمه. فيلماظ المعتوه هو من كسر عنقه بيديه".

"أتعنين أن جريمة قتل الأعسر ليست لها أي علاقة بالهجوم على السيدة غرينوود؟".

بدا مينان مصعوقاً بالخبر مثلي بالضبط.

"كلا. إن ما حصل محض صدفة. ولكن هناك احتمالاً كبيراً أن القتلة شاهدوا "كامل" وهو يهاجم السيدة غرينوود لأنهم كانوا يطاردونه في تلك اللحظة. كان هناك خمسة أشخاص على اللائحة بعد كامل. ولو أننا لم نتمكن من إلقاء القبض على أفراد تلك العصابة، لقتلوهم أيضاً. فقد صمم يلماظ المعتوه على التخلص منهم جميعاً، وجعل العمل يبدو مثل عمل مجموعة إسلامية متطرفة".

وجدت القصة في غاية الإثارة، وليست من النوع الذي أصادفه كل يوم في إنكلترا. ومع ذلك، لم أستطع أن أمنع تحقيقي من التسلل إلى الموضوع.

"إذاً، هل هناك أية صلة بين كامل الأعسر وشركة إيكونيون للسياحة؟".

تغيرت ملامح زينب وقالت: "يؤسفني القول إنه لا توجد علاقة بينهما. استطعنا فقط أن نجد علاقة بينهم وبين سيرهاد وكافيت. فقد أمضى الأعسر سنة وهو مسجون مع ذينك الرجلين، وجمعت بينهم صداقة قوية جداً".

صاح مينان بسخط قائلاً: "إذاً، سيرهاد سجين سابق. لقد أيقنت أنه حثالة منذ وقت طويل. وأما ذلك المهووس بالنظافة كافيت، فأسوأ منه".

أكملت زينب قائلة: "سجن الرجلان لإطلاقهما النار على أحد الأشخاص. فقد كانا عضوين في إحدى عصابات المافيا في أنطاليا. وبعد ثلاث سنوات من السجن، تم الإفراج عنهما وعن كامل في عفو عام. فحضرا إلى قونية وعملا لدى السيد كويومكوزاد".

أخيراً، وصلنا إلى الموضوع الذي يهمني.

"وماذا عن السيد كويومكوزاد؟ هل هو فرد من هذه العصابة؟".

فقالت وهي تهز رأسها: "لا أظن ذلك. فاسمه لم يظهر في لائحة يلماظ المعتوه السوداء، ولا بين أعضاء العصابة المنافسة. وهكذا، من المفترض أن السيد كويومكوزاد ليست له أية علاقة بأية عصابة".

اعترضت على كلامها على الفور: "قد لا تكون له علاقة بأية عصابة. ولكن، من المؤكد أنه لم يتورع عن إرسال كامل الأعسر ليهاجمني".

نظرت إليّ بوهن وكأنها تعترف بأن وجهة نظري منطقية.

"نعم، من المرجح أن السيد كويومكوزاد أرسل "كامل" ليهاجمك عن طريق سيرهاد وكافيت. ومع ذلك، فكل من سيرهاد وكافيت ينكر التهمة. يعترف سيرهاد بالاتصال بالأعسر عبر الهاتف، ولكنه يدعي أنهما صديقان قديمان، وأنهما اعتزما أن يلتقيا لتناول الغداء معاً ليس إلا".

بدأ تعذر إيجاد حل للموضوع يثير أعصابي، فقلت: "ولكنهما يكذبان. فقد قالا من قبل إنهما لا يعرفان "كامل"، وانظري الآن، اتضح أنهم رفقاء سجن".

أجابت زينب: "إنني مدركة لهذا يا سيدة غرينوود. ولكن، سبق أن أخبرتك عبر الهاتف أننا لم نعثر في البحث الذي أجريناه في بيتيهما على أي دليل يثبت تورطهما في إضرام الحريق، أو أي شيء يدل على أن لديهما أي دافع لارتكاب هذا الفعل. وبغض النظر عن كل شيء، أرسلتهما إلى مكتب مدعي عام المقاطعة على اعتبار أنهما من أصحاب السوابق".

لم يبد كلامها موحياً بالكثير من التفاؤل؛ فرغم أنها لم تتفوّه بذلك، إلاّ أنني أدركت بلا شك أن المدعي العام سيطلق سراحهما. شعرت أنني مهزومة ومحبطة. خيم الصمت على الجميع لفترة، فبات أزيز آلة المسح المثير للأعصاب الصوت الوحيد المسموع في الغرفة.

قالت زينب: "لست أدري إن كان ما سأقوله يُقدّم لك أية مساعدة، ولكنني أود أن أخبرك شيئاً يتعلق بشركة إيكونيون للسياحة. فقد بحثت في تفاصيل حساباتها، واتضح لي أنها واقعة في ضائقة مالية شديدة. إذ إن ضياء أسرف في الإنفاق على ذلك القسم من الفندق الذي أصر على إنشائه

مؤخراً بشكل خطير، فتراكمت عليه قروض مصرفية معلقة كبيرة تصل قيمتها إلى خمسة ملايين دولار. وإن لم يسدد على الأقل جزءاً منها في الأشهر الستة القادمة، فسوف يتم الحجز على ممتلكاته كافة. وليست هذه هي المرة الأولى التي يورط فيها السيد كويومكوزاد نفسه بالمتاعب. فقبل خمس سنوات، اشترك في شركة محدودة المسؤولية مقرها قونية خسرت عشرة ملايين يورو جمعها من مواطنين أتراك متدينين يعيشون في ألمانيا بعد أن خدعهم ودفعهم للاعتقاد أنه وأفراد شركته مسلمون متدينون أيضاً. إنني أعني بهذا الكلام أن الشخص الذي نعرفه باسم ضياء كويومكوزاد ليس شخصاً بريئاً تماماً كما قد يظن البعض. وإن أردت رأيي، فأنا أظن أنه مسؤول عن الحريق الذي وقع في فندق ياقوت".

ومع ذلك، جعلني كلامها أفقد الأمل أكثر. فكررت ما قالته زينب في الزيارتين الأخيرتين: "ليس لدينا أي دليل أو شهود. فقد خطط ضياء لهذه الجريمة بكل دقة".

انفجر مينان قائلاً بغضب: "ماذا؟ هل ستستسلمين لهذه الخدعة الوقحة يا سيدة غرينوود؟".

"هل لدينا أي أمل؟".

فقال بعناد: "دعيني أتحدث إلى والده". رفض مينان على ما يبدو الاستسلام بدون مقاومة، وقال: "لن يوافق عزت أفندي على هذا العمل المشين".

زممت شفتي بعجز والتزمت الصمت.

فقالت المفتشة زينب: "ربما ينبغي عليك أن تتحدث إليه. قد لا يكن ضياء الكثير من الاعتبار لأبيه. فربما لا تجمعه به علاقة مقربة، ولكن، من يدري؟ فقد يجد طريقة يساعدكما بها".

من الواضح أن فكرة فوز ضياء بمبلغ ثلاثة ملايين جنيه استرليني وإفلاته من العقاب لم تعجب زينب أيضاً.

قلت وأنا أستجمع قوتي: "سآخذ اقتراحك بعين الاعتبار. شكراً جزيلاً على مساعدتك".

وعندما نهضنا، نهضت المفتشة ومدت يدها لتصافحنا.

"أتمنى لو كان بوسعي أن أفعل المزيد، ولكن هذا كل ما تمكنت من فعله".

بدا تعبير وجهها مخلصاً وصادقاً، ولكن صوتها ظل مفعماً بالأسى.

"التدمير امتياز لك كما هو الخلق"
حالما غادرنا مكتب زينب، طلبت من مينان أن يتصل بعزت أفندي؛ ربما ليس رغبة مني في طلب المساعدة منه في تحقيقنا بقدر توقعي العثور على المزيد من المعلومات حول شمس وأبي. أجرى مينان معه حديثاً هاتفياً وجيزاً، فرحب عزت أفندي بطلبنا، ودعانا إلى متحف مولانا حيث كان على موعد مع مدير هذا المتحف، وهو صديق قديم له. حددنا الموعد عند الساعة الثانية عشرة. توجب عليّ في تلك الأثناء أن أتصل بسايمون وأطلعه على آخر المستجدات، ولكنني لم أشعر نوعاً ما بالرغبة في التحدث إليه. ورغم الفشل الذي باء به تحقيقنا، فقد ظل عقلي مشغولاً بشمس أكثر من العمل. تضاربت الكثير من الأسئلة في ذهني، ولكنني عجزت عن إيجاد ترتيب لها وعن تحديد الأسئلة التي يجب أن أبدأ بالبحث عن أجوبة لها. ومع ذلك، فالشيء الوحيد الذي عرفته بشكل مؤكد هو أنني أردت الاختلاء بنفسي لأفكر. لذا، قلت لمينان إنني سأذهب لأتمشى في أنحاء المدينة.
سألني بحماسة قائلاً: "إلى أين تريدين أن تذهبي؟".
لقد كان هذا الرجل مهووساً بمساعدتي، ولكنني صممت هذه المرة أن أكف عن إقحامه في شؤوني، وأن أؤكد له أنني واثقة من أن لديه الكثير من العمل ليقوم به في مكتبه.
قلت له بلا مبالاة: "لست أدري إلى أي مكان. من فضلك، لا تسئ فهمي، ولكنني أريد أن أبقى وحدي إن لم تمانع. لا علاقة للأمر بك، ولكنني أستمتع بتأمل المناظر على انفراد".
لم يفهم قصدي، ولكنه لم يلح على الموضوع، وقال: "إن كان هناك مكان معين تودين أن أوصلك إليه..." ولكنني قاطعته قائلة بحزم: "كلا، شكراً لك. يمكنني أن أعتني بنفسي".
"حسناً إذاً. سيظل هاتفي معي إن احتجت إلى شيء منّي".
بعد أن انطلق مينان مبتعداً، تمشيت في الشوارع لبعض الوقت بلا أي هدف وأنا أفكر. شعرت أن مهمتي في هذه البلاد قد وصلت إلى نهايتها. فقد عثرت على جواز سفري، ولم يعد هناك أي سبب يمنعني من التوجه عائدة إلى إنكلترا. فكرت في أن أتحدث إلى سايمون، ثم أتوجه إلى إسطنبول في صباح اليوم التالي، وأستقل أول طائرة متوجهة إلى لندن. ومع ذلك، أدركت أن هذا ليس بالضبط ما أردته. لم أستطع أن أحدد ذلك بدقة، ولكن الشعور بأنني تركت مسائل عالقة من دون حل ظل يقض مضجعي

كجرح خفي لم يشف بعد. فبعد أن افترقت عن والدي قبل كل تلك السنوات، أتيت الآن إلى هذه المدينة ووجدت نفسي وجهاً لوجه ليس مع معتقداته فحسب، بل مع أشباح الناس الذين اختارهم بنفسه ليرشدوه في طريقه. لم أستطع أن أجد أي جدوى من المغادرة قبل أن أحل القضايا العالقة. رن هاتفي فجأة فأعادني رنينه إلى أرض الواقع. وجدت أن المتصل هو نايغل، ولكنني لسبب ما لم أتحمس للتحدث إليه.

"مرحباً يا كارين".

فرددت عليه بكآبة قائلة: "مرحباً يا نايغل".

"ماذا جرى؟ لا تبدين على ما يرام".

يا لصديقي الذكي! فقد استشف من صوتي على الفور بأن ثمة خطباً ما.

"كلا. إنني بخير، ولكن هناك عقبات أواجهها في التحقيقات ليس إلا".

"حقاً؟!". لم يبد مبتهجاً هذه المرة. من يدري ما المشاعر التي خالجته قبل أن يطلب رقمي؟ فربما أراد أن يقرأ قصيدة أخرى من قصائد رومي.

قلت له مغيرة الموضوع: "لا عليك. أولاً، دعني أشكرك لأنك اصطحبت أمي لتناول العشاء ليلة أمس. فقد أدخل ذلك الكثير من السعادة إلى قلبها".

فقال بصوت يوحي بالشك: "هل هذا صحيح؟ لم أشعر بذلك. فقد بدت سعيدة في البداية، ولكنها استشاطت غضباً عندما سمعت نبأ حملك".

لم أسأله عن سبب إخباره إيّاها في المقام الأول، لأنني لم أرد أن يفكر بهذا الحمل كما لو أنه خطأ يجب علينا أن نخفيه. فعلى العكس من ذلك، إن امرأة في مثل سني يجب أن تفكر بهذا الحمل على أنه ضربة حظ أخيرة على حد قول أمي.

تابع نايغل كلامه قائلاً: "وعندما أخبرتها أننا لن نحتفظ به، ثارت ثائرتها أكثر من ذي قبل. أظن أن أمك تريد حفيداً. من الأفضل أن تتحدثي إليها سريعاً لكي لا تعلق المرأة المسكينة آمالاً كبيرة على هذا الحمل".

أتى الكلام أشبه بتحذير منه لي. لا بد أن بصيرتي باتت معطلة بسبب كل الضغط النفسي الذي مررت به. ورغم أنني أدركت أن الوقت والمكان غير مناسبين، إلاّ أنني شعرت بأنني لم أعد قادرة على إخفاء مشاعري بعد الآن.

"هناك شيء أريد أن أقوله لك يا نايغل".

"وما هو؟".

استطعت أن أشعر بالتحدي في لهجة نايغل، وهكذا اكتشفت أن بصيرتي ليست معطلة على أية حال. فقد كنت أعرف هذه اللهجة حق المعرفة،

فهي اللهجة التي اعتاد أن يستخدمها كلما أردت التحدث عن شيء لا يشعر برغبة في التحدث عنه، ولكنني قررت ألاّ أدعه يستمر بفعل كل شيء على هواه.
قلت له بحزم: "إنني لست واثقة كل الثقة من أنني أريد التخلص من الجنين".
رغم آلاف الأميال التي تفصل بيننا، إلا أنني استطعت أن أشعر بوطأة استهجانه كلامي.
قال لي بعض فترة صمت قصيرة: "لقد سبق لنا أن ناقشنا هذا الموضوع. كما أنني حجزت لك موعداً في المستشفى لإجراء تلك العملية".
"إنني آسفة يا نايغل. أنت محق. سبق أن تحدثنا بالموضوع، أو بالأحرى أنت أخبرتني بما تريده، بينما التزمت أنا الصمت. أعترف بأنني أخطأت عندما لم أشاطرك أفكاري في ذلك الوقت، ولكنني منذ الآن فصاعداً أعدك بأن أتحلى بالمزيد من الصراحة. إن ما أريد قوله هو إنني لا أظن أنني أريد أن أخضع لتلك العملية".
"إذاً، أنت تريدين أن تنجبي الطفل؟".
رفع صوته بالكلام وكأنه يتذمر أو يوبخني.
فقلت بلهجة ليست خانعة ولا دفاعية: "لست أدري. يجب عليّ أن أمنح المسألة بعض التفكير".
"ألم تفكري بعد؟".
أخذت لهجته تزداد قسوة بمرور الوقت.
"كلا، لم أفكر".
"إنك تسمحين لأمك بأن تؤثر عليك".
"ليس الأمر متعلقاً بأمي، بل بكل شيء". لم أكن أريد أن أتشاجر معه فقلت: "امنحني بعض الوقت يا نايغل. دعني أفكّر في الموضوع مليًّا، وفكر فيه أنت أيضاً. وسنتابع هذه المحادثة عندما أعود إلى لندن".
لا بد أن حصافة تفكيري أحدثت تأثيرها، فقال وهو يحاول أن يسيطر على أعصابه: "حسناً، سنتحدث حالما تعودين".
"بعيداً عن هذا، كيف حالك أنت؟".
فأجابني بصوت سلبي وفاتر الآن: "بخير. لم أجر أي جراحات اليوم. سأذهب للعب التنس عصر اليوم مع طبيبك النفسي".
"أوليفر؟".
"نعم، فقد ألحق بي هزيمة نكراء في المرة الماضية".

"حسناً، ربما ستهزمه هذه المرة".

"لن يكون ذلك سهلاً، ولكنني سأبذل ما بوسعي".

"حظاً موفقاً".

مع أننا واصلنا تجاذب أطراف الحديث، إلا أن البرودة بيننا لم تختفِ؛ ممّا يعني أن الوقت قد حان لنودع بعضنا وننهي المكالمة. لم يقل إنه يفتقدني أو يسألني عن موعد عودتي، بل تحدث بفتور، وبشكل عرضي قال قبل أن ينهي الاتصال: "اعتني بنفسك".

"وأنت اعتن بنفسك أيضاً". وأنهيت المكالمة عند هذا الحد.

بعد أن أنهيت المكالمة، عجزت عن منع الدموع من التجمع في عيني، ورحت أتساءل في سرّي: ما الخطأ الذي أصابنا؟ كيف وصلنا إلى هذا الطريق المسدود؟ لماذا بدأت علاقتنا تنهار؟ فوجئت من مدى التشاؤم الذي تملكني. إذ لم تكن علاقتنا تنهار، ولكننا نواجه بعض الاختلاف في وجهات النظر. ربما حين أعود إلى لندن سأتمكن من إقناع نايغل بأن يوافق على إنجاب هذا الطفل. فأنا لم أعبر عن كل أفكاري في ما يتعلق بهذا الموضوع بعد. وقد يفاجئني بأن يتفهم موقفي. ولكن، ماذا إن لم يفعل ذلك؟ ماذا إن رفض إنجاب الطفل رفضاً قطعياً؟ احترت في أمري، وشعرت أنني عالقة في وضع شديد التعقيد. وبينما كنت أتأمل في كل هذه المسائل، حثثت الخطى وكأنني بهذه الطريقة أتوصل إلى حل سريع لمشكلتي. اندفعت في أنحاء شوارع المدينة وكأنني أنافس الرياح الشديدة، وهناك أسئلة معقدة تجول في ذهني وتنتظر إجابة مني، وطفل في أحشائي يجب تحديد مصيره. وفجأة، أدركت أنني ضللت الطريق، وأن كل الشوارع والجادات أصبحت متشابهة. تملكني الفزع للحظة، ولم أعرف ماذا يجب أن أفعل. وظهر الحل بالنسبة لي على شكل سيارة أجرة مرت خلفي على بعد بضعة أمتار في الجادة، فلوحت لها بدون أي تردد.

سألني السائق عندما صعدت: "إلى أين؟".

فأجبت قائلة: "إلى مسجد شمس التبريزي".

بدأت أولى قطرات المطر تنهمر وأنا أصعد إلى السيارة، وغطت سحب داكنة السماء وكأن النهار قد تحول إلى ليل. دخلت المسجد على عجل على أمل أن أتجنب انهمار المطر الغزير. وجدت شاباً ذا لحية خفيفة ووجه منير يقف أمام الباب. فطلب مني بأدب أن أخلع حذائي وأغطي رأسي.

وعرض عليّ قائلاً: "إن كنت لا تملكين وشاحاً فبإمكاننا أن نقدم لك

واحداً".
أجبت قائلة: "لا بأس، شكراً لك، فقد أحضرت وشاحي معي".
أخرجت الوشاح من حقيبتي وغطيت به رأسي، ثم خلعت حذائي ووضعته على الرف السفلي من رفوف الأحذية الموجودة على كلا جانبي الباب. مقارنة بضريح رومي، بدا هذا المسجد مكاناً متواضعاً للغاية، فقد وجدته عبارة عن مسجد وضريح مجموعين في غرفة واحدة، ولكن هذا الأمر ربما كان مناسباً لشمس. فلو سُئِل عن ذلك، لما أراد أن يدفن في ضريح فخم. أليس رومي من سأل بكل بلاغة: أي قبة أجمل من السماء؟ لا بد أن شمس وافقه الرأي. ومع ذلك، بعد الحشود التي رأيتها أمام قبر رومي، شعرت بالأسى عندما رأيت المكان مهجوراً إلا من الحارس. لم تكن العزلة داخل الضريح الذي يبلغ عمره مئات السنين مجرد عزلة كئيبة بل مخيفة. نظرت حولي بحذر قبل أن أشق طريقي إلى عمق المسجد. وعندما مررت بجانب ممر مقنطر عريض إلى يساري، لاحظت المحراب الخشبي والمشكاة التي تشير إلى اتجاه القبلة، وهذا يعني أن الصلوات لا تزال تقام هنا حتى الوقت الحاضر، ولكنني لم أضيع وقتي في ذلك المكان. فعلى بعد بضعة أمتار، رأيت تابوتاً حجرياً كبيراً منفصلاً عن بقية المسجد بسياج خشبي منخفض، ومغطىً بقماش أخضر، وهناك عمامة حجرية متوازنة على رأسه. وعندما اقتربت من أسفله، قرأت اللوحة إلى اليسار التي نقش عليها ما يعظّم صداقة الشيخين المبجلين.
وجدت حاجة الناس للدفاع عن العلاقة التي جمعت بينهما بعد مرور سبعة قرون أمراً باعثاً على الأسى. ومن ناحية أخرى، فالعلاقة بين هذين الرجلين الاستثنائيين أثارت بالفعل نوعاً من الاهتمام. ولو استطعت أن أكتشف سر العلاقة بين شمس ورومي، لاستطعت أن أستوعب طبيعة العلاقة بين والدي وشاه نسيم، بالإضافة إلى السبب الكامن وراء هجر والدي لنا. كان ينبغي عليّ ربما أن أسأل عزت أفندي ليس عن سبب رحيل والدي مع شاه نسيم، ولكن عن السبب الذي جعل رومي مرتبطاً بشمس إلى هذا الحد. وقد يكون اللغز الكامن وراء الخاتم على علاقة أيضاً بذلك السر العظيم الذي أشار إليه شمس على أنه "الحقيقة".
وبينما كنت أفكر بهذا، سمعت صدى صوت رنين الأجراس داخل قبة المسجد، فرفعت بصري لأنظر إلى اتجاه الصوت. وللمرة الأولى، لاحظت وجود ساعة قديمة معلقة على الجدار. أخذت أتأملها مسحورة بها، بينما راح رقاص الساعة يتأرجح إلى الأمام والخلف ويرن بعناد وكأنه يشير إلى

حدث مهم. وعندما توقف أخيراً، انفتح الباب في القسم السفلي من الساحة، وظهر أمامي ممر غامض آخر. مرة أخرى، سمعت صوت عويل، وشعرت بتلك الرياح العاتية، ثم بنسيم عذب يحمل معه عبير نبات إبرة الراعي، فسرت رعشة داخلي. لا بد أن روح الدرويش المتسربل بالسواد أخذت تحوم في مكان ما قربي. تجاهلت الصوت الضعيف في داخلي الذي راح يحثني على عدم التجرؤ على الدخول، وتشبثت بحبل فضولي وتركته يقودني إلى ذلك المكان الذي اشتدت فيه قوة الرائحة. دخلت الممر، فلامست وجهي رطوبة ذلك المكان العميق داخل الأرض، واستولت رعشة على جسدي. ولكن ذلك لم يردعني عن التقدم، فواصلت السير عبر ممر ضيق مقنطر ومضاء بأضواء الشموع الصفراء. وبعد بضع خطوات، وصلت إلى باب زجاجي محاط بخشب سميك مذهب، ولكنني لم أجد لذلك الباب مقبضاً أو ثقب مفتاح. وبينما كنت أفكر بطريقة تمكنني من الدخول، ظهر ظل إنسان في الجانب الآخر من الباب. وعندما نظرت إليه عن كثب، وجدت أنه الدرويش الرحالة.

سألني: "لماذا توقفت؟ لِمَ لا تواصلين المشي؟". قال ذلك وكأنه ليس هناك ما يعيق طريقي.

أشرت إلى الباب الذي يسد الطريق وقلت: "ألا ترى هذا الباب الزجاجي؟ كيف يسعني المرور؟".

"إنه ليس زجاجاً بل مرآة".

"إذاً، لا بد أن طلاء المرآة متقشر لأنني أستطيع أن أرى ما يوجد خلفها".

قال وعيناه اللوزيتان الداكنتان تحدقان إليّ: "لا يمكنك ذلك. إن ما ترينه هو انعكاس صورتك أنت".

نظرت إلى جسدي، فعرفت أنه محق. إذ وجدت نفسي مرة أخرى مرتدية تلك الملابس السوداء، وأصبحت يداي مجدداً يدَيْ رجل مسن، وأصبح جسدي جسد شمس. رفعت رأسي ونظرت إلى نفسي في المرآة رغم أنني فعلت هذا هذه المرة من دون دهشة. بعد صورة شمس التي أصبحت صورتي بخطوة واحدة، رأيت باباً صغيراً ذا حلقة حديدية يؤدي إلى الطريق التي فهمت أنه يجب عليّ أن أسلكها. التفت وأمسكت بالحلقة الحديدية وجذبت الباب، فوجدت تحت قدمي درجاً متعرجاً يؤدي إلى أعماق الأرض. بدأت أنزل الدرجات بسلاسة بدون أي تردد، وبدون أن أشعر بالغرابة على الإطلاق، وكأن المكان مألوف لي. وعندما خطوت أول خطوة، بدأت أسمع صوت همس.

"لقد فتن ذلك الدرويش مولانا المبجل بالتأكيد. وإلاّ فلماذا يتعلق به كل هذا التعلق؟".

وكلما نزلت خطوة أخرى، سمعت صوتاً جديداً يتفوه بكلمات مفعمة بالكراهية.

"يقال إنه رجل غير طبيعي لا يقرب النساء، ذلك المدعو شمس...".

كلما نزلت أكثر، أصبح من الممكن سماع الهمس بشكل أوضح.

"يقال إنه أعلن نبوته ذات يوم في السوق".

تبعت الكلمات خطواتي كالوساوس، وسرعان ما تحولت إلى زمجرة غاضبة.

"يقولون إنه مجدف. سمعه البعض يقول إنه إنسان عظيم".

نشر الرجال المتآمرون زمجرتهم كراية لعداوتهم السافرة، وقال أحدهم: "يقولون إنه من المغول، وإنه سيعطي أبناء شعبه خارطة قونية ليتمكنوا من دخول المدينة بسهولة ويسر...".

وفي نهاية المطاف، تحولت كلماتهم الخبيثة إلى تهديدات.

"سنحكم على هذا الدرويش الغامض بالإعدام، وسننفذ هذا الحكم بلمح البصر".

وبينما كنت أخطو آخر خطواتي للوصول إلى الأرض الحجرية، توقفت كل الأصوات عن الكلام فجأة، ووجدت نفسي في غرفتي؛ في الغرفة التي قدمها لي جلال الدين لأعيش فيها؛ رغم أنها بدت فارغة من كل محتوياتها. إذ لم تعد هناك أريكة على طول الجدار، أو سجادة مفروشة على الأرض، أو إبريق ماء مزخرف، أو حامل المصحف الذي قدمه الوزير كاراتي هدية إلى جلال الدين، بل مجرد تابوت مصنوع من الزجاج يعرض للجميع من يوجد داخله ليتعلموا. ففيه استلقت فتاة شابة هي زوجتي كيميا. وجدتها نضرة وكأنها لم تمت بعد. فقد بدت وجنتاها متوردتين كالزهور، وكأنها ستستيقظ من نومها وتبتسم. ربما لو لمستها أو ناديت عليها لفتحت عينيها ونهضت من رقادها، ولكنني شعرت بضعف ووهن يستوليان عليّ؟ أين ذهب ثباتي وجلدي الآن؟

في تلك اللحظة، سمعت قرعاً على الباب.

"يا شمس أفندي... يا شمس التبريزي، تعال إلى الباب للحظة، هلا تفعل ذلك؟".

لم أندهش ممّا سمعته، ولم أشعر أنني فزع أو خائف. فقد أدركت أن الموعد قد أزف. مشيت بعزم إلى الباب، وقبل أن أضع يدي على القفل، التفت لألقي نظرة أخيرة على جسد الفتاة الطاهر المستلقي في تابوته

الزجاجي. فتحت الباب، فاندفع برد الشتاء القارس إلى الداخل، وأصابت وجهي رياح باردة وكأنها نار خفية لا لهب لها.
قلت للرجال السبعة الذين حولهم البدر المشع في السماء إلى ظلال: "تفضلوا، ها قد أتيت إليكم. ما الذي تريدون قوله لي؟".
لم ينبس أحدهم بحرف، وخيم صمت ليل الشتاء علينا كطبقة من الصقيع. استطعت أن أميز الشاب الذي وقف في المقدمة. فقد كان ابن السيد الأوسط المتمرد علاء الدين.
تمتمت وأنا أقرأ الحكم بإعدامي مرسوماً في عينيه: "علاء الدين! أهذا أنت؟".
تقدم الظل الذي تخيلت أنه علاء الدين خطوة واحدة إلى الأمام، فرأيت انعكاس وجهي في صورته.
تحركت شفتاي وأمرتاني قائلتين: "تذكر... تذكر الوعد الذي قطعته".
أمام عيني، رأيت حديقة صامتة مضاءة بنور البدر. وفي تلك الليلة المباركة، ابتهلت قائلاً:
"أيتها الكائنات النورانية النقية، أسألك باسم الخالق عز وجل أن تسمي لي أحد أصفياء الله المخلصين".
اقترب مني صوت يزداد بعداً كلما اقتربت منه وقال لي:
"إن الحياة التي تسأل عنها حياة مخفية عن أنظار الجميع، حياة تحظى بالعفو والنعمة. إنها حياة جلال الدين رومي ابن سلطان العلماء بهاء الدين البلخي القونوي".
"هلا تكشفين لي، أيتها الكائنات النورانية، عن صورة جلال الدين رومي وعن الوجه المبارك لصفي الله المبجل؟".
سألني الصوت: "كيف ستدفع دين عرفانك بالجميل؟".
بدون أي تردد، مددت عنقي وأجبت: "برأسي!".
أعجب الكائن النوراني بميزة العهد الذي تعهدت به، فقال لي:"هذه هي الروحانية، وهذه هي المحبة. ليس للمحبة سوى ثمن واحد وهو حياة الإنسان. فالمحبة التي لا تكرس للموت ليست حقيقية. ومن أجل هذا، أصبح جلال الدين رومي رفيقاً روحياً لك شرعاً وقانوناً. فاذهب واعثر عليه، ولكن لا تنس الوعد الذي قطعته".
لم أنس وعدي. فكيف لي أن أنسى الهدف الذي كابدت لأحققه بكل نفس من أنفاسي وكل خطوة تقدمت بها في طريقي؟ ابتسمت وأنا أنظر إلى انعكاس صورتي على الجسد الذي ظننته جسد علاء الدين.

"أحان الوقت؟".
قال أحد الذين ظهروا لي: "حان الوقت. هل أنت مستعد؟".
قلت بدون أن أرمش بعيني: "إنني مستعد. فالدمار امتيازه وكذلك الخلق".
في البداية، سمعت صوت سكين تسحب من غمدها كصوت فحيح أفعى تنفث السم. وحين نظرت، رأيت علاء الدين واقفاً أمامي مرة أخرى. حاولت أن أبتسم، ولكنهم لم يسمحوا لي بذلك. حاولت أن أشرح لهم بعيني، ولكنهم لم يسمحوا لي بذلك. وتحت ضوء البدر الساطع، عكست سبع سكاكين ومضات من نور، ثم مزقت سبع طعنات جسدي كصيحات مكتومة. فأزهرت سبع زهرات من نار داخل لحمي المكشوف. ثم رأيت الدماء التي تقاطرت على الحجر، والبدر في السماء، وورود الشتاء في كامل تفتحها، وشممت رائحة التراب في الحديقة والأشجار التي تسبح في البرد المقلق. مزق سبعة رجال جسدي إلى أشلاء؛ سبعة رجال لهم قلوب أعماها الحقد، وعقول سيطرت عليها الكراهية، وبحوزتهم سبع سكاكين مشحوذة. يا لهم من رجال جديرين بالشفقة لا يدركون حقيقة ما اقترفته أيديهم! والآن، لطخت دمائي ذلك الحجر.

"لماذا أعيش هذه التجربة؟"
عندما فتحت عيني، وجدت نفسي مستلقية على السجادة الحمراء والزرقاء المطرزة بجوار تابوت شمس. جعلت رائحة الصباغ الصادرة من السجادة رأسي يدور وأشعرتني بالغثيان، فأسندت نفسي على السياج إلى أن أتى الحارس ذو اللحية الخفيفة ليرى ما بي.
"سيدتي... هل أنت على ما يرام؟".
استندت على السياج الخشبي أمام التابوت لأساعد نفسي على الوقوف.
وقلت محاولة أن أبتسم: "إنني بخير، ولكن أغمي عليّ قليلاً".
تمتم الحارس باهتمام صادق: "لا ينبغي أن تنهضي. تبدين شاحبة جداً".
فكرت للحظة بأن أخبر الحارس القلق أن الرجل الذي يسكن التابوت الذي يحرسه هو المسؤول عمّا حدث لي، وأنني أجبرت على عيش تفاصيل جريمة قتله العنيفة، وأن هذا هو ما جعلني أفقد وعيي.
ولكنني قلت له عوضاً عن ذلك وأنا أحاول أن أكبح شعوري بالغثيان: "لا تقلق، ستزول الحالة عما قريب. هلا تزعج نفسك بإحضار كوب من الماء لي".
فقال الشاب وهو يندفع مسرعاً: "في الحال. سأعود على الفور".
شعرت الآن وأنا وحدي أنني بت أفضل حالاً. وبينما كنت أحاول الوقوف لفتت نظري لوحة أخرى بجانب تابوت شمس كتب عليها:
هنا يرقد شمس التبريزي الذي استشهد على يد سبعة رجال جهلة أعمتهم الغيرة.
لا بد أنني رأيتها من دون أن أدرك ذلك فأثرت على الرؤيا التي راودتني عندما فقدت وعيي. ومع ذلك، بعد كل ما مررت به في الأيام الثلاثة الفائتة، شكلت زيارة قبر شمس بحد ذاتها سبباً كافياً لبعث الاضطراب في جهازي العصبي. وفي كلتا الحالتين، لم تكن تلك أول مرة أسمع فيها عن موته. فقد سبق أن حدّثني مينان عن جريمة قتله. ولكن، بينما أخذ ذهني يبحث عن أسباب مقنعة لما مررت به، بدأت أثق في أعماقي أكثر فأكثر أن كل ما راودني ليس مجرد كوابيس عشوائية، وإنما هو انعكاس للحقيقة نفسها. وفي هذه الحرب الشاقة بين عقلي وروحي، بدأ صمت غريب يكتنف عقلي الباطن وكأنه ارتضى لنفسه الاكتفاء بالمراقبة بعجز بينما تتكشف الأحداث أمامه الواحد تلو الآخر.
"تفضلي، يا سيدتي".

قدم لي الحارس كأساً من الماء، فأخذت منه الكأس وقربتها من شفتي. وجدت الماء راكداً وعديم الطعم، فتساءلت إن كانت المياه جوفية. شممت رائحة تراب رطب، وتخيلت ذلك الدرج المؤدي إلى الأعماق، والهمسات المهددة، وجثة كيميا النضرة المستلقية في التابوت الزجاجي، والدماء التي تتقاطر على الحجر. ازدادت حدة الغثيان الذي شعرت به، وشعرت أنني بحاجة لاستنشاق بعض الهواء المنعش، فأعطيت الشاب كأس الماء بسرعة، وشكرته وهرعت إلى الخارج. ولم أقو على انتعال حذائي إلى أن أصبحت خارج المسجد.

استندت على جدار النافورة المنخفض على بعد بضعة أمتار عن المسجد وأخذت نفساً عميقاً. وبعد أن شعرت ببعض التحسن، واصلت المشي نحو الرصيف. استطعت أن أجد تفسيراً لكل ما حدث معي كالدوار والإغماء والغثيان، وهو الحمل. ولكن، ماذا عن الكوابيس؟ فكرت أن النساء الحوامل قد يشتهين أنواعاً غير مألوفة من الطعام كالبطيخ في فصل الشتاء والكستناء في الصيف، ولكن لا بد أنني الوحيدة التي تعتبر مشاهدة الأشباح أحد أعراض الحمل. ترى، هل هذا يعني أنني سأرى صالحين أمواتاً عندما أعود إلى لندن؟ بدا هذا سخيفاً. فلا بد أن كل تلك الأشياء التي مررت بها الآن ذات علاقة بالمواضيع التي تمت مناقشتها في بيتنا، وبوالدي لأنه من أتباع المولوية، وهذا هو بالضبط ما أشارت إليه أمي. توجب عليّ أن أعترف أنني في غاية الجهل في ما يتعلق بأمور الحمل، ففكرت بأن أراجع طبيباً نسائياً حالما أعود لأتغلب على جهلي التام إن لم يكن لأي سبب آخر، ولكنني لم أجد فكرة تحدثي عن كوابيسي للآخرين فكرة سديدة. فحتى أمي ستظن إن أخبرتها أنني مجنونة. صحيح أنها لطالما أبدت تفهماً حيال مشاكلي، فهي لم ترسلني إلى طبيب نفسي بسبب صديقي الخيالي صني أو بسبب مشيي في أثناء النوم في صغري، ولكن وجود جنيني قلب المعادلة الآن. لذا، خشيت أن تدخلني أمي عيادة لندن النفسية الخاصة في لمح البصر إن حدثتها عما يراودني من كوابيس. وهكذا، أدركت ألاّ سبب يبرر لي إقلاق راحتها بلا داع. فقد أيقنت أن كل شيء سيعود لسابق عهده حالما أغادر هذه المدينة. أو إنه لن يعود؟ لم أستطع أن أفهم أي شيء عن هذه الكوابيس، أو أستوعب ما حاول شمس قوله، أو لماذا يستمر بإجباري على عيش تجارب حياته وعلاقته برومي. ما هذا السر؟ وما هذه الحقيقة المطلقة التي لا يمكن لأحد أن يصل إليها؟ أهي حادثة معينة في حياته؟ أهو الحجر في الخاتم؟ هل حاول أن يشرح لي كيف

مات؟ ولكن طريقة موته لم تكن سراً. فقد كتب أحمد إفلاكي عن الموضوع قبل مئات السنين. إذاً، لماذا لا يريد أن يتركني بسلام؟ لا بد من وجود سبب يدفعه للتسلل إلى أحلامي في كل فرصة سانحة، ولتحريك كوابيسي وترويع نومي. تمنيت لو أن أبي موجود إلى جانبي. إذ إن هذا دينه وهذه ثقافته. فإن لم يستطع هو أن يشرح لي ما يجري، فمن الذي يستطيع أن يفعل ذلك؟ ولكن، من يدري أين يوجد والدي الآن؟ حتى لو كان هنا معي، فإنني لست واثقة من رد فعله، فقد لا يصدقني أو يفهمني، وقد يظن أنني مجنونة. فأنا لم أعد واثقة من نفسي بعد الآن. قد لا تكون لكل ما يجري معي أية علاقة بالحمل أو بمعتقدات والدي، وربما بدأت أفقد صوابي بالتدريج فعلاً.

فجأة، وجدت نفسي في المكان الذي صادفت فيه شمس قبل ثلاثة أيام عندما أعطاني الخاتم. نظرت حولي متوقعة أن يظهر مرة أخرى، ولكنني لم أستطع أن أرى الدرويش الغريب ولا ظله الأسود في أي مكان. فقد ساد هدوء تام في المتنزه. مر رجلان بصحبتهما امرأة محجبة بحوزتها كيس بقالة مليء بالأغراض بسرعة من أمامي، ولكن لم يكن هناك أحد آخر. سقطت قطرة مطر أخرى على وجهي، فرفعت نظري إلى السماء، ولكن لم تنهمر أي قطرات أخرى. وعلى العكس من ذلك، بدأت الغيوم الزرقاء الداكنة تنقشع بسرعة، وأخذت الشمس تشع بخجل من بينها، فتذكرت ما قاله لي شمس:

"عندما تشرق شمس العالم المادي، تختفي شمس العالم الروحي".

تردد صدى صوته في رأسي، واحتلت كلماته تفكيري من جديد. أصبحت شبه عاجزة عن الهرب منه. وشعرت أنه كائن غريب خفي يسكن داخل تلافيف دماغي. كان محقاً. فأنا لم أره قط سوى في ظلمة الليل أو عندما يختفي ضوء النهار. خطر ببالي أن هذا هو الوقت الذي نكون فيه في أشد حالاتنا ضعفاً ويصبح من الأسهل لعقلنا الباطن أن يسيطر علينا. فجعلني هذا التفسير أشعر بالتحسن. نظرت إلى ساعتي فوجدتها تشير إلى الثانية عشرة تقريباً، وتذكرت أن موعد لقائي مع عزت أفندي أوشك أن يحين، فتوجهت نحو مدخل المتنزه المليء بالأشجار المبعثرة. وبينما كنت أقترب من الرصيف وأبحث عن سيارة أجرة لتقلني إلى ضريح رومي، رن هاتفي، وكان المتصل هو سايمون. ورغم أنني لم أشعر بالرغبة في التحدث إليه، إلاّ أنني أدركت أنني لم أعد أحظى بالرخاء الكافي لعدم فعل ذلك، لذا رددت على المكالمة.

"مرحباً سايمون".
"مرحباً كارين. ما الأخبار؟".
فبادرت بزف الأخبار السيئة له، وقلت: "إنها مريعة. يؤسفني ذلك. إذ لم نستطع أن نثبت أن الرجال تعمدوا إشعال الحريق في الفندق...".
فراح سايمون يتذمر وخيبة الأمل واضحة في صوته: "ولكنك قلت في رسالتك بالإيميل إن رجال ضياء قيد الاحتجاز، وإن بيوتهم قد تعرضت للتفتيش...". بدت نبرة صوته موحية باليأس لدرجة أنني خشيت أن يلومني. فشرحت له كل ما حدث، وكيف أن جهودي باءت بالفشل، وكيف ثبت لي أن أن ضياء أكثر براعة مما ظننا... فأصغى إليّ بصمت. لقد توقع سايمون بلا شك حدوث كل هذا منذ البداية، ولكن لا بد أنه تمنى أن يحالفني الحظ السعيد وأتمكن من تغيير النتيجة. ومع ذلك، كنت عاجزة عن تحقيق الأعجوبات. قلت له إنه كان يتوجب على شركتنا أن تتوخى المزيد من الحذر عندما أمنت على ذلك الفندق، فقد كان ضياء يتمتع بسمعة سيئة في التورط بأعمال غير مشروعة، لذا ارتكبت الشركة خطأً فادحاً بالقبول بشخص مثله كزبون في المقام الأول. وعندما قلت له كل ما أردت قوله، التزم سايمون الصمت لبعض الوقت. ترى، ما الذي أخذ يدور برأسه في تلك اللحظة؟ من المؤكد أنه كان يخطط لشيء ما. فربما خطر بباله أن يستقل طائرة ويتوجه إلى قونية بنفسه، ولكنني أخطأت الظن. فلا بد أنه أدرك ألاّ فرصة له سوى القبول بالهزيمة.
"ما الذي تقترحينه الآن؟ ما الذي تظنين أنه ينبغي علينا أن نفعله؟".
"التصرف الذكي الذي علينا القيام به الآن هو التراجع خطوة للوراء، والجلوس على طاولة المساومة لنحاول تقليص المبلغ قدر المستطاع".
التزم الصمت مرة أخرى، ثم قال أخيراً: "أظن أنك محقة. ينبغي علينا أن نبدأ بمساومته. مع ذلك، دعيني أفكر بالموضوع ملياً لبعض الوقت. سأدبر لقاء بينك وبين محامي شركتنا. فربما نتوصل لخطة أفضل". أخذ نفساً عميقاً وقال: "في هذه الأثناء، قومي بإجراء حديث آخر مع ضياء. حاولي أن تكتشفي ما يدور برأسه. ولكن، أياً يكن ما تفعلينه، فلا تدعيه يعرف بنوايانا. سنكون في موقع أقوى بكثير إن تمكنت من اكتشاف الحد الأدنى الذي يمكن لضياء أن يبدي استعداده للوصول إليه في الدفع. سنتحدث مرة أخرى مساء اليوم".
"حسناً، سأقابل ضياء اليوم وأعلمك بالنتيجة".
"هذا جيد". وظننت أنه سينهي المكالمة عند هذا الحد، ولكنه لم يفعل

ذلك، فقد أضاف قائلاً: "لا تدعي ما جرى يضعف معنوياتك يا كارين. إنني واثق من أنك بذلت كل جهدك. حظاً موفقاً لك اليوم".
بصراحة، أدهشني قول سايمون. إذ رغم أنني لطالما اعتبرته مديراً صالحاً بشكل عام، إلا أنّ لديه عادة سيئة، وهي التهرّب من دوره في الفشل. فإن أتت نتيجة إحدى القضايا سلبية، حاول أن يلقي عبء المسؤولية على الجميع باستثناء نفسه. لذا، قد تكون هذه المرة هي الأولى التي يظهر فيها بالفعل بعض التفهم منذ أن عملنا معاً.
قلت له باحترام وتقدير: "شكراً لك. أراك لاحقاً".
مرت سيارة أجرة أمامي بينما كنت أودع سايمون، ولكن بدلاً من أن ألوح لها قررت أن أتصل بضياء بينما الهاتف لا يزال في يدي. بدأ هاتفه يرن، ولكن ضياء لم يرد على المكالمة. ومع ذلك، ظللت أنتظر إلى أن رد عند الرنة الثامنة تماماً.
قال لي بنبرة فاترة، وصوته يوحي أنه على عجلة من أمره: "مرحباً يا سيدة غرينوود. آسف على تأخري في الرد. فأنا أحضر اجتماعاً في المصرف و...".
"أنا من ينبغي عليها أن تعتذر يا سيد كويومكوزاد. سأختصر الموضوع. يجب علينا أن نلتقي لأنني أريد أن أطلعك على بعض المعلومات المتعلقة بالتحقيق قبل أن أدونها في تقريري".
"عن أي معلومات تتحدثين؟".
أدرك ضياء بحدسه من نبرة صوتي أن الموضوع جاد فبدأ التوتر يتملكه، ووجدت أن هذه إشارة جيدة. فبوجود رجلين من رجاله في الحجز، لا بد أنه يتساءل عما أنوي فعله، فأدركت أن الغموض سيجعل الأمر أشد وطأة عليه.
"لن نناقش هذا على الهاتف. يبدو لي أنك مشغول الآن. سأشرح لك الأمر شخصياً عندما نلتقي لاحقاً".
"حسناً إذاً، سأقابلك عما قريب".
لا بد من وجود رهان عال جداً ينطوي عليه هذا الأمر، لأن ضياء بدا أكثر اهتماماً بتجنب إجراء محادثة غير سارة أمام زبائنه من سماع ما لديّ لأقوله له. وربما خشي أن يخاطر بالتنازل عن صفقة ما.
سألته: "كيف؟ وأين؟".
أجاب بكل ثقة قائلاً: "لا تقلقي. إن قونية مكان صغير. سأعثر عليك. يوماً سعيداً!".

وقبل أن تتسنى لي الفرصة لسؤاله عن الطريقة التي ينوي بها أن يعثر عليّ، أنهى المكالمة.

"الشيطان دليل من لا معلم له"
عندما وصلت إلى البوابة، صادفت رتلاً صغيراً من السياح كالذي صادفته في اليوم السابق، ولكنني هذه المرة لم أجد كشك بيع التذاكر عند المدخل مليئاً بسياح إنكليز، بل بمجموعة من الفرنسيين الذين يعتمرون طرابيش حمراء. لم أعثر على مينان في أي مكان، فتفقدت ساعتي مرة أخرى، ووجدتها تشير إلى الثانية عشرة بالضبط. وبينما كنت أتفحص المكان، سمعت صوته فجأة بين ضجيج السياح وهو يناديني من خلف الباب الدوار.
"هنا يا سيدة غرينوود. إنني هنا".
توجهت إلى الباب الدوار حين سمح لي الحارس ذو اللباس الموحد بالدخول. بدت حديقة الضريح مزدحمة بالزوار مرة أخرى. سألت مينان ونحن نشق طريقنا بين الحشود المتحمسة: "لا بد أنك وصلت إلى هنا مبكراً، أليس كذلك؟".
قال لي بخجل وكأنه ارتكب خطأً ما: "هذا صحيح. إذ بعد أن تركتك، اتصل بي عزت أفندي وسألني إن كان بوسعي أن أوصله إلى هنا لأنني قادم بطبيعة الحال، وبدا في حالة نفسية سيئة. من الواضح أن شيئاً ما سيئاً قد حدث، لذا أحضرته من بيته إلى هنا وأدخلته إلى مكتب مدير المتحف".
"إذاً، ما الذي حدث؟ ما سبب استيائه؟".
دندن مينان بغضب قائلاً: "لقد ضبط ابنه الوضيع وهو يحاول أن يسحب رهناً عقارياً على بيته. من الواضح أن ذلك الشاب المحترم أراد الحصول على قرض من المصرف، وحاول استخدام بيت والده كضمانة لذلك".
بدا ذلك تصرفاً يائساً من قِبَل ضياء. فلا بد أنه كان واقعاً في ضائقة مالية رهيبة. فكرت في سرّي بأن هذا سيساعدني في الحصول على وسيلة جيدة لمساومته قبل أن أبدأ بالقلق على أبيه.
"ما رأي عزت أفندي بما يجري؟".
"بالطبع قال إنه لن يفعل هذا ولو على جثته. ولم يكتف بذلك، بل بدأ في الحال بتنفيذ خطته الخاصة التي فكر بها منذ وقت طويل ولكنه لم يقرر تنفيذها حتى الآن. ولهذا السبب، أراد أن يأتي إلى هنا".
لم أفهم قصده، فقلت: "لماذا؟".
ابتسم ابتسامة واسعة وعيناه تلمعان، وقال: "لقد قرر أن يتبرع ببيته

للمتحف. نعم، هذا صحيح. إنه يريد أن يترك كل ممتلكاته الدنيوية لمتحف مولانا، وهذا هو ما يناقشه مع مدير المتحف. ومع ذلك، لا تزال هناك عراقيل قانونية، لذا عندما نغادر هذا المكان سأصطحب عزت أفندي ليقابل المحامي".

شعرت بإعجاب كبير تجاه عزت أفندي. إذ ليس قراراً سهلاً أن يترك كل شيء للمتحف بينما لا يزال ابنه على قيد الحياة.

سألته: "ما الذي سيقوله أقاربه الآخرون عن قراره هذا؟ لديه أبناء آخرون، أليس كذلك؟".

أعلن مينان ببهجة وهو يضحك: "كلا، إن ضياء هو ابنه الوحيد".

"سوف يدمر هذا الخبر ضياء".

قال مينان بقسوة: "دعيه يدمره. فذلك الرجل عديم الضمير يستحق هذا منذ وقت طويل".

بعد أن خرجنا من بين حشد السياح الصاخب في الحديقة، دخلنا ممراً. فأشار مينان إلى باب خشبي إلى اليسار.

"ها هو يا سيدة غرينوود. لقد خصص المدير هذه الغرفة من أجلنا".

وجدنا عزت أفندي جالساً أمام نافذة الغرفة الوحيدة. بعد ما قاله لي مينان، توقعت أن أجده متوتراً وغاضباً، ولكن الرجل المسن استقبلنا بابتسامة صافية وهادئة كما فعل في اليوم السابق. وعندما اقتربنا منه، نهض على قدميه ليحيينا، فمددت له يدي باحتشام.

قال لي وهو يأخذ يدي بقبضة يده اللطيفة: "أهلاً بك مجدداً يا ابنتي. كلما رأيتك، تذكرت بويراز. باركك الله".

أجبت الرجل العطوف قائلة: "في الواقع، نحن من ندين لك بشكر كبير. يسرنا كثيراً أن نلتقيك مجدداً".

أضاء وجهه المجعد وقال: "لا داعي للشكر. أتظنين أنني لن أستغل أية فرصة للتحدث إلى ابنة بويراز إن أرادت ذلك؟ هذا غير وارد مطلقاً".

أشار إلى كرسي أمامه وقال: "تفضلا بالجلوس".

جلست ونظرت حولي. بدت الغرفة أشبه بمكتبة صغيرة. فعلى الرفوف الزجاجية على الجدران، رأيت صفوفاً من الكتب المجلدة والمذهبة. وعلى الجدار، رأيت صورة لرومي محاطة بإطار، وصوراً لمجموعة أخرى من الراقصين الدوارين. وسمعت صوت ناي خافت من مصدر غير واضح.

هتفت قائلة: "يا له من مكان جميل! إنه صغير ولكنه بغاية الدفء".

"هذا متوقع. فهذه الغرفة كانت تعود إلى مولانا". وبدت نظرة عينيه

العسليتين مفعمة بالوقار، ثم قال: "إنها بحاجة لبعض الإصلاحات، ولكن لسوء الحظ يتطلب هذا بعض المال، أو الكثير من المال كما أعلمني مدير المتحف لتوه".

"ولكن، بالطبع بفضل أشخاص محبين للخير مثلك، سوف يتمكنون من..."

وبينما كنت أقول ذلك، عبس عزت أفندي ونظر إلى مينان، فاحمر وجه مينان المسكين وانكمش على كرسيه، فأدركت أنني ورطت مينان في مشكلة على ما يبدو.

قلت محاولة أن أصلح الموقف: "إنني آسفة، ولكنني ضغطت على مينان ليفسّر لي الموقف. ليس الخطأ خطأه هو".

زال امتعاض عزت أفندي بسرعة كمطر الصيف العابر وقال: "ليس خطأ أحد. ولكن، ليس من الجيد لفعل الخير أن يصبح معلومة عامة، ولكن بما أنه أصبح كذلك... حسناً، دعينا نسميها صدقة سرية".

ساد صمت قصير. بدأنا بداية سيئة، لذا لم أجد من المناسب أن نسأله عن ابنه المنبوذ الآن. فكرت أن أترك موضوع ضياء جانباً وأنتقل إلى موضوع شمس، ولكن عزت أفندي بدأ يشرح من تلقاء نفسه ما أحجمت عن سؤاله عنه.

نظر عزت إليّ بعينيه العسليتين وقال: "نعم يا ابنتي الحبيبة. رغم أن ضياء من لحمي ودمي، فهو لم يعد فرداً من أفراد عائلتي. ليحم الله الآخرين من شروره. إنني أدرك أن هناك أعمالاً بينكما وبينه، ولكن هذا كل ما لديّ لأقوله في هذا الشأن. فإن أردتما أن تقدما لي صنيعاً، فلا تتحدثا عنه مرة أخرى".

أخجلني كلامه، فقلت له بلهجة اعتذارية: "لا تقلق. لم نأت إلى هنا لنتحدث عن ضياء بل أتيت لأسألك عن العلاقة بين رومي وشمس".

علق على الفور وكأن الموضوع خطر بباله للتو: "هل قرأت القصة المتعلقة بالخاتم الذي ينزف؟ أعني تلك القصة المذكورة في كتاب شمس. لم أستطع العثور عليها، لذا...".

فقلت له رغم أنني لم أود أن أناقش هذا الموضوع الآن: "لقد عثرت على الكتاب وقرأت القصة، فوجدتها مثيرة للاهتمام، ولكن ليست لها أية علاقة بالخاتم الذي أعطي إليّ".

قال لي غير راغب بأن يلح في الموضوع: "حسناً إذاً. والآن، لنعد إلى سؤالك. أخبريني لماذا أنت مهتمة جداً بالعلاقة بين ذينك الحكيمين؟".

أدركت أنه من الأفضل لي أن أتوخى الصدق، فقلت: "في الواقع، إن

العلاقة بين والدي وشاه نسيم الباكستاني التي تحدثت عنها أمس هي ما يهمني. أظن أن والدي أراد أن تكون علاقته بشاه نسيم كعلاقة شمس بالمولوي".
بدا عزت أفندي مسروراً من صدقي، وقال: "إنك محقة. فنحن جميعاً نحاول أن نحذو حذوهما. إذاً، ما الذي تريدين أن تعرفيه بالضبط؟".
"كيف يمكن لشخصين أن يصبحا مقربين إلى هذا الحد؟ أي علاقة هذه التي تجمع بين رجلين ناضجين، وتجعل التفريق بينهما ضرباً من المحال؟".
أغمض عينيه وكأن السؤال بحد ذاته أحدث تأثيراً عميقاً عليه، ثم أومأ برأسه ببطء وشرح لي بلطف قائلاً: "إن المحبّة هي التي جمعت بينهما. يقول مولانا المبجل: إن الحب الذي لا يبقي شيئاً يذكّرني بنفسي يحررني. ولكن أولئك الذين يرضون فقط بما يرونه بأعينهم لا يفهمون هذه الحقيقة". انفرجت جفونه قليلاً، ونظر إليّ بعينيه الواهنتين وقال: "إن معظم الناس مثلك يتساءلون عمّا فعله رومي وشمس في تلك الأيام التي اعتكفا فيها في غرفتهما بعد لقائهما الأول. ما الذي يمكن أن يكون قد حدث في فترة العزلة تلك ودفع رومي للبحث عن أعظم الأسرار؟ حتى إنّ زوجته كيرا وقعت ضحية للفضول. ورغم أنها أدركت كم كان تصرفها خاطئاً، إلاّ أنها لم تستطع أن تمنع نفسها من التلصص من خلال ثقب باب الغرفة التي اعتكف فيها الرجلان المبجلان. وعندها، رأت الرجلين جالسين مقابل بعضهما من دون أن يتبادلا كلمة واحدة، وشعرت بسكون عميق وسلام وفرحة عميقة في عيونهما. تحول الرجلان إلى روحين داخل جسدين تتواصلان مع بعضهما بدون ألسنة ولا شفاه ولا إشارات بل فقط بعيونهما. لم تفهم كيرا التي لم تكن تدرك شيئاً عن هذا الأسلوب في التواصل ما كانا يفعلانه".
لم تكن كيرا وحدها من لم تفهم، فأنا لم أفهم ذلك أيضاً، لذا قلت باندفاع: "ما الذي فعلاه؟ ما الذي كسباه من الجلوس بهذا الشكل وهما صامتان؟".
تمتم عزت أفندي بصبر: "كانا يبحثان. جلسا بتلك الوضعية بصمت؛ من دون طرح أسئلة أو تقديم تفسيرات، وهما يبحثان داخل نفسيهما، ولكن ما سعيا إلى العثور عليه لم يكن سوى محبة الله. فبدون الحب، أدرك الرجلان أنه لا يمكنهما أن يعثرا على الحقيقة مطلقاً. ولقد عبّر مولانا عن ذلك على النحو التالي:
القلب والحب تجردا من مئات الستائر

جنباً إلى جنب وروحاً بجانب روح جلسا
فإن مر أحد بينهما في تلك اللحظة
لاشتعل بنيران الحب التي لا مهرب منها
وهكذا، يا ابنتي العزيزة، لقد اختارا المحبة طريقاً للوصول إلى الحقيقة".

لم تزدني كلمات عزت أفندي إلا حيرة. فقلت له لأؤكد على الاعتقاد الذي توصلت إليه: "إن هذا الحب الذي كانا يسعيان إليه مختلف عن الحب بين الرجل والمرأة، أليس كذلك؟".

لم يكن هناك ما يدل على الاحتقار في وجهه، ولكنه بدا خائب الأمل من جهلي، وقال: "كما قلت لك بالأمس، الحب بين الرجل والمرأة صغير ونهائي ومؤقت. إنه شعلة ضعيفة لا يمكنها أن تظل متقدة أو أن تضيء روح الإنسان". رفع سبابته ببطء في الهواء وأغمض عينيه، وقال: "أيمكنك أن تسمعي الموسيقى؟". وأراد بذلك أن يلفت انتباهي إلى صوت الناي الحزين. وتابع قائلا: "يقول مولانا: نحن مثل الناي وأغنياتنا إلهام. كان ذلك الرجل العظيم يظن أن هناك طرقاً عديدة تؤدي إلى الله، ولكنه يقول إنه اختار الناي والرقص الدائري طريقاً له.

وفقاً لما كتبه إفلاكي، جلس مولانا ذات يوم وهو يصغي إلى الموسيقى، فدخل أحد أصدقائه والتفت إلى الموسيقيّ ونهره بقسوة قائلاً: "التزم الهدوء!". فتدخل مولانا في الحال، ومنع الموسيقي من التوقف عن العزف قائلاً: "كلا، أكمل العزف، لا تتوقف عن عزف الموسيقى. ففي نغمات الناي سر مخفي عظيم لدرجة أنني لو كشفت عنه لانقلب العالم رأساً على عقب. نعم، ذلك ما قاله. لذلك السبب، يبدأ السيد أغنية شعبية تمدح الناي بقوله: أصغ إلى الناي وإلى القصة التي يرويها وإلى تفجعه على فراقنا. يصنع الناس الناي من قطعة قصب يأخذونها من ضفة البحيرة، ويُحدثون فيها سبع فتحات ويمنحونها شكلاً يصدر صوت الموسيقى. ولكن، مهما كان العازف ماهراً، فالناي يصدر مع كل نفس ينفخه فيه صوتاً يبوح بحنينه الخاص، وهو الحنين لضفة البحيرة التي قطع منها. فالناي قطعة من كلٍّ واحدٍ هو ضفة البحيرة؛ لذا يمكنه التوصل إلى الهدوء الحقيقي والسعادة الحقيقية والحب الحقيقي عندما يعود كياناً كاملاً من جديد. ولهذا السبب، يحمل الناي صفات ضفة البحيرة. أعني أن الجزء الدقيق في الأمر برمته هو البحث. ومع ذلك، ليس ذلك بحثاً يمكن للمرء أن يقوم به وحده. إذ يجب على الإنسان أن يتخذ لنفسه معلماً أو مرشداً؛ إن صح التعبير، وذلك لأنه لا يمكن للمرء أن يعبر وحده جسر الحب الذي

يبدو أرق من الشعرة وأحد من السيف".
"إذاً، فالتقرب من الله هو ما يدفع رومي للتقرب من شمس؟".
ابتسم وأومأ برأسه، وقال:"إنه مرشده، وهذه طريقة أخرى للتعبير عن علاقتهما. يوضح شمس العلاقة بين التلميذ والمرشد بأسلوب ذكي جداً:
ذات يوم، سُئل أحد التلاميذ: من أفضل؟ معلمك أم بيازيد بيستام؟
فأجاب التلميذ بدون أي تفكير: معلمي بالطبع.
- أليس هذا غريباً؟
فأجاب التلميذ بفخر وهو واثق من كلماته: كلا، لأن معلمي هو من يرشدني إلى وجود الله بوحدانيته وصفاته العلى، ولأن الشيطان معلم من لا معلم له".
عندما أنهى عزت أفندي حكايته، نظر إلينا وأضاف قائلاً: "الحكمة من هذه القصة أن العلاقة بين المرشد وتلميذه عميقة جدًّا".
تمتم مينان مرة أخرى وهو مذهول مما سمعه: "لهذا السبب يدافع مولانا عن علاقته مع شمس".
فربت الرجل العجوز على كتف ابن بلده بحنان، وقال: "نعم، يا بني".
إذاً، لقد اعتبر والدي شاه نسيم مرشده المحبوب، أي الشخص الذي يرشده إلى طريق الله. لا بد أن هذا هو السبب الذي أكسبه تلك المكانة العالية عند والدي، والسبب الذي جعل رومي لا يتخلى عن شمس. ولكن، ماذا عن شمس نفسه؟ لا شك أنه وضع رومي في المكانة ذاتها. وجدت الأمر بغاية التعقيد، فتساءلت في سرّي: ترى، من المرشد ومن التلميذ؟ ولكن شمس لم يكن يجيد التعبير عن مشاعره بالكلمات بفصاحة مثل رومي، ولم يتفوه بالكثير، ولم تغمره تلك البهجة العارمة. ومهما بلغ شمس من مكانة، فهو لم يكن شاعراً مثل رومي. كلا، لم يكن من ذلك النوع. وعلى العكس من ذلك، بدا دوره دالاً على أنه رجل يسعى لتنفيذ مهمة معينة. لذا، لم يتحرر شمس من عبء ذلك الواجب في تفكيره، وصمم على عدم التخلي عنه إلى أن يحققه. لقد كانت مهمته بحد ذاتها واضحة. إذ قرّر أن يرفع العالم العادي المعروف باسم جلال الدين رومي من مرتبة العلماء ويصهره ليصبح مولانا الذي خلدته كلماته لمئات السنين.
"ألهذا السبب قتلوه؟".
أتى سؤالي مباشراً جداً لدرجة أن عزت أفندي أصيب بالارتباك، فقال: "من؟". ولكنه استوعب فحوى السؤال في الحال، فأجاب نفسه بنفسه قائلاً: "أتقصدين شمس التبريزي؟".

أومأت برأسي.
فعلق بلا مبالاة قائلاً: "نعم، بسبب جهلهم وعجزهم على الفهم".
"وماذا عن علاء الدين؟ كيف تورط في هذه المسألة؟".
ابتسم عزت بمرارة، فأدركت ما يفكر فيه.
لم أود أن أخالف الرجل المسن الرأي، ولكنني شعرت أنه من الإجحاف إلقاء اللوم كله على علاء الدين.
فقلت له بلهجة لطيفة قدر المستطاع: "ولكن، يا عزت أفندي، لقد وقع علاء الدين في غرام كيميا. وأنا واثقة من أن كيميا كانت تميل إليه على حد سواء. ولا بد أن مولانا أدرك هذه الحقيقة، ومع ذلك لم يتردد بمنح شمس كيميا لتكون زوجة له، والأكثر من ذلك أن شمس وافق على الزواج من كيميا التي لم تبلغ سن الرشد بعد رغم تقدمه في السن. إن كتاب إفلاكي يذكر أن شمس مسؤول عن موت كيميا. ورغم عدم وجود أي دليل مادي على ذلك، إلاّ أنه يمكن للشك وحده أن يشكل سبباً كافياً يدفع علاء الدين إلى أقصى الحدود. إنني بالتأكيد لا أتغاضى عن جريمة القتل حتى في ظل تلك الظروف. ولكن، ألا يجب علينا على الأقل أن نأخذ بعين الاعتبار حالة علاء الدين النفسية في تلك الآونة؟".
رأيت وجه عزّت أفندي يشحب، والتزم الصمت لبعض الوقت وهو يعض على شفته السفلى، وقال بعد صمت قصير: "سمعت روايات من هذا القبيل". لم يبد صوته موحياً بالامتعاض، وتابع قائلاً: "حسب اعتقادي الشخصي، لقد تآمر أولئك الناس جميعاً لتشويه سمعة شمس. صحيح أن شمس ربما كان عديم الرحمة، ولكن فقط مع أولئك الذين يستحقون ذلك. أما بالنسبة لرومي، فهو لم يكن قادراً على التفكير بأفكار شريرة ناهيك عن ارتكاب أي عمل شرير".
لم أجد أنه من الصواب أن يتحدث عزت أفندي بكل هذه الثقة، ولا سيما في الوقت الذي يعترف فيه بأنه لا يعرف ما الذي جرى بالفعل.
"ماذا إن لم تكن هذه الروايات أقاويل بل حقائق؟".
قال لي وهو يهز رأسه بعناد: "أشك بذلك. ولكن، حتى في تلك الحالة يظل هناك معنى كامن للأحداث لا يمكننا أن نراه بأم أعيننا. هناك معان خفية عن أنظارنا على الجانب الآخر من باب الأسرار. لا يمكننا أبداً أن ندرك ما يجري على ذلك الجانب منه".
بدت مناقشتنا نموذجية بالنسبة لكل الأديان. فعندما وصل الحديث إلى هذا المدى أدركت أن هذه المناقشة لن تصل إلى أي نتيجة فقررت الاستسلام.

ومع ذلك، ظللت أشعر بالفضول في ما يتعلق برد فعل رومي تجاه ابنه المجرم.

"إذاً، هل تبرأ رومي من علاء الدين عندما عرف أن له يداً في مقتل شمس؟".

رمقني بنظرة غريبة وكأنني قلت شيئاً شائناً، ثم قال: "أتظنين أن رومي قادر على فعل شيء من هذا القبيل؟ إن رومي غير قادر على الحقد على أحد، فهو أشبه بالماء الذي يجري بصفاء بعد أن يذوب الثلج في الجبال، ويتدفق على طول مجراه جامعاً الغصينات والتراب في طريقه، بينما يترك القذارة خلفه. مما لا شك فيه أنه قد سامح ابنه. فقد كتب رومي على شاهدة قبر علاء الدين: يا إلهي الكريم، إن كنت تتقبل الصالحين فقط، إذاً إلى من يلجأ العصاة والمجرمون؟".

ربما فسر عزت أفندي هذا الكلام بهذه الطريقة، ولكنني ترجمت كلمات رومي بطريقة مختلفة. إذ بدت الكلمات من وجهة نظري تعبيراً عن ندم ذلك الوالد العميق بعد أن أدرك أخيراً الخطأ الفادح الذي ارتكبه.

"ما ينطوي عليه كل شيء
حقيقةٌ بغاية البساطة"

عندما تهيأت للاستئذان بالانصراف من ضريح مولانا، وجدت الظلام قد خيم مرة أخرى. ورغم أن فترة العصر لم تنقض بعد، إلا أن الشمس احتجبت خلف طبقات من السحب الزرقاء الداكنة التي تمتد عبر السماء، وبدا المطر الذي لم يهطل قط حتى الآن على وشك أن تنهمر قطراته. هممت أن أغادر وأترك عزت أفندي ومينان ليناقشا بعض التفاصيل المتعلقة بالعقارات مع الإدارة. قرر مينان أن يصطحب الرجل المسن في ما بعد ليقابله محاميه. ولكن، بينما كنت أهم بالمغادرة، أوقفني عزت أفندي وقال: "ستغادرين مرة أخرى بدون أن تأخذي هديتك. أظن أن هذا يعني أنك لم تسري من قصيدة الأمس".

فاحمر وجهي، وقلت له: "بالطبع أحببتها، ولكنني نسيت وحسب. قد يستغرق الاعتياد على عاداتكم بعض الوقت".

وبخني متظاهراً بالامتعاض وقال: "عاداتنا؟ هذه عاداتك أنت أيضاً. إياك أن تنسي مطلقاً أنك ابنة بويراز. إن والدك رجل صالح".

لم تكن لديّ أية نية بالدخول في مناقشة أخرى. وعندما التزمت الصمت، تابع الرجل كلامه قائلاً: "سأتلو عليك قصيدة أخرى من قصائد رومي بعد موافقتك بالطبع".

فأجبت بحماسة قائلة: "أود ذلك. تفضل لو سمحت".

نظرت إلى مينان الذي بدا أكثر حماسة مني، ورأيته شابكاً يديه على صدره، ومتخذاً وضعية الاستماع.

نحن مذنبون بالحب. من هم البشر مقارنة بنا
إنهم مخلوقات ضئيلة.
اطلب منا وجهاً شاحباً وقطعة من القلب
ما هي قطع الحرير التي يملكها التجار الجشعون بالنسبة لنا

أنهى الرجل المسن قراءة القصيدة وسألنا قائلاً: "إذاً، ما رأيكما؟".

قلت له بإعجاب: "إنها جميلة".

ورغم أنني لم أوافق عزت أفندي الرأي في معظم ما قاله، إلا أنني بدأت أستمتع برفقته سواء أكان ذلك بفضل أساليبه المهذبة القديمة، أو التسامح الذي جعله يتقبل كل شيء أقوله برحابة صدر، أو الوميض الذي يشع من عينيه رغم سنه، أو تعبير وجهه الهادئ الذي انعكست فيه حياة كاملة

قضاها مخلصاً لمعتقده. ولولا العمل الذي توجب عليهما القيام به مع مدير المتحف، لظللت جالسة معه لساعات. فكما قال عزت أفندي، إنه يجد وجه صديقه القديم بويراز عندما ينظر إليّ، وأنا أيضاً رأيت وجه والدي فيه. إن المثل القائل إنّ البعيد عن العين بعيد عن القلب ينطوي على الكثير من الحقيقة، فهو يفسر بكل تأكيد السبب الذي جعلني أفتقد والدي كثيراً الآن. ورغم أنني ظللت عاجزة عن مسامحته على هجراننا، إلا أن الغضب الذي أضمرته تجاهه بدأ يرخي قبضته على قلبي رويداً رويداً.
رن هاتفي ثانية فظننت أن المتصل هو السيد كويومكوزاد؛ الابن العاق الذي لا يجمع بينه وبين والده أي وجه شبه. أخرجت هاتفي، ووجدت أن المتصلة هي أمي. ورغم قرب موعد مقابلتي مع ضياء، إلا أنني سررت لسماعي صوتها في تلك الأثناء بدلاً من ذلك.
"مرحباً يا أمي".
قالت أمي وهي تبدو قلقة: "مرحباً يا كارين. هل أنت على ما يرام؟ ليس هناك أي خطب في ما يتعلق بالطفل، أليس كذلك؟".
"كلا يا أمي، إنني بخير. ومن المؤكد أن الطفل بخير أيضاً. لماذا تسألين؟".
"بسبب الرسالة التي تركتها لي... بدوت مستاءة جداً وكأنك تعرّضت لأمر مريع".
كانت محقة بالطبع، ولكنني لم أستطع أن أخبرها أنني قضيت ليلتي في المقبرة، لذا قلت لها بمرح مفتعل: "إنك تبالغين في القلق يا أمي. كل شيء على ما يرام، ولكنني قلقت عليك عندما لم أجدك في ذلك الوقت من الصباح. في أي مظاهرة احتجاجية خرجت؟".
"لم أشارك في أيّ مظاهرة احتجاج بل ذهبت إلى مقبرة هايغيت".
تذكرت أنني ذهبت إلى مقبرة هايغيت برفقة والدتي مرة واحدة وأنا طفلة، بمناسبة مرور مائة عام على وفاة كارل ماركس. ورغم تعاطف والدتي مع الحركات اليسارية والتقدمية إلا أنها لم تعتبر نفسها بأي حال من الأحوال ماركسية. أما صديقتها المفضلة بيتي، من ناحية أخرى، فلطالما اعتبرت نفسها من أهم أتباع الزعيم الشيوعي ليون تروتسكي. وهكذا، أجبرت والدتي على الذهاب معها. ولأن والدي كان في مكان آخر في ذلك اليوم، فقد ذهبت برفقتهما.
سألتها وأنا مرتبكة: "هل زرت قبر كارل ماركس مرة أخرى؟".
فأتى ردها الهادئ: "كلا، بل قبر مات الموجود في قطعة الأرض المخصصة لعائلته، ولكنك محقة. فماركس مجبر على مشاطرة مات المقبرة نفسها؛ رغم

أن مات لم يكن يهتم أدنى اهتمام لذوي الأفكار الراديكالية من أمثال ماركس".
تمتمت: "آسفة". ثم تابعت محاولة أن أغطي على خطئي: "ولكنني أظن أنك قلت إنك لا تنوين الذهاب إلى قبر مات".
"أنت محقة. فقد ظننت فعلاً أنني لن أذهب. ولكن، راودني حلم بشأنه في الليلة الماضية".
إنها أمي على كل الأحوال. فإن كنت أتحدث مع الموتى في أحلامي، فلِمَ لن تفعل هي الشيء نفسه؟
"إذاً، ماذا طلب منك؟".
"زهوراً...".
"طلب زهوراً؟".
"نعم، إنني جادة. فقد قال لي إنه يريد زهوراً، وحدد لي النوع واللون اللذين يريدهما".
"إذاً، ما هو النوع الذي طلبه؟".
"طلب سبع ورود صفراء. لهذا السبب، غادرت البيت في وقت مبكر جداً لألبي طلبه".
فجأة، خطر ببالي أنني وأمي تواجدنا على الأرجح في المقبرة في الوقت ذاته. فبينما ذهبت هي إلى مقبرة هايغيت التي يبلغ عمرها مائة عام لتضع زهوراً على قبر حبيبها الأول، ذهبت أنا إلى مقبرة الصالحين الثلاثة التي يبلغ عمرها ألف عام لأبحث عن شيء لا يعلمه أحد.
سألتها لأنني عجزت عن العثور على كلام آخر أقوله: "إذاً، هل المكان الذي دُفِن فيه جميل على الأقل. إنه مكان رائع حسبما أتذكر".
"بماذا يهم ذلك يا كارين؟ فالموتى لا يأبهون بشكل المكان الذي يدفنون فيه".
تغيرت أمي مرة أخرى. فقد ذهبت إلى المقبرة بشخصية سوزان الرومانسية ووضعت الزهور على قبر حبيبها لأنها حلمت به، وعادت إلى البيت بشخصية سوزان المنهكة بوجهة نظرها المنطقية حيال الموت. في تلك الأثناء، أصبحت أمام مسجد السلطان سليم، وبعد عشرة أمتار أخرى سأصبح أمام مدخل الفندق. لم أرد أن تنقطع محادثتي مع أمي، لذا أجلت دخولي إلى الفندق، وتوجهت إلى مقعد أحمر ساطع تحت شجرة سرو في المتنزه الصغير القريب.
قلت لها عندما وصلت إلى الشجرة: "في أي سن توقفت عن المشي في

أثناء نومي يا أمي؟".
"ماذا؟ من أين أتيت بهذا الهراء عن المشي في أثناء النوم؟!". وبدت قلقة كما اعتادت أن تفعل كلما تحدثنا بصراحة على مشكلاتي في فترة المراهقة.
"ليس هراء يا أمي. كلانا نعرف أنني اعتدت أن أفعل هذا. إنني أريد وحسب أن أعرف إلى أي سن دامت هذه المشكلة معي".
"لماذا؟ ما الذي دفعك فجأة للبدء بالتفكير بمتاعب طفولتك؟".
رفضت أمي أن تجيب عن سؤالي بشكل مباشر، فقلت لها وأنا أجلس على المقعد الشاغر: "لم يحدث شيء، ولكنني في الليلة الماضية شاهدت امرأة في أحد الأفلام تمشي في نومها، فدفعني هذا للتفكير بنفسي. الآن، هل ستجيبين عن سؤالي؟".
"لقد أمضيت طفولة طبيعية تماماً يا عزيزتي".
بدأت أسئلتي الفضولية تزيد من توترها، وبذلت ما بوسعها لتتجنب الإجابة.
"أعرف ذلك يا أمي، ولكن هذا ليس ما أسألك عنه".
"هل أنت متأكدة من أنك بخير يا كارين؟ أعني، إنك لا تخفين شيئاً عني، أليس كذلك؟".
"ما الذي يمكن أن أخفيه عنك يا أمي؟ إن أموري تسير على ما يرام هنا".
"ماذا عن الطفل؟".
"الطفل بخير. كفي عن القلق. إنك تثيرين أعصابك بلا أي مبرر".
"حسناً إذاً، ولكن ينبغي أن تعرفي أنني لست مستريحة بالفعل لفكرة وجودك في تلك المدينة".
لطالما كانت أمي امرأة نافذة البصيرة وقادرة على إدراك أبسط الرعشات في صوتي، لذا لجأت إلى ما اعتدت فعله في مثل هذه المواقف؛ أي اعترضت على كلامها.
"هدئي من روعك يا أمي. ليس هناك بكل تأكيد أي شيء يتطلب انزعاجك. أتظنين أنني لن أخبرك إن تعرّضت لأي مكروه؟".
قالت بكل ثقة: "كلا، لن تخبريني بل ستحتفظين بالسر لنفسك وكأنه إنجاز عظيم. لا بد أنك ورثت هذه الصفة عن أبيك. فقد كان بويراز يتمتع صراحةً بالكثير من الصفات الصالحة، ولكنني أظن أنك ورثت عنه صفاته السلبية لا غير".
لم أود أن تزداد حدة التوتر بيننا، لذا حاولت أن أبدده بالمزاح.
"آه، الآن فهمت. إنك غاضبة فقط لأنني ورثت صفات أبي".

"على الإطلاق. لماذا أغضب منك أنت في حين أنني لست غاضبة منه؟".
ساد الصمت لفترة، فسألتها بجفاء قائلة: "لقد سامحته بالفعل يا أمي، أليس كذلك؟ لم تعودي غاضبة منه، أليس كذلك؟".
أجابت أخيراً بعد صمت طويل: "كلا، لست غاضبة. لو كنت تحبين شخصاً ما، أعني تحبينه فعلاً، فستسامحينه في النهاية مهما فعل. وقد سامحت أباك. ومع ذلك، فأسوأ ما في الأمر، هو أن بويراز لا يعرف هذا. أتمنى لو تسنح لي الفرصة لكي أقول له هذا الكلام وجهاً لوجه".
قلت لأواسيها: "قد تقولين له هذا يوماً ما...".
فقاطعتني أمي قائلة بانفعال: "لقد صادفته في قونية، أليس كذلك؟ ألهذا السبب تطرحين كل هذه الأسئلة؟".
اكتسب صوتها الحيوية فجأة، فتمنيت من كل قلبي لو كان بإمكاني أن أخبرها أنني صادفته، ولكنني اعترفت لها في نهاية المطاف قائلة: "كلا يا أمي. لم أره. حتى إنني لست واثقة من أنني أريد ذلك".
قالت لي بصوت أكثر رقة وتعاطفاً: "أعتقد أنك ستودين ذلك. قد لا ترغبين بالاعتراف بالأمر، ولكنك سترحبين بالفرصة".
تحدثت أمي بالصواب بالطبع. فقد كنت سأحب أن تسنح لي الفرصة لأرى والدي وأتحدث إليه للمرة الأخيرة. ومع ذلك، لم أستطع أن أجبر نفسي على قول هذا لأمي.
"هذا صحيح ربما، ولكنني أشك بالفعل في أنه يود أن يراني. فقد كان بوسعه أن يعثر عليّ قبل سنوات عدة لو أراد ذلك".
"إنني واثقة من أن لديه أسبابه الخاصة التي تبقيه بعيداً عنا يا عزيزتي. ولا بد أنها أسباب لا يمكن فهمها".
وجدت كلامها هذا نموذجياً. فأمي التي لطالما حاربت الجميع كنمرة شرسة من أجل أقل الأشياء أهمية، تحولت فجأة عندما ذكرت اسم والدي إلى مثال للتفهم الذي يتعارض كلياً مع شخصيتها. قالت لي إن لديّ نقطة ضعف حيال نايغل، ولكن ضعفي أمام نايغل بدا تافهاً مقارنة بعاطفتها تجاه والدي. بكل صراحة، وجدت ولاءها المستمر له بعد كل ما فعله بنا أمراً مزعجاً للغاية، وخاصة لأنها لم تبذل أي جهد بالفعل لردعه عن الرحيل في تلك الآونة.
"هيا يا أمي. ما الذي لا يمكن فهمه؟ لم تستطيعا أنتما الاثنان أن تنجحا في زواجكما. فبقيت أنت - وشكراً جزيلاً لك - ولكن والدي رحل بدون أن يفكر أدنى تفكير بما يمكن أن يحدث لي".

"لم يكن بوسعي أن أعيش بدونك يا كارين. ولكن، حاولي أن تظهري بعض الرحمة لأبيك. فأنت لا تدركين ما الظروف التي مر بها آنذاك".
ها قد عادت للدفاع عنه مرة أخرى!
سألتها: "إن كنت تحبينه إلى هذا الحد، فلماذا تركته يرحل؟ لِمَ لم تحاولي منعه؟".
صدر الكلام مني بلهجة اتهامية رغم أنني لم أتعمد ذلك، ولكنها لحسن الحظ لم تنزعج من لهجتي.
وشرحت لي بهدوء قائلة: "لأنه لم يستطع أن يعيش معنا. فالطريق الذي اختاره ليسير فيه لم يكن يتقاطع مع طريقنا".
لفت انتباهي رجلان ملتحيان يخرجان من باب مسجد السلطان سليم المقابل. دس كل من الرجلين سبحته في جيبه، وبدأ ينتعل حذاءه، بينما أخذا يتجاذبان أطراف الحديث براحة بال نابعة من إنجازهما واجباتهما. وفجأة، بدأت أتوق لذلك النوع من راحة البال الذي رأيته على وجهيهما وللرضا الذي يشع من ملامحهما الهادئة. لهذا السبب ربما عارضت كلام أمي بعناد قائلة: "لماذا لا يمكن لطرقنا أن تتقاطع؟ لم يكن والدي متعصباً. فقد عاش في بلادك وتعايش مع ثقافتك لسنوات. ولم يحاول قط أن يفرض معتقداته عليك".
"لم يكن كذلك فعلاً".
"إذاً، لماذا تركته يرحل؟ لا تقولي لي إن السبب هو اختلاف معتقداتكما. إذ إنني أرى أن معتقداتك أقرب إلى دين والدي من أي فرع آخر من المسيحية. ألست محقة؟".
أجابت بإيجاز ثانية: "نعم".
كلما وافقتني أمي الرأي، ازددت غضباً، وازدادت نبرة صوتي حدة، فقلت: "إن كان كل ذلك صحيحاً، فلماذا تركته يرحل يا أمي؟ لماذا سمحت لشاه نسيم بأن يجره وراءه؟ لماذا لم تتعاملي معه بتسامح أكبر؟".
قالت لي بعجز: "لم يكن ذلك ليشكل أية أهمية. فمهما حاولت، ومهما بذلت من جهد، كان والدك سيرحل".
"لماذا قد يود أن يفعل ذلك؟ أتذكر أنه كان عطوفاً ومخلصاً لنا كلتينا. لو أنني تمتعت في ذلك الوقت بالقدرة على التفكير والتصرف جيداً كما أفعل الآن، لربما ظلّ والدي بيننا".
قالت لي بصوت متهدج: "إنني آسفة يا كارين". من الواضح أنها بدأت تعاني من صعوبة بالكلام: "إنك محقة ربما. كان يجب عليّ أن أبذل جهداً

أكبر للحفاظ عليه".
دفعني صوتها المتهدج - وليس ما قالته - للتخلي عن الموضوع. وبدأ الندم ينهشني، فما الذي سأجنيه من لومي هذه المرأة المسكينة على شيء حدث قبل سنوات عديدة؟ إن كان هناك من يجب إلقاء اللوم عليه فهو والدي.
تابعت كلامها قائلة: "ولكن، حتى لو فعلت ذلك، كان والدك سيصمم على المغادرة ليصحح الخطأ الفادح الذي ارتكبه".
"أي خطأ؟".
"الخطأ الذي ارتكبه عندما ترك شيخه ومأوى الدراويش في قونية وجاء إلى لندن برفقتي قبل كل تلك السنوات. فقد بدأت عاطفته تجاهي تضعف في نهاية المطاف. وعندما حدث ذلك، استعادت عاطفته القديمة تأججها، فاشتاق للعودة إلى المأوى والشيخ وإلى حياته كدرويش...".
قلت لها بلطف باذلة ما بوسعي لئلا أجرحها أكثر مما فعلت: "حسناً، إنني أتفق معك يا أمي. ولكن، ربما لو لم تتشاجري معه وتقبلته كما هو لما افتقد مأواه وشيخه وحياته كدرويش في المقام الأول".
قالت وهي تحاول أن تكبح حزنها: "إن ما لا تفهمينه، يا كارين، هو أن والدك اتخذ قراره بأن يتركنا مهما فعلنا. فحتى لو عشنا معه في تناغم تام، فهجره المنزل أمر محتوم".
عجزت عن فهم قصدها، وربما في الواقع لم أكن أريد أن أفهمه، فقلت: "لماذا؟ كيف يمكنه أن يهجر أعز من يحبهم؟".
"لأن والدك كان كغيره من الدراويش يؤمن بذلك السر العظيم الذي يعني له أكثر مني ومنك ومن الإنسانية جمعاء؛ ذلك السر الذي يمكن الوصول إليه عن طريق الحب فقط، ولا أتحدث عن حبي أنا".
مرت أمام عيني وجوه أبي وشاه نسيم وعزت أفندي وشمس وورومي الواحد تلو الآخر. فوجدتهم جميعاً يشتركون بالسلوك الخيِّر بشكل لا محدود، وبالثقة بالنفس، وباللامبالاة تجاه العالم المادي، وبالتسامح العميق نحوه في الوقت نفسه.
سألتها لأستوضح ما قصدته بقولها ذاك: "هل تتحدثين عن حبه لله؟ أي الحب الإلهي؟".
لمع البرق في السماء، وشعرت بالمقعد الذي جلست عليه يهتزّ بفعل الرعد، وبدأ المطر ينهمر، ولكنني لم أعر السماء التي راح البرق يشقها أي انتباه، وكذلك وابل المطر الوشيك.
نعم، ذلك هو السر العظيم والحقيقة المطلقة التي تحدث عنها شمس،

والتي جمعت بين أولئك الرجال. هل كان ذلك خطأ كبيراً؟ لا بد أن المعنى الذي يكمن وراء ذلك أوسع وأعمق وأكثر تعقيداً من السؤال أو الإجابة نفسيهما.

واصلت أمي الحديث وهي غير مدركة الأفكار التي راحت تدور برأسي.

"أجل يا حبيبتي. ولهذا، فهو ليس بحاجة لحب إنسان أو زوجة مثلي أو حب طفلة مثلك...".

تذكرت قصة الدرويش الذي عثر عليه ابنه بعد وقت طويل فطلب أن تؤخذ روحه أو روح ابنه. ولكنني اعتبرتها قصة حزينة وقاسية، فطردت الصور التي راودتني بامتعاض.

"سيف ضخم بإحدى اليدين ورأس ضياء
المقطوع باليد الأخرى"
ظللت جالسة على المقعد الأحمر تحت شجرة السرو الباسقة النحيلة لبعض الوقت متجاهلة هدير الرعد الغاضب، ولمعان البرق، والسماء التي ازدادت ظلمة وقتامة. جلست مفكرة بكل ما قالته لي أمي. ومع ذلك، لم تكن لديّ أية فكرة عن أفكار والدي ودوافعه الحقيقية. كيف يسعني ذلك في حين أنني لا أستطيع الحصول على تفسير منه؟ ربما أخطأت أمي الظن أو اختلقت الأعذار لتخفّف عن نفسها. ولكن، حتى لو أحببت أن أصدق ذلك، فقد بدا أن تفسيرات عزت أفندي تؤكد كل ما قالته. إذ إن والدي لم يمتنع عن التضحية بنا بكل بساطة من أجل مبادئه، ولم يُبدِ أية تحفظات حيال ترك زوجته وحدها أو ابنته بلا أب في سبيل محاولة الوصول إلى الحقيقة المطلقة. وعلى العكس من ذلك، لا بد أنه شعر بالفخر بما أنجزه لأنه خرج من حربه ضد رغباته منتصراً، وتحرر من كل روابطه الدنيوية، وأصبح غير مبال بتوقه وألمه وحزنه، ونجح في الموت قبل أن يموت، وفي اتخاذ خطوة مهمة في رحلته. وماذا عن شمس؟ أي شمس؟ قلت هذا وأنا محبطة من نفسي. لا بد أنه مجرد اختراع لفقه خيالي، وكابوس وألاعيب مارسها عقلي الباطن عليّ. أدركت فجأة أن أمي نجحت في الواقع في التملص من موضوع مشيي في أثناء نومي. فلا بد أنها خشيت أن يؤدي الاعتراف بالحقيقة إلى معاودة ذلك الاضطراب الكامن الظهورَ من جديد. قررت عدم التخلي عن المسألة بتلك السهولة. ولكن، بينما كنت أفكر بمعاودة الاتصال بأمي لأطرح عليها السؤال، بدأ المطر ينهمر. ويا له من مطر! فقد تدفقت قطرات المطر من السماء أنهاراً، وكادت تغرقني.
نهضت عن المقعد بسرعة، واتخذت مسلكاً مختصراً نحو الفندق. تركت مسجد السلطان سليم خلفي، ومررت بجانب النافورة حتى وصلت إلى الرصيف. عندها، توقفت أمامي سيارة سوداء من طراز جيب. لاحظت أول الأمر الشعار المرسوم على الباب بالأبيض، وهو صورة المحارب الذي يحمل سيفاً ضخماً في يده اليمنى ورأس ميدوزا بعينيها الناريتين بيده اليسرى، أي صورة بيرسوس التي تتخذها شركة إيكونيون للسياحة شعاراً لها. وعندما نظرت إلى النافذة، انفتح الباب الأسود وظهر وجه ضياء.
قال وهو يتحرك ليفسح لي مجالاً: "هيا، اصعدي".

انحنيت لأنظر إلى داخل السيارة عن كثب، فرأيت كافيت يجلس على مقعد السائق. وحين لاحظ نظرتي ابتسم لي ابتسامة فاترة. وعلى الرغم من المطر الذي راح ينصب فوق رأسي، فكرت للحظة أنه من الأفضل لي عدم الركوب.

ألحّ عليّ ضياء قائلاً: "ما الذي تنتظرينه؟ إننا نحاول الوصول إليك منذ بعض الوقت، ولكننا وجدنا هاتفك مشغولاً، فانتظرنا أمام الفندق. لا تقولي إنك نسيت أنه من المفترض بنا أن نلتقي؟".

كان محقاً، فقد طلبت هذا اللقاء بنفسي. إذاً، لِمَ التردد؟

قلت وأنا أدخل السيارة: "مرحباً. لقد وصلت في الموعد المحدد. كنت سأبتلّ كليًّا بحلول الوقت الذي سأصل فيه إلى المدخل".

بينما أخذت ملابسي تقطر ماء وتبلل المقعد، التفت إلى كافيت المهووس بالنظافة ورأيته يراقبني بهلع: "آسفة، فقد تسببت ببعض الفوضى".

قال ضياء بسرعة: "هذا ليس مهماً. آمل أن تكون هذه أسوأ مشاكلنا". والتفت إلى كافيت وقال: "لننطلق".

سألته محاولة أن أخفي الخشية في صوتي: "إلى أين سنذهب؟ ألا يمكننا أن نتحدث في الفندق".

أجاب ضياء بدون أن ينظر إليّ: "سنذهب في نزهة صغيرة". ثم حول وجهه إلى الأمام من جديد، بينما اختفى التعبير المرحب الذي بدا على وجهه، والابتسامة التي اعتاد أن يرسمها على شفتيه كلما حاول أن يبدو ساحراً. وبدت عيناه مركزتين على ماسحتي الزجاج اللتين راحتا تحاولان جاهدتين أن تبعدا المطر الذي راح يضرب زجاج السيارة الأمامي، ولكنني أدركت أنهما لا تنظران إليهما. فقد بدا أنّ غضبه المتأجج بسبب الخيانة التي تعرض لها يتفاقم داخله، ويتأهب للانفجار. وفجأة، أدركت كم كانت فكرة ركوب السيارة معه فكرة سيئة. وبينما كنّا نحن الاثنان جالسين على المقعد الخلفي مسمرين في مكانينا، غيّر كافيت ناقل الحركة، وزاد السرعة بناء على أوامر رئيسه. بدأت أتساءل إن كانا ينويان اختطافي، ولكنني أيقنت أنهما لن يجرؤا على إلحاق الأذى بي. إذ لم تمر بعد أكثر من بضع ساعات على إطلاق سراح كافيت. وإن وقع أي مكروه لي، فسيكون أول المشتبه بهم.

التفت لأشاهد الطوفان الغامر الذي ملأ شوارع قونية من خلال المطر المنهمر شلالات على النافذة؛ محاولة أن أبعد الأفكار المتشائمة عن ذهني وأهدئ من روعي. ولكن، عندما لم يتفوّه ضياء وكافيت بكلمة واحدة،

بدأت أفقد هدوئي. أردت أن أعرف ما سيجري لي، لذا رسمت تعبيراً فضولياً على وجهي ووجهت كلامي إلى السائق.
"هل أنا مخطئة يا كافيت، أم إنني رأيتك عند باب مقر الشرطة صباح اليوم؟".
لم يعرف سائقنا المهووس بالنظافة كيف يجيب عن سؤالي، لذا نقل بصره من وجهي إلى وجه مديره في المرآة الأمامية.
تابعت قائلة لأحثه على الإجابة: "كما أنني رأيت سيرهاد معك".
"إن سيرهاد رهن الاعتقال الآن يا سيدة غرينوود".
أتى هذا الرد من ضياء بصوت آلي، وكأنه صوت قاض يصدر حكماً في المحكمة.
سألته محاولة أن أبدو متعاطفة: "حقاً! لماذا؟ لماذا يعتقلون سيرهاد؟".
صاح ضياء في وجهي بحدة وهو ينظر إليّ شزراً: "كفّي عن هذا. إننا نعرف ما الذي تنوين فعله".
شعرت بسرعة السيارة تزداد. ها قد نزلت الأوراق كلها على الطاولة أخيراً. فقد بدأ الرجلان يتهمانني بشكل مباشر بأن لي يداً في الاعتقال. ظللت مصرة على براءتي، فيما كنت ألعن نفسي في سري لأنني ركبت السيارة معهما.
"لست أفهم. ما الذي تقصده؟".
رد عليّ بحدة قائلاً: "لا تتظاهري بالجهل". بدت عيناه تقدحان شرراً من شدّة الغيظ. وفجأة، اختفى رجل الأعمال المثقف والمؤدب والطموح، وحل محله رجل متنمر لا يتورع عن ارتكاب أي فعل. وقال: "أنت من وشيت به".
زمجر كافيت وهو يضرب المقود بيديه المكسوتين بقفازه: "وأنا أيضاً. لقد قلت للشرطة إنني وسيرهاد من أضرمنا الحريق، فقلبت الشرطة بيتينا رأساً على عقب".
قال ضياء ليدعم رجل عصابته: "لقد تظاهرت بلا أي خجل أنك صديقتنا المخلصة، ودفعتني سذاجتي لتصديق ادعاءاتك".
"أنت مخطئ...". ولكن ضياء استدار نحوي، وقبض على ذراعي اليسرى بيده، وقال وهو يحدق إلي: "لا تمارسي الألاعيب معنا. إنني غاضب بالفعل الآن يا سيدة غرينوود. صدقيني. طوال فترة الصباح وأنا أجري اجتماعات في المصرف. وفي نهاية المطاف، لم أستفد أي شيء على الإطلاق. فقد رفضوا منحي القرض. وحتى والدي أدار ظهره لي. سأخسر كل شيء، لذا فمبلغ

التأمين الذي سأحصل عليه من شركتك آخر أمل لي. ومع ذلك، يبدو لي أنك تبذلين كل ما في طاقتك لتمنعي حصولي عليه. لن تتركي لي خياراً آخر يا سيدة غرينوود. أتفهمين هذا؟ إنك تحشرينني في زاوية ضيقة...".

شد يدي بقوة، فتحركت سترته جانباً قليلاً كاشفة عن عقب مسدس أسود. تساءلت إن كان قد تعمد القيام بهذه الحركة ليبث الرعب في نفسي. لا بد أنني سأرتكب خطأ فادحاً إن خدعت نفسي بالمزيد من الأفكار المتفائلة، فقد بدا الرجلان بغاية الجدية.

قلت له متلعثمة: "أصغ إليّ يا سيد كويومكوزاد. إنك ترتكب خطأ فادحاً. فقد خرجت من مخفر الشرطة لتوي حيث استلمت جواز سفري".

قال وهو يدفعني بقوة: "توقفي عن التفوّه بهذا الهراء".

صحت عندما انحشرت يدي داخل مقبض الباب إلى يميني وقلت له: "ما الذي تفعله؟ هذا وحشي... أوقف السيارة... أوقفها... سأنزل منها".

رداً على ذلك، زاد كافيت السرعة متعمداً الابتسام، وساخراً منّي وهو ينظر إليّ في المرآة.

قال ضياء وهو يمد يده نحوي مرة أخرى: "لن تذهبي إلى أي مكان". فأجفلت ظناً مني أنه سيضربني، ولكنه لم يفعل، بل مد يده وأمسك حزام الأمان وشده حولي قبل أن تتسنى لي الفرصة لكي أدرك ما يفعله. لم يفعل ذلك من أجل حمايتي بالطبع، ولكن كيلا أقفز من السيارة.

قال بصوت كالفحيح: "أنصحك بأن تأتي معنا إن أردت أن تخرجي من سيارة الجيب هذه وأنت على قيد الحياة".

قلت له محاولة السيطرة على صوتي المتهدج: "إن قتلي لن يفيدك بأي شيء. إن وقع أي مكروه لي، فأنتما أول من سيتعرّض للاعتقال".

ارتسمت ابتسامة خبيثة على شفتي ضياء، وقال: "هذا إن عثروا على جثتك".

فقلت له محاولة أبدو واثقة من نفسي: "سيفعلون هذا بكل تأكيد. فالمفتشة زينب شرطية بارعة كما يمكن لكافيت أن يؤكد لك. إنها تتعقبكما منذ بعض الوقت. لذا، لن تفلتا من العقاب". نظرت إلى عيني كافيت في المرآة، ولاحظت تردده، فتابعت مخاطبة ضياء ومشيرة إلى السائق: "وإن لم تتكلم أنت، فسوف يتكلم هو بشكل مؤكد".

قال كافيت: "لا تقحميني في هذا...". في تلك اللحظة بالذات، انزلقت السيارة إلى اليمين بشكل ملحوظ، فوبّخه مديره قائلاً: "أقفل فمك وانتبه للطريق. سوف تتسبب بحادث".

التفت كافيت إلى الطريق، وتمتم على الفور وهو يبدو كمن رأى شبحاً: "ما هذا!؟".

نظرت وضياء في الاتجاه الذي نظر إليه كافيت، ورأينا رجلاً متسربلاً بالسواد يقف في وسط الطريق الذي بالكاد يبدو مرئياً؛ متجاهلاً المطر المنهمر. ورغم أنني لم أتمكن من رؤيته بوضوح، إلا أنني عرفت من هو. وللمرة الأولى، سررت برؤيته.

تنفست الصعداء وتمتمت بأمل متجدد: "هذا شمس".

لم يسمعني ضياء، وأمر سائقه بصوت يهتز من شدة الغيظ: "دس على دواسة الوقود. ادهسه!".

تردد كافيت وهو يحدق إلى شكل الرجل الواقف في وسط الطريق.

"إن هذا الرجل لا يبتعد عن طريقنا يا ضياء. انظر إليه... إنه يتقدم نحونا".

ضرب ضياء مقعد كافيت بيده وقال: "لا تتحدّث إليّ، بل نفذ الأوامر".

غيّر كافيت ناقل الحركة، وداس على دواسة الوقود مرة أخرى، فانطلقت السيارة بسرعة جنونية وصوت هادر. نسي كل من الرجلين أمري الآن، وحولا نظرهما نحو الرجل الواقف على الطريق. وبينما أخذت سيارة الجيب تنطلق نحوه بسرعة جنونية، شاهدت صاعقة تضرب المكان خلف الرجل ذي الملابس السوداء، ولكن الرجل ظل مسمراً في مكانه، بينما ظهرت كتلة ضخمة من النار مستعدة لابتلاعنا. داس كافيت على المكابح بقوة، فاندفعنا جميعاً إلى الأمام قبل أن تبدأ سيارة الجيب بالدوران حول نفسها دوراناً خارجاً عن السيطرة. لم أستطع فعل شيء سوى التشبث بمقبض الباب بعجز وكأنه سيحميني. كانت كلمات ضياء آخر ما سمعته قبل أن تنقلب بنا السيارة، فقد قال: "ما الذي فعلته أيها الأحمق؟".

فتحت عيني ووجدت نفسي محاطة بصمت مطبق. بدت الأشكال والألوان كلها متمازجة مع بعضها، فلم أستطع أن أتبينها بوضوح، ولكنني سمعت عندئذ همس نسيم لطيف من النوع الذي يأتي بعد هطول المطر، وهو يهب على برك المياه في الطريق. تنفست عبيره العذب، ثم حاولت أن أنهض، ولكنني لم أستطع ذلك. فقد ثبتني حزام الأمان في مكاني بإحكام. مددت يدي إلى الأسفل وضغطت على الإبزيم الذي يفتحه. لا بد أن الحظ قد حالفني؛ فقد كنت واثقة من أن السيارة قد انقلبت. ولكن المثير للاستغراب أنها عادت إلى وضعيتها المستقيمة. لاحظت لطخة حمراء كبيرة على زجاج السيارة الأمامي، فحدقت إليها محاولة أن أستعيد قدرتي على

الرؤية. وعندما أدركت ما هي، تراجعت إلى الوراء مرتعبة. كافيت!
وصحت قائلة: "يا الله!".

لم أجد مكان وجه كافيت سوى كتلة حمراء من العظام المهشمة المغطاة بالدماء. التفتّ وأنا مرتعبة لأنظر إلى ضياء، ولكنني وجدت مقعده خالياً، وبابه مفتوحاً على وسعه، والزجاج مكسوراً ومبعثراً إلى قطع صغيرة. تحركت ببطء نحو الباب المفتوح، وأنا أتوقع أن أرى مشهداً فظيعاً آخر. اقتربت بحذر، فرأيت ضياء ممدداً على ظهره على بعد متر من الباب. لم أر أي دم على جسده، لذا تنفست الصعداء، ولكن الأرض الوعرة منعتني من رؤية وجهه. لا بد أن رأسه كان منحنياً إلى جانب آخر. وعندئذ، سمعت صوت تمتمة خافتة، فركزت كل انتباهي عليها، وسمعت الترنيمة التي اعتاد صني أن يغنيها:

هم همهم هناك درويش
فتح الدرويش مأوى للدراويش
تنانيره الواسعة تتبعثر منها الأسرار
ولكن، لا أحد يعرف عنها شيئاً

التفت لأنظر إلى مصدر الصوت، فرأيت صني يهتز إلى الأمام والخلف على الإسفلت وهو يغني.

هم همهم هناك درويش
رأسه يرقى إلى السماء العالية
ولحيته تلامس الأرض من تحته
ومن شفتيه تتناثر الأسرار
ولكن، لا أحد يستطيع أن يسمعها.

لاحظت شكلاً مبهماً لإنسان - أدركت بعد قليل أنه شمس - يقف في وسط الطريق على بعد بضعة أمتار خلف صني حاملاً شيئاً بيده. حاولت أن أركز نظري، وعندئذ رأيت ضياء، أو بشكل أكثر دقة، رأيت رأسه فقط. ولكن شعره تحول إلى أفاع سامة متلوية، بينما تحولت عيناه إلى بركتين من الدماء يتطاير منهما شرر مرعب. نظرت إلى اليد التي تحمل ذلك الرأس، ثم إلى الذراع، ثم إلى الرجل الغريب المتسربل بالسواد. وسط الضباب الكثيف الذي تسرب في أعقاب المطر، وقف شمس ناظراً إليّ وهو يبتسم ابتسامته الشجاعة التي تشبه ابتسامة بطل مقدام من إحدى القصص الأسطورية، وهناك سيف ضخم في إحدى يديه ورأس ضياء المقطوع في يده الأخرى.

"الآن يمكنك أن تؤدي الرقص الدائري"
وجدت نفسي محاطة بوميض أزرق ثلجي مألوف، بينما بدا لون الأرض تحتي شبه أبيض. اكتشفت أنني مجردة من كل ملابسي، ولكن ذلك اللون الأزرق الثلجي نفسه اكتنفني بالكامل. رأيت الأشجار والتلال والصخور والحصى وكل ما يحيط بي يشع باللون نفسه كالكريستال. شعرت أنني في عالم آخر، وأحسست بجسدي متحرراً من كل وزنه، وبخطواتي خفيفة كالريش وأنا أمشي على غير هدى. لامست الريح جلدي، ثم شكلت قطرات صغيرة راحت تسيل على ذراعيّ حتى تجمعت في راحتي يدي. شعرت بوخز خفيف بكل جسدي، وشممت رائحة لاذعة في الهواء لسعت أنفي ودخلت حنجرتي. رددت رأسي إلى الوراء، ولكنني عجزت عن التخلص منها. بدأت أسعل، ولكن لم يصدر مني أي صوت، فقد ضاع صوتي في الصمت. أدركت أنني بت محبوسة في صمت أبدي؛ كما حبست في هذه الملاءة الزرقاء المتجمدة. وعندئذ، رأيت ضوءاً ذهبياً يقترب مني ويذيب تلك الأرض الثلجية البيضاء وهو يشق طريقه نحوي. أصابني التوتر والخشية من السقوط في الهاوية السحيقة التي سيخلفها وراءه. وفي تلك اللحظة، شقت همسة جدار الصمت.
سمعت صوت امرأة تقول: "أظن أنها تستعيد وعيها... فقد سعلت".
ثم سمعت صوت رجل يقول: "لا بد أن المصل قد أحدث مفعوله. دعينا نعلق لها محلولاً آخر".
وعندما فتحت عيني، رأيت امرأة ذات شعر كستنائي توجه أداة طبية تشبه ضوءاً كشافاً صغيراً نحو وجهي، بينما وقف خلفها رجل نحيل ذو شعر رمادي يرتدي معطفاً أبيض.
ابتسمت المرأة وقالت: "كيف تشعرين بعد أن عدت إلى الحياة أخيراً؟".
أمسك الرجل ذو المعطف الأبيض يدي اليمنى وقال: "حاولي أن تسترخي من فضلك".
ألقيت نظرة خاطفة على قفازَي الرجل الأبيضين، وسرعان ما تذكرت كافيت واستعدت كل الأحداث في ذاكرتي؛ وابل المطر الغزير، والسيارة الجيب التي أقلتني، والدرويش ذا الملابس السوداء الذي وقف مسمراً في وسط الطريق، وانقلاب السيارة، وصني وترانيمه الطفولية، وشمس وهو يمسك برأس ضياء الشبيه برأس ميدوزا المقطوع...
سألتهما مع أنني تذكرت كل التفاصيل: "ما الذي حدث لي؟".

تمتم الرجل وهو يغير كيس المحلول الطبي: "لقد تعرضت لحادث سيارة، ولكن الحظ حالفك فنجوت بأعجوبة".
انزلقت يداي بشكل تلقائي نحو بطني، وسألت بشكل مباشر: "والطفل، كيف حاله؟".
قالت المرأة ذات الشعر الكستنائي محاولة أن تهدئ من روعي: "هوِّني عليك. إن الطفل بخير وكذلك أنت".
فتنفست الصعداء. ورغم أنني عرفت الإجابة، إلا أنني سألتها: "وماذا عن الآخرَين؟".
لم يعرفا بماذا يجيبانني. ولا بد أنهما خشيا أن يكون ضياء وكافيت من أصدقائي المقربين أو أقاربي، ولهذا السبب ترددا في أن يزفا لي الخبر السيئ. فقلت لهما لأسهل عليهما المهمة: "لقد فارقا الحياة، أليس كذلك؟ هيا، يمكنكما أن تخبراني".
قال الرجل: "نعم، يؤسفني هذا. لم ينج أي منهما".
"كيف؟ كيف ماتا؟".
نظر إليّ برعب وهو يتساءل على الأرجح عن سبب اهتمامي بالتفاصيل.
فقلت له: "لقد ارتطم رأس كافيت بالزجاج الأمامي. رأيت ذلك بنفسي". وصمتُّ عن الكلام لأحثه على التأكيد، ثم قلت: "وضياء... رأسه...".
أشاح الرجل ذو الشعر الرمادي بوجهه مذعناً لإصراري واعترف قائلاً: "نعم، إنه حادث مروّع بالفعل. فقد قطع رأس ذلك الرجل".
تابعت كلامي بإصرار متزايد: "كيف؟ كيف حدث هذا؟".
ارتسمت النظرة المرتبكة نفسها على وجهيهما. ولا بد أنهما ظنا أن الإصابة قد أثرت على قواي العقلية، ولكنني لم آبه لذلك، فقد منعني فضولي من التوقف عن طرح الأسئلة.
"من فضلكما أخبراني. كيف قطع رأسه بالضبط؟".
"حدث هذا عندما طار من السيارة. فقد فصل زجاج السيارة رأسه عن جسده. كانت السيارة تسير بسرعة جنونية. إن نجاتك من الحادث أعجوبة بالفعل".
"وماذا عن السيف؟". أدركت أنني بدأت أفقدهما صبرهما، ولكن لم تكن بيدي حيلة، فقلت: "هل وجدوا سيفاً في موقع الحادث؟".
رمقني الرجل بنظرة صارمة وقال: "سيف؟ عم تتحدثين؟".
"كان هناك سيف. رأيت سيفاً ورجلاً يرتدي ملابس سوداء".
نظرا إلى بعضهما بخشية وقلق، ثم تناولت المرأة محقنة من الصينية

بجانبها، وملأتها بالدواء من دون أن تتفوه بكلمة. وبعد ذلك، حقنت الدواء داخل كيس المحلول، فأدركت أنهما قررا إعطائي دواء مهدئاً، لذا قمت بمحاولة أخيرة لأشرح ما جرى.

"أدرك أنكما لا تصدقانني، ولكنني رأيت رجلاً يحمل سيفاً بيده. إنه درويش يرتدي ملابس سوداء. وهو طويل ونحيل وله لحية متشابكة وعينان كحيلتان...". بدأ كلامي يتداخل ببعضه بينما رأيت خطوط وجه المرأة تتداخل وتمتزج. حاولت أن أبقي ذهني صافياً، فكررت كلامي قائلة: "له عينان كحيلتان...".

على جانب الطريق، وقف الرجل مرتدياً رداء من صوف الماعز الأسود، وعيناه الكحيلتان تحدقان إلى عينيّ. شع ضوء البدر على أحد جانبي وجهه، بينما ظل الجانب الآخر معتماً؛ فوجدت مظهره ممتزجاً مع البادية الواسعة مترامية الأطراف ومتوحداً معها.

سألني باستياء قائلاً: "لماذا تعتبرينني قاتلاً؟ لماذا أخطط في أحلامك دائماً لقتل شخص ما؟".

وقف أمامي وهو يبدو طويل القامة ومظهره يدل على التحدي، وطرح عليّ سؤاله وكأنني مسؤولة عن كل هذا.

أجبته وأنا أحاول أن أستجمع أفكاري: "لست أدري. ولكن، ربما يمكنك أنت أن تخبرني".

قال وهو يهز رأسه ذا الشعر المشعث: "لا أعرف. فليست لهذه الأشياء علاقة بي. صحيح أنني لا أتصف بعدم المبالاة، وأنني أصب جام غضبي على أولئك الذين يستحقونه، ولا أحجم عن إعلامهم بذلك، إلاّ أنني لست معتاداً على إنهاء حياة الناس الذين أصادفهم في طريقي. وبالإضافة إلى ذلك، فحتى ملك الموت نفسه لا يمكنه أن يأخذ روح شخص ما لم تحن منيته بعد".

"إذاً، كيف مات ضياء وكافيت؟".

ابتسم ولمعت أسنانه البيضاء المصقولة تحت ضوء القمر، ثم قال: "قتلتهما السرعة. لماذا قد يقود أحد ما سيارته بتلك السرعة تحت المطر؟". أظهرت عيناه شفقة صادقة، ثم تابع كلامه قائلاً: "لحسن الحظ، لم تتعرضي أنت أو الجنين الذي ينمو داخلك لأي مكروه".

أغضبني ذكره موضوع طفلي، فسألته وأنا عابسة: "ما الذي تريده؟ لماذا تطاردني؟".

ربت على لحيته، وتأملني من الأعلى إلى الأسفل ثم قال: "لا أريد منك

شيئاً".
فقلت وأنا أقترب منه بجرأة: "بل تريد. وإلاّ فلماذا تطاردني بهذا الشكل؟ هل أنت بحاجة لمساعدتي؟ إن كان هذا صحيحاً، فقل لي ما تريده. وإن كان هناك ما يمكنني فعله من أجلك، فسوف أفعله".
بدأ شمس يفقد أعصابه، ورأيت الشرر يقدح من عينيه السوداوين وهو يقترب مني، ثم وبخني قائلاً: "من أنت لتساعديني؟ ما الذي قد يمكنك فعله لي في حين أنك عاجزة حتى عن تحديد مصير طفلك؟".
"إن حياتي الخاصة ليست من شأنك".
قال بسهولة وكأنه يسرد حقيقة معروفة: "في الحقيقة، لطالما شكلتُ جزءاً جوهرياً من حياتك. فأنا ألازمك منذ وقت طويل، ولكنك لا تدركين ذلك. فقد أمضيت أيام طفولتك في غيبوبة، ولطالما بدوت ضائعة حيال بقائك إلى جانب أبيك أو أمك. مر الكثير من الوقت، وقد يظنّ المرء أنك كبرت ونضجت، ولكنك لا تزالين واقعة في الورطة نفسها". وأشار إلى بطني، وقال: "هل ستلدين هذا الطفل؟ أم إن صديقك الجراح سيقنعك بأسلوبه أن تتخلصي منه؟ هل ستعيشين حياتك أم حياته هو؟ بدلاً من أن تحاولي مساعدتي، أسدي نفسك صنيعاً وحلي تلك المسألة بشكل حاسم وإلى الأبد".
كان لسان ذلك الرجل يقطر سماً، فشعرت أنني أريد أن أمزقه إرباً. ولكنني حافظت على هدوئي، وقلت له محاولة الحفاظ على برودة أعصابي: "صحيح أن لديّ بعض القضايا العالقة، ولكنْ لحسن الحظ لديّ حسّ بالتعاطف مع الآخرين، ولا أتجول في الأنحاء لأقتل الناس. ومن المؤكد أنني لن أؤذي أحبابي".
اكفهرت ملامحه، وأشاح بوجهه بعيداً وقال: "هل يجب عليك أن تتطرقي إلى هذا الموضوع مجدداً يا كيميا؟".
"نعم، سأتطرق إلى الموضوع مجدداً... تلك الفتاة المسكينة... العروس الشابة التي قتلها زوجها لأنها أحبت شخصاً آخر".
لم يجد رداً على كلامي، فوجدت في ذلك فرصة لي لأنفّس عن كل الغضب المحتبس داخلي، وقلت: "إنك ربما تأمل أن أساعدك على إراحة ضميرك المتسخ وعلى غسل الدم الذي يلطخ يديك".
وفجأة، شعرت أن عنقه النحيل بين كتفيه المنحنيتين يعاني صعوبة في حمل رأسه.
"هناك عهد توجب عليّ أن أفي به. فقد تعهدت بمنح رأسي ثمناً لرؤية وجه جلال الدين رومي الذي اختاره لي الله صفياً مخلصاً".

"بقتلك فتاة صغيرة!! ماذا اقترفت تلك الفتاة لتستحق ذاك المصير؟".
دمدم بيأس قائلاً: "إنك لا تفهمين شيئاً. لقد أسأت فهم كل شيء كشفته لك لأن عين روحك مغمضة. فأنت لا تستطيعين أن تري ما وراء حدود عقلك. إنك لا تعرفين الحب الحقيقي، ولهذا السبب لا تدركين معنى التضحية. انظري إلى حبك التافه الذي ضعفت جذوته وانتهت كل لهفته. يمكنكما فقط أن تتحملا بعضكما بالسفر إلى أراض بعيدة، والبحث عن المتعة، وإشباع شهيتكما بالأطعمة الدسمة والغزل حتى يتعب جسداكما، ومع ذلك، تتجرئين على انتقادي".
بينما كان يقول هذا الكلام، لم يسعني إلا أن أتساءل عن كيفية مقارنته وضعه بعلاقتي مع نايغل. ولكن هذا الدرويش ذا الملابس السوداء واصل كلامه متعمداً؛ وهو إما غير مدرك لما أفكر به أو غير مكترث به.
"أنت لم تعرفي الحب الحقيقي قط لذا لا يمكنك أن تحكمي عليّ. ولم تقحمي يدك في النار، لذا لا يمكنك أن تعرفي كيف لا يموت الحب في القلب البشري بل يتحول بدلاً من ذلك إلى ألسنة لهب مضطرمة. وأنت لم تموتي من أجل حبيبك ولم تقتلي من أجله، لذا لا يسعك أن تفهميني".
لطالما تذرع بهذه الحجة الوحيدة. فإن اتهمته بشيء، قال إنني لا أفهمه ولا أستوعب الحقيقة الكامنة وراء المظاهر، ولكنني رفضت أن أتراجع هذه المرة، وواصلت تحديه غير آبهة بالعواقب.
"لا يجب على المرء أن يصبح قاتلاً ليعرف ما تعنيه جريمة القتل. فالجريمة تبقى جريمة سواء أحدثت الآن أم قبل سبعة قرون. والقاتل يظل قاتلاً سواء أكان شخصاً عادياً من الشارع أم درويشاً غامضاً".
قال وهو ينظر إليّ بغضب: "احفظي لسانك يا فتاة. لا أسمح لك بالتحدث إليّ بهذه الطريقة". لا بد أنني نجحت في إثارة غضبه مرة أخرى.
قلت له بدون أن أجفل: "كل ما أقوله صحيح".
وقفنا تحت ضوء البدر ونحن نواجه بعضنا؛ وكأننا عدوان يتأهبان للنزال. كان بوسعه أن يفعل بي ما يشاء، ولكن لم يعد يهمني أي شيء بعد الآن. فقد حان الوقت لكي أضع حداً لهذه الكوابيس وأجد لنفسي مخرجاً من هذه المتاهة من الألغاز.
فاجأني شمس عندما انفجر ضاحكاً من دون سابق إنذار، ثم قال لي عندما توقف عن الضحك أخيراً: "يا لك من امرأة شجاعة! أقدر لك هذا، ولكنك ما زلت مخطئة. فأنا لا أطلب مساعدتك لأن ضميري مرتاح ويديّ نظيفتان. في الواقع، أنت التي تسعين إلى مساعدتي". وعندما رأى عيني مفتوحتين

على وسعهما، تابع كلامه قائلاً: "أعرف أنك لست مدركة لهذا بعد. فأمثالك من الناس لا يجيدون دوماً التعبير عن حاجاتهم بشكل واضح، بل إنهم في بعض الأحيان لا يعرفونها فيطلبون المساعدة من دون أن يعوا ذلك".

حاولت أن أضحك كما ضحك لأن كلامه لم يبد لي منطقياً على الإطلاق، وسألته بسخرية قائلة: "إذاً، ما نوع المساعدة التي أطلبها منك؟".

اقترب مني وحدق بعيني بنظرة خالية من التعبير؛ بالطريقة نفسها التي يراقب فيها الإنسان نهراً تنساب مياهه أمام عينيه، وقال: "لقد قلت لك هذا من قبل مرات عديدة. ليس هذا شيئاً يمكن شرحه، بل يجب عليك أن تريه بنفسك. تعالي وشاهديه معي". تحدث معي بنبرة موحية بالرتابة، وكأنه معلم واثق من أن تلميذه الغبي سيفشل في الاختبار مرة أخرى كعادته.

ظل يتأملني للحظة قصيرة. وبعد ذلك، التفت ومشى مبتعداً من دون أن يُظهِر أي اهتمام بالكلام الذي أردت أن أقوله. وبينما شقّ الدرويش الغامض النحيل طريقه قدماً، ظهر أمامي امتداد لا حد له من البياض.

تمتمت بيني وبين نفسي قائلة: "هذه بحيرة الملح؛ البحيرة التي رأيتها في أول زيارة لي إلى قونية".

واصل شمس المشي بعزم وتصميم وكأنه لم يسمعني. ورغم أنه أشار إليّ، إلاّ أنه لم يزعج نفسه بالالتفات نحوي ليرى إن كنت أتبعه. حثثت الخطى محاولة أن أقصر المسافة بيننا. وبينما كنت أفعل ذلك، شق أنين الناي الحزين صمت الليل. من أين تأتي هذه الموسيقى؟ نظرت حولي، ولكنني لم أر أثراً لأي إنسان. شعر شمس بإحباطي فأشار إلى الضوء أمامه، وقال لي بصوت عذب وناعم: "إنهم يستعدون للرقص الدائري. وها قد بدأ العزف على الناي الآن".

نظرت إلى حيث أشار شمس بيده، وعلى بعد خمسين متراً خلف البحيرة التي ينعكس عليها ضوء القمر، رأيت سبعة رجال موزعين في الأنحاء على شكل دائرة واسعة. كان الرجال جالسين على ركبهم ومتسربلين بعباءات سوداء، وعلى رؤوسهم تلك القبعات الطويلة. شعرت بريقي يجف، وبيدي تبدآن بالتعرق، وتشنجت معدتي، وأخذت ساقاي ترتعشان. لم أستطع أن أتحمل هذا المزيج من العاطفة والشك الذي راح ينمو في عقلي تدريجياً، فتوسلت إليه قائلة: "دقيقة واحدة من فضلك، ألا يمكنك أن تتوقف لدقيقة واحدة فقط؟".

"ما المشكلة؟ هل أصبت بالتعب؟".

شعرت بغصة تتصاعد في حنجرتي، وقلت: "لا، لست متعبة، ولكنني بحاجة لدقيقة واحدة من فضلك".
حذرني قائلاً: "لن ينتظرونا. يجب أن نصل إلى هناك قبل أن ينهضوا لتأدية الرقصة".
"لماذا؟ لماذا يجب علينا أن نذهب إلى هناك على أية حال؟".
نظر إليّ بعينيه السوداوين وكأنه يعرض عليّ شرحاً، وقال: "لأنه لا تأثير لكلماتي في هذا المكان. يجب عليك أن تري كل شيء بأم عينيك".
بعد أن التقطت أنفاسي، واصلت المشي معه من جديد. مررنا فوق بقعة خشنة من الأرض، واقتربنا من البحيرة، فهيمن على المكان بأكمله ذلك الضوء الأزرق الثلجي الذي بدأت أجده مألوفاً جداً. بدا المظهر موحياً بأن القمر سقط في البحيرة وسلط أشعته على المكان من تحت طبقة كثيفة من الملح. تقلصت البحيرة، وأصبحت تحيط بالحلقة التي يجلس فيها الراقصون السبعة، ممّا جعلها تبدو كمسرح مضاء. توقفنا خارج الحلقة، وأخذنا نراقب الرجال من بعيد. نظرت إلى وجه الدرويش الجالس مقابلي وفوجئت عندما رأيت أنه شمس، ولكنني أدركت فجأة أن الدرويش الآخر الجالس بجانبه شمس أيضاً. في الواقع، اتضح لي أن الراقصين السبعة هم جميعهم الدرويش نفسه الذي رأيته في كوابيسي. التفت إلى شمس الذي أحضرني إلى هنا طالبة تفسيراً لما يجري، فقابلتني عيناه الجادتان.
تمتم لي بنبرة مواسية: "لا تندهشي. إننا هنا للسبب نفسه".
عاود شمس النظر إلى الدراويش السبعة الشبيهين به. تلاشى أنين الناي كمصباح زيتي تحترق فتيلته ببطء حتى ينطفئ. وعندما توقفت الموسيقى، أخذ الدراويش السبعة نفساً واحداً عميقاً بشكل جماعي، وصفعوا الأرض بأيديهم، ونهضوا بشكل متزامن؛ باستثناء الدرويش الجالس مقابلي، فقد ظل جالساً ورأسه منكس وساقاه مطويتان تحته. خلع الدراويش الآخرون عباءاتهم السوداء، وراحت تنانيرهم البيضاء تلمع تحت ضوء القمر. بدأت الموسيقى تعزف من جديد. وهذه المرة، سمعت صدى صوت طبل يتردد في أرجاء المكان مرافقاً الناي. عاودت النظر إلى الدرويش الذي لم ينهض وفغرت فمي في دهشة. وفجأة، تجسدت أمامي الفكرة العابرة التي خطرت لي عندما رأيت الدراويش للمرة الأولى. إذ لم يكن الدرويش الذي جلس مقابلي منكفئاً على نفسه عندما بدأت الرقصة إلا الأب الذي تخلى عني قبل كل تلك السنوات؛ أبي الذي لم يأبه لأمري قط طيلة سنوات عديدة أو يسأل إن كنت حية أو ميتة. تشبثت بشمس الواقف إلى جانبي لئلا

أنهار على الأرض، ولكنني أبقيت عيني على والدي. لم يكن الزمن قد أحدث أي تغيير فيه. فقد وجدته بالضبط كما بدا في اليوم الذي رحل فيه. ورغم شعره المتواري تحت قبعته الصوفية، تمكنت بسهولة من تمييز عينيه السوداوين الكبيرتين وأنفه الروماني ولحيته نحاسية اللون المرصعة باللون الفضي... والأهم من كل ذلك، تمكّنت من تمييز تلك الكآبة المزمنة والحزن العميق اللذين عشقتهما أمي في وجهه النحيل الطويل.
قال شمس قاطعاً حبل أفكاري وأنا أتأمل والدي: "إنك تودين أن تريه. وها هو أمامك!". بدا صوته مفعماً بالقناعة، فنظرت إليه بعيني المبللتين بالدموع. قال شمس: "ولى عهد الإنكار يا كيميا. هذا هو الأمر الذي قض مضجعك منذ أن حضرت إلى قونية. هذا هو والدك الذي لطالما شغل أفكارك. إن مسألة الحريق تلك مجرد عذر. فقد أتيت إلى هنا بهدف البحث عنه، وها قد عثرت عليه".
تملكتني الدهشة والبهجة في آن معاً؛ لدرجة أنني لم أقو حتى على الاعتراض. فقلت لشمس بامتنان وأنا أنكس رأسي: "هذا صحيح. فقد أردت أن أعرف مصيره وما حل به. وأنت ساعدتني على تحقيق ذلك".
نظر إليّ ببرودة وقال: "لم أحضر لمساعدتك أنت، بل لمساعدة والدك بويراز أفندي".
لماذا يصرّ هذا الرجل على فطر فؤادي؟ هل يريد التلاعب بي والعبث بعقلي؟ توجب عليّ أن أتأكد من ذلك.
"لماذا قد يحتاج والدي للمساعدة؟ إنه مثلك تماماً".
قال بفتور وكأن الكلام خبر قديم: "نعم، لا شك بذلك. يقال إن أعظم الحروب هي حرب الإنسان ضد رغباته. في بعض الأحيان، نظن أننا وصلنا إلى النور، ولكننا حين ننظر إلى أنفسنا نرى أقدامنا مقيدة؛ وكأنها مربوطة، أو كأنّ هناك عبئاً ثقيلاً جاثماً على قلوبنا ويعيق طريقنا. هذه القيود تجبرنا على التراجع، في حين أن الطفو هو جوهر رحلتنا. لا يمكن لقلوبنا أن تتحمل الكثير، لذا يجب علينا أن نتحرر من كل رابطة تقيد الروح ونرميها وراء ظهورنا؛ هذا هو ما يعنيه الدرويش. إذ يجب على الدرويش أن يتخلى عن جسده وحياته ومشاعره، ولكن هذا لا يعني أن المهمة سهلة. إذ إنه يتعثر في مشيه إلى أن يأتي يوم يتحول فيه إلى طائر، فيطير إلى السماء بلا أي جهد، ويتوه بين الجبال الوعرة، ويتدفق كنهر عظيم، ويتقدم في الصحاري القاحلة بحثاً عن طريق يخرجه من البئر التي لا قرار لها، أو يبقى بانتظار نسيم يهب عليه من ذلك البحر الساكن. إن والدك

الآن في تلك الصحراء القاحلة يبحث عن طريق للخروج من تلك البئر. ومع ذلك، فهناك ما يزعج ضميره، وهناك عقدة في قلبه، وتلك العقدة هي أنت. فرغم أنه تخلى عن جسده وتخلى عن حياته، إلاّ أن حنينه إليك لا يزال يقيده ويعيق طريقه ويمنعه من أداء الرقصة الدائرية".

تذكرت قصة الخاتم، وقصة الدرويش الذي تحوّل الدم في قلبه إلى عقدة تحوّلت بدورها إلى حجر لأنه لم يعد يستطيع أن يشارك في الرقصة.

"لهذا السبب ينزف الخاتم الذي أعطيتني إياه، أليس كذلك؟". وعندما لم أسمع أي رد منه، غامرت بطرح سؤال آخر يقض مضجعي، فقلت: "أيمكن لشخص مرتبط بطفله أن يجرب الموت قبل أن يموت؟".

"إن والدك لا يستطيع ذلك، فهو عاجز عن الانضمام إلى الرقصة. ولهذا السبب أنت هنا".

التفت لأنظر مرة أخرى إلى والدي الذي لم أره منذ سنوات. بدا لي بغاية التعاسة، لدرجة أنه لم يستطع أن يراني أو يرى شمس، وكأن عينيه انقلبتا إلى داخله وراحتا تراقبان بيأس كامل قلبه وهو يقسو ويتحول إلى حجر.

تابع شمس كلامه قائلاً: "ومع ذلك، ليس هناك أي إكراه في طريقنا. بذلت قصارى جهدي لأوضّح لك الأمور، وجعلتك ترين تغير الأحداث بأم عينيك. أما كل ما تبقى، فيعتمد على طبيعتك. إن قلب بويراز أفندي معقود بالحب الذي يكنه لابنته كيميا. وسواء أرغبت في أن تحلي تلك العقدة أو أن تواصلي حياتك بكل بساطة، فهذا القرار عائد إليك أنت".

لم يظهر وجه شمس ما يشير إلى مشاعره وهو يقول هذا الكلام؛ وكأنه تعمد الامتناع عن التأثير عليّ ليدعني أتخذ قراري الخاص بنفسي. ثم مد يده وأمسك بيدي اليمنى ووضعها في راحة يده اليسرى. وكما فعل في المرة الأولى، فتحها ووضع الخاتم الفضي ذا الحجر البني فيها. لم أستطع حتى أن أتذكر أين تركته آخر مرة.

"إن أردت أن تحلي العقدة، يجب عليك أن تعيدي الخاتم إلى صاحبه الأصلي".

شددت قبضة يدي على الخاتم والتفت إلى المسرح الذي ستؤدى عليه الرقصة، فرأيت الراقصين ينحنون أمام بعضهم بالتحية. بدأت الأحداث تتسارع، ولم يعد هناك وقت للتردد. توجهت نحو الراقصين وأنا أحاول ضبط أعصابي. وفي اللحظة التي وضعت فيها قدمي داخل الدائرة، توقفت الموسيقى، وتجمد الراقصون في أماكنهم، بينما ظللت ووالدي وحدنا قادرين على الحركة. وعندما لاحظ والدي أن الموسيقى والحركة قد توقفتا، التفت

إلى الدرويش الواقف بجانبه ليسأله عما يجري. وعندما وجده متسمراً في مكانه، التفت نحوي ورآني. لم أظن أنه سيميزني لأنني لم أعد أشبه ولو قليلاً تلك الفتاة الصغيرة التي هجرها قبل سنوات عديدة. ومع ذلك، سرعان ما تلوت قسمات وجه أبي من فرط العاطفة، ومد يديه المرتجفتين نحوي من دون أن يرفع نظره عني، وصاح بصعوبة قائلاً: "كيميا! ابنتي الصغيرة!".

ابنتي الصغيرة! نظرت إلى نفسي، فوجدت أنني قد تحولت بكل تأكيد إلى طفلة من جديد. في الواقع، عدت إلى الهيئة نفسها التي بدوت عليها عندما تركني والدي؛ في تنورتي الكحلية المطرزة وجزمتي الحمراء. تمنيت من كل قلبي أن أركض إليه وأرتمي بين ذراعيه، ولكنني شعرت بشيء يعيقني عن القيام بذلك. وبدلاً من ذلك، تقدمت نحوه بخطوات بطيئة وثقيلة، فرأيت الدموع تنهمر من عينيه وهو يفتح يديه ويرفعهما إلى السماء ويتمتم. فكرت أنه بلا شك يشكر الله لأنه أرسلني إليه، ولكنني اكتشفت أنه ليس دعاء شكر بالتأكيد، فقد أخذ والدي يبتهل إلى الله؛ بالضبط كما فعل ذلك الدرويش الذي طلب من الله أن يأخذ حياته أو حياة ابنه. أيمكن أن يبتهل والدي ذلك الابتهال نفسه؟ شعرت بالخجل، واستولى عليّ حزن عميق، وتحسّرت على الآمال التي لطالما علّقتها على هذا الرجل. لقد أدار ظهره لنا ذات مرة على أية حال، وها هو يفعل ذلك مرة أخرى. هذا ما فكرت فيه في سرّي، ومع ذلك لم يسعني أن أقاوم الاستماع لما يقوله.

سمعت صوت ابتهاله الصادق وهو يقول: "يا الله، أنزل رحمتك عليها. إن أردت أن تأخذ حياة أحدنا، فلتكن حياتي أنا. لقد عجزت عن منحك حبي كما ينبغي عليّ، ولكن هذه ليست غلطة كيميا".

وفجأة، شعرت بالبهجة تتفجر في داخلي. فوالدي لم ينس طفلته كما فعل الدرويش الآخر، بل على العكس من ذلك، فحبه لي هو ما منعه من تحقيق هدفه بالوصول إلى الإنسان الكامل كما قال شمس. لم يقو والدي على التخلي عن طفلته الصغيرة. ورغم أنه هجرنا، إلاّ أنه لم يستطع أن يخلص نفسه من الألم الذي اعتصر قلبه لقيامه بذلك. لقد قص ذلك الألم جناحيه، وقيد يديه وقدميه، وشكل عقدة في قلبه، ومنعه من تأدية الرقصة الدائرية. وقفت أمامه، وأمسكت يديه اللتين رفعهما ليبتهل إلى الله بين يدي، فوجدتهما باردتين ومرتجفتين وضعيفتين. نظر إليّ بعينيه المتعبتين، فوددت أن أبتسم له، ولكنني لم أستطع ذلك. أردت أن أكبت النحيب

المتصاعد من حنجرتي، ولكنني وجدت ذلك مستحيلاً، فتشبثت به وأجهشت بالبكاء. ضمني بقوة بين ذراعيه، فاستنشقت عبير نبات إبرة الراعي الذي فاح من جسده النحيل. بكيت من كل قلبي، وظللت أنتحب لعدة دقائق كما ينتحب طفل مهجور ما شاء لي البكاء بدون أي تحفظ أو خجل.

فبكى والدي، وراحت دموعه تنهمر على خديه بصمت وكأنه يخجل منها.

هدّأت دموعه آلام قلبي وسكّنت أحزاني، فشعرت أنني شفيت من جراحي واسترخيت، ثم تذكرت ما يتوجّب عليّ فعله، لذا تحررت من بين ذراعي أبي بلطف، وأمسكت بيديه بين يدي مرة أخرى.

قلت له بعد أن تمكنت من الابتسام أخيراً: "انهض يا أبي".

نكس أبي رأسه وهو يبدو فاقد الأمل محطماً، وقال: "لا يمكنني ذلك يا ابنتي. لا يمكنني أن أغادر هذه الحلقة وآتي معك".

شرحت له وأنا أمسح الدموع عن لحيته بيدي: "لا أطلب منك النهوض لكي تأتي معي. انهض يا أبي، فقد حان الوقت لتنضم إلى الرقصة".

أضاءت ملامحه وكأن ضوء القمر المنعكس على البحيرة تركز على وجهه، وسألني بحيرة قائلاً: "هل نسيتني؟ هل انتهى كل شيء؟".

أدركت أنه ينظر إلى السماء وليس إليّ أنا، ولكنني أدركت أيضاً أنني الوحيدة التي يمكنها أن تجيبه.

تمكنت من القول وأنا عاجزة عن السيطرة على صوتي المتهدج: "نعم، إنني أسامحك". ودسست الخاتم الفضي ذا الحجر البني في إصبعه.

"ها أنا أعيد إليك الخاتم! هيا، تحرر من عقدتك ومن كل ما يعيق طريقك. فقد أصبحت حراً الآن. أنت حر لتنضم إلى الرقصة!".

حدق والدي إلى عيني بحيرة، ثم حول نظره إلى الخاتم. وبينما كان يتفحصه بعينيه، ابتعدت عنه بهدوء، ثم شققت طريقي بحذر مبتعدة عن حلقة الراقصين.

وبينما كنت أمضي مبتعدة عن الحلقة، بدأت الموسيقى تعزف من جديد، وواصل الراقصون تحياتهم من حيث توقفوا، فنهض والدي بخفة من مكان ركوعه وكأنه ريشة وانضم إلى رفاقه. ورغم أنه رفض أن يظهر ذلك، إلاّ أنني تمكنت من ملاحظة بهجته العارمة. توقف أمام درويش يتمتع بطوله نفسه، وانحنى له محيّياً بلطف. رفع الدرويش رأسه، فرأيت صورة والدي منعكسة في ملامحه. نظرت إلى الدراويش الخمسة الآخرين، ورأيتهم جميعاً يشاطرون والدي تعبير البهجة نفسه. التفت إلى شمس الواقف بجانبي وأنا أبتسم، فاكتشفت أن الدرويش المتسربل بردائه الأسود وصاحب العينين

الكحيلتين قد اختفى، ولكنني وجدت صديق طفولتي صني يقف مكانه، وعيناه الزرقاوان تلمعان بفرح غامر تحت ضوء القمر.

"الرياح التي جلبت والدي إلى هنا
هي التي أخذته معها"
شعرت بأحدهم يلمس يدي، ففتحت عيني وأنا أشعر بالحيرة، ووجدت أنني قد عدت إلى غرفة المستشفى البغيضة تلك بإضاءتها البيضاء الصارخة. فقد اختفت البحيرة المالحة التي أصبحت مسرحاً للرقص الدائري، وكذلك اختفى صني ووالدي الذي تركته يدور حول نفسه بنشوة وسعادة. وهكذا، اختفى الحلم. وجدت مينان بشحمه ولحمه جالساً إلى جانبي على كرسي، وهو يمسك بأنبوب المصل غير مدرك أنني استيقظت.
قلت له محاولة أن أنفض عن نفسي تأثير الحلم: "سيد فيدان، ما الذي تفعله هنا؟".
تلوى مينان على مقعده وكأنني ضبطته متلبساً وقال: "حسناً... لقد فرغ كيس المصل، لذا أخرجت الإبرة، هكذا أمرني الطبيب".
قلت له بإعجاب: "إذاً، لقد أصبحت ممرضاً لي أيضاً، أليس كذلك؟".
شرح لي بخجل وهو يشيح بوجهه جانباً: "ظننت أنه ينبغي عليّ أن أمكث معك بما أنه لا يوجد أحد آخر هنا".
تابعت كلامي وأنا ألمس ذراعه بلطف: "شكراً لك. أنت إنسان طيب يا سيد فيدان".
صار وجهه أحمر اللون كالدم وقال: "كلا، لا شكر على واجب. أنت ضيفتنا، أعني أنك مسؤولة منا رغم أننا لم نمنحك الحماية اللازمة. فقد قضيت نصف وقتك في قونية في المستشفى، وبالكاد نجوت من الموت هذه المرة". ثم اكتسبت لهجته نبرة جادة وهو يقول: "كيف حدث هذا يا سيدة غرينوود؟".
رغم أنني تذكرت الحادث كما جرى بكل تفاصيله، إلاّ أنني بدأت أشرح له بهدوء وكأنني أحاول جاهدة تذكّر ما حصل.
"أظن أن ضياء وكافيت حاولا خطفي، ولكنني لست واثقة من ذلك، إذ ربما أرادا إخافتي وحسب، فانطلق كافيت بالسيارة بسرعة جنونية بينما كانت الطرق مبللة".
فأضاف مينان توقعه لما جرى قائلاً: "ولكنه فقد السيطرة على السيارة بالطبع. وعندما داس على المكابح...".
لم أحاول أن أشرح له ما رأيته وسمعته بعد ذلك لأنني لم أكن متيقنة من مدى صحته، فأومأت برأسي بتمهل وأنهيت جملته قائلة: "انقلبت

السيارة، وأنت تعرف ما تبقى".
كرر وهو مستغرق بالتفكير: "نعم، سمعت ذلك... ليرحمنا الله. لقد لقي الرجلان حتفهما، ولكن محاولتهما اختطافك تؤكد لنا أنهما بلا شك من أشعلا الحريق".
"أظن ذلك. ولكن، ما زلنا لا نملك دليلاً على تورطهما. يبدو لي أنه سيتوجب على الشركة أن تدفع تعويض العطل والضرر في كل الأحوال".
هز مينان كتفيه بلا مبالاة قائلاً: "لمن سندفع المبلغ؟ لقد مات ضياء وليس لديه شريك أو شيء من هذا القبيل".
"هناك زوجته وأطفاله...".
"لقد تزوج في الماضي مرة واحدة، ولكنه طلق زوجته بعد سنتين، ولم ينجب أي أطفال، لذا أعتقد أن المبلغ سيذهب لسداد قروضه المصرفية".
"أظن ذلك. ولكن المبلغ الذي سندفعه يتخطى ما سيحصل عليه المصرف. وهناك ملكية فندق ياقوت والبيوت الأثرية في قونية...".
ارتسمت ابتسامة طفولية عريضة على شفتي مينان، وقال بسرور بعد أن خطرت الفكرة بباله للتو: "لماذا لا تقولين ما يجول في فكرك بكل صراحة... كل المبلغ سيذهب إلى عزت أفندي، وسيتركه هو بدوره لمتحف المولوية. سوف تستفيد إدارة الضريح استفادة عظمى من هذا المبلغ".
خامرني شك في أن سايمون لن يسرّ لدى سماعه هذا الكلام، ولكنني لأول مرة شعرت بالسرور لأنّه يتوجب على شركتنا أن تدفع. ولكن، ماذا عن الرجل المسن؟ ترى، هل سيسر من النتيجة التي آلت إليها الأمور؟ أيقنت أن ذلك لن يغير من حقيقة أنه فقد ابنه رغم أنه ابن عاق.
سألته بقلق قائلة: "هل أعلم أحد ما عزت أفندي بما جرى لابنه؟ هل يعرف أن ضياء قد مات؟".
قال مينان بتوتر: "لا تذكريني بما حدث من فضلك يا سيدة غرينوود. فقد سمعنا الخبر معاً؛ حين كنا عند المحامين نناقش مسألة التبرع ببيته للمتحف. وحالما سمعنا الخبر، انهار الرجل المسكين فظننته سيموت. بالكاد تمكنا من إيصاله إلى المستشفى في الوقت المناسب، ولكن حالته لا تزال متدهورة. لا أعرف كيف سيتعافى من هذه الصدمة. لم يكن الأب وابنه على وفاق، ولكنّ عزّت أفندي خسر ابنه الوحيد".
أوشك مينان أن يقول شيئاً آخر، ولكن هاتفاً رن وقاطع حديثه. أدركت أن هاتفي هو الذي يرنّ، فنظرت حولي، ولكنني لم أجده. سمعت الصوت صادراً من مكان ما قربي، فألقيت نظرة خاطفة نحو الخزانة الخشبية إلى

يسار سريري، ولكن مينان انتبه لذلك قبلي ونهض متوجهاً إلى هناك.
أرشدته قائلة: "لا بد أنه في حقيبتي. إن وجدت الحقيبة هناك، فألقِ نظرة داخلها".
ولكن مينان أخذ الحقيبة وسلمني إياها بدلاً من ذلك. ولا بد أنه شعر بعدم الارتياح لفكرة التنقيب داخل حقيبتي.
شكرته وبحثت داخل الحقيبة بنفسي، وأخرجت الهاتف الذي ظل يرن بإلحاح.
قلت بفزع: "إنها أمي. ترى، هل عرفت بشأن الحادث؟".
بدا مستاء وكأنه السبب في ما جرى، وقال: "لست أدري يا سيدة غرينوود. لم أتحدث إلى والدتك. ربما تكون إدارة المستشفى قد فعلت ذلك...".
لم يكن من عادة والدتي أن تلحّ هكذا. وقبل أن أرد على المكالمة، أخذت نفساً عميقاً، بينما راح مينان يراقبني بقلق.
"بعد إذنك يا سيدة غرينوود، سوف أنصرف".
"بكل تأكيد. شكراً لك مجدداً على كل ما فعلته لي. عد إلى البيت، يمكنني أن أتولى الأمور من هنا".
ظل يرمقني بعينيه الخضراوين بنظرة شك، فأصررت عليه قائلة: "لا تقلق هكذا. إن احتجت إلى أي شيء، فأنا أعدك بأن تكون أول من أتصل به".
ولكنه ظل مسمراً في مكانه إلى أن اعترضت على مكوثه مازحة: "هيا تفضل. لا يمكنني أن أرد على المكالمة بوجودك هنا".
"ستتصلين بي إن حدث أي شيء...".
"نعم، تصبح على خير الآن".
غادر مينان الغرفة، فرددت على المكالمة وقلت متظاهرة بالعفوية: "مرحباً. كيف حالك يا أمي؟".
سألتني بكآبة قائلة: "ما الذي أخرك كل هذا الوقت؟".
ها نحن ذا! لقد اكتشفت أمي أمر الحادث. من يدري كم فزعت المسكينة عندما سمعت أن شخصين قد لقيا حتفهما في الحادث؟
قالت لي بتردد: "لديّ خبر أريد أن أطلعك عليه يا كارين. ولكن، من المهم أن تتمالكي أعصابك".
فوجئت عندما تبيّن لي أن الموضوع لا علاقة له بالحادث.
سألتها بانفعال قائلة: "ماذا؟ ما الأمر؟ هل هناك خطب ما؟".
قالت لي: "يجب أن تتحلي بالهدوء يا كارين. حاولي أن تتحلي بالقوة". ولكنني وجدتها مستاءة.

"ماذا جرى يا أمي؟ إنك تفزعينني".
أخذت نفساً عميقاً وقالت: "أصغي إليّ. قبل قليل، تلقيت مكالمة هاتفية من باكستان". أخذ صوت أمي يتهدج وهي تتابع: "إنها مكالمة من شاه نسيم. اتصل ليخبرني عن والدك. إنه... لقد توفي والدك يا عزيزتي". لم تستطع أن تسيطر على نفسها أكثر من ذلك وأجهشت بالبكاء.
جلست بلا حراك والهاتف على أذني، وتخيلت وجه أبي المضيء وهو يدور حول نفسه مؤدياً الرقصة الدائرية، وهذا ربما ما منعني من الإصابة بالصدمة. آلمني سماع ذلك الخبر بكل تأكيد، ولكنني في الوقت نفسه لم أشعر أنني ممزقة من فرط الألم. فلا بد أن والدي بات راضياً الآن لأنه عاش كما أراد أن يعيش، ومات كما أراد أن يموت. ورغم أنني اكتسبت شعوري هذا من مجرد حلم راودني، إلا أنني صدقته. فقد شعرت أنني ملزمة بتصديقه. وللسبب نفسه، بدأت أميل أكثر لتصديق أحلامي عندما سمعت خبر موت والدي، وتحديداً بعد أن رأيته في حلمي يتحرر من أغلاله ليؤدي رقصته. لم يعد هناك ما يجعلني أشعر أنني محطمة من فرط الألم. فقد بات والدي يرقد الآن بسلام.
سألت أمي عندما هدأت قليلاً: "كيف حدث هذا؟".
"لقد قصف الأمريكيون قرية في شمال وزيرستان، فتعرض مأوى الدراويش الذي يعيش فيه والدك وشاه نسيم للدمار. مات سبعة أشخاص، بينما جرح عدد كبير من الناس، ومن بينهم بويراز الذي أمضى شهراً في المستشفى قبل أن يفارق الحياة".
صحت بعد أن سيطر الغضب عليّ فجأة: "ولماذا لم يتصل بنا شاه نسيم قبل ذلك؟".
"لم يسمح له والدك بذلك، فهو لم يكن يريد أن يقلقنا. من الواضح أنه عانى من ألم مبرح وأراد له أن ينتهي، ولكن معاناته لم تنته بسهولة. وأخيراً، فارق الحياة اليوم فقط. يقول شاه نسيم إن رياحاً باردة هبت من الشمال. سمعها بويراز وهي تصفر فابتهج وتمتم قائلاً: ما جلبني إلى هنا هو ما سيحملني معه ويرحل مرة أخرى. وأغمض عينيه وهو يصغي إلى الجلبة المتصاعدة. يقول شاه نسيم إنه لفظ آخر أنفاسه مبتسماً".
قلت محاولة التخفيف عنها: "حسناً، إن هذا يشكل بعض التعزية. فلا أحد يموت سعيداً".
"أتمنى وحسب لو لم يعانِ من تلك الآلام".
"وأنا كذلك. ولكن، حاولي أن تتذكري أنه عانى كثيراً ليمنعنا من الشعور

بالحزن حتى آخر نفس من أنفاس حياته".
"هذا ما فعله، أليس كذلك؟ تكتم والدك على خبر تعرضه للإصابة لأنه أراد أن يجنبنا سماع هذا الخبر المحزن". وبدأ صوتها يتهدج، وأوشكت أن تنهار وتجهش بالبكاء مرة أخرى.
"بالطبع، هذا ما حدث. فقد أراد أن يكمل رحلته وحده من دون أن يشكل عبئاً على أحد". أدركت أنها رفضت التفكير بالخيار الآخر، وهو أنه لم يأبه لأمرنا.
سألتها لأشتت انتباهها: "متى ستقام الجنازة؟ متى سنقيم المراسم؟".
"لا توجد مراسم يا عزيزتي. فقد طلب والدك من شاه نسيم أن يعده بألاّ يخبر أحداً عن مكان دفنه. لا أعرف. ما رأيك؟ أينبغي علينا أن نذهب إلى باكستان ونعيده إلى هنا؟".
"كلا يا أمي. يجب علينا أن نحترم رغباته".
قالت والدتي مستعيدة هدوءها: "بكل تأكيد. إنك محقة. لطالما قال والدك إن الجسد غير مهم، وإن ما يهم بالنسبة له هو الروح".
"ستبقى روحه معنا دائماً يا أمي".
"لست أدري ما سيحل بروحه، ولكن ذكراه على الأقل ستبقى".
ودعنا بعضنا وأنهينا المكالمة. استندت إلى الوراء واستغرقت في التفكير. ترى، من كان والدي؟ هل اختار أسلوب حياته هذا لأن القدر هو الذي دفعه في ذلك الطريق؟ هل كان يضمر لي ولوالدتي الكثير من الحب؟ هل وقع أسيراً لحيرته بين عائلته ومعتقداته كما رأيت في حلمي؟ قد يكون لدى كل منّا أنا وأمي وشاه نسيم وحتى عزت أفندي آراء مختلفة كل الاختلاف حول هذه الأمور، ولكن هناك شيئاً واحداً سنتفق عليه جميعاً، وهو أن الرياح التي جلبت والدي إلى هنا هي الرياح نفسها التي حملته معها ورحلت بغير رجعة.

"لأن كل طفل أمل جديد"
كانت لا تزال هناك نصف ساعة حتى تبدأ الطائرة عملية هبوطها. نظرت إلى السماء الصافية، ورأيت الشمس القرمزية وهي تغيب في الأفق. وعلى بعد آلاف الأمتار تحتنا، امتدت تجمعات من الغيوم الرقيقة فوق امتداد الأرض البني الداكن. وفجأة، أيقظني شيء ما من تأملاتي. أي رحلة جوية كانت هذه؟ ألقيت نظرة خاطفة نحو المرأة الجالسة بجانبي، ولكنها لم تعد تبدي أي اهتمام بي. فقد تركز نظرها على الشاشة فوقنا؛ محاولة ربما أن تعرف موعد الهبوط. تلفت حولي حائرة، فوجدت المقاعد خلفي شاغرة. التفت إلى الأمام مرة أخرى، إلى حيث جلست الفتاة الشابة وصديقها، فرأيت شعرها الأشقر مختلطاً مع شعره الأسود. ضغطت جبيني على زجاج نافذة الطائرة الصغيرة، وحدقت بفضول إلى الأرض في الأسفل على أمل أن أميز أحد المعالم. ترى، هل هذا المكان يقع في وسط تركيا أم في مسقط رأسي بالجزر البريطانية؟ هل توشك هذه الطائرة على الهبوط في مدينة قونية المشمسة أم في لندن مدينة الضباب؟ فكرت أن أسأل المضيفة عن المكان الذي نطير فوقه في هذه اللحظة، ولكنني لم أعد واثقة من أن إجابتها ستفي بالغرض. لم أعد أدرك إن كان كل شيء مررت به مجرد متاهة متشابكة من الكوابيس والأوهام والأحلام، أم إن كان الحقيقة نفسها. لم أعد أستطيع بعد الآن أن أميّز بين المكان الذي تنتهي فيه الخيالات، وذاك الذي تبدأ فيه الحياة الواقعية. ترى، هل ظهر لي فعلاً شمس بلحمه ودمه أم بروحه فقط؟ هل رأيت أبي وتصالحت معه؟ هل تحرر من قيوده ليؤدي رقصته الدائرية؟ هل فارق الحياة فعلاً؟ لم أعد واثقة من أي شيء، ولكن المثير للاستغراب أن تلك الفكرة لم تعد تقلقني بعد الآن. فقد غمرني سلام عميق ونعيم حقيقي. نعم، أدركت أن جهلي نعمة، وأن قلة فهمي سلام لروحي وعقلي. وشعرت بالرضى لقدرتي على الشعور بالأشياء بدلاً من إرهاق عقلي بالتفكير بها. ليس من الأفضل دائماً أن يعرف المرء الحقيقة، فالفهم لا يمنح صاحبه الرضى على الدوام. قد يغذي كشف الألغاز العقل، ولكنه ليس مريحاً للروح. وضعت يدي على بطني وحاولت أن أشعر بالطفل الذي لا يزال الوقت مبكراً على وصوله إلى مرحلة تصبح فيها حركته واضحة. لم أستطع أن أشعر به، ولكنني أدركت أنه موجود على أية حال. في الواقع، إن وجود طفلي هو الأمر الوحيد الذي كنت واثقة منه؛ ذلك الطفل الذي يواصل نموه في داخلي بمرور كل دقيقة، ومع

كل نبضة من نبضات قلبي، وكل رمشة ترمشها عيناي، وكل نفس آخذه... لقد كان حقيقياً وصادقاً فعلاً، ليس ذلك وحسب، بل كان أكثر غموضاً وجمالاً وإثارة من أي حلم أو سر. لقد اتخذت قراري، وسأحتفظ بهذا الطفل. ومهما يكن ما قاله الدرويش الغامض في أحلامي، أدركت أن أمي محقة. فإن كانت هناك أعجوبة يمكن للمرء أن يحاول تحقيقها بيديه، فهي إنجاب طفل إلى هذا العالم، ومنحه نعمة الحياة، والإسهام في استمرار وجود البشر على كوكبنا؛ لأن كل طفل أمل جديد. ومهما بدت الحياة قاسية، ومهما ارتكب البشر من شرور، فهم الوحيدون القادرون على إنقاذ أنفسهم من شر أنفسهم.

النهايــــة